تاريخ أوروبا الشرقية

تأليف

فلاديمير تيسمانيانو

ترجمة

أمل رواش

الهيئة المصرية العامة لل
١٩٩٦

تاريخ أوربّا الشرقيّة

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام
د. سمير سرحان
رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير
احمد صليحة

سكرتير التحرير
عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى
علياء أبو شادى

الفهــــرس

مقـــدمة

« ان الشر جزء من تجربتنا • وقد شـهد منه جيلنا ما يكفى لنفهم الرسالة ونأخذها على محمل الجد التام »

لتسيك كولاكفسكى

Lezek Kolakowski

ان هذا الكتاب محاولة لشرح أصول وآليات أحد أهم أحداث هذا القرن وهو سقوط الأنظمة الشيوعية فى أوربا الشرقيـــة (١) ، وتناول هذا الحدث سيتجاوز مجرد التوصيف التاريخى ، ذلك لأن هذا الكتاب تم والأحداث لا تزال فى بدايتها ولم تتكشف للعيان بعد ، ومن ثم أصبح المؤلف كما أسماه ريمون آرون Raymon Aron شـاهـد عيان عليها .

ان المرء عندما يتناول ظاهرة التوتاليتارية (٢) Totalitarianism لا يستطيع ــ كما تعلمنا عن البيـر كامى Albert Camus وهانا آرنديت Hannah Arendet ، أو فاتيسلاف هافيـل Vaclave Havel ــ أن يتعـامل معهـا متجـردا من مشـــاعره ، فاذا اعتبـرنا المـواكب الضـخمة التى يقيمها شارشيسكو تعـــد دليـــلا عن اسـتقرار نظـــامه ، فان ذلك يعـد بعـدا عن الموضـــوعية ، اذ أن هـذه المواكب لم تـكن ســوى منـــاورات لتجنب الانـزلاق فى الصراعـات ، بل لقـــد كانت نوعـا من التدريبات على القيادة العسكرية ومن ثم ، فان البعد عن الموضوعية لن يفيد ما نطرحه من بحث وتحليـــل ، بل على العكس قد يفقـد البحث مصداقيته .

والشيوعية لا تعد مجرد مجموعة من الأنظمة السياسية أو شكل من الأشكال المتعددة للأنظمة الديكتاتورية التى عاشتها البشرية منـذ الأزمان الغابرة والى الآن ، بل انهـا فريدة فى محاولتها لقولبـة العقـل البشرى ، بل وفريدة فى مسعاها لاخضاع الشعب لنظـــام صـــارم واجبـــاره على التصرف وفقا لوصفات الســـعادة البافلوفيـة (٣) Pavlovian • وبالمقـــارنة بكتـابى السابق « فى رثاء الماركسـية فى أوربا الشرقية » (٤) فقد قصدت هنا أن أكون أقل ذاتية . وقد علمتنى

سنوات الدراسة الأكاديمية فى أمريكا ان أنقل الرسالة على نحو اقرب ما يكون الى الحقائق والظروف الواقعة بالمفصل ، وقد وضح ذلك حداً للعبء النفسى الذى وقع على كما جعلنى أتحرر من مشاعرى الذاتية الى حد كبير ، ومن ثم فاننى آمل أن يضفى ذلك على كتابى منطقا وقوة .

وقد استعنت كى أتم هذا الكتاب بالعديد من المصادر الأساسية عن الحركات الديمقراطية الأوروبية الشرقية . وهنا اهتنانى الخاص للمركز الصحفى لشرق أوربا فى لندن East European Reporter وكذلك لمركز التحرر الفكرى فى نيويورك uncaptive Minds لما بذل من جهد حتى يتمكن القراء الغربيون من متابعة التغيرات التى اجتاحت الاتحاد السوفيتى السابق . وقد ترددت على المنطقة فى تلك الآونة سنة ١٩٨٩ واستطعت مقابلة العديد من الذين لعبوا أدوارا رئيسية فى تلك الأحداث الدراماتيكية التى أخذت فى التفاقم . وكذلك ناقشت مع زملائى معظم الفروض التى طرحتها كتفسير للأحداث ، وخلال السنوات الأخيرة أصبحت هذه الفروض موضوعات لمحاضراتى فى جامعتى بنسلفانيا وميرلاند (كلية بارك) ـ وقد شاركنى الطلاب فى محاولة تفسير هذه الأحداث مستخدمين منهجا علميا مما جعل تحليلاتهم أقرب ما يكون الى الاعجاز .

ولابد أن أعترف هنا أن معالجتى لهذا الحدث تختلف فى بعض الوجوه عن الاتجاه السائد فى الأعمال التى تناولت الشيوعية بالدراسة والتحليل ، اذ أننى ظللت سنوات طويلة على اقتناع ـ وآمل أن أكون محقاً ـ بأن دراسة التكتلات الشيوعية هى فى واقع الأمر مجرد ندفة فى مجال الدراسات الشيوعية المقارنة ، بل ان ما تتم دراسته من تلك التكتلات ربما لا يكون بالضرورة أكثرها مغزى ودلالة . وقد بدا لى أن التركيز على المبادرة الثقافية والاجتماعية التلقائية التى قامت بها الجماهير والتى تعد ـ بلغة السلطة ـ النواة الأقل ظهورا وتأثيرا ، هى الأهم اذا ما رغبنا فى دراسة وفهم هذه المجتمعات . وأذكر جيدا أننى عندما تناولت المشكلات التى تواجه الشيوعية فى المجتمع المدنى الناشىء فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، فان أكثر من زميل تشكك فى أهمية ما أقوم به ، اذ كيف يتأتى للنويات المدنية الصغيرة المستقلة أن تؤثر فى واقع سياسى خاضع لسيطرة حكومة مطلقة السلطة مثلما هو الحال فى ظل نظام اريك هونكر ؟

وبالنسبة للمجر ، فان كثيرين اعتقدوا بأن الكادارية Kadarism التى بشرت برؤية مستنيرة لمسألة السلطة المطلقة للدولة (الفاشية) والتى عرفت « باشتراكية النجانس gulash socialism » يمكن أن تصمد لوقت طويل · وفي هذا الصدد كان أنصار مدرسة بودابست Budapist school استثناء · بل ان بعض المنشقين أنفسهم مثل ميكلوس هراتس Miklos Haraszti فى كتابه «السجن المخملى The Velvet Prison » وصف الحركات المنشقة على السلطة الشيوعية بأنها نماذج رومانتيكية للسذاجة السياسية ·

وما زلت اذكر بوضوع النقد الودى الذى وجهه لى أحد الأساتذة البريطانيين المتميزين فى مجال الدراسات الكلاسيكية حول الشيوعية الرومانية اذ سألنى مرة اذا كنت أعتقد حقيقة بأن أفكار المنشقين أمثال ميهاى بوتتس Mihai Botez وبول جوما Paul Goma ودان بيترتشيسكو Dan petrescu ودورين تيودوران Dorin Tudoran تستحق هذا الاهتمام الكبير · وهل كنا نتصور فى ظل حكومة شوشيسكو أن يستطيع هؤلاء شيئا أكثر من أن يجسدوا فشل ذلك النظام الذى يعتبر من أكثر الأنظمة السياسية التى عرفتها أوربا الشرقية دكتاتورية وجمودا منذ نظام ستالين ؟ ولا ادعى أن تحليلى هو التحليل الوحيد المناسب أو الصحيح · وعلى أية حال فان تكتلات الشيوعيين قد أخلت الساحة الآن لتترك المسرح السياسى فى هذه البلدان لتلك الرموز التى ظلت تناوىء النظام لفترة طويلة · فمن كان يتوقع بأن مكان كادار سوف يأخذه مؤرخ نكرة متخصص فى تاريخ الطب يدعى جوزيف انتال Jozef Antal ؟ من كان يظن أن الحزب الحاكم فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية سوف يتخلى بارادته عن السلطة لمعارضيه من الرسامين والفيزيائيين والقساوسة البروتستنت الذين رفضوا هذه النظم الدموية وتحولوا لحركات تدعو للسلام ومعاداة التسلح ؟ .

ومن كان يتصور أن جاروزلسكى Joruzelski الجنرال الصارم المعروف والذى حكم البلاد بالقوانين العسكرية (٥) فى ديسمبر سنة ١٩٨١ واعتقل النخبة الحداثية من المعارضين البولنديين سيصافح خصمه اللدود ليخ فاونسا Lechwansa مؤكدا على الانتقال التدريجى للديمقراطية ·

أما دور ميخائيل جورباتشوف فى تشجيعه لما يحدث من تغيير ثورى فى البلدان التى سميت — بحق — الامبراطورية الخارجية للاتحاد السوفيتى فيظل هو التحدى الحقيقى لكل الشروح والتفسيرات المتضاربة حول هذا الموضوع .

وقد خلق هذا التبدل الاستراتيجى الذى طرأ على علاقات الحكومة السوفيتية بجيرانها واقعا سياسيا جديداً . وباستثناء البانيا Albania ورومانيا Romania ، وصربيا Serbia ، فان دول أوربا الشرقية لم تعد تركض لاهثة وراء بريق البيروقراطيات الحكومية الشيوعية بشكلها التقليدى وبدلا من ذلك بزغت اشكال سياسية جديدة وجدت فى المعالجات الفلسفية التى تخص أوربا الشرقية مصادر الهام لايجاد حلول لقضايا مثل المجتمع أو الحياة العامة والحقوق المدنية . وكان حل حلف وارسو (٦) أثناء قمة براغ يوليو ١٩٩١ يعد بمثابة اعلان لنهاية الحلفاء المحافظين وبداية عهد جديد للعلاقات السوفيتية الشرق أوربية ، وكذلك للعلاقات التى بين دول أوربا الشرقية بعضها البعض . واختفى ظل الأخ الأكبر Big Brother وبات لزاما على الدول الصغيرة والمتوسطة فى المنطقة أن تتأقلم مع واقعها الجديد .

وبدا أن التهديد السوفيتى بالتدخل لسحق كل الحركات الديمقراطية المحلية فى أوربا الشرقية قد أصبح مع مرور الوقت عديم القيمة بل لا وجود له . وفى الوقت الحاضر فان هذه البلدان تواجه ما لا يعد ولا يحصى من النزاعات الداخلية والمآزق التى يتعذر حلها ، وفى بعض هذه البلدان قامت الأقليات العرقية بشجب الاضطهاد الذى تتعرض له على أيدى الغالبية السكانية (٧) .

ففى كوسوفو Kosovo المقاطعة المستقلة فى الجمهورية الصربية بيوجسلافيا ، تعانى الغالبية الألبانية من سياسة التمييز العنصرى التى تأخذ بها الحكومة الصربية . وفى رومانيا لم تسع الحكومة الى تأمين الحماية للأقلية المجرية بل شجعت وبقوة الحركة القومية التى تدعى فاترا رومنسيكا Vatra Romaneasca (٨) .

ومازالت جراح الماضى بكل تلك البلدان تدمى ولم تمدها الديمقراطيات الجديدة التى أخذت فى التشكل حديثا الا بمجرد وصايا ونصائح أخلاقية لا أكثر .

وهذا ليس تقييما مفرطا فى التشاؤم ولكنه مجرد وصف موضوعى للموقف .

ولأن النظم الاقتصادية لهذه الدول استمرت فى التدهور واستمر تجمع سحب التذمر فى الأفق فان صيحات الندم على الطريقة الأبوية الموروثة للأنظمة الشيوعية بدات تسمع هنا وهناك . نعم كانت هذه

الدول تعانى من الفقر تحت وطأة الحلم الشيوعى الا أن البعض كان يقول انه يكفى أن كل واحد منا لديه وظيفة ، وليست هناك فوضوية فى الطبقات الوسطى للمجتمع . وقد حاول بعض الديماجوجيين بما فيهم الشيوعيين السابقين أن يثيروا البلبلة بين الجماهير ، وقد يحاولون ذلك ثانية .

ويبدو أن تشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندا قد بدءوا بعد عام ١٩٨٩ يخطون بقوة وثبات على طريق المجتمع المفتوح . وفى هذه الدول تعمل البرلمانات بشكل أو بآخر كهيئات شرعية مسئولة . وقد ظهرت خلافات سياسية كبيرة ، كما ظهرت احزاب متعددة تعبر عن اهتمامات جماعات شتى . وبفضل الخصخصة التى أخذت فى الانتشار بسرعة فان الطبقة الوسطى من التكنوقراط والمقاولين اخذت فى التشكل . والآن يقع على النخبة السياسية الملتزمة بالتعددية والسوق الحرة عبء التطوير المنظم لهذا التحول . وبصرف النظر عن احتمال الانتكاس فان هذه البلدان على الأرجح سوف تلحق — ان آجلا أو عاجلا — بالاندماج الأوربى الغربى بما فى ذلك الوحدة الاقتصادية الأوربية ويصعب قول نفس الشىء عن ألبانيا ورومانيا ويوجوسلافيا ، اذ أن كل ما يمكن أن يراه المرء هو التجزؤ والتفتيت المستمرين للجسد السياسى وكذلك الصراع اللانهائى ، والأمل مازال ضعيفا فى احراز اتفاق قومى . وتقف بلغاريا — الى حد ما — فى منتصف الطريق اذ أن قواها الديمقراطية مازالت مبعثرة الا أن شمس حزبها الشيوعى السابق آخذة فى الأفول حيث فقد رغبته فى استرداد نفوذه وجماهيريته ، كما يشير التوازن الجديد فى المنطقة الى الفجوة التى ما فتئت تتسع بين دول قلب أوربا الشرقية وجمهورية ألمانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفاكيا وبولندا وبلغاريا ، والبقية الأخرى من دول أوربا الشرقية والتى يمكن ان تؤدى على المدى البعيد الى عزلة بقية دول « البلقان » عن أوربا واقتصادها وعلاج هذا هو التعجيل بالتحول الديمقراطى فى أوربا الشرقية وتطوير الحركات الشعبية القوية ، التى يمكن فى المقابل أن تساعد فى بزوغ أحزاب ديمقراطية قوية ، ومن ناحية أخرى فان المستقبل ربما يبشر بأوربتين : واحدة مزدهرة وديمقراطية وغير متعصبة ضد الأقليات السياسية والعرقية أما الأخرى فستكون فقيرة ، خانعة ، يصيبها وباء الشوفينية (٩) والصراعات الأهلية العرقية ومهددة بأنواع جديدة من الدكتاتوريات .

وعلى الغرب الا يتجاهل هذا الخطر القادم ، ولا يمكن لدول البلقان - ولا يجب - أن تعزل كمنطقة مريضة أو كمنطقة لا يمكن القيام فيها بشيء من أجل تسهيل الانتقال الى الديمقراطية . وفى كل هذه الدول قامت حركات جريئة تؤيد وبقوة الحركات الديمقراطية ، ويجب أن يشعروا بأن الغرب موطد العزم على مساندتهم وتقديم كل عون لهم .

ويستخدم هذا الكتاب منهج المقارنة لتحديد أسباب تفكك الأنظمة الشيوعية فى أوربا الشرقية (البانيا ، بلغاريا ، تشيكوسلوفاكيا ، المانيا الشرقية ، المجر ، بولندا ، رومانيا ، يوجوسلافيا) ، وما آل اليه الوضع الراهن من صحوة سياسية سادت هذه المنطقة ، وتوقعات التطور الديمقراطى فى المستقبل المنظور . واعتقد أن القوى الديمقراطية تستطيع أن تكسب الساحة السياسية عما قريب ، رغم العقبات الكؤود التى تقف فى طريق التعددية الحقيقية .

وآمل أن يمد كتابى هذا الدارسين لأوربا الشرقية بقدر مفصل عن التغيرات المذهلة فى السنوات القادمة وامدادهم باطار تحليلى للتحولات السياسية المنظورة . وتعد هذه محاولة رائدة لكتابة واحد من اكثر فصول التاريخ الحديث فتنة واثارة وهو سقوط الأنظمة الشيوعية فى الامبراطورية الخارجية للاتحاد السوفيتى وحل مؤسساتها السياسية والاقتصادية التى كانت تضمن بقاء البنى الشيوعية ، وكذلك اعادة اكتشاف انظمة سياسية جديدة فى الدول التى داست تحت اقدامها الفكرة الخاصة بمنح مواطنيها جميعا مطلق الحرية ، هذا اذا ما أخذنا فى الاعتبار الندرة الملفتة للنظر لمثل هذه المعالجات الجامعة تاريخيا وسوسيولوجيا وسياسيا . وكان لهذه التطورات أكثر من مغزى واضح ، اذ اقتضت استدعاء مفاهيم مغايرة جديدة والبحث عن أفكار ونظريات ستقر الشكل النهائى لمثل هذه التغيرات ، وسوف تكتسب مصطلحات مثل السلطة ، الشرعية ، الهيمنة ، القيادة ، القوة ، المجتمع دلالات تختلف عن تلك التى كانت لها فى العقود الماضية .

هل ستتطابق الديمقراطية الشيوعية القادمة مع النماذج الغربية الخاصة بالتعددية ؟ وما هو الارث الذى خلفته اكثر من أربعة عقود

من اللينينية على العقل الأوربى الشرقى ؟ وكيف يمكن للسياسات الوليدة فى أوربا الشرقية أن تؤثر على بقية أوربا والعالم ؟ هل سيكون للأزمات المحتملة فى المنطقة مضامين ودلالات دولية ؟ ما هو حجم الاستقرار الذى سيتوفر لهذه البلدان اذا ما تلقت هذه السياسات الدعم والمساندة من الغرب ؟ هذه كلها أسئلة سنجتهد فى ايجاد اجابات لها .

والفرض الرئيسى الذى يطرحه هذا الكتاب هو أن أسباب الاجتياح الثورى لأوربا الشرقية ترجع فى المقام الأول لأسباب داخلية. والسبب الأساسى هو تفاقم ونضج المجتمعات المدنية فى بلاد طالت سيطرة الأحزاب اللينينية المستبدة عليها ، فالمجتمع المدنى يشكل الجماعات غير الحكومية المستقلة ، والاتحادات ، والمؤسسات التى قامت فى أوربا الشرقية فى السنوات الأخيرة خاصة فى عام ١٩٨٠ وهذا يرجع فى المقام الأول لوجود مثل هذه البنى التى أسماها الفيلسوف التشيكى فايتسلاف بندا **Vaclave Benda** ذات مرة « الدولة المدنية المتوازنة » تلك البنى التى يمكن أن يثمر اختراقها عن تغيير بطىء بعيداً عن العنف ، ولبعض هذه الأحزاب أنشطة سياسية وبعضها الآخر بعيد عن السياسة ، على أنهم جميعا يمثلون تحديا ضمنيا للطموح الاستبدادى لليد التى تقبض على المجتمع كله وسيفى مثال واحد بالغرض : ففى النظم السياسية المفرطة فى المركزية ترتكز السلطة فى يد الحزب الشيوعى (اذ أن احتكار السلطة مكفول له دستوريا) ، ولا يصبح المجال مفتوحا أمام المبادرات المستقلة ، لذلك كان قيام المجتمع المدنى الخطوة الأولى للتخلص من هذه الستارة الحديدية أى مناهضة نظام الحزب الشيوعى ، وبفضل تلك المعالجة لهذا التغيير السياسى أقرت استراتيجية لبناء مؤسسات مثل النقابات والاتحادات والجامعات المفتوحة والأندية فى مواجهة مؤسسات الدولة ، أو حتى لبناء ثقافات مضادة لبلدان مثل تشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندا .

وتصاعد مثل هذه الحركات الجديدة لا يمكن ان ينفصل عن المؤثرات الدولية الأخرى ومنها ثورة الاتصالات ، والتدفق المستمر والحر للمعلومات اثر عملية (١٠) هلسنكى **Helsinki** وتنامى الضغوط من الغرب من أجل ديمقراطية حرة ، وتزايد الترابط بين الجماعات المستقلةفىأوربا الشرقية بنظيراتها فى أوروبا الغربية [جماعات السلم والبيئة] .

واضافة للحركات التى يصعد نجمها ، فان الانتقال الى ما بعد الشيوعية يتسارع تدريجيا وبوضوح مع الانهيار الواضح للانظمة الاقتصادية المهيمنة • واتاحت ثورة المعلومات الفرصة للشعوب بشرق أوربا كى يكونوا على دراية بالهوة الشاسعة بين مستويات معيشتهم ومثيلاتها فى النصف الآخر من القارة الأوربية . ولم تستطع الحكومات بدورها أن تقدم لشعوبها سوى معالجات تجميلية لا اكثر مع مشاركة محدودة لعامة الشعب فى الحكم . وكثيراً ما سافر البيروقراطيون أنفسهم للغرب وهناك يدركون أن القضية ليست مجرد الالتزام باقتصاد مخطط بل القضية هى التخلص من آليات هذا الاقتصاد المقيد . ولم تكن الرغبة فى التحرر من وهم اللينينية يتفشى بين المحكومين فقط ، بل والحكام ايضا . وما استتبع ذلك هو تبخر تام للحماسة الايديولوجية وظهور طبقة ادارية كان شاغلها الوحيد هو البقاء فى السلطة . وساهمت نهاية أسطورة الشيوعية فى سقوط المبدأ الخاص بمسألة الشرعية . ووفقا للأيديولوجيا اللينينية فان الشيوعيين يمثلون مصالح العمال . ولم يعد هذا الزيف قادرا على الحشد والتعبئة خاصة بعد ظهور منظمة تضامن Solidarity فى بولندا ، وفى بعض هذه البلدان كان لهؤلاء المصلحين الأغلبية داخل الأحزاب الشيوعية فغيروا برامجها ، وطالبوا بدمج ما هو موجود فى المجتمعات الغربية من مبادىء ديمقراطية • وفى رومانيا أدى انفجار السخط الاجتماعى الى التخلص من حكم شاوشيسكو ، الا أن ذلك لم يؤد بالضرورة الى سقوط الشيوعية . ويركز هذا الكتاب على الصراعات الثقافية داخل التكتلات الشيوعية ، وكيفية احكام الائتلافات قبضتها على المجتمع كله . ولأن هذه الأحزاب الشيوعية استمدت شرعيتها — الى حد كبير — من علاقتها الخاصة بموسكو ، فانه من المهم التركيز على أثر دور جورباتشوف ولفت الانتباه الى التفاعل الحادث بين التغير فى الاتحاد السوفيتى والتجديد الديمقراطى فى أوربا الشرقية .

ويركز الكتاب على خمس اطروحات رئيسية ليست بالجامعة أو الشاملة ، ولكنها على أية حال تعطى فكرة عن الفروض الرئيسية لهذه المعالجة التى تهدف الى تجنب مزالق السرد القصصى أو الوصف المثالى .

والاطروحة الأولى « الشيوعية فى أوربا الشرقية » وهى مقال تاريخى فى المقام الأول .

وتبحث فى تنوع التقاليد فى أوربا الشرقية قبل الشيوعية ونشأة

الأنظمة الشيوعية عقب الحرب العالمية الثانية ، والآليــة الخــاصة بالكتلة السوفيتية ثم ستالينية نيكيتا خروتشوف Nikita Khrushchev التى أجهضت ، ثم الكوارث الرئيسية فى تاريخ الكتــلة الشــرقية فى [يوجوسلافيا فى عام ١٩٤٨ ، والمجر ١٩٥١ ، تشيكوسلوفاكيا ١٩٦٨ ، وبولندا فى ١٩٨٠] . كما يتضمن هذا الفصل أيضا ثورة العــلاقات السوفيتية / الشرق أوربية وأثر الانتقال السوفيتى من مرحلة برجنيف التى اتسمت « بالجمود » الى بروسترويكا / جورباتشوف ، و « التفكير الجديد » بصدد العلاقات الدولية .

وهنا كانت المحاولة لتبصير القارىء بالنقاط التى لهــا دلالــة ومغزى فى تاريخ أوربا الشرقية فيما بعد الحرب العالمية الثانية .

الأطروحة الثانية « المجتمع المدنى الصاعد » تمدنا برؤية مقارنة للاستراتيجيات والسبل التى انتهجتها الحركات المستقلة [تضامــن بولندا ، ميثاق ٧٧ التشيكى اليوجوسلافى ، المعــارضة الديمقــراطية المجرية] وكذلك يمدنا بتحليل لكيفية ظهور هذه الجماعات فى ظروف قمعية سادت الفترة التى تلت النظام الستاليفى السلطوى .

كما سيتم مناقشة برامج مستنيرة ووثائق سياسية أخرى لتساعد فى تحديد الخيارات النظرية والمحتملة لقوى المعارضة . وللوهلــــة الأولى سيكون من المستحيل بالنسبة للدارسين لأوربا الشرقيـــة أن يفهموا أصول وتوجهات حركات التغيير الجارية دون الرجوع الى مقال فيسلاف هافيل المدوى « **قوة المقهـورين** » . ومع ذلك فان الثـــورة فى أوربا الشرقية أظهرت ما للمقهورين من مقدرة على التغيير والخلــق وشارك الحدث فى جعل العقول الناقدة أمثال هافيل ويانوس كيس Janos Kis وجيــورج كــونرد Gyorg Konard ، وميلوفان جيلاس (١١) Milovain Djilas وليتســـك كولاكفســـكى Leszek Kolakowski وآدام متشــنك Adam Michink تعمل وتبدع .

والاطروحة الثالثة « انتصار المقهورين » ، تتعــرض لآليــات الثورة فى أوربا الشرقية أثنـــاء الاجتيـــاح الثورى سنة ١٩٨٩ وتشرح التفاصيل الواقعية والملموسة التى تفسر أسباب انهــيار وانقســـام الأنظمة الشيوعية . ونجد فى الأحــداث التاريخية الخاصة بكــل دولة والخاصة بالمنطقة ككل اهمية كبرى فى فهم وتفسير هــذه التغيرات . كما يركز هذا المقــال على انتصار منظمة تضامن فى الانتخابات ، وتكوين أول حكومة غير شـــيوعية فى تاريخ أوربا بعد معاهدة يالطا (١٢) .

ونهاية الأوهام الاصلاحية المعتدلة وانتقال المجر الى التعددية ، والأبعاد الدولية والمحلية لكل من « الثورة المعتدلة » بألمانيا الشرقية و « الثورة الناعمة » فى تشيكوسلوفاكيا وانتصار المنبر المدنى Civic forum وصحوة بلغاريا والاطاحة بالديكتاتور تيودور جيفكوف Todor zhivkov والثورة الخاطفة برومانيا ـ وجبهة الخلاص الوطنى National Salvation Front كرمز جديد للحزب الشيوعى ، وانهيار كل أثر لتيتو فى يوجوسلافيا وذلك فى تفاقم الصراعات العرقية وظهور الأحزاب والحركات المنشقة الجديدة ·

والأطروحة الرابعة « مخاض الديمقراطية » تناقش فرص الديمقراطية ببلدان أوربا الشرقية . ومرة أخرى فان المعالجة عن طريق المقارنة تمد القارىء بدراسة عميقة للأيديولوجيات السياسية وظهور الأحزاب الجديدة بالمنطقة ، وهنا نناقش العقبات الجديدة فى طريق التطور الديمقراطى بما فى ذلك جمود البيروقراطية الحكومية والحلول التى تطرحها السلطة الجديدة ووجود الطموحات الشعبية ، وانبعاث المشاعر العرقية التى طال تجاهلها · وقد عبر كينيث جوت Kenneth Jauitt عن ذلك قائلا بأن المستقبل بأوربا الشرقية ليس للأحزاب الديمقراطية المعتدلة ولا الأحزاب الديمقراطية الحرة ، بل من المحتمل أن تمر المنطقة بتجربة قلاقل واضطرابات غير مسبوقة يكمن وراءها « حركات الغضب » الأصولية الحديثة والتى تمت وتأصلت فى جو من اليأس السياسى والاحباطات الاقتصادية ·

والأطروحة الخامسة « ديمقراطية أم عرقية ؟ » تبحث فى أسباب تزايد التوتر بين الأحزاب المستقلة والتى تتخذ موقفا معاديا للغرب ومعاديا للحركات العرقية المتشددة والتجمعات الديمقراطية والأحزاب ذات التوجه الليبرالى . وأود أن أوكد مرة أخرى اقتناعى بأن مستقبل أوربا الشرقية ليس بمستعص على الفهم وأن سقوط الشيوعية فتح أبوابا عديدة جديدة للأمم التى طال خداعها والاحتيال عليها ، وعلى أية حال ، فاننا لا نستطيع أن نتجاهل التغيرات التى تحدث على نحو دراماتيكى فى البلدان التى سلب منها قوتها وخبراتها وما لهذه التغيرات من أثر معنوى على الجماهير الجريحة · ووفقا لما أسماه رالف دورين Ralph Dohren وداع الدموع التاريخى فانها لم تكن تجربة مبهجة تلك التى تكشف المأساة الواقعة فى العديد من البلدان فى المنطقة وذلك مع التقدم البطىء فى عمليتى الاصلاح الاقتصادى والاجتماعى وبدلا من الانتعاشة الاقتصادية المتوقعة فقد طلب من شعوب تلك

البلدان أن يشدوا الحزام على بطونهم اكثر مما سبق . وهذا بدوره خلق فرصا لانتشار الاشاعات ، والدجل ، والتنبـؤات الكاذبـة بين الجماهير .

وأود أخيرا أن اعبر عن شكرى وامتنانى التام لكل هؤلاء الذين قدموا لى يد العون كى يخرج هذا الكتاب الى النور .

فلاديمير تسمانيتو

Vladimir Tismaneanu

واشنطن

١٨ يوليو ١٩٩١

الهوامش

(١) أوربا الشرقية :

تضم بلدان ألمانيا الشرقية والمجر ويوجوسلافيا ورومانيا وبلغاريا وفنلندا وتشيكوسلوفاكيا وأطلق عليها « الشرقية » تمييزا لها عن أوربا الغربية الرأسمالية (المترجمة) ٠

(٢) تعنى التوتاليتارية الشمولية وهى عقيدة سياسية تقضى بأن المواطن لابد أن يكون خاضعا تماما لسلطة الدولة المطلقة (المترجمة) ٠

(٣) البافلوفية :

ترجع هذه التسمية الى الفسيولوجى الروسى ايفان بتروفتش بافلوف (١٨٤٦ ــ ١٩٣٦) وتشير هنا الى نظرية الارتباط الشرطى التى تقول انه اذا ارتبط مؤثران مختلفان بفعل واحد ، فان وقوع أحدهما كفيل باحداث هذا الفعل حتى وان لم يكن المؤثر الأصلى ــ (المترجمة) ٠

(٤) On the fate of Marxism in Eastern Europe (Published by Routledge in 1988).

(٥) قانون عسكرى يطبق على أرض محتلة من قبل القوى العسكرية التى تطلبها الحكومة فى حالة الطوارىء اذا ما فشل القانون المدنى فى الحفاظ على الأمن والنظام وقد أقره ياروزلسكى للسيطرة على المعارضين فى بولندا ــ (المترجمة) ٠

(٦) حلف وارسو :

هو تكتل سياسى اقتصادى بقيادة الاتحاد السوفيتى ، ويضم كل دول أوربا الشرقية الشيوعية ــ (المترجمة) ٠

(٧) **الديمغرافية** : هى علم دراسة السكان وله ثلاثة فروع رئيسية وهى الديمغرافية الكمية ــ الديمغرافية الاقتصادية والاجتماعية ــ دراسة القوانين الديمغرافية ــ (المترجمة)٠

(٨) فترارومنيسكا وتعنى الموقد الرومانى ٠

(٩) **الشوفينية** : تعنى الافراط فى الوطنية وترجع هذه التسمية الى نيكولاشوفين Nicola Shavin (فرنسى الذى عرف بوطنيته المفرطة وانتمائه الشديد لنابليون (المترجمة) ٠

(١٠) عملية هلسنكى :

هى المؤتمر الأوربى للأمن والتعاون الذى أعلن ميثاقا شهيرا صدر فى باريس عام ١٩٩٠ وفيه أعلنت نهاية الحرب الباردة بين القوتين العظميين أمريكا والاتحاد السوفيتى ــ (المترجمة) ٠

(١١) جيلاس ميلوفان

سياسى ومناضل شيوعى ماركسى ومن أبرز المفكرين السياسيين فى يوجسلافيا ــ (المترجمة) ٠

(١٢) معاهدة يالطا (فبراير ١٩٤٥)

تم بموجبها تقسيم المانيا الى ثلاثة أجزاء ، جزء لأمريكا ، وجزء لبريطانيا والثالث لروسيا ٠ وبموجب هذه المعاهدة تدعى فرنسا الى الاشراف على منطقة رابعة (المترجمة)٠

الفصـــل الأول

الضحايا والخارجون على التاريخ

أوربا الشرقية قبل الشيوعية

« ان دول أوربا الشرقية كعائلة مكونة من قوميات صغيرة لهـــا رؤيتها الخاصة عن العالم تلك الرؤية التى ترتكز على ارتيــاب عميق فى التاريخ . التاريخ الذى كان معبود هيجل وماركس والذى يجسد العقل والمنطق ، ذلك التاريخ هو الذى يحكمنا ويتحكم فى مصائرنا ، انه تاريخ الفاتحين ، ولكن شـــعوب دول قلب أوربا ليســوا بفــاتحين . وهـــم لا يستطيعون أن ينفصلوا عن تاريخ اوربا او أن يخرجوا عليه ولكنهم يمثلون الجانب الجائر من التاريخ . انهم ضحاياه والخارجون عليه » .

ميلان كنديرا

Milan Kundera

ان الاجتياح الثورى عام ١٩٨٩ الذى ادى الى انهيار الأنظمـــة الشيوعية المنيعة يعد واحداً من أهم الأحداث التى شـــكلت العـــالم الجديد ، فقد قامت على نحو مفاجىء الانفجارات الاجتماعية والسياسية فى المنطقة ، تلك الانفجارات التى أثبتت عدم استقـــرار الأوضـــاع الشيوعية التى طالت سيطرتها على المنطقـــة . ويعد التحطيم المذهـــل لسور برلين والذى يعد الرمز الوحيد والأكثر جلاء لعملية الفصل بين الشرق والغرب هو الذى ساهم فى هـــذا التغيير الدراماتيكى لأوربـــا السياسية والجغرافية . ونحن لا نبالغ فى مغزى هذا الاجتياح ، اذ تبع هذه الأحداث تغير وجه أوربا . ان تحرر الطاقـــات الاجتمـــاعية والسياسية بأوربا الشرقية من اغلالها ، وكذلك اندلاع نيـــران التعصب العرقى التى طال تجاهلها وانكارها هى ما بهم كل المعنيين ببناء نظام دولى يسوده السلام والرخاء . واذا نجحت هذه الأمم فى الانتقال الى اقتصـــاد السوق ونظـــام التعددية السياسية ، فان ذلك سيكون هو الفائدة الوحيدة التى ستعود على العالم من مثل هذا التطور . واذا لم يحدث فان صراعات من نوع آخـــر ستطل برأسها فى المنطقة التى سادها التوتر

عبر تاريخها الطويل ، بل ان اوربا الشرقية ومستقبل القارة سوف يصبحان نهب الصراعات ، والتوترات ، والنزاعات ، ولابد أن نذكر هنـا أن حربين عالميتين قد اندلعتا من هذه المنطقة ، ولم تستطع الشيوعية خـلال أربعة عقود من الاشتراكية ان تزيل ما خلفته هذه الصراعات من آثار على المنطقة بل على العكس فان هذه الصراعات استمرت فى الوجود تحت القشرة الخارجية الزائفة التى خلقتها آلة الدعاية الماركسية اللينينية • أما الدولية البروليتارية (١) والمجتمع الاشتراكى ، فهى أشياء لم يكن لها وجود الا فى عقول الشيوعيين الدكتاتوريين فقط . وحقيقة ، ان الماضى بتقاليده وذكرياته مازال يثير كلا من الجهود الفردية والجماعية للتخلص من الانظمة التوتاليتارية . ويفيد التمييز بين دول مركز أوربا الشرقية وباقى دولها المحيطة فى توضيح مستويات المعارضـة التى واجهتها الشيوعية • فبلدان مركز أوروبا الشرقية هى تشيكوسلوفاكيا ، المجر ، بولندا ، وجمهورية المانيا الديمقراطية ، أما باقى دولها فهى البانيا ، وبلغاريا ورومانيا ويوجوسلافيا ويعيننا تاريخ هذه الدول بما فيه من عادات دينية وسياسية على فهم آلياتها المختلفة سواء وهى تخضع للحكم الشيوعى أو فى وضعها الراهن ، ولا يمكن للشيوعية أن تمحو أثر التمايزات التى تعمقت فى بلدان تختلف عن بعضها البعض فى تطورها السياسى والاقتصادى والثقافى . وترجع هذه التمايزات الى ان بعض هـذه البـلدان تنتمى الى هابسـبرج (٢) Habspurg — الامبراطورية الألمانية — والبعض الآخر يخضع لهيمنـة الدولـة العثمانية (٣) وروسيا ، أما الجزء البلقانى (٤) فان التطورات السياسية التى وقعت فيه خلال القرن العشرين جاءت قاصرة ومتأخرة . وقـد أقيمت فى مركز أوربا الشرقية مؤسسات تم انشاؤها وفقـا للمفهـوم الشرق أوربى للقانون ومفهوم الحقوق الفردية . وقد كانت مجتمعات شمال أوربا الشرقية متخلفة وهشـة تماما ، ولم تكن للتعددية أسس راسخة اذ كانت تعانى من القلاقل كـما كانت عرضـة للتعـديات والانتهاكات الدكتاتورية ، ويعد التاريخ أداة لا غنى عنها لفهم أبـعاد العقبات التى تقف فى طريق البحث الجارى من أجل اعادة بناء هـذه المنطقة من أوربا على أساس ديمقـراطى • وتعد كل البلدان فى هـذه المنطقة بمثابة بنى حكومية جديدة كما تعـد نتاجا لصحوات قومية عظيمة تميز بها القرن العشرون • وجميعهم يدينـون بشكلهم الحـالى للترتيبـات الدولية التى تلت تحولين هائلين فى هذا القرن . وفى نفس الوقت فان مصطلح « أوربا الشرقية بمعنـاها المطلق سـيبدو لبلدان هذا الجـزء من القارة كمـا لو كان نوعا من التعصب • وقـد ردت ثورات ١٩٨٩

من بين عوامل ومؤثرات أخرى ـــ الهويات الأوربية لهـذه الأمم من جديد . وعندما لجأ الناس في براغ ليبتزج وتيمشوارا Timiswaara وصوفيا Sofia الى الشوارع للاعراب عن احتجاجهم ، فقد فعلوا ذلك ليس لأسباب اقتصادية فقط بل ربما كانت هناك أسباب أكثر أهمية من مجرد أزمة الاقتصاد الاشتراكى منها الاستياء العام ، وانحســار عالم السياسة والاقتصاد داخل ديكتاتوريات بيروقراطية خنقت الناس وسببت لهم التعاسة والاحباط . وكان واضحا أن ما حــدث عقب الحركة النشطة في الشهور التى سبقت الثورة هو عودة للمشاكــل القديمة مثل احتجاج الكرواتيين على سيطرة دولة الصرب عليهــم . وشجب الصرب للحركة الانفصالية التى يقوم بها الكروات والسلوفانيون والاضطهاد العرقى للمجــريين فى رومانيا وشجب انتهــاك حقـوقهم كأقليات ، وكذلك الاضهاد العرقى للاتراك فى بلغاريا والقاء المسئولية على المطالبين بدولة بلغاريا تقتصر على البلغاريين ، وكــذا سخــرية السلوفاك من الرئيس فتســلاف هافيل كبطــل يرمز للتفــوق التشــيكى ، وشجب التشيكيين لقـومية الســلاف الانفصالية ، وبدت الديمقراطية فى هذه البلدان نموذجا مثاليا بالنسبة لما هو حادث فى الواقع . وتسببت الأحزاب الشيوعية السابقة فى أوربا الشرقية فى احياء الشرارة الثورية الأولى ، أما فى قلب أوربا الشرقية فلم يقوموا بتغيير الأسـماء فقط بـل والعادات أيضا وبدا أنهم ينتقلون الى قيم الديمقراطية الاجتماعية . وحدث انقسام داخل المنطقة بين البلدان التى تحطم فيهــا النظــام الشيوعى تماما وبين هؤلاء الذين وقفوا فى مكان ما فى منتصف الطريق مثل حالة رومانيا ، وصربيا وبلغاريا . وباستثناء تشيكوسلوفاكيا فانه لم يكن لدى أى من تلك البلــدان تراث ديمقــراطى ، وفى نفس الوقت لا يجب أن ننسى أن التغيرات الجــارية كانت ضــد فكــرة الوحــدة الأوربية وأن ثمــن التــورط فى أشــكال جــديدة من الســياسات السلطوية تسبب فى عزلة دولية وفى ارتكاب جريمة فى حق الدول التى مازالت تقع تحت خط الفقر والتى شهدت نهاية الشيوعية ، والمنافسة بين الاتجاهين ـــ الطموح العرقى فى مواجهة الطموح الديمقراطى ـــ هو أهم التطورات التى حدثت ابان هزيمة الشيوعيــة . وفى كلمــات الصحفى البــولندى آدم متشــنك الذى يتبنى مبـدأ اسـتخدام القوة لتحقيق الأغراض السياسية حيث يقول :

« الى جانب الصدام القائم بين اختلاف الرؤى الثقافية واختلاف المفاهيم الحضارية تبرز مشكلات ملموسة تطرح العديد من الأسئلة ، مثل : ما هى الطريقة المثلى التى يجب أن تدار بها دفة السياسات ؟

بالطرق الثورية دون اللجوء الى العنف أم باتباع منطق الاجتياح الثورى والتطهير ؟ . أيجب أن تكون المجتمعات مفتوحة أم بالعكس يجب أن تكون مغلقة داخل نظم محددة خاصة بها ؟ أيجب على الأنظمة السياسية أن تبقي على كل الآليات التى تعتمد على الديمقراطية أم على الحفاظ على مبدأ الانتقام من ممثلى النظام السابق ؟ وبمعنى آخر هل يجب أن يتخذ الطريق الذى اتخذته اسبانيا بعد أن تخلصت من حكم فرانكو Franco أم الطريق الذى اتخذته ايران حال تخلصها من الديكتاتور شاه الى آيات الله ؟)) (٥) .

ولأن دول شرق أوربا لعبت أدوارا مهمة على الساحة الدولية فان مستقبلها غير مؤكد ومشكوك فيه ، وسيدافع المتفائلون عن أن الخيار الوحيد لهذه الدول هو الديمقراطية . بينما يرى المتشائمون : أن الخيارات المنطقية نادرة فى التاريخ وأن التقاليد السياسية والثقافية وكذلك الأساطير الثابتة يمكن أن تؤدى الى بزوغ أنظمة سلطوية جديدة تعتمد على ما يحدث من مآس واضطرابات جماعية . الشىء الوحيد المؤكد هو أن الثورة التى قامت ضد التوتاليتارية عام ١٩٨٩ فتحت العديد من السبل والأبواب وسيظل السؤال « هل ستصبح هذه الدول ديمقراطية أم عرقية ؟ » دون جواب .

ان احتلال المانيا لبولندا أدى الى اندلاع حرب طويلة بين دول المحور (المانيا وابطاليا واليابان) ودول الحلفاء (بريطانيا العظمى ، فرنسا ثم الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الامريكية بعد عام ١٩٤١) . وتركت الحرب العالمية الثانية كل أوربا فى دمار شامل سياسيا واقتصاديا مما خلق بيئة مناسبة تماما لتوسعات ستالين السريعة التى انطلقت من الاتحاد السوفيتى . ومما ساعد على انتشار الشيوعية عبر النصف الشرقى من أوربا الخوف والفزع الذى أصاب صانعى السياسات والمواطنين فى أوربا الشرقية وهو ما ساعد أيضا على التعجيل بنشوب الحرب الباردة بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى . وأدت الحرب الباردة بدورها الى تكاثر وتزايد وتطوير الأسلحة النووية على المستوى العالمى ، كما أدت الى ظهور المكارثية (٦) فى الولايات المتحدة الامريكية والتى كانت أحد توابع تلك الحرب .

وبناء عليه ، فان فهم أوربا الشرقية يرتبط بفهم الأمن العالمى وقضايا الأيديولوجيا القومية . وما يحدث لدول أوربا الشرقية يذكرنا بأحدى الحواديت التى كانت تروى لأطفالنا . وتقول القصة : « ان مسمارا

سقط من حدوه حصان ، فانخلعت الحدوة وكبا الحصان فسقط راكبه الذى كان يحمل رسالة مهمة الى احد القواد فهزم القائد لأنه لم يتلق الرسالة ، وخسرت المعركة بسبب مسمار صغير » . ولخمسين عاما تقدم العالم رويداً دون مشاركة كاملة من جانب دول أوربا الشرقية وان استقرت أوضاعها فى ظل الأنظمة الشيوعية المتحالفة مع موسكو ، وكان من السهل آنذاك تبين الخط الذى تسير فيه سياساتها ، ولكن انهيار تلك النظم ترك صانعى السياسات ورجال الأعمال والمواطنين العاديين فى شتى ارجاء العالم يبحثون عن مناهج جديدة لفهم هذه المنطقة ، وهو ما يسعى اليه هذا الكتاب .

ان فهم السياسات والشعوب فى اوربا الشرقية وفهم الكيفية التى ترتبط بها ديناميكيات هذه المنطقة بالاستقرار العالمى يتطلب معرفة بتاريخها أو على الأقل تاريخها الذى يعود لبداية هذا القرن . وتعد صحوة عام ١٩٨٩ فى دول قلب أوربا واحياء الحنين الوطنى لامبراطورية هابسبرج عام ١٩٨٩ أكثر من مجرد ظاهرة ثقافية ، اذ كان هناك اتجاه لجعل عصور هذه الامبراطورية الغابرة تبدو وكأنها عصور مثالية ، كما كان هناك اتجاه للاقرار بأن الامبراطورية النمساوية المجرية فيما قبل الحرب العالمية الأولى هى النموذج الكنفدرالى الممكن لدول قلب أوربا . وعلى عكس هذا الاتجاه الأممى ، يبدو لنا أن مشاعر التعصب القومى (الشوفينية) التى سادت عصر ما قبل الشيوعية لم تندثر بعد .

ومن ناحية أخرى اجتاح هذه الشعوب رغبة عارمة للعودة للعصور الذهبية التى كانت فيها براغ وبودابست وبوخارست ووارسو تعد حقيقة عواصم لأوربا ومهدا لتجارب ثقافية جريئة ، أخذت موقعا طليعيا فى الحركة الابداعية فى الأدب المعاصر ، حيث ظهر فرانز كافكا Franz Kafka فى براغ وقدم للأدب رواياته الرائعة ، كما ظهر جورج لوكاس George lukas وارثر كوستلر Arthur Kostler وبيلا بارتوك (٨) Bela Bartok فى بودابست . كما قدم أوجين لونشيسكو Eugene Lonesco ، وميرشيا الياد Mircea Eliade واميل كيوران Emil Cioran انتاجهم الأدبى لأول مرة فى بوخارست وكى نتمكن من فهم حقيقة وباء التواترات العرقية السياسية والثقافية ومدلولاتها بالنسبة للمستقبل لابد أن نستدعى مرة أخرى تجربة بلدان أوربا الشرقية التاريخية التى مرت بها بين عامى ١٩١٨ و ١٩٤٥ قبل مجىء النظم الشيوعية نتيجة لكارثة الحرب العالمية الثانية . وربما تبدو تلك كفكرة مكررة ولكن بالنسبة لدول شرق أوربا فان ماضيها السابق على الشيوعية مقدمة لها . وسيكون من الأفضل لمواطنى هذه

البلدان الذين عاشوا فى ظل الشيوعية ولم يخبروا الا القليل من المبادىء الديمقراطية مثل حرية الرأى أن يتمكنوا من اقرار أنظمة سياسية متسامحة وغير سلطوية . وفى نفس الوقت فان اعادة بناء الديمقراطية فى هذه الدول ، تعتمد على مدى قدرتها على التغلب على المشكلات والمصاعب الناجمة عن ميراثها من التمايزات العرقية ، والاجتماعية ، والسياسية العديدة والمعقدة .

ولكن وكما أشار الفيلسوف السياسى الفرنسى جين فرانسوا رافيل Jean-Francois Ravel ان المشكلات القديمة هى فى نفس المشكلات الجديدة ولكنها تحمل سمات بداية القرن الواحد والعشرين وهو يعنى هنا أن تلك المشكلات ستظل مستعصية على الحل طالما أن الديمقراطية والبرلمان غائبان (٩) .

عالم مفتت ، ١٩١٨ ــ ١٩٤٥

كانت أوربا الشرقية خلال القرن التاسع عشر مجرد جزء من قارة أوربا ، وكان الغرب يعلم ــ بلا ريب ــ بوجود المجريين والرومانيين والبولنديين ولكن الغرب جنح دائما الى اهمال ذلك الوجود باعتباره لا يمثل خطرا حقيقيا عليه ، ومعظم البلدان التى تدور حولها المناقشة فى هذا الكتاب انبثقت كدول مستقلة متعددة القوميات وهو ما استتبع انهيار الامبراطوريات الأوربية العظمى فى ١٩١٧ ــ ١٩١٨ .

وقبل الحرب العالمية الأولى فان وجود الهيمنة الامبراطورية النمساوية المجرية أبقى على العديد من الصراعات الدينية والثقافية ، والعرقية التى اكتنفت أوربا الشرقية منذ ١٩١٨ وتعرضت هذه المشاعر الى كبت طويل ومع التوترات المستعصية بأوربا الشرقية فان العالم الذى بنى فوق أشلاء الامبراطورية الزائلة والأحلام الولسونية Wilsonian (١٠) عن العالم الديمقراطى شهد انفجارا دمويا لروح التعصب والنقاء العرقى (١١) ووضعت هذه الأمم متعددة القوميات الأسس الخاصة بهذه المبادىء النبيلة كأساس لحق تقرير المصير ولكن هذه الأسس جاءت خلواً من ضمانات حماية الأقليات .

وأقيمت حدود فاصلة جديدة لتسوية الخلافات القائمة بين الغازين ومن وقعوا تحت حمايتهم ، وغالبا ما تجاهلوا مشكلات الأقليات الكبيرة ، واعتبرت الجماعات الحاكمة صيحات هذه الأقليات من أجل

الاستقلال الثقافى تحريضا على الفتنة والعصيان . وكان الألمان والبولنديون فى تشيكوسلوفاكيا ، والأوكرانيون واليهود ببولندا ، والمجريون واليهود والأوكرانيون فى رومانيا من بين هؤلاء الذين مروا بتجربة الانتهاكات والاضطهادات العرقية وما ترتب عليهما .

وكانت رومانيا البلد الذى لحق بركب الحلف الدولى Entenre (والذى تكون بشكل اساسى من روسيا وبريطانيا وفرنسا) قد كوفئت بموجب معاهدتى فرساى تريانون Trianon (١٢) فتوسعت بأراضيها الاقليمية فضمت ترنسلفانيا وبكوفينيا الشمالية Northern Bukovinia من الامبراطورية النمساوية المجرية وبساربيا Bessarabia من روسيا . وكنتيجة من نتائج الترتيبات الدولية الجديدة والتى أقرتها معاهدات فرساى ظهرت يوجوسلافيا لأول مرة ككيان سياسى جديد متكامل تحكمه أسرة صربية ارثوذكسية ويضم هذا البلد الصرب الكرواتيين والكاثوليك والسلافيين ومسلمى البوسنة والهرسك .

وكنتيجة لهزيمة الامبراطورية النمساوية المجرية وكنتيجة لوجود منطقة تناحر للأطماع والطموحات الغربية ، فان أراضى المجر الاقليمية نقلصت الى ثلث الأراضى التى كانت موجودة قبل عام ١٩١٤ (١٣). ونالت المجر نفسها كجزء سابق من الامبراطورية المتعددة القوميات التى تسيطر عليها النمسا استقلالها ، الا أن الأقليات المجرية الكبيرة قدر لها أن نعيش فى ولايات أنشئت حديثا أو كانت موجودة من قبل .

وكانت تشيكوسلوفاكيا واحدة من هذه الكيانات السياسية الجديدة التى ضمت المقاطعات التى وقعت فى الامبراطورية السابقة ومنها بوهيميا Bohemia ومورافيا Moravia وسلوفاكيا Slovakia . ومن بين بلدان تلك المنطقة بدت تشيكوسلوفاكيا — رغم أنها تخلو من صراعات عرقية جوهرية على أنها التجربة الديمقراطية الوحيدة التى حققت نجاحا ، كما كانت تمتلك نظاما برلمانيا فعالا يقوم على التوجيه الجيد للقوى النيابية وهو الشىء الذى استلهم من مثيله الامريكى . وعند تأسيسها فى عام ١٩١٨ فان جمهورية تشيكوسلوفاكيا اظهرت تسامحا مع المعارضة السياسية بما فيهم الشيوعيين ولكنها فشلت فى ارضاء مشاعر السلوفاك Slovaks القومية القوية . وكان الأب المؤسس لأول جمهورية تشيكوسلوفاكية هو توماس ج. مزاريك Tomas G. Masaryk مقتنعا بأن النمو الاقتصادى والاجتماعى سيكون كافيا لمحو الخلافات القائمة بين التشيكيين Czecks والسلوفاكيين Slovak ، وقد اتهم المجريون بأنهم أول من طرح فكرة القومية السلافية (١٤) . ومن ناحية أخرى

بدت تشيكوسلوفاكيا بما تملكه من تقدم تكنولوجي مثالا جيدا اذا ما قورنت بالمستوى الاقتصادى لدول أوربا الشرقية الأخرى .

وكانت بلغاريا ورومانيا حكومات ملكية منذ القرن العشرين ، وظهرت يوجوسلافيا بعد عام ١٩١٨ كمملكة . أما المجر فقد حكمها فى عام ١٩١٩ بعد ثورة شيوعية قصيرة الأجل ميكلوس هورثى Miklos Horthy وكان ادميرالا بلا أسطول ولعب دور الوصى على ملك لا وجود له .

وكان لرومانيا بتبنيها دستور ١٩٢٣ (الذى انبثق الى حد كبير عن نموذج بلجيكى) نظام متعدد الأحزاب فى اطار ملكية دستورية . ورغم التصفية المستمرة لحركات اليمين المتطرف واليسار المتطرف ، فان النظام البرلمانى أدى وظيفته بشكل صحيح حتى عام ١٩٣٨ عندما نادى الملك كارول الثانى King Carol II بالدكتاتورية الملكية وحل الأحزاب والبرلمان . ولذا فان الفترة ما بين عامى ١٩٢٣ ، ١٩٣٨ تعد هى المرحلة الديمقراطية الوحيدة فى تاريخ هذا القطر . أما بولندا فقد ولدت كأمة حرة فى عام ١٩١٧ بانفصالها عن امبراطورية القياصرة الروسية ، وظلت معظم الفترة التى وقعت بين الحربين جمهورية خاضعة لنظام حكم متسلط استمد قادته شرعيتهم من مقاومتهم للجهود السوفيتية التى كانت تهدف لاعادة بولندا الى حظيرة الامبراطورية السوفيتية .

ورغم أن البانيا كانت رسميا مملكة مستقلة الا أنها فى الواقع كانت تابعة اقتصاديا ودبلوماسيا لايطاليا (١٥) .

وفى ظل هذه البلدان كان الاتجاه نحو الثورة البلشفية والموقف السوفيتى يحظى بأهمية بالغة . وبعد قرون من العيش تحت السيطرة السياسية والثقافية للامبراطورية النمساوية المجرية ، والمانيا الامبريالية وروسيا القيصرية ، وتركيا العثمانية فان معظم مواطنى أوربا الشرقية أصبحوا شديدى الرغبة فى التأكيد على هويتهم العرقية .

وبذا بزغ فجر القومية . ولكن الدولة السوفيتية بادعائها تمثيل مصالح العمال بصرف النظر عن قومياتهم بدت وكأنها التهديد الأبدى « للوجود المطلق » للقوميات الجديدة .

غير أن اسطورة الدولية التى روجت لها الشيوعية الدولية (الكومنترن Comintern) التى أسسها لينين فى موسكو عام ١٩١٩ لم تستطع سوى اجتذاب جماعات صغيرة من غلاة المتحمسين .

وحاول السوفيت تصدير ثورتهم ولم يترددوا فى استخدام الجيش الأحمر الذى زحف الى وارسو فى عام ١٩٢٠ ؛ لكى يجعلها جمهورية سوفيتية ، ولو كان قد نجح فى ذلك لاستطاع القضاء على هويتها المرقية لعقود طويلة .

وبعد أكثر من خمسة وخمسين عاما من هزيمة الجيش الأحمر فى بولندا قال آدم متشنك وهو يبرز أهمية ذلك الانتصار فى كتابه معجزة على نهر فشستول (١٧) :

« اننا ندين لنصر ١٩٢٠ على البلاشفة بالحفاظ على استقلال بولندا الفكرى الذى ألهم وما زال يلهم الأجيال . وان قدرتنا على مقاومة التحول الى النظام السوفيتى ترجع الى حد كبير الى الذخيرة التى توافرت خلال فترة ما بين الحربين . ولو كان الجيش الأحمر قد انتصر فى معركة وارسو ، ولو كانت لجنة مؤقتة قد بدأت فى حكم بولندا، فلربما كنت الآن أعيش فى كوريامبا أو بربيجان واربما ما كنت لأتكلم البولندية ولربما كان الدب الروسى قد فتك بالانتلجنتسيا البولندية ، كما فتك بالانتلجنتسيا الروسية فى عهد ستالين (١٨) » .

وهنا يشرح متشنك لماذا كانت سياسة انشاء «الحجر الصحى» ضد التوسع البلشفى فى أوربا الشرقية أمراً شائعاً بين شرائح اجتماعية كبيرة بما فيهم المضطهدين ، وأدى الوعى بالتهديد السوفيتى الى توحيد جهود الحلفاء البولنديين والتشيكوسلوفاكيين والرومانيين للتعاون من أجل القيام بمبادرات دولية . ولكن استمرار العداوات القومية بين الدول وقف عقبة فى طريق الحاجة الملحة لسياسة شرق أوربية خارجية موحدة وشاملة .

وداخل كل واحدة من تلك البلدان كان هناك حلم اجتماعى ، كما ظل التوزيع الجديد للأراضى فى مستهل العشرينات من المستوى المعيشى للفلاحين . وفيما عدا تشيكوسلوفاكيا ، فان البطالة وخاصة بطالة المتعلمين التى سببها وجود تضخم فى أعداد المحامين والمدرسين والصحافيين ، قد كانت لها دلالة تشير الى تصاعد تيار التطرف السياسى بما فيه الارهاب والعنف .

وأدى الاستياء الاجتماعى الى تفجير الكراهية والغضب والعداوات . وكانت المؤسسات الديمقراطية الجديدة والتى تتضمن البرلمانات والسلطات القضائية المستقلة هشة للغاية حتى انها عجزت عن احتواء تلك المذابح المتطرفة . وكانت الحركة الفاشية فى رومانيا

قد تكونت فى بداية العشرينيات واتخذت اسم «فيلق الملاك ميخائيل» ثم عرفت فيما بعد « الحرس الحديدى » وقد تسببت فى تفاقم الاحباطات الاجتماعية والفوبيا العرقية ، وتلاعبت بالرموز الدينية واعدة بالتطهير الروحى للفساد الذى ساد الحياة السياسية بالبلد ، وحاولت أن تعبىء الرومانيين ضد الأقليات العرقية وعلى رأسها الأقلية اليهودية . ووحدت منظمة الحرس الحديدى بين التيارات الرومانتيكية المعادية للرأسمالية مع التيارات الشوفينية المعادية للسامية ، كما نظرت المنظمة للديمقراطية البرلمانية باعتبارها عنصرا غريبا على رومانيا ويجب أن تستبدل بالدكتاتورية (١٩) .

وفى الثلاثينيات أخذت السلطة اليمينية تجمع زخمها فى هذه البلدان، وهنا نستثنى تشيكوسلوفاكيا ثانية ، رغم أن آثار الحركة المؤيدة للنازية كانت تتزايد بين الأقلية الألمانية هناك . واهتمت القوى الغربية بعد فشلها فى اعطاء ضمانات مؤكدة ضد القوى الرجعية باعادة رسم الحدود التى أقرت فى معاهدة عام ١٩٢٠ (تريانون) مما ساعد الحركات الغوغائية على تجنيد المزيد والمزيد من الموالين . وقد أخذوا عن النازية بألمانيا والفاشية بايطاليا احتقارهم للنظام البرلمانى واظهروا استياءهم من الديمقراطية الليبرالية . وبدلا من ذلك فقد رغبوا فى ارساء قواعد الديكتاتوريات التى تقوم على تأليه الزعيم والقيم التى تعادى الأجانب وتنادى بنقاء الأصل العرقى . وظهرت مثل هذه الحركات فى رومانيا تحت اسم الحرس الحديدى ـ بقيادة كورنيلو زيلا كودرينو Corneliuzelea Codreanu ، وظهرت فى المجر تحت اسم « الصلبان السهمية Arrow Crosses » وكذلك فى سلوفاكيا حيث ظهر حزب متطرف ينادى بالحفاظ على نقاء السلالة وكان مؤسسه أندرى هلنكا Andrej Hlinka . وكانت هذه الأحزاب المتعصبة دعامة لخطط هتلر التوسعية وبوقا دعائيا لها .

وشهدت أوربا الشرقية على نحو متزايد ومتزامن مع تصاعد التوترات السياسية ازدهارا ثقافيا فريدا من نوعه . وأصبحت بودابست وبوخارست وبراغ وبلجراد وكراكوا وزغرب مراكز ثقافية مفعمة بالحركة حيث ولد المبدعون الشبان ، على نحو محموم اتجاهات فلسفية وفنية جديدة . وكان السرياليون والاعلاميون على سبيل المثال منتشرين فى رومانيا وتشيكوسلوفاكيا على نحو مفرط مثلما وجدت الاتجاهات الفلسفية العصرية مثل الوجودية وفلسفة الفينومينولوجى « علم الظواهر » . وكانت المنطقة [التى اعتبرت نفسها حينذاك جزءا من قلب أوربا وتقع كما كانت فى وسط الطريق بين الأورال والشواطىء

الغربية للقارة) هي موطن طليعة الرواد كما كانت مهداً لمعظم الاتجاهات الثقافية المعاصرة وأكثرها حداثة ، بما في ذلك ظهور المسرح الهزلي ، وفلسفة التحليل النفسي ، وفلسفة اللغويات (البنيوية وفلسفة التحليل المنطقي) . وأدرك الشعب في هذا الجزء من العالم أهمية الحفاظ على ذاكرته كما حاولوا دائما أن يهربوا من الماضي المؤلم . وقد كان التاريخ بالنسبة لهم مقترنا بالمذابح والتعنت والجور والهزائم المتلاحقة .. وكانت الذاكرة تحفظ كلا من الأحلام الديمقراطية التي لم تتحقق بعد والآمال في اقامة مجتمع من المخلصين . وكان الألمان والأوربيون والفرنسيون على دراية تامة بما يجري ، وهم في ذلك لا يشبهون الروس — بمدى ما يتسم به نظامهم وأوضاعهم السياسية من هشاشة . ويقول ميلان كنديرا القصاص التشيكي في كلماته الآتية :

« ان دول قلب أوربا كعائلة مكونة من قوميات صغيرة لها رؤيتها الخاصة عن العالم . تلك الرؤية التي ترتكز على ارتياب عميق في التاريخ . التاريخ الذي كان معبود هيجل وماركس والذي يجسد العقل والمنطق ، وهو الذي يحكمنا ويتحكم في مصائرنا ، انه تاريخ الفاتحين. ولكن شعوب دول قلب أوربا ليسوا بفاتحين ولا يستطيعون أن يفصلوا عن تاريخ أوربا أو أن يخرجوا عليه ، ولكنهم يمثلون الجانب الجائر من التاريخ ، انهم ضحاياه والخارجون عليه . تلك هي الرؤية المتحررة من الخطأ الوهم والتي تعد مصدرا لثقافتهم وحكمتهم ومصدرا لما لهم من « روح ساخرة — تسخر من عظمتهم وعزتهم » (٢٠) .

وتتمثل الحتمية التاريخية في التقاربية المبهمة للامبراطورية الروسية والامبراطورية الالمانية التي جعلت المبدعين بقلب أوربا ينظرون للوعود العاطفية للايدلوجيات الراديكالية مثل الشيوعية والفاشية بازدراء . وعلى اية حال فان بعض المبدعين المثقفين أمثال الفيلسوف المجري جورج لوكاس والكاتب الروماني بانيت ستراتي Panait Strati والشاعر البولندي الكسندر وات Alexander Wat اعتنقوا الشيوعية : لأنهم شعروا بالاغتراب في بيئاتهم البرجوازية الأصلية وحاولوا الارتقاء عليها بمناصرة العقيدة اللينينية التبشيرية الا انهم ادركوا فيما بعد انهم قد خدعوا وأولى الكثير منهم ظهورهم العقيدة الشمولية واصبحوا اكثر ناقديها ضراوة وقسوة . وانتهى الأمر بالعديد منهم الى المرارة والتشاؤم واحتقروا النفاق الزائف واعلنوا يأسهم من وجود فرص حقيقية للديمقراطية كي تصمد أمام أعدائها ، وفضلوا أن يعيشوا حياتهم الخاصة . ونجد في حالة الكاتب المجري المولد أرثر كوستلر (٢١) ، مؤلف رواية « ظلام في عز النهار » وهي

الرواية الكلاسيكية التى تهاجم الستالينية ونشرت فى انجلترا فى مايو ١٩٤١ ، رمزا لما آلت اليه مصائر معظم مبدعى دول قلب أوربا فى قرن الأوهام الراديكالية والوله المدمر بها · أما دانيلوكس Danilo Kis الروائى اليوجوسلافى فقد كتب مقالا مشهورا عن أوربا المركزية بعد عدة أعوام من انتحار كوستلر فى بداية الثمانينيات قال فيه :

((ان المغامر المبدع كوستلر ومن خلال عمله ((الخيار المطلق Ultimate Choice يعد حتى على مستوى اوربا كلها فريدا من نوعه · ان سيرته الذاتية فى تحققها الراديكالى يمكن أن نرى فيها سيرة كل مبدع يعيش فى قلب أوربا)) (٢٢) ·

ولعب المبدعون فى أوربا المركزية دوراً حاسماً فى شرح أهمية المبادىء والقيم وفى الدفاع عن الذاكرة الثقافية لتلك الأمم التى حرمت طويلا من وجودها كدول مستقلة · واعتبر المبدعون فى بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا على نحو واسع هم حاملى ألوية الأخلاق والفضائل · واثناء القرن العشرين كانت الانتلجنتسيا (وهى المصطلح الروسى الذى يشير اخلاقيا واجتماعيا الى شرائح معينة من طبقة المبدعين) هى رأس الحربة التى تقدمت الصراع من أجل الحرية السياسية القومية وهى المجموعة التى استمرت تمارس دورها التبشيرى حتى بعد تقسيم الدول حسب القوميات . وناصر المبدعون البارزون الاتجاهات السياسية التى كان لها تأثير فورى على شرائح اجتماعية عريضة والتى وضعت نفسها تحت امرة هؤلاء الذين وضعت فيهم ثقتها ، بل وأكثر من ذلك فان المبدعين فى بلدان قلب أوربا أضحوا رموزا للقضايا الاجتماعية والقومية ·

لقد رصد الكسندر وات الأحلام والأوهام اليوتوبية التى تفشت بين أوساط المثقفين فى الفترة التى توسطت الحرب وذلك حين قال الكسندر ــ الكاتب البولندى ــ فى حديث له مع تشسلاف ميلوش Czeslaw Miloz ان الشيوعية لاقت قبولا لدى المبدعين لأن الشيوعية قد اشبعت التعطش الانسانى الى القيم النبيلة ونادت بالتضامن والأخوة :

« انه دفء الاخوة ــ الاخوة ··· لقد بدأ الأمر بها ، ولكن بدا واضحا انه لم يكن هناك من يدعمها سواء أكان حزبا أم كنيسة · لقد عجزت الكنيسة عن ذلك لانها كانت ضخمة وباردة وشعائرية ومزخرفة ··· ان الكنيسة الشيوعية مثلها مثل المجتمعات المسيحية الأولى قد بنت نفسها حول خلية يعرف فيها افراد المجتمع بعضهم بعضا

ويتعايشون فى حب · وهكذا فان الدفء والحب المتبادل قد وجد فى مثل هذه الخلية الصغيرة التى يحيط بها عالم عدوانى آثم » (٢٣) ·

لقد استطاعت الحركة التوناليتارية أن تطأ تلك البلدان ، وذلك تحديدا لأن التوترات الاجتماعية بلغت ذروتها ولأن المنظمات الديمقراطية كانت عاجزة عن خلق ثقافة سياسية تعددية . وقد تم تدشين الدولية التالية (الكمنترن) والتى تضمنت اخضاع كل الأحزاب الشيوعية المحلية لرغبات وأوامر وتوجيهات موسكو — ووفقا « لشروط الالتحاق بالدولية الشيوعية » والتى اعلنها مؤتمر الكمنترن الثانى فى ١٩٢٠ فان قرارات المقرات المركزية فى موسكو سوف تفرض على كل الاحزاب التابعة وكل من يعارض تلك القرارات والتوجيهات سوف يكون عرضة لتوجيه تهمة الخيانة وعرضة للطرد من حرم الشيوعية (٢٤) .

لقد وجد العالم الشيوعى ضالته فبعد موت لينين عام ١٩٢٤ استخدم ستالين الكمنترن كأداة لتنفيذ مخططاته التوسعية .

وأصبحت الأحزاب القومية احصنة طروادية ، وأصبحت الجماعات الشيوعية فى كل انحاء العالم أدوات فى يد موسكو · واستطاع الشيوعيون أن يستدروا تاييد بعض العمال الراديكاليين فى أوربا الغربية وكذلك المبدعين الذين اغمضوا أعينهم عن الأوضاع الحقيقية القائمة فى روسيا السوفيتية . ان تهديد الاتحاد السوفيتى الدائم بالاغارة على الدول المجاورة جعل من الصعب على الأحزاب الشيوعية ان تستقل بذواتها ، وقد كان الموقف أكثر دراماتيكية فى حزبى رومانيا وبولندا اذ رفضتا الادعاءات السوفيتية فى اراضيهما الاقليمية ومن ثم نظر اليهما الاتحاد السوفيتى باعتبارهما معاديتين للقومية · وقد مجدت الاحزاب التى تشكلت فى العشرينيات الاستراتيجية السوفيتية لفهم أواصر الهيئات الديمقراطية التى تشكلت حديثا . وفى الحقيقة فان الاحزاب الشيوعية فى كل بلدان أوربا الشرقية فيما عدا الحزب التشيكوسلوفاكى كانت غير شرعية · لقد اختير الجيل الأول من الزعماء الشيوعيين الشرق أوربيين من هؤلاء الذين شاركوا بفاعلية فى أعمال الكمنترن فى العام الأخير من حكم لينين ، وبعض هؤلاء كان معاديا لستالين والبعض الآخر كانوا ستالينيين مؤمنين به ، بل لقد شاركوا فى التدبير للمذابح التى اقيمت لأحزابهم · وقد أصر ستالين على أهمية « بلشفة » هذه الأحزاب وذلك بالتخلص من الجيل الأول واستبداله بجيل أكثر طاعة واسهل انقيادا ·

وفى الثلاثينيات تم تصفية الائتلاف الذى يشمل كل الأحزاب الشيوعيه الشرق أوربية فى مذابح التطهير الكبير بالاتحاد السوفيتى . ولان ستالين شعر بنفور تجـاه الشـيوعيين البولنديين واتهمهم بارتكاب أخطـاء التروتسكيين (٢٥) Trotskyists واللكسمبرجيين Luxembugists (٢٦) ، التى لا تغتفر فتولى فى عام ١٩٣٨ مهمة تصفية الحزب الشيوعى البولندى . وشنق فيرا كوسترتسفا Werakostrzewa ، ويوليان لنسكى لينشنسكى Julian Lenskitleszcenski والفـرد فارسـكى Alfred Warski القادة التاريخيين للحزب الشيوعى البولندى ، كما تعرضت كـل فئات الشيوعيين البولنديين للنفى والذبح فى السـجون السوفيتية ، ومر آخرون فى دول أخرى بتجارب مشابهة منهم ميلان جوركيك Milan Gorkic السكرتير العام للحزب الشيوعى اليوجوسلافى الذى تم تصـفيته فى الاتحـاد السـوفيتى وكذلك الآباء المؤسسون للشيوعية الملهمة وسنهـم الكسندر دوبر جينو جريا Alxander Dobrogeanu-Gherea (٢٧) وامرى الـدار Imre Aldar وديفيد فابين David Fabian وأدى التـدله فى أوهـام « الدوليـة » الى اقتنـاع الشـيوعيين بأنهـم اذا مـا قـدموا خـدماتهم للثورة البلشـفية فانهم بذلك يخـدمون قضية الثـورة العـالمية وتحرر البروليتاريا ولذا ، قبـل الشـيوعيون المخلصـون حـكم ستالين الدموى دون أدنى اعتراض . ومع استبـدال النواة الأولى للقـادة الشـيوعيين بجيـل أكثـر خنوعا من الأعضـاء الشـيوعيين الذين تلقوا تدريبهم بموسكو تمت التصفية الكاملة لكل الاتجاهات الناقدة داخل هذه الأحزاب .

ورغم الطاعة العمياء التى أبدتها هذه الأحزاب لموسـكو فـان بعضـها وجدت علاقتها بموسكو على هـذا النحو الخانع تضـعها فى موقف محرج ، وكانت موسكو دائما تعامل الحزب الشيوعى الرومانى بازدراء اذ أن علاقتهـا به كانت هزيلة وذلك بالتحـديد لأنه لم يكن قادرا على التخلص من وضـعه الهامشى (٢٨) . ومن ناحية أخـرى فـان الكرملين فرض عليهم حدوداً كان عليهم الا يتجاوزوها مما منعهم من التحول الى حزب جماهيرى بينما تمتع الحزب البلغارى بمعاملة كريمة من جانب الكرملين وذلك يرجع فى الأسـاس لما لزعمـائه من مكانـة دوليـة أمثـال جـورجى ديمتـروف Georgi Dimitrov الذى أصبح بعـد تبرئة سـاحته بمـوجب معـاهدة ليبـزج (٢٩) Léipzig فى ديسمبر ١٩٣٣ الرمز المعبود لكل اليساريين الدوليين . وقد اتهـم النازيون ديمتروف اللاجىء السياسى بألمانيا بأنه العقل المدبر لحريق البرلمان الألمانى Reichstag ، بعـد تولى هتلـر للسـلطة فى ينـاير

١٩٣٣ . وقد حاول ديمتروف شجب القادة النازيين باعتبارهم الجناة الفعليين لهذا الاستفزاز السياسي · وقد تم السماح لديمتروف بمغادرة المانيا والذهاب الى موسكو حيث أصبح الرئيس التنفيذى للكمنترن (٣٠)·
أما فى المجر فتمت الاطاحة بالنظام الثورى اللينينى برئاسة بيلاكون Bela Kun بدعم من الجيش الرومانى ، ثم شنق كون فى الاتحاد السوفيتى فيما بعد باعتباره « عدو الشعب » واختفى اسمه لعقدين كاملين من سائر المنشورات الشيوعية التى تناولت كميونة بودابست التى حالفها سوء الحظ فى ١٩١٩ .

وبعد ١٩٣٨ عهدت قيادة الحزب الشيوعي اليوجوسلافى السرى الى مناضل شيوعى كرواتى هو جوسيب بروز الذى عرف باسمه الحركى الشهير « تيتو » · وكان من الشيوعيين اليوجوسلافيين الذين سطع نجمهم ميلوفان جيلاس طالب الفلسفة الذى سيصبح فيما بعد نائب رئيس الجمهورية الذى واصل تحرره من وهم الشيوعية كما أصبح أحد الاصوات الناقدة للديكتاتورية الشيوعية ولسلوك تيتو الأوتوقراطى .

ومن ناحية أخرى ظهرت حركات يمينية لاقت قبولا فى بادىء الأمر من الاصلاحيين ثم الجماعات المدنية الاجتماعية فيما بعد ، وذلك من خلال استخدام قيم ورموز شوفينية أسطورية · وعلى عكس الشيوعيين الذين انتقدوا الأوضاع القائمة باسم الالتزام التام بالدفاع عن الاتحاد السوفيتى « والأرض الأم لبروليتارية العالم » المزعومة فقد انتقد اليمين المتطرف الديمقراطية والراسمالية لفشلهما فى خلق « جسد دستورى قومى » · وفى رومانيا ضم اليمين المتطرف العديد من الأحزاب والجماعات الصغيرة العدد بالاضافة الى « الفيلق legion » (أو الحرس الحديدى فى الثلاثينات وكان قوامها الجموع المحبطة من المبدعين الشباب والطلاب والقساوسة والعمال غير المهرة ، الا انها جميعا وبشكل عام حملت اتجاهات معادية للغرب والسامية والابداع. ووجهت هذه الأحزاب اللوم للشيوعية باعتبارها بدعة يهودية ماسونية (٣١) ووعدت بتطهير الحياة السياسية الفاسدة وذلك ببناء نظام ديكتاتورى يقوده رجال اقوياء حباهم الله بمواهب خاصة منهم رئيس منظمة الحرس الحديدى كورنيلو زيلا كودرينو وكان نموذجهم المثالى هو انشاء نظام سياسى قائم على المبادىء الرومانية والأرثوذكسية . وبمعنى آخر فقد نادوا باستبدال النظام « القومى العسكرى » بآخر برلمانى مدنى .

واستخدم اعضاء الحرس الحديدى الارهاب السياسى لتحقيق أهدافهم السياسية ، ففى ديسمبر ١٩٣٣ اغتال أحد الفدائيين من الحرس الحديدى رئيس الوزراء الليبرالى ايون ج٠ دوكا Ion G. Duca الذى عرف بوجهات نظره المؤيدة للغرب والمعادية للفاشية ٠ وأجبر منطق اليمين المتطرف ـ خاصة بعد تولى الحزب النازى فى ألمانيا الحكم ـ طبقه السياسيين الرومانيين على التورط فى أعمال قمعية ضد زعماء الحركة الفاشية . وقبض بوليس كارول الثانى على كودرينو نفسه وقتلوه عام ١٩٣٨ . وتم شجب الديكتاتورية الملكية وقمع النظام البرلمانى قمعا ٠ وبدا أن تصاعد العنف فى هذا البلد حتمى ٠

وتلقت تشيكوسلوفاكيا والمواطنون المنحدرون من أصل مجرى ونمسوى لطمة مميتة فى مارس ١٩٣٨ عند توقيع اتفاقية ميونخ والتى اعترفت بحق المانيا الذى تدعيه فى اقليم السوديت (٣٢) Sudetenland وفى سبتمبر من نفس العام احتل الجيش الألمانى براغ وأعلن هتلر تعيينه لحكومة تشرف على بوهيميا ومورافيا ، وقفزت سلوفاكيا مطالبة بحقها فى الاستقلال وتأسيس نظام موال للنازى بزعامة مونسنيور تيسو Monsignor Tiso الذى كان من أقطاب الدعوة للملكية . وفى أغسطس ١٩٣٩ وضعت المعاهدة النازية السوفيتية نهاية لأى أوهام خاصة بامكانية منع وقوع الحرب .

وتعاونت القوات السوفيتية والالمانية فى تمزيق أوصال بولندا وتهلل وزير الخارجية السوفيتى فيتسلاف مولوتوف لاختفاء بولندا من على الخريطة الأوربية . فلم يكن السوفيت مثلهم مثل النازيين يتقبلون وجود الجمهورية البولندية التى أسماها مولوتوف مستخفا « الابن غير الشرعى لمعاهدة فرساى » (٣٣) . وفى اللحظة التى أحكم فيها الدب الروسى والنسر الألمانى قبضتيهما الحديديتين على تلك البلدان لم يعد لما عرف بقلب أوربا أى وجود .

ويرى تشيسلاف ميلوف أن جميع البلدان التى عانت من عواقب الحلف السوفيتى النازى استمرت فى الوجود ككيان لا وجود له الا فى نطاق ذاكرة ثقافية معذبة ، حيث يقول :

ربما كان الفارق الأساسى بين شطرى أوربا ماثلا فى الاختلاف بين الذاكرة وعدمها ، فشعوب غرب اوربا لا ترى فى حلف مولوتوف روبنتروب (٣٤) أكثر من شبح ذكرى لماض غارق فى الضباب . اما نحن وأعنى نحن الذين اكتوينا بهذه الاتفاقية التى ابرمتها القوتان العظميان ، فاننا نراه حقيقة واقعة يلمسها كل من ولدوا فى بلداننا

بعد الحرب . ولذا فسوف اخاطر بتقديم تعريف بسيط جداً لوسط أوربا ، فأقول انها تلك البلدان التى كانت موضع مقايضة حقيقية او محتملة بين الاتحاد السوفيتى وألمانيا فى اغسطس ١٩٣٩ ... انها عقود من الألم والمهانة التى تميز بلدان أوربا الشرقية عن شقيقاتها الغربية (٣٥) .

وفى يونيو ١٩٤٠ وجه السوفيت انذارا لرومانيا لتنسحب من اقليم روسيا البيضاء وشمال بوكوفينا .

وكان رد الملك كارول الثانى ، الذى كان معزولا دوليا والذى أطاح بالنظام الديمقراطى فى ١٩٣٩ الاستسلام التام والخضوع للانذار السوفيتى شديد اللهجة .

وفرض الألمان والايطاليون فى أغسطس على رومانيا اتفاقية فيينا Vienna Award التى نالت بموجبها المجر ترانسلفانيا .

وتأسست بعد عدة ايام من قرار الملك من رومانيا دكتاتورية جديدة بقيادة الجنرال أيون انتونسكو Ion Antonescu وقائد منظمة الحرس الحديدى هوريا سيما Horia Sima وحاولت منظمة الحرس الحديدى فى يناير ١٩٤١ التخلص من انتونسكو ولكن محاولتها باءت بالفشل . ولما انشئت الدكتاتورية العسكرية غادر هوريا سيما رومانيا متوجها الى المانيا وأعلن انتونسكو حاكما على دولة رومانيا .

ولما هاجمت المانيا يوجوسلافيا عام ١٩٤١ نظمت فى الحال حركات مقاومة عديدة كان أكثرها قوة الحركات الصربية الدولية بقيادة الجنرال درازا ميهاجلوفيك Draza Mihajlovic المعروف باسم تشتنيك Chetniks .

اما حركة المقاومة الشيوعية فقد قادها تيتو وقد عرفت باسم حركة « الأنصار Partisans » .

وأثناء هذه الفترة حافظت المجر على علاقات جيدة مع الألمان رغم ان حركة « الصلبان السهمية » المغالية فى الشوفينية قد نجحت فى تطويق الأدميرال هورتى Admiral Horthy ومحاصرته . اما النظام العسكرى ببلغاريا فكان مقاربا لمثيله الألمانى حيث ناضل من أجل ابقاء بلده بعيدا عن الصراعات التى أخذت تطل برأسها فوق المنطقة .

ولمدة سنتين تقريبا — بين سبتمبر ١٩٣٩ ويونيو ١٩٤١ عندما هاجم هتلر الاتحاد السوفيتي — اتخذت الأحزاب الشيوعية المحلية في بلغاريا وتشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندا ورومانيا موقفا غير مناوىء للنازية بل انها وجهت اللوم لبريطانيا وفرنسا اللتين اخذتا تعدان العدة للحرب وتجريان المناورات العسكرية · (وكانت يوجوسلافيا استثناء) · ويفسر رفض الأحزاب الشيوعية الشرق أوربية التورط في معارك مقاومة النازى ، وذلك بين أغسطس ١٩٣٩ ويناير ١٩٤١ ، أنها كانت تابعة للكومنترن الذى يهيمن عليه الاتحاد السوفيتي ·

وكانت توجيهات الكومنترن في اغسطس ١٩٤٠ الى هذه الأحزاب هى أن تقاوم بكل ما أوتيت من قوة مساعى الدوائر المؤيدة لبريطانيا والمؤيدة لفرنسا ـ تجار الحرب الامبرياليين » ـ وذلك لأن الدعاية الستالينية نددت فى شهور العسل مع هتلر بالديمقراطيات الغربية . بل ان الشيوعيين الفرنسيين تعهدوا بمد جسور التعاون الوثيق مع النازيين كما أن الاحزاب الشيوعية بأوربا الشرقية قامت بالمثل باعاقة جهود المقاومة ضد الالمان الا انهم اخفوا هذه الأعمال المشينة فيما بعد واختلقوا أسطورة الدور الحاسم للشيوعية فى مقاومة الغزاة الألمان فى بلدان شرق أوربا ·

وعندما هاجم هتلر الاتحاد السوفيتى فان الاتصالات بين موسكو والأحزاب الشيوعية فى أوربا جمدت وأصبحت هذه الأحزاب فى احدى الفترات حرة التصرف ، وهذا يفسر الاستراتيجيات — التى غلب عليها طابع الاستقلالية والجرأة ـ التى اتبعتها القيادات المحلية بما فيها الجهود التى بذلها الشيوعيون اليوجوسلافيون لاصلاح المؤسسات التى كانت ذات طابع سوفيتى دون علم ستالين أو موافقته ، وعلى نفس الشاكلة انخرط الشيوعيون البولنديون المحليون بقيادة فلاديسلاف جوميلكا Wladislaw Gomulk فى اعادة بناء الحزب الشيوعى واخذوا بيد حركة « الانصار » دون انتظار مباركة الاتحاد السوفيتى .

وفى سنوات الحرب كانت السمة المميزة للعلاقة بين الكرملين والأحزاب الشيوعية بأوربا الشرقية هى انقطاع المعلومات والدعم بين المركز وتوابعه ومن ثم ، انبثق داخل كل حزب شيوعى نواة محلية (وطنية) كما برزت قيادات محلية موازية تماما وبديلة لهؤلاء الدخلاء الذين تم اعدادهم فى موسكو · وفى يوجوسلافيا ، فان نزعات تيتو الراديكالية وميله للخروج عن سيطرة ستالين جعلت الأخير يدفع

تيتو نحو القيام بمبادرات لم يجن منها القادة الشيوعيون الا تدهـور علاقاتهم مع الائتلافات الغربية . ولابد أن نذكر هنا أن ستالين قرر في عام ١٩٤٣ أن يحل الدولية الشيوعية كدليل على حسن نواياه تجاه تشرشل Churchill وروزفلت Roosevelt .

وأصبح واضحا في آخر الأمر أن الانفصال الذى تم تبريره في وقت ما على أنه وعي الأحزاب المحلية الناضجة بأن حاجتها لتوجيهات موسكو قد تضاءلت ، استفاد منه ستالين لتحقيق طموحه الدعائى كى يخفف من حدة كره الأحلاف ومقتها للارث الذى خلفته الثورة البلشفية .

وحال تغلغل السوفيت في الأراضى الاقليمية لأوربا الشرقية قاموا بفرض سيطرتهم على الأحزاب الشيوعية وتولى « المسكوفيون Muscovities » (الشيوعيين الذين قضوا سنوات الحرب في منفاهم بموسكو) مناصب القمة وانضم كل من آنابوكر Anapauker وفاسيل لوكا Vasile luca الى جورج جورجيو — دج Gheorghe Ghearghiu-Dej كسكرتيرين للجنة المركزية للحزب الشيوعى الرومانى . وفى بولندا أصبح بوليسلو بيرت Boleslaw Bierut — رئيس حكومة لوبلين Lublin التى تدعمها موسكو — السكرتير العام للحزب الشيوعى البولندى الذى بادر بتصفية الشيوعيين المحليين وعلى رأسهم جوميلكا .

وفى تشيكوسلوفاكيا وغيرها استعاد السوفيت هيمنتهم السابقة التى كانت قد توقفت فعينوا المهاجرين السوفيث السابقين وهم على التوالى كليمنت جوتفالد Klement Gottwald ورودولف سلانسكى Rudolf-Slansky كرئيس ، وسكرتير عام الحزب الشيوعى فى يوجوسلافيا . وفى بلغاريا فان الحزب الذى تم تأسيسه محليا بقيادة ترتشيو كوستوف Tracho Kostov كان يجب عليه أن يشارك في السلطة مع هؤلاء المسكوفيين جورجى ديمتروف ، وفاسيل كولاروف Vasil Kolarov — ، وفلكو تشرتيكوف Vulko Chernekov واستولى الموسكوفيون فى المجر على السلطة تحت قيادة الحزب الشيوعى وأسسوا دكتاتورية متمثلة فى الرباعى المكون من ماتياس راكوسى Matyas Rakos السكرتير العام وتابعيه المخلصين ايرنو Erno و « جيرو Gero » (الموظف السابق فى مفوضية الشعب للشئون الداخلية NKVD (٣٦) الذى تولى مهمة تصفية الثورات التى قامت ضد ستالين فى برشلونة Barcelona (وذلك أثناء الحرب الأسبانية) وميهالى فاركاس Mihaly Farkas وجوتسيف ريفيا

والتابع السابق والمفكر الماركسي الشهير جورج Jozzef Revia لوكاس الذى تبنى الستالينية المتشددة ·

واستطاعت يوجوسلافيا أن تخلق نموذجا خاصا بها فنجح تيتو في خلق قاعدة جماهيرية فاعلة لنفسه ولرفاقه ومنهم ايفارد كاردلي Edvard Kardelj والكسندر رانكوفيك Alexander Rankovic وميلوفان جيلاس · ورغم الأحداث الدموية في الحرب العالمية الثانية شرع الشيوعيون اليوجوسلافيون رغم دعمهم الذى لم يضعف لستالين وللاستراتيجية الدولية السوفيتية في تحويل حركتهم الى حركة قومية · وكانت مشكلة الكرملين الحقيقية مع تيتو في أنه كان يكن الحب والاعجاب التامين والواضحين لستالين ورغم ذلك كان طموحه الأول أن يصبح نظير ستالين في البلقان ، وادى هذا التصميم الواضح من جانب تيتو على تحقيق طموحه الى دخوله في صراع مع الديكتاتور السوفيتي وهو الصراع الذى بدا خفيا أول الأمر الا أنه سرعان ما أصبح علنيا ·

وقام الشيوعيون اليوجوسلافيون بأعمال ارهابية ضد اعدائهم — النازى وغيره — وأقيم نظام سياسى سرى واستعيرت اساليبه القمعية بشكل مباشر من ترسانة البوليس السرى السوفيتي (٣٧) (NKVD) . وعمل تيتو على توسيع نفوذه في دول البلقان ، فأرسل مبعوثه سفيتوزار فكمانوفك Svetozar Vukmanovic ليوطد علاقاته مع الشيوعيين اليونانيين الذين انشغلوا في حرب اهلية ضد المؤيدين للنظام الاستبدادى الموالى للغرب · وكانت يوجوسلافيا تتعامل مع الأحزاب الشيوعية الألبانية الصغيرة بقيادة أنور خوجه Enver Hoxa — مدرس اللغة الفرنسية بمدينة تيرانا Tirana (٣٨) — من موقع الأخ الأكبر ·

وعندما قرر ستالين أن يستعدى تيتو ويطرده من حركة الأممية الشيوعية ، تذكر خوجة وزملاؤه الذل الذى لحق بهم على يد اليوجوسلافيين المتعجرفين ودعموا الحملات السوفيتية المعادية ليوجوسلافيا ·

أوهام وفوضى :

ما الذى وعدت به هذه الائتلافات الشيوعية كى تحرر أممها سياسيا ؟

ما هى المبادىء التى تبنوها وما هو برنامج العمل الذى سيطرحونه لتحديث النظم السياسية الاقتصادية والاجتماعية بدولهم ؟

ان مبعث هؤلاء الذين تورطوا فى انشطة شيوعية خلال الحرب العالمية الثانية هو تقديسهم التام ودون تحفظ للاتحاد السوفيتى ، اضافة الى القناعة التى كانت لدى معظم الشيوعيين وهى أن نضالهم ضد الفاشية هو جزء من التحرر العالمى والانسانى من العبودية .

فعلى تبنى الاتحاد السوفيتى لقضية التحرير الانسانى كان له اثر توسطت الأوساط المبدعين فالتحق العديد منهم خلال الفترة التى الشيوعية وهم على خلال سنوات المساومة ضد النازية بالحركة وتم التعتيم على المعلومات بأنها تقدم صيغة مثلى للمعقولية التاريخية . تفضح بشاعة التطهير الكبير Great Purge الذى جرى فى الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية USSR ، بل لقد رفض الكثيرون الأنصار توفر منها باعتبارها افتراء فاشيا .

ان المناورات الماكرة التى مارستها الديمقراطية الشعبية وخاصة بعد مؤتمر الكومنترن السابع 7th Comintern Congress المبنية حيث اتبعت استراتيجية « الجبهات الشعبية » (وهى المنظمات التى ترفع مظلة الهيمنة الشيوعية) جعلت الناس تؤمن بأن اوربا الشرقية سوف تحكمها بعد الحرب أنظمة ديمقراطية شعبية ، وبدا أن الشيوعيين يتصرفون باعتبارهم الممثلين الحقيقيين للتعددية واستخدمت اسطورة المجتمع الخالى من الطبقية حيث ستزال كل التوترات السياسية والاقتصادية وتستبدل بجنة أرضية ، حيث تسود المساواة بين البشر وهو ما استخدم كمبرر لرغبة المناضلين الشيوعيين فى الانغماس فى نضالهم الهادف . ولم تتوفر لدى دمى الكرملين وأوربا الشرقية أى نية لبناء نظام تعددى ، أو لبناء مجتمعات لاطبقية وظنت العقول المدبرة للكمنترن بأن وصول القوات السوفيتية لهذه البلدان سيمنح الأحزاب الشيوعية تفوقا سياسيا هائلا يدحرون به كل خصومهم .

ومنذ الثلاثينيات اصطبغت الأحزاب الشيوعية بالصبغة الستالينية بكل ما تحمله الكلمة من معنى الا أن الايمان بامكانية تحقيق الأحلام الاشتراكية كان لا يزال يراود البعض ، وأبدت هذه الأحلاف بصفة عامة استعدادها التام لخدمة مصالح الاتحاد السوفيتى ودون أدنى تردد . واعرب كثيرون عن استيائهم من الأحزاب المحلية الاشتراكية الديمقراطية التى أيدت اتخاذ طريق ثورى لتحقيق مجتمع أكثر عدالة . واتهم الشيوعيون خصومهم بأنهم عملاء للبرجوازية مستخدمين فى ذلك وسائل الدعاية الفظة كما حاول ستالين أن يحافظ على صورته (على

الأقل حتى تنتهى الحرب العالمية) كرجل دولة محنك وحكيم وذلــك بتخلى الشيوعيين الموالين للاتحـــاد الســـوفيتى عن رطانتهم وبتعهدهم بالعمــل كأبطــال للاستقلال القـــومى .

وأثناء سنوات الحرب العالمية الثانية كانت الأحــزاب الشــيوعية آنذاك تطالب وتعلى من شأن القيم الوطنية من خلال لجان تنظيمية ، والحقيقة أن كثيرين من مناضليهم قد حكم عليهم بالسجن او قتلــوا فى السجون الفاشية ، وقد أصبح هؤلاء رموزا للتضحيــة والبطولــة الحقيقية الا أن آلة الدعاية استغلت تضحياتهم بمهارة وقدمتها للجماهير كأدلة على مراعاة المصالح القومية . وكف الشيوعيون عن تلميـــع وتمجيد رموزهم ، ومدوا أيديهم لتشكيلات سياسية وذلك لخلق مظـلة واسعة من تلك الحركات التى كرست نفسهـا لاقامـة الحـكومات الديمقراطية المزعومة . ان تلك هى الخفايا التى تكمن وراء الأوهام التى تندر بها الكثيرون فى الغرب بما فيهم بعض صانعى القرارات السياسية واكثرهم تأثيراً عندما حاولوا ايجاد تفسير لموقف ستالين بشأن مـدى معقولية « الثورة العالمية » ومدى أهميتها .

ورغم أن هذه الأوهام كانت كالبوق بالنسبة لهـؤلاء الـذين لديهم الأمل فى تحقيقها ، الا أنهم تجاهلوا تماما الطبيعة التوسـعية للنظــام السوفيتى والتى كانت واضحة للغرب ، ممـا أدى الى عقـد عـدد من الاتفاقيات بما فى ذلك اتفاقيات مؤتمر طهران Teheran (١٩٤٤) ويالطا (٣٩) Yalta (١٩٤٥) . واقنــع الاتحــاد السوفيتى شركاءه الغربيين فى طهران ويالطا بأنه يملك الحق فى الدفاع عن مناطق نفــوذه فى أوربا الشرقية .

ولا يهم ما اصطبغت به اتفــاقية يالطـا من وعـود براقـة عن الديمقراطية ، فقد استغل الاتحاد السـوفيتى دوره الدولى ليقر نظمـــا تابعة له فى دول أوربا الشرقية .

وباســم النضال ضد ما خلقته الفاشـية من اضطهـاد بشع للأحزاب الديمقراطية بأوربا الشرقية تأسست الرقابة وتم التشديـد عليهــا وأنشئت نظم سياسية سرية لاضطهاد وملاحقة كل من يجـرؤ على نقــد الشيوعية . كانت معــاداة الشيوعية (أو معاداة السوفياتية) تعــد فاشية ، ولأنهم أدركوا عدم وجود أية عقبات تقف فى وجــه نفــوذهم ، فان الأحلاف الشيوعية المحلية بدأت فى التحرك بجرأة متزايدة .

ان الوجود العسكــرى لروسيا فى دول أوربا الشرقيـــة منح الائتلافات الشيوعية الجماهيرية أبواقا تهتف لهم وتحميهم وبذلك تكون

روسيا قد وظفتهم وبنجاح كى ما يحققوا أهدافهم
أوربا [illegible] وعودا [illegible] والتسامح
السياسى ، وعلى اية حال فان هذه الأحزاب — فى الواقع العملى
بادرت بالقيام بعمليات التصفية والتفير المستمرين وأرست قواعد هيمنتها السياسية التى اتسمت بالنزعة الفردية .

واستخدمت هذه الأحزاب — كى تحقق أهدافها — مجموعات صغيرة من الأحزاب — التقليدية الشعبية والتشكيلات السياسية والشخصيات السياسية البارزة والتى هيىء لها أن التعاون مع المحتل ستالين سيضمن بقاءهم فى مناصبهم السياسية . ولم يرغب الشيوعيون على أية حال فى التورط فى السلطة ومنطق اللينينية بدكتاتوريتها العسكرية وبممارستها السلطوية المطلقة جعلت الشيوعيين يستعدون على نحو أفضل لكسب الجولة ، كما كانوا على اقتناع — بعكس أعدائهم — بأن نظام الحزب الواحد فقط هو القادر على حل مشكلات بلادهم كما كرهوا بشدة النظام البرلمانى ونظروا للبنى الديمقراطية على أنها انظمة عضال .

وعلى عكس منافسيهم لم ينقسم الشيوعون فى خطوط أيديولوجية وعقائدية ، وانما كانوا تجمعات متماسكة ومتناغمة قلبا وقالبا وحقيقة فان هذه المجموعات لم تكن متناغمة بالقدر الذى تنشده ، بل كان هناك بعض النزاعات التى لم تكن بسبب الاختلاف حول مسائل عقائدية أو استراتيجية بقدر ما كانت بسبب الصراع على السلطة والمناصب القيادية . وكان الشيوعيون بارعين فى منح روح الدعم غير المشروط للقوى التى يقفون بصفها تلك القوى التى تطيع أوامر قيادتها دون أدنى اعتراض أو تردد .

ولكى تكون شيوعيا حقيقيا عليك محاصرة أى شخص يطالب بحرية الفكر أو الحرية الشخصية وذلك لتحقيق مصالح الكيان .

وبينما كانت القضية هى الاضطلاع بالسلطة واقامة ديكتاتوريات على الطراز السوفيتى فان الحزب الشيوعى تصرف ككيان واحد دون أى اثر للفوضوية السياسية او الاجتماعية ، ان عقيدة ستالين هى الاطار الذى يجمع هذه الأحزاب وهى البديل الكودى للينينية وقد اكتسبت بعد انتشار الجيوش الشيوعية حول العالم صفة الدولية ،

ولأن الستالينية حقيقة بينة فان من المتوقع من أعضاء الحزب أن يؤمنوا بمعتقداتها ويكون هذا الايمان مشوبا بعواطف دينية ، بل وينكروا ذواتهم واستقلالهم الشخصي والعقلي ويخدموا الحزب بنفس الحماسة، بل ان المستنيرين منهم [illegible] التي تطل عليهم النبوءة السحرية [illegible] كان الأمر خيالا اسطوريا أقرب ما يكون [illegible] مطلق . وأخذت التجربة بما فيها من سحر بألباب المناضلين حيث كانت طريقا لتجاوز أى شكل من أشكال الاغتراب وتحقيق الحرية السياسية عن طريق الخلاص التاريخى (٤٠) .

وكان مناضلو الحزب على اقتناع تام بأن البشر فى حاجة للنموذج الستالينى بما اتسم به من خطط جامدة ومبادىء كلية ، تقوم بتلقين التعاليم « للانسان الجديد » كما كانوا مؤمنين بأن هذا النظام يفوق بنية العالم البرجوازى الذى يعمه الصراع المتمثل فى التناقض بين الذى يملك والذى لا يملك (المعوز — المعدم) وبين فئة الانتلجنسيا المعزولة والسلطة . وقد اعتقدوا بأن تصدير المؤسسات التى على الطراز السوفيتى لبلدانهم سوف يضمن التحديث والنمو الاقتصادى السريع .

ولتحقيق هذه الأهداف الخاصة بالتقدم والتحديث ، فان العديد من الأحزاب الشيوعية بأوربا الشرقية شرعت فى عمليات تخريبية ذات آثار محبطة على المجتمع المدنى . وكان الهدف الرئيسى للممارسة فى هذا القرن فى الواقع هو : ابادة مصادر الابداع البشرى ، وعزل الأفراد عن بعضهم البعض والزج بهم فى هوة الخلافات والعداوات وتقويض أواصر التضامن وتدعيم تفوق سيادة الحزب ، وتمجيد السلطة المطلقة والهيمنة الكلية . وذلك تطلب ضرورة اختفاء الاتحادات والجماعات السابقة واعادة صياغة المعانى السامية للوطنية والعائلة والعادات القومية فى ضوء العقيدة الشيوعية ، بل لقد تم فرز شامل للتراث الثقافى لكل بلد ومراجعة المسلمات الأخلاقية بما فيها تلك المهمات التى اشتقت من التقاليد الأوربية الانسانية فى ضوء رؤية العقيدة الماركسية للصراع الطبقى .

لقد لاقت وعود الاشتراكيين بالدفاع عن مصالح المعدمين فى مواجهة الاغنياء وبدعم المقهورين بسبب الظلم الاجتماعى قبول الشعوب التى تعانى من الصراعات الاجتماعية المفرطة وذلك قبل الحرب العالمية الثانية ، ومن ناحية أخرى وعد الاشتراكيون باعطاء المبدعين وضعا اجتماعيا مرموقا ، وهى الفرصة التى اعتبرها كثيرون من المفكرين هبة من الله لن تعوض .

لقد أساء الشيوعيون استخدام ثقة الطبقة العاملة عندما ادعوا أن حزبهم هو مستودع كل المبادىء الانسانية وقد قدر التاريخ له أن يكون القوة الحاكمة فى المجتمع . وتغلغل أعضاء الحزب فى النقابات وسيطروا تماما عليها باعتبارها « الطريق » الى الطبقة العاملة . ورغم أن الشيوعيين كانوا يدافعون عن البروليتاريا ، الا أنهم لم يثقوا فى هذه الطبقة التى حاولوا — باسمها — أن يصلوا للسلطة اذ نظروا للعمال على أنهم مجرد جماهير مراوغة وتجمع غير فعال عاجز عن فهم مصالحه الخاصة ، أما الشيوعيون الحقيقيون فهم الأقلية المثقفة التى اثرتها مهمتها السامية واعتبرت أية معارضة لخطط حزبهم جريمة .

النشوء ونظرية المعسكرين

بعد عامى ٤٤ — ١٩٤٥ المأساويين ومنذ أن أعلن السوفيت بانهم لا يهدفون الى اقامة انظمة شيوعية فى شرق وقلب أوربا بدأت الأمور تتغير فى عام ١٩٤٦ . وبلغت الحرب الباردة Cold war ذروتها ودخلت الحرب الأهلية فى اليونان والتى بدأت عام ١٩٤٤ مرحلة اسوأ من ذى قبل ، وهاجم الغرب بشدة الممارسات السياسية الشيوعية التى اتسمت بالعنف مما جعل ستالين يدرك أن الوقت قد حان للتخلى عن الشعارات التى ترفع التهدئة وخاصة فيما يتعلق بالجبهات الشعبية والائتلافات القومية . كما كان المناخ مناسبا فى الكرملين لظهور الصراعات الشرسة من أجل النفوذ وذلك بين فريقين تنازعا ليكون لأحدهما اليد العليا فى بطانة الطاغية العجوز ، أحدهما مكون من عملاء موسكو بقيادة جورجى مالنكوف Georgy Malenkov ولافرينتى بيريا Lavrenty Beria ، والآخر من الرئيس السابق لحزب لينينجراد اندرى زدانوف Andrei Zhdanov (٤١) اذ بذلا محاولات مستمرة ودءوبة كى يبرهنوا لستالين على التزامهم التام الذى لا يعرف الكلل بمبادىء الصراع الطبقى الدولى .

ويرى زدانوف أن اللجنة البريطانية وهى الدعامة الأولى للقوى المعادية للشيوعية فى اليونان أولا ثم قرار الولايات المتحدة لاقرار العلاج الاقتصادى فى أوربا الغربية من خلال خطة مارشال Marshall Plan (٤٢) ثانيا كانا مؤشرين واضحين على أن المهلة الخاصة بالاتفاق الدولى مع الأحلاف « البرجوازية » السابقة بلغ نهايته ، ورأى كهنة الأرثوذكسية

الستالينية ، أن المرحلة الجديدة فى الصراع العنيد بين قوى السلام والتقدم والقوى الرجعية ودعاة الحرب قد بدأت .

ولم يعد هناك أى متسع للبحث عن «الطريق القومى للاشتراكية»، ثم كانت صيحة الحرب التى أصدرها زدانوف لكل الشيوعيين والقوى التقدمية ، فالتفوا حول الاتحاد السوفيتي باعتباره « قلعة الأحلام الانسانية عن المساواة والسعادة » ، ان النظرية التى أنشأها زدانوف رجل ستالين الأول وقيصر أيدلوجيا الكرملين هي مهد فكرة الأممية وسبب انتشارها حتى موت ستالين فى ماس ١٩٥٣ .

وقد أوضح زدانوف استراتيجيته الخاصة بتقوية الصراع الطبقى الدولى وتوضيح مدلولاتها لأوربا الشرقية وذلك فى الاجتماع السرى الذى تم فى بولندا فى مدينة تسكلارسكابوربا Szklarskporeba فى ديسمبر ١٩٤٧ ٠ وفى هذه المناسبة اجتمع ممثلو الأحزاب الشيوعية البلغارية والتشيكية والفرنسية والبولندية والرومانية واليوجوسلافية لمناقشة رد الأحزاب المشترك على ما أسماه ستالين السلوك العدوانى الجديد للامبريالية الأمريكية وبلغ الاجتماع السرى هدفه بتشكيل مكتب معلومات للأحزاب الشيوعية وأحزاب العمال فى مدينة بلجراد Belgrade ويشار لهذه المنظمة الجديدة باسم الكومنفورم Cominform الذى يدل على رغبة موسكو فى احتواء التيارات المبعثرة داخل عالم الشيوعية ، ورغم أن الهدف من انشاء الكومنفورم جعله امتدادا للكومنترن الا أنه افتقر للمنزلة التى تمتعت بها الأممية علاوة على عدم انضمام بعض الأحزاب المؤثرة للكومنفورم منها الحزبان الشيوعيان الصينى واليونانى لانخراطهما فى حروب أهلية .

بل لقد غاب عن الكومنفورم حزبا البانيا والمانيا الشرقية وهذا يعنى أن الكومنفورم لم يضم كل الأحزاب الفاعلة على الساحة الأوربية، أو قل التى تتمتع بنفوذ وسطوة . . . .

وكان صوت الشيوعيين اليوجوسلافيين صوتا مسموعا مطالبا بتوحيد الجهود ضد الغرب واتهموا زملاءهم من ايطاليا وفرنسا بـ « الانهزامية » و « الاستسلام » و « الانتهازية اليمينية » ، ومنذ الاجتماع السرى فى تسكلارسكابوربا أصبح لزدانوف مكانة عالية مرموقة فى الإتحاد السوفيتى وبين كل الشيوعيين ، وبعد عام واحد فقط منذ أن وجه اللوم للشاعرة آنا أخماتوف Ann Akhamatov والفنان ميخائيل زوتشنكو Mikhail Zoshchenko لانحرافهما عن عقائد الواقعية

الاشـــتراكية والتى ترى انه « يجب أن يرتبط الفـــن بمهمة الانتقـــال الأيديولوجى وتنشئة العمـــال على الروح الاشتراكية (٤٣) ومن خـلال حملة ١٩٤٦ المعـــادية للثقافة كون زدانوف نظـــرية شوفينية مضـــادة للغرب والخاصة بالادعاء الروسى بالتفوق الأخلاقى والتزام المثقفيـــن بالتكيف مع أوامر الحزب على نحو صارم :

« ان حضارتنا التى تعبر عن المستوى المعيشى المرتفع اذا قورن بنظيره فى الدول البرجوازية وثقافتنا التى تتفوق عن مثيلتها فى الدول البرجوازية من حقها ان ترشد الآخرين لنظام اخلاقى شعبى جديد ، اين يمكنك ان تجد مثل امتنا ؟ اين يمكنك ان تجد مثل هـــذه الصـــفات الانسانية الرائعة التى يتمتع بها شعبنا السوفيتى فى حرب ارض الأجداد Fatherland ··· ان الـــكاتب لا يســـتطيع أن يتـــابع الأحـــداث الا عندما يكون فى الصفوف الأولى للجماهير ، يجب أن يريهم الطريق الى التقدم ولكن فى ضوء الواقعية الاشتراكية ومسترشداً بالدراسة الواعية للواقع وبمحاولة فهم اسس نمونا وتطورنا » (٤٤) ·

واهـــاب زدانـــوف فى الاجتمـــاع السرى لتأسيس الكمنفـــورم بالشيوعيين لاصدار بيان فحواه أن اتحاد الجمهوريـــات الاشتراكيـــة الســـوفيتية هو الذى يجسد حقـــا الأهداف الانسانية للصـــراع المعادى للنازية بينما قاومت القوى الغربية هتلر لأسباب ترجـــع لأطمـــاعهم وأهدافهم الامبريالية فقط ·

وكشف هذا البيان مدى صعوبة الموقف السوفيتى المحلى والدولى اذ اهتم بحشو العقول بالأخيلة الأيديولوجية وبالهجـــوم الانتقـــامى ضد الغرب ، ورأى المنظر الأول لستالين أن الاتحاد السوفيتى والبلـــدان الديمقراطية الأخـــرى لابد أن تجعـــل اعـــادة وتقـــوية أواصر النظـــم الديمقراطية فى أوربا ، وابادة الفاشية ومنع اى اعتداء جديد على أى جـــزء من ألمانيا واقامة تعـــاون ممتد وشـــامل بين الدول الأوروبيـــة من أهدافها الأساسية ، ومن ناحية اخـــرى حققت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى هدفا آخر من وراء دخولهم الحرب وهو اقتحامهم الاسواق كمنافسين لألمانيا واليابان وبذلك فرضـــوا هيمنتهم ، واستمر زدانوف فى جداله قائلا :

« ان الفرق بين تعريف أهداف الحرب ومهام الاستقـــرار التى تلى الحرب تأخذ ابعاداً اكثر عمقا بعد انتهاء الحرب وبناء عليـــه تم تشكيل معسكرين ، المعسكر الامبريالى والمعادى للديمقراطية ، وهـــدفه الأساسى هو فرض هيمنة الامبريالية الأمريكية وســـحق الديمقراطية ،

والمعسكر المعادى للامبريالية وهو معسكر ديمقراطى كان هدفه الرئيسى هو تقويض أواصر الامبريالية وتدعيم الديمقراطية ، وابادة كل اثر للفاشية » (٤٥) .

وكان قصد زدانوف قاطعا لا يشوبه أى غموض فهو يرى أنه لا يوجد طريق وسط بين الاشتراكية على الطراز السوفيتي والرأسمالية الغربية ، وترجمت رؤيته العقائدية Manichean هذه فى التعجيل والاسراع بعملية فرض هيمنة روسيا على البلدان الشرقية (٤٦) وتبعيتها لها ، وعندئذ فرض على أوربا الشرقية نموذجا يكمن فى التخلص التام من التوجهات السابقة على الصعيد الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والثقافى ، وكذلك اقصاء كل الأعداء الذين يتمتعون بثقل حقيقى على الصعيد السياسى .

وشيدت البنى الجديدة على انقاض هذه المجتمعات المطحونة والتى يتم اخضاعها بفرض التبعية عليها ومن ثم تحويلها لنسخ كربونية من المجتمعات السوفياتية من حيث : البرلمانات الببغائية ، والسيطرة الشيوعية على كل أجواء ومجالات المجتمع واقامة مجمع لمعسكرات الابادة ليتولى أمر العناصر السياسية المشكوك فيها واقامة مؤسسة للاقتصاد المركزى حيث تلغى الملكية الخاصة تماما وتستبدل بملكية الدولة لكل مصادر الثروة .

وفى رومانيا ، على سبيل المثال ، بدأ تطبيق هذا النموذج فى مارس ١٩٤٥ : وقد قام نائب وزير الخارجية السوفيتى اندريه فيسينسكى Andrei Vyshinsky بزيارة لرومانيا وأجبر الملك ميخائيل على تعيين بيترو جروتزا Petru Groza رفيق نضاله على درب الشيوعية كرئيس وزراء رومانيا . وعندما رفض الملك ازدادت لهجة النائب العام السوفيتى حدة وهدد بالتدخل السوفيتى . وفى نفس الوقت عبأ الشيوعيون جحافلهم المقاتلة ونشروا الارهاب فى أرجاء البلد . لذا فان الملك استسلم للأمر (الدكتات) السوفيتى ، وسقط البلد فى أيدى الحكومة التى عينت من قبل السوفيت وعين الشيوعى تيورى جورجسكو Teohari Georgescu وزيرا للداخلية مؤكداً بذلك على مدى تدهور النظام الديمقراطى واكتمل التحول للسوفياتية فى ديسمبر ١٩٤٧ وذلك عندما أجبر الملك على التخلى عن عرشه وأعلنت رومانيا جمهورية شعبية وحدث نفس السيناريو فى معظم بلدان أوربا الشرقية ، ففى المجر احتل الشيوعيون المناصب الاجتماعية ، وشغلوا كل المواقع الحيوية بالحكومات .

وأشـــار الزعيم الشـــيوعى ماتيـــاس راكوسى Matyas Rakosi ــ متهكما ــ الى « الاستبعاد » الذى يتم للشركاء غير الشيوعيين فى الحكومات الائتلافية (٤٧) وعلى عكس المجريين استخدم الشيوعيون البلغاريون تكتيكات « المواجهة » لاضعاف منافسيهم أولا وليصلوا الى السلطة ثانياً (٤٨) . وفى بولندا برز الشيوعيون مرة أخـرى أثناء الحرب تحت اسم حزب « العمال البولنديين » « Polish Worker Party » بقيـادة القائد السرى فلاديسلاف جومَيلكا والذى حاول أن يستدر مشاعر الجماهير القومية ولكنه لم يجد أى مردود لدى الجماهـير التى ظلت تنظر الى الشيوعيين على أنهم أدوات للحكومة السوفيتية . وانخرط الشيوعيون فى عملية « التهدئة » وذلك بما مارسوه من قمع حاد لآخر جيوب المقاومة المسلحة ضد الشيوعية بمساعدة ودعـم من الاتحـاد السوفيتى ، مستغلين مواقعهم القيـادية فى الوزارات المختلفة .

ويسجل أحد السياسيين البولنديين الذين شهدوا على هـذه الواقعـة ملاحظاته الآتيـة :

« ... فى السـنوات التى تلت الحـرب مباشرة لم تكتسب الأحزاب الشيوعية وحلفـاؤها دعمـا شـعبيا مؤثرا فى بولنـدا بل وظلت الغالبية العظمى من البولنديين موالين مخلصين للبولنديين فى المنفى ودعمـوا المعارضة التى قادها حـزب الفلاحين البولندى . ولم يتبـول النظـام الشيوعى السلطة فى بولندا ، اذ كان هنـاك صـراع عنيف بين حزب العمـال البولندى ومن ورائه القـوة العسكرية السوفيتية والقـوى السياسية المعـادية للشيوعيين ومن ورائها الغالبية الساحقة من الشعب البولنـدى » (٤٩) .

وما يؤكد استمرار المقاومة البولندية المعادية للشيوعية هـو الاصرار العنيد على الاتصـال بالكنيسة الكاثوليكية . وكـان وضـع الكنيسـة الكاثوليكية المتجاوز للقوميات والمثل فى تبعيتها للفاتيكـان مصـدرا للدعم الدولى ، بينما حاول الشـيوعيون قطـع أية آصرة بين الجمـاعات المحليـة والعـالم الخـارجى . وفيما بعد ستمثل الكنيسة الكاثوليكية معقلا للمجتمع المدنى البولندى رغم حصار الشيوعيين لها .

وكانت تشيكوسلوفاكيا هى آخر الضحايا التى سقطت فريسة للسياسات السوفيتية المدمرة . وقد دبر الشـيوعيون لحشد مظـاهرات ضخمة فى فبراير ١٩٤٨ لاجبار الوزراء المعادين للشيوعية على الاستقالة لما زعم عن قيامهم بأنشـطة تآمرية . واضـطر الرئيس أدوارد بنيس

Edward Benes الى أن يذعن لاذار الزعيم الشيوعى كليمت جتولد الذى شكل حكومة جديدة خالية من ممثلى الأحزاب الديمقراطيــة . وأصرت الدعاية الشيوعية على أن يتم لها الغلبة فى تشيكوسلوفاكيــا بطريقة سلمية ودستورية .

وعلى أية حال فالحقيقة هى أن الشيوعيين كانوا يعدون أنفسهم من أجل الحسم العسكرى للقوى الديمقراطية وكانت فصائل الميلشيات مستعدة للعمل العسكرى فى المصانع التى تقع فى كل أنحاء القطــر . وساهم تواجد فاليرين زورين Valerian Zorin نائب وزير الدولة السوفيتى للشئون الخارجية عند وقوع الانقلاب العسكرى فى الضغط على المعارضة ، واعترف واحد من المشاركين فى هذا الانقلاب بعــد عشرين عاما من ضربة فبــراير خــلال ربيــع بــراغ Prague Spring ١٩٦٨ قائلا :

« لقد افسدنا صورة قصة فبراير ... وزورنا التاريخ الحقيقى لفبراير واشعر اننى لم أكن أمينا ابداً فى السرد ، الآن فقــط ارى ان الوقت قد حان لعمل دراسة ناقدة تجعلنا نضع ايدينا على الأخطــاء وانصاف الحقائق والحقائق الزائفة التى روجت فى فبراير ١٩٤٨ داخل ارجاء الوطن وخارجه » (٥٠) .

ووصف زدانوف الانظمة الجديدة فى أوربا الشرقية بأنها لم تكن دكتاتوريات بلوريتارية ناضجة ، بل هى مشــاريع لصيغ سياسية جديدة تسمى « الديمقراطيات الشعبية » (٥١) . وقد عكست الجريدة الرسمية للكمنفورم الصيغة السياسية الجديدة فى شعارها « من أجــل ســلام دائم ، من أجل الديمقراطيات الشعبية » وكان ستالين نفسه هو الذى ألف هذا الشعار الطويل . لقد كان هذا الشعار الأخــرق محاولة لاجبار الاعلام الغربى — متى ذكروا صحيفة الكمنفورم — أن يرددوا شعاراتها .

لقد كشفت ضربة براغ فى فبراير ١٩٤٨ عن لهفة ستــالين كى يغرى الأحلاف الشيوعية الشرق أوربية لقبول منحة الغرب لاسداء العون لهم من خلال خطة مارشال Marchall plan . واعتقد ستالين باغراء من خطة مارشال المشار اليها بأن الوقت قد حان للكف عــن تشجيع أو قبول أى مبادرات سياسية تأتى من جــانب الشيــوعيين المحليين . أن ما يقوم به ستالين يبين أن الكمنفورم جاءت للوجود من أجل توحيد كل من السياسات الداخلية والخــارجية للأنظمة التى انشئت حديثا فى ضوء التفسير السوفيتى للتغيرات التى تتم فى ميزان القــوى

الدولى ، كما استهدف ستالين من تكثيف التناقضات الامبريالية جعل الهجمات ضد الأقطار الشيوعية أكثر ضراوة ولم يسمح لأحد باختراق الصفوف فى هذا المنعطف التاريخى الخطير .

وقد دعم تيتو وبحماس توجه ستالين الجديد رغم أن الفرصة كانت سانحة لتيتو كى يتوسع فى برنامجه الخاص .

ولسخرية الأقدار لم تتلاق وجهتا النظر السوفياتية واليوجوسلافية للصراع الطبقى الدولى وظلا خطين متوازيين لا يلتقيان حتى ان الصدام بين البلدين كان واقعا لا محالة . وتجاهل تيتو سلوك ستالين الغيور وبادر بمشروع من أجل كونفدرالية دانوبية Danubian تتضمن يوجلاسلافيا وبلغاريا ، وربما رومانيا .

اما الاتصالات السرية لتيتو مع المسكوفيين فقد كان السوفيتيون على علم تام بها باعتبارها تحديا لسيادة روسيا العظمى على الجميع داخل المعسكر الشيوعى بل وداخل الحركة الشيوعية العالمية .

لم يستطع ستالين أن يتحمل وجود قطب للسلطة يضاهيه ويناوئه ، فكرس جهوده على ترويض قيادة يوجوسلافيا المتمردة . وتبودلت الخطابات بين الكرملن وتيتو ولكن دون جدوى . وهكذا سبق السيف العذل ولم يعد فى مقدور القيادة اليوجوسلافية التراجع عن الانشقاق وفور رفض تيتو الخضوع للنفوذ السوفيتى الذى ينم عن شعوره بالتفوق ، تحول لعدو لدود للديكتاتور السوفيتى ، واعتبر ستالين كل المنشقين والمنتمين للتروتسكية Trotskyism وكل « الحركات المنشقة » الأخرى أشرارا لابد من القضاء عليهم واستئصالهم تماما فى الاتحاد السوفيتى .

ان النزاع مع يوجوسلافيا خاصة بعد أن قطع تيتو اتصالاته مع الكمنفورم فى يونيو ١٩٤٨ أعطى اشارة البدء للمذابح الدراماتيكية داخل أحزاب شرق أوربا الشيوعية. ولكنه يشير فى ذات الوقت الى ان هيمنة الاتحاد السوفيتى على الدول الأخرى لم تستطع أن تقمع الاتجاهات الوطنية المحلية حتى داخل أكثر الحكومات الشيوعية تأييدا للسوفيت . ومع ذلك فقد كرس تيتو كل حياته من أجل القضية الشيوعية . لقد أصبح تيتو قائدا بموافقة ستالين ولكن خطأ تيتو القاتل ــ من وجهة نظر ستالين ــ هو امله فى الاحتفاظ بحكمه المستقل الدستورى ليوجوسلافيا وبعلاقته بالكرملن فى آن واحد .

وفى هذا الوقت الحرج وبالتحديد عندما قرر الامبرياليون .ن يكثفوا أعمالهم العدوانية ضد « الديمقراطيات الشعبية » مع ظهور شواهد لحرب عالمية ثانية وشيكة ، قرر ستالين انه لن يسمح لأى بلد او زعيم بالتورط فى التجارب الخاصة بالأممية الدولية فالزعيم يعتبر الأممية خيانة للاتحاد السوفيتى بل وخيانة للمبادىء اللينينية الماركسية المقدسة ومن ثم وجهت ابشع التهم لهؤلاء الأممين ومنها التعاون مع الجستابو Gestapo ووكالات الاستخبارات الغربية . لقد كانت الفردية هى عقيدة الستالينية ومن ثم وجب أن تستأصل ودون رحمة كل الانجاهات المعادية لفكرة سيطرة « الواحد » . لقد كان الهدف من الكومنفورم توحيد سياسة الأنظمة التى تأسست حديثا بما يتلاءم مع راديكالية السلوك الدولى السوفياتى وبما يضمن منع مثل هذه الصدامات ، الا أن الشرط الوحيد لمنح الشرعية للأحزاب الشيوعية الحاكمة أن ندور فى فلك الاتحاد السوفيتى ، وان تنفذ جميع توجيهات ستالين دون احجام . وقد فرضت الأحزاب الشيوعية فى أوربا الشرقية بالقوة وبفضل ستالين وصلت الى المواقع القيادية ، ومن ثم نعم القادة الحزبيون داخل بلدان عدة فى الكتلة السوفيتية بتقديس شعوبهم الا انهم لم يكونوا سوى ظلال تعكس ايمانهم الشديد بالزعيم ستالين .

وقال جوميلكا الزعيم الشيوعى البولندى عن القادة المحليين انه **« يمكن اعتبارهم مجرد ظلال او ضوء مستعار ، انهم يضيئون مثلما يضىء القمر » (٥٢) .**

لقد رأى ستالين أنه لا مجال للشك وحذر من التفكير والذكاء الناقد ونظر الى الماركسية على أنها الحقيقة الكلية المنزهة عن كل شك ، وادعى ستالين أنه سيحسم كل القضايا الشائكة والمواقف المحيرة بما له من وحدوية كلية مزعومة . لقد احتفى بكوادر النظام العسكرى العدوانى السلطوى وكان الزعيم هو الضمان الوحيد للنقاء الأيديولوجى والخضوع التام لأوامره هو التصرف الوحيد المقبول اجتماعيا ، ومن ثم تحطم مبدأ الحكم الذاتى المدنى وحل محله الطاعة العمياء من جانب المناضلين السياسيين . وكى تتحقق الوحدة الأيديولوجية والنظام الصارم فان الماركسية ابتكرت وأتقنت طريقة « التطهير » والتى كانت الدعامة الأساسية للسيادة الستالينية وهى البديل العصرى لمقصلة العصور الوسطى . وقد تبناها صبية ستالين الأوربيون الشرقيون وكيفوها حسب أغراضهم . وأصبح الحزب هو القائد

الأعلى الذى يطبق حرفيا منهج ستالين ووجد الشـــعب فى مؤلفـــات ستالين اجابات للأسـئلة المســتعصية · وقد وصف كل مناوىء بأنه « عدو الشعب » ، وحكم على اعضاء الاحلاف السياسية التقليدية ، وأعضاء الكنيسة ، وممثلى الانتلجنسيا القومية الذين رفضوا التعاون مع الأنظمة الجديدة بالسجن لمدد طويلة من خلال محاكمات صورية أو محاكمات سرية خاطفة ، وهذه هى المرحلة الأولى للتطهير فى أوربـــا الشرقية . واقتاتت المذابح بعد عام ١٩٤٩ بالأحلاف الشيوعية نفسها وراح ضحيتها هـؤلاء الستالينيون المخلصون ، بل كانوا أول من دفع ثمن آلة الارهاب الشرهة ·

ويرى الفيلسوف البولندى المولد لتسك كولاكفسكى ان المذابح ساهمت فى القضاء على البقية الباقية من الحكم الذاتى الذليل وخلق جو اشتراكى لا يجرؤ أحد على نقـده :

« ان هدف الشمولية هو تحطيم كل أشكال الحياة الطائفية التى لا تقرها الدولة بل تقوم بمراقبتها عن كثب وتفرق بين الأفراد ليتحولوا لأدوات فى يد الدولة التى ينتمى لها المواطنون ولا يجب ان يحملوا لغيرها أى ولاء ولا حتى ايديولوجية الدولة » (٥٣) ·

لقد كان ستالين المستفيد الوحيد من تفسير وتأويـل العقـائد الأيديولوجية لتلائم التغيرات فى الخط الرسمى للحزب واتسمت الأيديولوجيا بالغموض والجمود وكانت خليطا من الأعراف البالية والتحريمات ، التى لابد للفرد أن يعتنقها ويطيعها طاعة عمياء . وفى الـوقت الذى كـان السـياسيون الحـزبيون أبرياء ممـا وجـه اليهـم من تهـم ، فقـد حاول الســتالينيون قمعهـم ، لأنهم كانوا رموزا لتقـاليد سياسية مرفوضـة ووصفتهم النظرية الستالينية المزعومة بأنهم طبقة من « الاعداء الموضوعيين » وذلك لانهـم عبـروا عن تحفظهـم على الممارســات السوفيتية بل وانتقدوا ستالين نفسه وما حدث من جدل وخلافات مـع تيتو كشفت عدم الثقة التى تفشت بين زعماء شرق أوربـا ومنهـم لاتسلو راجيك **Lazlo Rajk** فى المجر وكان قد شارك الحرب الأهلية ومد أواصر الصداقة مع حاشية تيتو . وكان الغرض من عملية التطهير المستمرة هو القضـاء على اية مبـادرات محليـة والتأكيـد على استمرار الهيمنة السوفيتية على الدول التابعة لهم تامة .

ويرى زبجنيـو بريجينيسـكى **Zbigniew Brzezinski** المحلية شيئا مبـالغـا فيه بل ان الأمـر مجـرد « انشـغال غير واع بالأهداف

المحلية الأهلية الشيوعية على حساب الأهداف السوفيتية الأعم والدولية » (٥٤) . لقد نظر للمحلية على أنها فلسفة غير حكيمة لمعارضة السيطرة السوفيتية ، وانها تأييد لرؤية بعض الزعماء الشرق اوربيين أمثال فلاديسلاف جوميلكا فيبولندا ولكريتو باترسكانيو Lucretiu Patroscanu فى رومانيا وتريتشيو كوسنوف Traicho Kortov فى بلغاريا ، ولا يعنى ذلك ان المصالح القومية تعارضت بالضرورة مع جدول الأعمال السوفيتى · وبعد ردع كل المبادرات والأهداف المحلية بدا أن الحكام « المحليين » الشرق أوربيين لم يكونوا على صواب وتعرض معظمهم اما للموت أو السجن لاتهامهم بأبشع التهم وأسخفها .

وأصبحت المحلية ظاهرة دولية وسعى ستالين لاقتلاع هذا الاتجاه وهو برعم والا ستصبح خطرا يهدد الهيمنة السوفيتية التى عمل على فرضها على كل دول أوربا الشرقية ، وتعرضت التيتوية Titoism باعتبارها محاولة شجاعة وخطيرة لاعادة الرأسمالية ولفصل يوجسلافيا عن : عائلة الأشقاء الاشتراكيين لهجوم الكمنفورم وأصبح هدفه الأول ـان لم يكن الوحيد هو قمع مثل هذه الطموحات المحلية · وكان القضاء على المحلية نهائيا والى الأبد وفرض الوحدة على هذه الدول شيئا لا بد منه . وعبرت وجهات النظر السوفيتية عن مدى الهيمنة السوفيتية التى لاقت كل التقديس باعتبارها معصومة من الخطأ .

ولتحقيق المخطط الستالينى فى أوربا الشرقية تم اتباع استراتيجية واحدة تؤدى فى نهاية الأمر الى تحويل الثقافات السياسية القومية المتعددة لنسخ كربونية من التجربة السوفياتية التقدمية . وتورطت الأحزاب الشيوعية المحلية فى محاولات مشبوبة لتقليد النموذج الستالينى واحيانا تعزيز أكثر سمات النظام الشمولى السوفيتى بغضا محققين بذلك غايات استراتيجية .

الأهداف الاقتصادية : التصنيع

وفى المجال الاقتصادى كانت ستالينية شرق أوربا تعنى تبنى نموذج الاقتصاد المخطط . وتشكلت اللجان العامة للتخطيط فى كل البلدان الاشتراكية الشرق أوربية . وكانت مهمتها هى رسم المهام الأساسية للاقتصاد الذى تملكه الدولة ومن ثم بنى اقتصاد الدولة المخطط على تأميم وسائل الانتاج الرئيسية .

وقامت الديكتاتورية الاقتصادية الستالينية بدور مهم لاقامة

الصناعة الثقيلة خاصة الصناعة الآلية الكبيرة ، ونطبيقا للعقيدة السوفياتية القائمة على مبدأ الاكتفاء الذاتي الاقتصادى الا أن فرض التصنيع على دول مثل رومانيا وبلغاريا التى تفوقت فى السابق فى المجال الزراعى يعد خرقا للمسيرة الاقتصادية الطبيعية ويقضى على المصدر الأساسى المتاح للنمو الاقتصادى وهو الزراعة ، ومن ثم شرعت كل الدول الشرق أوربية فى اقامة بنية صناعية وتجاهلوا تماما أهمية التوازن بين الفروع الاقتصادية المتعددة . وأدى الافتنان بالتصنيع السوفيتى الى اطلاق العنان لمشاريع ضخمة Pharaonic مثل مد القنوات واقامة مصانع الصلب دون الأخذ فى الاعتبار النماذج الاقتصادية الأساسية .

لقد أقيمت هذه المشاريع لأسباب أيديولوجية بحتة بصرف النظر عن مدى فاعليتها حتى اذا ما فشلت فى تحقيق النتائج المرجوة فان اللوم يلقى على المخربين المزعومين الذين حاولوا خلق عقبات فى طريق المسيرة الظافرة التى تبغى تحقيق مجتمع غير طبقى .

لقد رغب الشيوعيون فى الانتقال بالطبيعة والمجتمع معا الى المرحلة الجديدة ومن ثم دمجوا بين التخطيط الاقتصادى والاجتماعى والتربوى بصورة قمعية قسرية ومستبدة . ان المعادلة اللينينية الكلاسيكية « الاشتراكية أو القوة السوفياتية + الصدمة الكهربائية » لم يبق منها سوى الطرف الثانى أى الصدمة الكهربائية بل لقد تغيرت فى المرحلة الأولى للستالينية واصبحت الاشتراكية تعنى ببساطة « الصدمات الكهربائية + الارهاب » . تحت اسم الدولية البروليتارية فرض الاتحاد السوفيتى الاتفاقيات التجارية المجحفة على الدول التابعة له واجبرهم على انشاء مؤسسات تجارية متحدة مع الشركاء السوفيت والتى تضر بمصالح الدول الشرق أوربية اذ بموجبها استغل السوفيتون الفحم الرومانى والبولندى واليورانيوم التشيكوسلوفاكى وتحول اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية USSR على الصعيد الاقتصادى والسياسى الى عاصمة أم وأصبحت الولايات الشرق أوربية هى مستعمراتها .

★ الأهداف الاقتصادية : الزراعة

لقد الغت الاشتراكية السوفيتية الملكية الخاصة ايحل محلها التعاونيات الزراعية التى استدعى وجودها الاعتقاد الماركسى اللينينى بأن طبيعة مهنة الفلاحة شكلت طبقة رجعية جاهلة لا يمكن أن تشارك

فى الكميونة الاشتراكية الا من خلال هذه التعاونيات . لقد بذلت جهود ستالينية كبيرة لتغيير أوضاع الفلاحين ، وهو ما يعد ضروريا لانشاء كيان اقتصادى متماسك يمكن السيطرة عليه تماما وتم التأكيد على هذه السيطرة عندما نجحت الحكومة فى جعل هذه التعاونيات تعتمد عليها اعتمادا كليا للحصول على الامدادات التكنولوجية والآلات الزراعية والجرارات ·

★ الأهداف السياسية : القضاء على المجتمع المدنى :

وعلى الصعيد الاجتماعى سعت الستالينة الى تحطيم العلاقات الانسانية والتى توصف بشكل عام على أنها المجتمع المدنى وغرست فى نفوس أفراده الخوف والرعب ولاقوا منها كل هوان اذ اعتبرتهم مجرد تروس فى آلة الدولة التوتاليتارية . وتغير النظام الشرعى ليحرم الأفراد من أى احساس بالحماية أو الأمن · وأشبع القضاء الشورى ظمأ الحزب الشيوعى للنيل من المجموعات الحاكمة السابقة والانتقام من كل متشكك فى جدوى الأهداف السياسية والاقتصادية ومن ثم قلبت الشرعية رأسا على عقب وعين قضاة جدد وأصبحت الاجراءات الاقتصادية مهزلة حقيقية ·

اما السلطة الحقيقية فكانت فى يد الجهاز السياسى للحزب الشيوعى بما فيه من فروع تنظيمية وأيديولوجية وسياسية خاصة بالحفاظ على الأمن وتم تطهير الجيش وتجنيد موظفين جدد من العمال الذين أطاعوا وبتعصب أوامر قادة الحزب .

الأهداف السياسية : اخضاع الحياة الفكرية والثقافية لنظام صارم ذى نسق واحد :

وفى مجال الحياة الفكرية نجح الشيوعيون جزئيا فى ابطال كل الاتجاهات النقدية ، وسحق الحزب كل أشكال الانشقاق التى تظهر داخله أو خارجه · وشنت الحملات للتخلص من « الاتجاهات الموضوعاتية والأممية » ·

أما الماركسية اللينينية التى قام ستالين بجمع وتنسيق قوانينها فقدست باعتبارها الأيديولوجية الوحيدة المقبولة ، ولعبت دورا محركا ومعينا فى تلقين الشعب واخضاعه بسهولة لتوجهات الحزب ·

وادعت الأيدلوجيا بأنها كاملة وشاملة وأنها مجموعة من المبادىء العامة لتفسير كل الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والثقافية . ويكمن مشروع ستالين الأيديولوجي في تكوين نموذج انساني جديد لتشكيل مواطن ينقاد تماما للحزب . وأشار الكتاب السوفيتيون المنشقون الى هذا « الانسان الجديد » على أنه « السوفيتي المتسق » وبهذا « السوفيتي المتسق » طمحت الانثروبولجيا الستالينية لتحقق أكثر من مجرد الانتقال الاجتماعي . وبعد مرور ثلاث سنوات من ثورة أكتوبر في ١٩٢٠ كتب الكاتب الروسي يفجني زامياتن Yevgeny Zamyatin عن قمع الاستقلال الذاتي الانساني في اللبفيثان Leviathan (٥٥) التعاوني حيث قال :

((هذ ميزانا وضع على احدى كتفيه جراما وعلى الأخرى طنا ، أى على احدى كفتيه ((أنا)) وعلى الأخرى ((نحن)) أو دولة واحدة . أليس من الواضح أن افتراض أن « الأنا » يمكن أن يكون لها بعض أنواع من « الحقوق » في علاقتها مع الدولة هو تماما مثل الادعاء بأن الجرام يمكن أن يساوى الطن في الوزن ؟ وبناء عليه فان الطن يمثل الحقوق بينما يمثل الجرام الواجبات والطريق الطبيعي من اللا شيئية الى الخلود هو ان تنسى انك جرام وأن تشعر نفسك بأنك جزء من مليون من الطن)) (٥٦) .

ان اخضاع النظام الاجتماعي لنسق واحد صارم لابد أن يكون شاملا . ولا يمكن لأى مجال من مجالات الحياة مهما كانت خصوصيته ، أن يفلت من هذا الدمج . وفي كل البلدان التابعة فرضت البيروقراطيات الأيديولوجية (٥٧)، للقيام بحملات غسيل مخ مشابهة لتلك التى تم تجريبها بالفعل في الاتحاد السوفيتي وملأت الشعارات الدعائية الجوفاء كل وسائل الاعلام . وعهد بالمجال الأدبي للمفوضين المتعصبين حيث كان هدفهم الوحيد التخلص من كل أشكال الفكر المستقل . وأعلنت « الواقعية الاشتراكية » طريقا للكمال الثقافي السياسي وطريقا للانتاج السكبي (الجملي) (بضم الجيم وفتح الميم) الخاص بهذا الواقع اليوتوبي ، مما جعل الجمهور يشعر بالامتعاض تجاه هذا الابداع المكفول والمفروض رسميا .

وفقد الأدب والفن والفلسفة كل مصداقية لهم اذ كانوا ذيولا للنظام القائم ، وأصبحوا مرتعا للكذب والرياء والفساد الأخلاقي ورفضت قلة من المبدعين التورط في هذا التلفيق وتعاون بعضهم مع النظام بدافع

الخوف أو بدافع الانتهازية ومن ثم أصبح الانتحار الأخلاقى والسلوك المتلون وباء متفشيا بين الانتلجينسيا الشيوعية · وحاول كثيرون ايجاد تفسيرا لتدله الانتلجنسيا الشرق أوربية باللينينية الماركسية أو « الدين الجديد » ومنهم تشيسلومبلونز Czeslaw Milosz عندما حلل فى كتابه « العقل الأسير The Captive Mind » الذى نشر فى ١٩٥١ عندما وصلت الحرب الباردة لذروتها أوهام وأخيلة زملائه الذين اعتنقوا الشيوعية بعد وصول القوات السوفيتية لبولندا .

ويرى ميلوتز أن دور الايدلوجيا هو نزع الشك . وغرس الحب والامتنان وبلا حدود فى نفوس الأفراد تجاه الحزب ، وادعاء المعرفة الكلية وتقديم اجابات جاهزة لكل القضايا التى لم تحسم ، وتعزيز اعتقاد الفرد بأنه لا يوجد خلاص خارج الحزب أو بعيدا عنه فقال ميلوتز :

« هناك أجناس من الحشرات التى تحقن سمها فى جسد اليرقة ، فنصاب اليرقة وتظن أنها ستظل مشلولة وتترك نفسها كحاضن جيد لبيض الحشرة السامة فتفقس فيها · ان ماركس وانجلز لم يتنبأ بان عقيدتهم سوف تستغل بنفس الطريقة حيث يدس مخدر المادية الجدلية فى عقول أفراد الشعب ، وعندما يصاب عقل الفرد بالشلل كما هو مطلوب توضع بيض الستالينية فيه . « وبمجرد ان تكون ماركسيا » يقول الحزب للمريض : « يجب أن تكون ستالينى لأن لا ماركسية خارج الستالينية » (٥٨) .

وقال زيجنيو هربرت Zbigniew Herbert شاعر بولندا العظيم أن دعائم الستالينية هى الخوف ، العظمة ، المتعة المستمرة فى اذلال الآخرين ، وقاعدة من المصالح المادية · الا ان هناك مبدعين آخرين قبلوا بل ابتهجوا للتعاون مع المؤسسة الستالينية :

« ستالين أيها المتحدث العظيم ، لقد قلت مرة ان الانسان لا يحتاج لشراء أمة . فالانسان ببساطة يجب أن يملك مقدرات الأرواح البشرية ، ان الحكومة فى حاجة للشرعية التى تدعمها طبقة المثقفين أو « الانتلجنسيا » « المبدعة » وخاصة الكتاب ·· لقد كانت هناك هوة بين الحلف ومشاعر الأمة ، واعتقد هؤلاء بأن الأمة جمهور احمق يجب أن تقوده الأقلية المستنيرة مثل هؤلاء الذين يدعوا النظام الفاشى أى الحلف الذى نصب نفسه ثم فرض على الآخرين رؤية عن المستقبل السعيد » (٥٢) .

الخلاصـــــة :

ماذا حدث فى كل دولة من دول شرق أوربا ؟ كيف أمكن اقتلاع نواة التفكير الناقد وتحويله لتفكير عقيم ؟ كيف خطط الجهاز الحزبى الذى ترأسه الائتلافات الصغيرة لسحق كل المعارضة وفــرض دوره الأوتوقراطى ؟ من هم ضحايا هذه التطــورات ؟

كى يمكن فهم نجاح التجربة الستالبنية فى أوربا الشرقية يجب أن نذكر الدور الحاسم الذى لعبه التهدبد الدائم بالتدخل السوفيتى المباشر ، ونذكر أيضا التنسكيلات الستالينية المحلبة التى قلدت النموذج الستالينى فى ندميرها للمؤسسات المعادبة للشيوعبة وتفتيت المجتمع المدنى والاحتلال الاحتكارى للساحة الشعبيــة من خــلال المنظمــات والمؤسسات التى تسيطر عليها الدولة منها (منظمة الشبيبة الشيوعبة، ونقابات العمال التى سيطر عليها الحزب ، ومجالس منظمات السلام ومنظمات جماهيرية أخرى تابعة) .

وكانت الغاية العليا هى خلق اجماع رأى سلبى ناشىء عــن الخوف ومبنى على الالتزام المطلق بالبرنامج السياسى للحزب الحاكم، ان النظــام السياسى هو نظــام « عبادة الفرد » وحيث يرمز الشــخص للحـــكمة الجمــاعية التى لا تخطىء وحيث يعــد الاختــلاف فى ذاته تدميرا ، وحيث لا توجد مطلقا أية مساحة للمعارضة ، وحيث يقــوض الكيان الاجتماعى وأى معيار للثقافة المدنبة .

ان تركز السلطة السياسية فى يد نصف اله شيوعى أدى لعبادته عبادة دينية قسرية ولاذلال ماســوشى لتــابعيه · وكــان العـــامل الذى ساعد على تخمر مبدأ العبودية الأخلاقى والسياسى هــو التعــريف الستالينى للدولية على انها حب غير محدود لاتحــاد الجمهوريــات السوفياتية الديمقراطية وقالت الافتتاحية التى نشرت فى الرود برافو Rudepravo الجريدة التشيكية الشيوعية اليومية فى ٢٥ مايو ١٩٥٢ :

((ان الطريق الى مستنقع الخيانة يبدأ حقيقة من الخطة المنحرفة التى تتضمن التشكك فى صحة سياسة الاتحاد السوفيتى))(٦٠) .

وقد تم تبرير الارهاب نظريا على أنه الخطيئة التى لا بد منها من أجل الحفاظ على النظام ، كما أكد النظـــام الديكتاتورى الستالينى أن معارضة الجماعات الاجتماعية المهزومة ستصبح أكثر ضراوة مع تقــدم البناء الاشتراكى ·

وبالتالى سيكون الرد على تلك المؤامرات التى يثيرها « اعـــداء الشعب » أكثر الحـاحا ·

وهكذا كـرس الارهاب وعـلا شـأنه كترياق يصـــون المكتسـبات الاجتماعية .

ان شـعار ملحمة أوربا الشرقية كان النموذج الستالينى للتطهير الكبير الذى تم بالاتحاد السوفيتى : « عندما يضرب أحدهم بفأس على الخشب لا بد أن تطير شظاياه » . وفى مرحلة بعينها أثار اتهام تيتو بأنه ينجسس على رواتب وكـالات الاستخبـارات الغربيـة Western Intelligence Agencies جدلا حـول اعادة تعريف الأولويات الرئيسية فى مجتمعات الديمقراطيات الشعبية · وأعلنت الأحزاب الشيوعية توظيفها « للينينية الاشتراكية » ، ووصفت « الديمقراطيات الشـعبية » على أنها صيغة جديدة لديكتاتورية البروليتارية · وأكدت مبادىء الكمنفورم مرارا وتكراراً على « الدور القائد للحزب الطليعى » . ولم تكن سيادة الحزب موضعا للتساؤل وطرح — دون تردد — النموذج الديكتاتورى السوفيتى كنموذج صالح للتطبيق متجاهلين كل السمات القومية التى تميز كـل بلد عن الآخر ولاحكام السـيطرة على كل الآليـات التى تضمن التـوالد الاجتماعى والحفاظ على الهيمنة المقولبة كان دور الحـزب دورا مركزيا وتم التخلص من كل العناصر المحرضة — سواء داخل الحزب أو خارجه وسيطر المرشدون السوفيتيون على البـوليس السياسى الذى أخـذ على عاتقة مهمة انجـاز التوجهات الأيديولوجية الأساسية · ان الارهاب كان فحوى الديكتاتورية الأيديولوجية فى شكلها الناضج (١٩٤٨ — ١٩٥٣) كما استمرت الدعائية داخل هذه الديكتاتورية وعجز النظام عن اكتسـاب أى شرعية .

وتكتسب الشرعية عاده عبر رسوخ مؤسسى ، واستقـرار ، وضمان الحفاظ على مبادىء معينة أو على الأقل الحفاظ على الحـد الأدنى من وحده الرأى القومى . وتحت مظلة الستالينية فى كـل من الاتحاد السوفيتى وأوربا الشرقية قام الطغيان الأوتوقـراطى بتحطيم الفاعلية الوظيفية للحزب كمؤسسة مستقلة بل تحول لمجرد ملحـــق للمكتب الخـاص بالسكرتير العـام · وفى هذا الصدد قال بيترام وولف : Betram Wolf

« تحت نظام حكم الحزب الواحد فان الحزب يعد اى شىء الا أنه حزبا ، بل يتحول الى حارس للحاكم بأمره ، ويصبح فريق عمل يتمتع

أعضاؤه بالامتيازات وله الأمر وعلى الآخرين الطاعة ، كما تنحصر مهمة فريق من المناضلين السياسيين فى حث كل شخص ، كى يبذل أقصى ما عنده لتنفيذ خطط الزعيم ، ويصبح بوقا مسموعا يذيع الأوامر التى لا تعصى والعقائد التى لا تخطىء ، انهم عيون وآذان النظام ، ان الحزب هو نواة اختراق الصفوف ، والمهيمن على كل المنظمات والأندية والاتحادات النقابية والمزارع الجماعية والمصالح والأجهزة الحكومية والجيش والشرطة ، انه حلقة الاتصال لنقل أوامر القائد للأمة المسلوبة الارادة وللأعضاء وللمتعاطفين مع هذ النظام فى دول أخرى)) (٦١) .

ان الكتيبة الثورية تتبع الخطة التى ستعيد بناء الانسان والطبيعة والمجتمع بتلهف شديد ، وتم زرع النظام الستالينى فى كل دول أوربا الشرقية التابعة للاتحاد السوفيتى وذلك بعد الحرب العالمية الثانية ومن تلك البلدان : البانيا ، وبلغاريا ، وتشيكوسلوفاكيا وجمهورية المانيا الديمقراطية ، والمجر وبولندا ورومانيا ، وفى يوجوسلافيا وبسبب رفض تيتو العنيد لتدخل ستالين فى الشئون الداخلية لبلده وبسبب تخاصمه الذى تلا ذلك مع الكمنفورم كان هناك ثمة نموذج متفرد سينبثق حيث أقر تيتو دورا قياديا للحزب الشيوعى يختلف عن نظيره الروسى .

وباستثناء زعماء يوجوسلافيا استمدت كل التشكيلات الشيوعية ادعاءها بالشرعية من تبعيتها للاتحاد السوفيتى ولستالين نفسه ، ولم يكن فى المستطاع دعم الأفكار الابداعية الراديكالية وذلك لافتقار الشيوعيين فى ذات الوقت للقاعدة الجماهيرية ، بل لقد نظر الشعب لوسائل الاعلام وكذلك للشيوعيين المحليين على أنهم عملاء لقوى أجنبية . ونظرت معظم شعوب الدول الشرق أوربية للشيوعيين على أن « هم » مجموعة من الميليشيات الغامضة التى تخدم طاغية أجنبيا ، فى محاولة لفرض نموذج اجتماعى ليس له جذور فى تراثها القومى .

وللتأكيد على أحادية السلطة ، خططت الأحزاب الشيوعية للقضاء على الثقافات الشعبية فى البلدان التى تهيمن عليها . ولحل الأحزاب الاجتماعية ، وتم احتواء الفصائل اليسارية فيما يدعى أحزاب العمال المتحدة .

وعمل الشيوعيون على تجنيد فصائل من الطبقة العمالية الصناعية وتوسيع قاعدتهم الاجتماعية ، وباسم الصراع ضد القوى الأجنبية فان الأحزاب المعادية للشيوعية تعاونت معاً أو انضمت لبرلمانات ببغائية ليس لها أية سلطة فعلية يسيطر عليها الشيوعيون تماما . واستخدمت

نظرية ستالين عن شد أزر الصراع الطبقى وما يترتب عليه من نتائج ، ونظـريته عن سيكولوجية الحصن المنيـع كمبررين لاقامة بوليس سياسى مهيمن ومرهوب بشكل عام ، حيث يهاجم كل من يتجاوز الخط الذى رسمه الحزب فعم مناخ رعب عام وعدم ثقة متبادل .

ان نموذج الفرد فى هذه المجتمعات هو نموذج فرد متجرد من ذاته مستعد للوشاية بالأصدقاء وأقرب المقربين حيث اعتبـرت الخيـانة فضيلة اذا ما كانت فى سبيل الحزب وبنفس المنطق يعد الاحجام عـن التعاون مع البوليس السياسى جريمة سياسية . ويقودنا هذا الحديث الى ذكـريات ناديـزدا ماندليسـتام Nadezhada Mandelstam أرملـة أوسيب ماندليسـتام Mandelestam الشـاعر الـروسى العظيم الذى توفى فى معسكرات التعـذيب السـتالينية Stalin's Gulag اثناء الارهاب البشع حيث تصف بمرارة شديدة المناخ الخانق الذى ساد مثـل هذا المجتمع ، والتى تشير فيها الملحـوظة آنا أخمـاتوفا Ann Ahkmatova فكتبت ناديزدا تقول :

« فى تلك الفترة التى صعق لها الناس فى الخارج وبالذات المهاجر الروسى اساء الجميع فهم حياتنا ، وكثيراً ما رددت أخماتوف جملـة اصابتنى بالحنق وهى « انهـم غيـورون من معاناتنا » اذ أن سوء الفهم لا يستحق الحسد ويأتى من استحالة تصـور طبيعـة التجـربة ، ويأتى ايضا من طوفان الأكاذيب التى التوت بسببها الحقائق ورفضتها عقولنا حقيقة لا يوجد شىء يستحق أن نحسد عليه ، لا يوجد فى معاناتنا شىء راق . وليس القصد هـو البحث عن سمة تعويضية ، اذ لا يوجـد فى حياتنا شىء سوى الارهاب الحيوانى والألم . لا يمكن أن احسد الكلب الذى تسحقه شاحنة ولا القطة التى يلقيها سفاح من الطابق العاشر ، ولا يمكن أن أحسـد أناسا مثلى تشككوا فى كل شخص حولهم باعتباره خائنـا أو واشـيا أو جاسوسا ، ولـم يجرءوا على التفوه بأفكارهم حتى لأنفسهم خشية أن يفاجأوا بمن ينهرهم أثناء نومهم وأخذهم بعيدا الى السجون . لا يوجد ــ واستطيع أن أجزم ــ ما نحسد عليه » (٦٢) .

ان الملايين فى كل بلدان أوربا الشرقية عاشوا هذه المشاعـر المروعة كالكابوس . ولم تتوقف محـاولات الشـيوعيين للقضـاء على الاستقلال الفردى . ولم يكن فى مقدورنا أن نلمح أية بارقة نور أو أمـل فى نهاية النفق المظلم ، فقط كان هناك المقاصل التى نعد لقطع رقاب المعـادين للشيوعية ، بل والائتـلافات الشيوعية نفسـها وبأكثر الطـرق وحشية . ووضـع الكمنفـورم الأساسى لسن القـوانين للمحـاكمات الصورية حيث يتهم الشيوعيون المتطرفون بالخيـانة والجاسوسية .

هوامش الفصل الأول :

الدولية البروليتارية

أهم مبدأ لأيديولوجية الطبقة العاملة (الشغيلة) والاحزاب الماركسية اللينينية ـ وتتجلى فى تضامن الطبقة العاملة وطليعتها الشيوعية وشغيلة كل الأمم فى وحدة وتنسيق أعمالها وفى الدعم والعون المتبادلين ـ (المترجم) ٠

(٢) امبراطورية هابسبرج

وتضم (سويسرا أو هابسبرج) وهى جزء من البيت الألمانى الملكى الذى حكمه ملوك النمسا من عام ١٢٧٨ الى ١٩١٨ ـ (المترجمة) ٠

(٣) الدولة العثمانية

وتشمل تركيا وفلسطين والسعودية ومصر وبلاد البربر والبلقان واجزاء من روسيا والمجر (المترجمة) ٠

(٤) البلقـان

وتضم دول رومانيا ويوغسلافيا وبلغاريا والبانيا ـ (المترجمة) ٠

(٥) Adam Michnik, "*The Presence of Liberal Values,*" East European Reporter. 4 no. 4 (London . *Sping-Summer* 1991), 71.

(٦) الماكرثيـة

هى حركة ظهرت فى خمسينات القرن العشرين بامريكا ، وهى حركة سياسية قادها السيناتور الجمهورى جوزيف مكارثى الذى استفاد من وجود تقليد دستورى فى بلاده ، وهو حق الكونجرس فى استجواب المواطنين ، فانشأ اللجنة العليا المشهورة بلجنة النشاط المعادى لامريكا وامام هذه اللجنة استدعى مشوهى الفكر من الأدباء والفنانين والمدرسين ـ (المترجمة) ٠

(٧) الكونفدرالية

وهى اسم يطلق على كل ائتلاف أو اتحاد يضم مجموعة من البلدان لتحقيق أهداف معينة ، الا أن ما يميزه هو أنه تنسيق فوقى بين النظم الحاكمة ٠ وهو ما يجعله مختلفا عن الاتحادات الفيدرالية والتى تكون ذات طابع شعبى ـ (المترجمة) ٠

(٨) For a splendid account of the spiritual effervecence in Budapest befor World War 1, see John Lukacs, *Budapest 1900 A Historical Portrait of a City and its Culture* (New York : Grove Widen.

(٩) Jean-François Revel, "Sortir du communisme, une tâche sans précédent dans l'histoire. 6 *Est-Quest*, no. 90. (Paris, June 1991), p. 3.

(١٠) الأحلام الوِلسونية ويقصد مبادىء ولسون (الرئيس الأمريكى) التى عرضها فى مؤتمر الصلح فى باريس (باريس ـ تريبون) ١٨ يناير ١٩١٩ ـ (المترجمة) ٠

(١١) **المقصورية :** هى حقوق مقصورة على شخص أو جماعة ـ (المترجمة) ٠

(١٢) **معاهدة فرساى** ـ تريانون ٠ ١٨ يناير ١٩ وفيها اقامة دولة جديدة من بولندا وانشاء الممر البولندى وتأسيس دولة تشيكوسلوفاكيا ، وخططت الحدود السياسية الجديدة وحق مبادىء ولسون ـ (المترجمة) ٠

Joseph Rothschild, *Return to Diversity : A Political History of East Central Europe Since World War II* (New York · Oxford University Press, 1989), pp 3-24.

(١٤) راجع :

Carol Skalnik Leff, *National Conflict in Czechoslovakia : The Making and Remaking of a State*, 1918-1987 (Princeton, N. J. . Princeton University Press, 1988). p. 138.

(١٥) Rothschild, Return to Diversity, p. 70.

(١٦) الزيلوت

وهو اسم يطلق على مجموعة ذات أفراد متعصبين نحو دين أو عقيدة ويرجع هذا الاسم الى الزيلوت اليهودى فى القرن الأول قبل الميلاد والذى عارض الهيمنة الرومانية على فلسطين ـ (المترجمة) ·

(١٧) **نهر فستشل** Vistual ·

يقع فى بولندا ويصب فى خليج جدنسك ـ (المترجمة) ·

(١٨) Adam Michnik quoted in Jacques Rupnik, *The Other Europe: The Rise and Fall of Communism in East-Central Europe* (New York : Schocken Books, 1989), p. 28.

(١٩) For a clear analysi: of Romania's interwar political life, see Vlad Georgescu, *The Romanians : A History* (Columbus : Ohio State University Press, 1991), pp. 189-232.

(٢٠) Milan Kundera, "The Tragedy éf Central Europe," *The New York Review of Books*, April 26, 1984.

(٢١) كوستلر

هو أرثر كوستلر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٣) وهو كاتب مجرى يهودى وهو معروف بمناهضته للستالينية ـ انظر ترجمة كتابه « القبيلة الثالثة عشرة » ضمن سلسلة الالف كتاب الثانى ·

(٢٢) Danilo Kis, "Variations on the Theme of Central Europe," *Crosscurrents : A Yearbook of Central European Culture*, no. 6, (Ann Arbor : University of Michigan, 1987), p. 11.

(٢٣) Alexander Wat, My *Century : The Odyssey of a Polish Intellectual : (Berkeley University of California Press*, 1988). p. 15.

(٢٤) Helmut Gruber,, *International Communism in the Era of : A Documentary History* (Garden City, N. Y. : Anchor Books, 1072), pp. 241-46.

(٢٥) **التروتسكية** Tortskyism ·

يعود هذا الاسم الى ليون تروتسكى الشيوعى المناهض لستالين وللديكتاتورية والبيروقراطية وكان يرى أن الثورة فى روسيا لن تنجح الا بثورة تعم أوربا كلها ـ (المترجمة) ·

(٢٦) اللكسمبرجية :

نسبة الى الثائرة الالمانية ـ البولندية المولد ـ روزا لوكسمبورج **Rosa Luxemburg** (١٨٧١ ـ ١٩١٩) ، التى اعتنقت الشيوعية عام ١٨٩٠ وعاونت فى تأسيس « عصبة تاكوس » · ويرتبط اسم روزا بانتفاضة عام ١٩١٩ والتى قتلت على أثرها ·

For the fate of foreign communists in the Soviet Union (٢٧)

during the Great Purge, see Robert C. Tucker, *Stalin in Power The Revolution from Above*, 1928-1941 (New York : Norton, 1990. pp. 504-13.

See Kenneth Jowitt's discussion of this issue in his *Revolu-* (٢٨) *tionary Breakthroughs and National Development : The Case of Romania*, 1944-1965 (Berkeley and Los Angeles : University of California Press, 1971), pp. 175-77.

(٢٩) ليبزج

مدينة فى ألمانيا الشرقية ٠

(٣٠) فى عام ١٩٣٥ وفى مؤتمر الكومنترن السابع والأخير القى ديمتروف الحطاب الافتتاحى حيث وضع فيه التعريف الستالينى الأرثوذكسى للفاشية حيث وصفها بأنها « ديكتاتورية أكبر قوى السلطة المركزية الأحادية رجعية » ٠ وبعد الحرب العالمية الثانية عاد ديمتروف الى بلغاريا حيث أصبح رئيسا للدولة حتى موته المفاجىء والغامض بينما كان فى الاتحاد السوفيتي عام ١٩٤٨ ٠ وبعد انهيار النظام الشيوعى فى بلغاريا تم ازالة جثمان ديمتروف عام ١٩٩٠ من متحف موسوليم Mausoleum وهو متحف على الطراز السوفيتى وذلك بمدينة صوفيا لجزء من الحملة القومية لازالة الرموز الشيوعية ٠ لمزيد من التفاصيل انظر

Drachkovitch, *Biographical Dictionary of the Comintern : New, Revised and Expanded Edition* (Standfird, Calif. : Doover Institution Press, 1986).

(٣١) ماسونى

هى المضاد لحركة « اللاماسونية » التى ظهرت فى الولايات المتحدة فى عام ١٩٢٦ وكذلك تقوم على أساس أن الانضواء تحت لواء جمعيات سرية لا ينسجم مع المواطنية الصالحة الشريفة ــ (المترجمة) ٠

(٣٢) اقليم السوديت :

المنطقة الواقعة شمال تشيكوسلفاكيا فى جبال سودتى ــ (المترجمة) ٠

Norman Davies, *Hart of Europe : A Short History of* (٣٣)

Poland **(Oxford and New York : Oxford University Press, 1986), p. 426, and Anthony Read, and David Fished,** ***The Deadly Embrace : Hitler, Stalin, and the Nazi-Soviet Pact*** **1939-1941 (New York : Norton, 1988).**

(٣٤) معاهدة مولوتوف ــ روبنتروب

هى امتداد لاتفاقية هتلر ــ ستالين التى تمت فى ١٣ آب ــ أغسطس سنة ١٩٣٩ والتى نصت على حدود مناطق النفوذ للطرفين وبعد أسبوع من المعاهدة قامت الحرب العالمية الثانية ، وفى أواخر عام ١٩٤٠ قدم الألمان مذكرة بتصوراتهم ومقترحاتهم عن الحدود وفى أواخر تشرين الثانى ــ نوفمبر ١٩٤١ أبلغ مولوتوف السفير الألمانى بالموافقة على الحلف ــ

الرباعى المقترح شريطة عقد اتفاقية خاصة بأمن الاتحـاد السوفيتى ومصالح فى أوربا والشرق الأقصى ـ (المترجمة) ٠

(٣٥) See "What I Central Europe The Telltale Scar," *The New Republic,* August 7 and 14, 1989, p. 28.

(٣٦) NKVD وهى اختصار للمصطلح الروسى Norodnyi Komissariat Vnutrennikh Del وتعنى مفوضية الشعب للشئون الداخلية ٠ وسترد فيما بعد بمعنى البوليس السرى السوفيتى ٠

(٣٧) For Tito and Titoism, the literature is enormous and very controversial. See Adam Ulam, *Titoism and the Cominform* (Cambridge · Harvard University Press, 1952), and Vladimir Dedijer, The *Battle Stalin Lost · Memoirs of Yugoslavia* (New York : Viking, 1971)

(٣٨) Archi Pipa, "The Polotical Culture of Albanian Communism", in Tariq Ali, *The Stalinist Legacy : Its Impact on the Twentieth Century World Politics* (Harmondsworth, Middllsex : Penguin Books, 1984), pp. 434-64.

(٣٩) يالطا . مدينة فى الاتحـاد السـوفيتى تقع فى شمـال جمهورية أوكرانيـا (المترجمة) ٠

(٤٠) See Leszek Kolakowski, *Main Currents of Marxism, vol. III, The Breakdown* (*Oxford* : Oxford University Press, 1978), and Vladimir Tismaneanu. *The Crisis of Marxist Ideology in Eastern Europe : The Poverty of Utopia* (New York and London : Routledge, 1988)

(٤١) Gavriel D. Ra'anan, Internaitonal Policy Formation in the USSR : *Factional "Debates" During the Zhdanovschina* (Harmden, Conn. . Archon Books, 1983), and William O. McCagg, Jr., Stalin Embattled 1943-1948 (Detroit : Wayne University Press, 1978).

(٤٢) خطة مارشال يونية ١٩٤٧ وقدمها « مارشال » وزير خارجية أمريكا ودعا فيها دول أوربا الغربية الى وضع برنامج كبير يهدف الى انعاش اقتصادياتها وقدمت الولايات المتحدة الأمريكيـة من خـلال هـذا المشروع المسـاعدات الماديـة للـدول الأوربيـة (المترجمة) ٠

(٤٣) The Statutes of the Union of Soviet Writers adopted in 1943, as quoted by Abram Terlz (Andrei Sinyavsky); *The Trial Begins and On Socialist Realism* (Berkeley), and Los Angeles : University of California Press 1982), p. 148.

(٤٤) Quoted in McCagg, *Stalin Embattled,* pp. 250-51.

(٤٥) *Ibid.*, p 264 : the full text of the declaration appears in *For a Lasting Peace, for People's Democracy* no. 1 (Belgrade, 1947), p. 1.

(٤٦) Zbigniew Brzezinski, *The Soviet Bloc : Unity and Conflict* (Cambridge · Harvard University Press, 1967), pp. 3-151.

(٤٧) Paul Ignotus, "The First Two Communist Takeovers of Hungary : 1919 and 1948," in Thoma T. Hammond, *The Anatomy of Communist Takeovers* (New Haven : Yale University Presr, 1975), p. 395.

(٤٨) Nissan Oren, "A Revolution Administered : The Sovietization of Bulgaria", in Hammond, *Anatomy*, pp. 321-33.

(٤٩) Adam Bromke(*Poland's Politics* : *Idealssm vs. Realism* (Cambridge : Harvard University Press, 1967), pp. 60-61.

(٥٠) *Kulturny Noviny*, do. 7 (Prague 1968), Quoted by Pavel Tigrid, "The Prague Coup of 1948 : The Elegant Takeover," in Hammond, *Anatomy*, p. 400.

(٥١) الديمقراطيات الشعبية : استعملت الاحزاب الشيوعية هذه الكلمة لتدل بهـا على الأنظمة السياسية الجديدة التى ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية فى أوربا الشرقية وولدت الديمقراطيات الشعبية الأوربية بواسطة حركات المقاومة ضد النازية التى تقودها الأحزاب الشيوعية وقد مرت بمرحلتين

المرحلة الاولى دامت حتى عام ١٩٥٦ وكانت هذه الأنظمة كلها تتبع النموذج الاشتراكى السوفياتى .

المرحلة الثانية بدأت كل دولة تتبع سياسة تتفق مع واقعها القومى والخاص ـ (الترجمة) .

(٥٢) Brezezinski, *Soviet Bloc*, p. 65.

(٥٣) Kolakowski, *Main Currents* (note 20 above), II : 85.

(٥٤) Brzezinski, Soviet *Bloc*, p. 52.

(٥٥) الليفيثان كلمة تعنى الدولة التوتاليتارية التى يعم فيهـا البيروقراطيـة ـ (المترجم) .

(٥٦) Quoted by Mikhail Heller *Cogs in the Wheel* : *The Formation* of the Soviet Man (New York : Knopf), p. 6.

(٥٧) وتدعى تلك البيروقراطية الأيديولوجية باسم اقسام الاجتروب Agitprop وهو مكتب خاص للدعاية .

Czeslaw Milosz, *The Captive Mind* (New York : Vintage Books, 1981), p. 220.

(٥٩) Jacek Trznadel, "An Interview with Zbigniew Herbert", *Partisan Review*, no. 4 (1987), pp. 559-60.

(٦٠) Brzezinski, *Soviet Bloc*, p. 67.

(٦١) Berram Wolfe, *Khrushchev* and *Stalin's Ghost* (New York : Praeger, 1957), p. 10.

(٦٢) Nadezhda Mandelstam, *Hope Abandoned* (New York : Atheneum, 1974), pp. 249-50.

الفصل الثانى

أبناء فى الضباب

من الديمقراطيات الشعبية الى « الاشتراكية المتطورة
« Developed Socialism

« لقد أمضيت حياتى مثلما يعيش ابن فى الضباب لم أعرف شيئا ، بمعنى ، كنت أعرف ولا أعرف فى آن واحد ، مثل الجميع حولى . فى المعتقل فقط عرفت ماذا يعنى الصراع السياسى فى المعسكر الشيوعى ، وبين الشيوعيين عرفت ما هو البغض البشع ، ما هو التعصب ، ما هى القسوة التى يسفر عنها هذا التناحر » .

الكسندر وات

Alexander Wat

أدت بارانويا ستالين الى استفحال الارهاب فى كل من الاتحاد السوفيتى وأقطار أوربا الشرقية التابعة له . لقد رأى ستالين أن الاستقلال الذاتى الذى بدعه ستالين وتحديه السافر لسلطة الكرملين تعد خيانة للشيوعية لصالح « الكتلة الامبريالية » وأمر مشيعيه أن يركزوا البحث عن مخربين أقوياء وحقيقيين . ونموذج ستالين للارهاب العظيم Great Terror — نظرية ١٩٣٧ التى نادت بمضاعفة الصراع الطبقى حتى تتقدم الاشتراكية ـ تبناه الطغاة المحليون فى الدول التابعة بحماس شديد . وتمتع البوليس السرى فى كل دولة من دول شرق أوربا الشيوعية بسلطات مطلقة لذلك لم يشعر أحد — حتى ولو كان عضوا فى الحزب بانه بمنأى عن موجة القمع العاتى .

المذابح والمقاصل :

ان فئة « العدو الموضوعى » أى هؤلاء الذين تمكنوا بفضل ما لهم من وضع اجتماعى من التآمر ضد النظام الشيوعى كانوا وقودا للارهاب واستخدمهم رجال ستالين لتبرير القمع . وكان الهدف من وراء المحاكمات الصورية التى تمت فى الديمقراطيات الشعبية خلق

اجماع رأى قوميا على ائتلاف القمة الشيوعى ويبقى على حالة عامة من الرعب والهلع بين الجماهير ، وقد رأى جورج هـ ٠ هودز George H. Hodes الذى نجا من مكيدة لاتسلو راجيك Larzlo Rajk ١٩٤٩ بالمجر ان المكائد كانت اشارات يبعث بها لكل المفكرين الأحرار ذوى الشأن أو للراديكاليين فى الأقطار التابعة ، وطريقة لفضح أى شخص يحاول الجهر بخلافه مع السلطة باعتباره مجرما خسيسا أو عميلا للامبريالية ، واعتبرت الاختلافات التكتيكية خيانة وتخريبا وتجسسا (١) ٠ الا أن هذه المحاكمات لم تكن مجرد تكرار للمذابح الدامية التى دمرت الكيان السياسى السوفينى فى الثلاثينيات ٠

ورغم أن طقوس المحاكمات الصورية فى الأقطار التابعة كانت مشابهة لمثيلاتها فى الاتحاد السوفيتى ، فان تحديد المدعى عليهم اختلف باختلاف تاريخ كل واحد منهم ٠

وقد ارسل ستالين فرقا خاصة من « المستشارين » لكل الدول التابعة للاعداد للمحاكمات واجراء الاستجوابات وتلفيق سيناريوهات محكمة شريرة كى تبرر عقوبات الاعدام التى صدرت ضد المدعى عليهم وكان البلشفيون القدامى Old Bolsheviks (٢) أمثال جريجورى زبنوفيف Grigoryzinovyev وليف كامينيف Lev Kamenev والكسى رايكوف Aleksei Rykov ونيكولاى بوخارين الذين تحدوا ستالين وقدموا بديلا لبرنامجه ، ضحايا للمحاكمات الصورية السوفيتية اضافة الى الضحايا من الحلف الستالينى نفسه ٠ وقد تم التخطيط للمحاكمات الصورية بسبب اختصام الكمنفورم مع يوجوسلافيا واعتبر تيتو رأس « عصابة القتلة والجواسيس » الا أن ذلك كان مبررا للتعمية والتموية ٠

ان الحد من هذه المكائد لم يكن يعنى أن بداخل الأحزاب الشيوعية الشرق أوربية حركات تهدف للحد من التأثير السوفيتى وتشجيع التجارب الشيوعية القومية البناءة بل ان الصراعات تصاعدت بين الأجنحة المختلفة وخاصة بين الشيوعيين المحليين والمسكوفيين (أى الشيوعيين الذين عادوا من المنفى بموسكو بعد نهاية الحرب العالمية الثانية) الا أن هذه الصراعات لم تكن تعنى وجود عصبتيتوية حقيقية عبر أوربا الشرقية مستعدة لتبارى اليوجوسلافيين فى تحديهم لدكتاتوريى موسكو ٠ ورأت الستالينية أنه لابد من الابقاء على حالة الطوارىء والارهاب وضرورة فضح المؤامرات التى تحاك ضد الشيوعية ، اذ لا أحد فوق الشبهات ، ومن الممكن أن يكون الضحية التالية لآلة التعديب البشعة،

واتبعت فى أوربا الشرقية نفس التكتيكات والاجراءات التى استخدمت فى محاكمات موسكو الصورية : وأستندت تهم حكم الاعدام على اعترافات المدعى عليهم فقط دون أى أدلة مادية ووقفوا فى قفص الاتهام بعد عملية تعذيب نفسى بشمة يتقبلون الأحكام باستخفاف وقال هودز فى ذلك :

« كانت المحاكمات الصورية تتم فى أوربا الشرقية حتى قبل ان يكون هناك تخاصم بين ستالين وتيتو واستخدمت كأداة لجعل الاحزاب الشيوعية فى الدول السوفيتية التابعة فى الفترة التى سبقت الحرب تدور فى فلك الحزب السوفيتى ، وكانت جزءا لايتجزأ من الستالينية وتطبيقها فى الدول التابعة خطوة منطقية باعتبارها جزءا من النموذج السوفيتى الذى جرب ... كان للمحاكمات الصورية جينى دعاية يبرر الارهاب السياسى . وكان هدف هذه المحاكمات هو تشخيص عدو سياسى مجرد ، لوضعه فى الحامض وابادته ، ولدعم نظام لا عدل فيه . ولتحويل تمايزات أيديولوجية سياسية مجردة الى جرائم عامة جلية ـ انها تحرض العامة ضد الشر الذى يجسده المتهمون تقوم بتحذيرهم من تقديم أى عون أو دعم لهذه المعارضة » (٣) .

ولأن الأنظمة الجديدة فى أوربا الغربية كانت تعانى من مصاعب اقتصادية وفشلت فى كسب الدعم الشعبى الجماهيرى لسياساتهم الاجتماعية ، فان هذه الأنظمة تورطت فى ممارسة مسعورة للارهاب والاعدام ، ان المحاكمات الصورية بدأت فى البانيا فى مايو ١٩٤٩ عندما أعدم عضو المكتب السياسى Politburo السابق ووزير الداخلية كوشى زوكسى Koci xoxe باعتباره تيتوى ـ والحقيقة أن تيتو حاول عقب الحرب العالمية الثانية ان يمد نفوذه عبر أورويا الشرقية ولم تكن هناك أية بادرة تنم عن معارضته لخطة ستالين الا أن « التيتوية » جنحت الى التأكيد على المصالح القومية ضد السياسيات التى فرضها ستالين على الاحلاف الشيوعية المحلية ، وفى سبتمبر ١٩٤٩ اعترف لاتسلو راجيك ، وزير المجر السابق للشئون الداخلية وأحد قيادات القمة الشيوعيين بعد الحرب ، بجريمته فى محاكمة علنية وحكم عليه بالموت مع رموز حزبية بارزة سابقة ، وقد أصيب القاضى بالهستيريا عند النطق بالحكم . وقد ربط ستالين بين مؤامرة راجيك المزعومة وبين اعمال تيتو وأنشطته المناهضة للشيوعية وتورطه مع المحرضين فى الاعداد للهجوم المسلح ضد الديمقراطيات الشعبية .

« ان الامبريالية الأمريكيــة هى المحــرض والمنفــذ لبرنامج تيتــو رانكوفيتش Rankovic السياسى وخطط « الانقلاب Putsch » لقــد استمالت وكالات الاستخبارات الامريكية والبريطانية تيتــو وعصبته حتى أثناء الحرب ضد هتلر ، لمنع الحرية القومية والاجتماعية عــن شعوب أوربا الشمالية الشرقية ولعزل الاتحاد السوفيتى وللتحضير لحرب عالمية ثالثة ... والانقلاب الذى خطط له تيتو وعصبته فى ألبانيا كى ما تضعه خلية راجيك للجاسوسية موضع التنفيذ ، لا يمكن فهمــه بعيداً عن سياق الخطط الدولية للامبرياليــات الأمريكيــة ... التى تتفاقم دون هوادة . وطالب شعبنا بالموت للخونة ولى باعتبارنا ممثلين للسلطة المتهمة وكنت أنا نفسى مع هــذا المطلب ، اذ يجب أن تسحق رأس الأفعى التى تريد لدغنا .. وكان رد الفعل الوحيد ضد الكلاب المسعورة هو ضربها حتى المــوت » (٤) .

وفى ديسمبر ١٩٤٩ وجه لعضو المكتب السياسى السابق وأحد اســاطين الاقتصــاد البلغــارى تريشـــيوكوستوف Traicho Kostov مع آخرين تهمة مماثلة لتلك التى وجهت لراجيـك : التجسس ، النيتوية ، والتعاون مع السياسة البرجوازية السرية أثناء السنوات التى كــان فيها الحزب سريا . وفى حالة كوستوف فان المسرحية العلنية التى تم الاعداد لهــا جيدا تم كشفها بقرار مفــاجىء لمحامى المتهم بدحض التهم التى وجهها المدعى العام الا أن كل شيء عاد لأصله ثانية بعد استراحة قصيرة ، وفى آخر الأمر قبــل كوستوف الذى اتهم مثله مثل القادة الشرق أوربيين الآخرين حكم المحكمة ، بل وتعاون مع المحكمة لانجاز مهمتهــا ، وتراجع عن محاولته الأولى لانكار التهمــة واعترف وفقــا لرابونتشيسكو ديلو Rabontnichesko Delo الجـــريدة الشـــيوعية الرســمية اليومية بأنه لم يكن الا نذلا . ولن نخوض هنا فى بحث أسباب تعاونهم مع معذبيهم ولكن يمكن القول بأن اعتقادهم اللينينى الارثوذكسى بأن الحزب هو حامل الحقيقة التاريخية وان من الواجب عليهم أن يقدموا حياتهم قربانا على قداس المصالح العليا للحزب هو الدافع الرئيسى وراء تصرفهم على هذا النحو . ولأن أرواحهم تشربت بعبادة لا نهائية لستالين والاتحاد السوفيتى فانهم كانوا يفتقرون لأدنى جنــوح للاستقلالية التى قد تساعدهم على ادراك الفخ الذى وقعوا فيه ، وقد صــعق بعضهم بوابل التهم الذى وجه اليهم حتى انهم اعتقدوا فىالبداية بأنهم كانوا ضحايا لضربة مضادة للثورة ، ورفض قليلون سلسلة التهم التى دبرت لهم . وساعد استخدام الضغط الجسدى والنفسى بما فى ذلك التهديدات التى وجهت لحياة اقرباء المتهمين فى تفسير كيفية انتزاع اعترافاتهم .

وفي ديسمبر ١٩٤٩ ، ومن خلال وقوع الحـزب الشـيوعى اليوجوسلافى فى أيدى القتلة والجواسيس الذين سلموه لقمة الكمنفورم ببودابست ، ندد الزعيم الشيوعى الرومانى جورجى جورجيو — دجى بزميله السابق فى المكتب السياسى ووزير العدل السابق لوكـريتو بترسكانيو Lucretiu Patrascanu باعتباره خائنا تيتوى وعميلا أجنبيا . وقبض على بترسكانيو بعد خطاب جورجيو ـ دجى الا أنهم لم يستطيعوا اجبار بترسكانيو على افشاء اسرار الرفاق فى المحاكمة الصورية التى عقدت فى بوخارست ورفض ان يعترف بجريمة لم يرتكبها ورفض التورط فى اعترافات علنية فاشستية . وظل فى السجن حتى عام ١٩٥٤ حتى حكم عليه بالاعدام رميا بالرصاص بعد محاكمة ملفقة .

وبعد الاجتماع نفسه فى بوخارست ١٩٤٩ وامتداداً للحملة الدولية المعادية لمؤيدى تيتو المزعومين جرد الزعيم البولندى فلاديسلاف جوميلكا من رتبه لاتهامه بالافتقار للحذر الثورى فيما يتصل بمبدأ الدولية وحددت اقامته فى بولندا تحت مراقبة البوليس السياسى . أما حزب العمال البولندى المتحد فقد وقع بعد مذبحة فريق جوميلكا فى يد عصبة المسكوفيين بقيادة بولسلاو بيرت وجاكوب بيرمان Jakub Berman وهيلارى مينك Hilary Minc وفى وقت المحاكمات أصبح المناخ فى الديمقراطيات الشعبية خانقا حيث تفشى الخوف من المتسللين وحيث الاحتفاء بعبقرية ستالين العالمية والاذلال الذى تلاقيه الانتلجنسيا . وأدى الهجوم على التقاليد القومية الى خلق مناخ من اليأس والقنوط والكرب . وبدت المحاكمات لمعظم الجماهير وكأنها تجرى فى عالم آخر . وكان طرفا الاتهام شيوعيين وشارك المواطن العادى فى هذه المهزلة وفرض عليهم ترديد التهم الملفقة ضد المتهمين ليؤكدوا على الأكاذيب . وكان المواطن العادى مدركا بأن المصير المأسوى للزعماء الشيوعيين المنبوذين يمكن أيضا أن يصيبه فى أية لحظة ، بل ان كل فرد كان يشعر فى قرارة نفسه بأن الدور سيأتيه وبانه المرشح للضربة التالية للآلة الاجرامية ، كما أجبرت آلة الدعاية الشيوعية الهائلة كل الجماهير على الانغماس فى احتفالات جماهيرية لمشايعة الحزب ورفع شعاراته . وفى نفس الوقت وتعزيزاً لمنطق الالزام والقسر تم استيراد نموذج اجبارى من الاتحاد السوفيتى لرفع انتاجية طبقة العمال ، ومن لا يمتثل من العمال لأوامر الحزب يعتبر سياسيا غير اهل للثقة واسفرت المحاكمات الصورية عن انفصام شيزوفرينى فى عقلية الفرد ، اذ أنه كان يهتف علانية لنفس القيم التى كان يمقتها فى قرارة نفسه .

ان الضحايا الرئيسيين فى المحاكمات الصورية التى جرت فيما

بين عامى ١٩٤٩ و ١٩٥١ كانوا أعضاء فى الاحلاف « الشيوعية الدوليه» أو « شيوعيين وطنيين » وهم النقيض للموالين للديكتاتورستالين . ونجد كوسى زوكسى وترشيو كوستوف ولوكريتو بترسكانيو وفلاديسلاف جوميلكا ولاسلو راجيك قد قضوا سنوات الحرب فى بلدانهم ، وشاركوا فى حركة المقاومة ضد النازى على عكس زملائهم الذين تلقوا تدريبهم بموسكو والذين وصلوا فى دبابات الجيش الأحمر Red Army ولم يحققوا أى شرعية من انخراطهم المباشر فى حركة « الانصار Partisan » . واستاء الشيوعيون « المولون لومنهم » من الاتجاهات التى تجنح لتقديم التنازلات للمسكوفيين الذين استغلوا علاقاتهم الحسنة بموسكو وتاجروا بها وتعاملوا مع الشيوعيين من جنسيتهم على أنهم شركاء فى مرتبة أدنى . وتفهم ستالين وجود هؤلاء المتحزبين واستغلهم فى التمهيد للمذابح المستمرة فى الأقطار التابعة .

وفى بداية الخمسينيات أبدى ستالين اهتماما متزايداً بدور اليهود باعتبارهم حاملى « رؤية للعالم الأممى » وباعتبارهم داعمين « موضوعيين » للغرب . ولا يهم الشيوعيين اذا كان الفرد ، ضد النظام ولكن يعنيهم ما يدور بذهنه او ماذا يمكن أن يفعله استنادا لوضعه الاجتماعى (اذا كان منحدرا من عائلة برجوازية . درس فى الغرب ، ينتمى لأقلية معينة ، وهلم جراً) . ونظم الستالينيون حملات شاذة ضد السامية فى الاتحاد السوفيتى ، وضد الكتاب اليهود والنقاد والأدباء . وكان شبح المخطط الضخم يطل برأسه على السكان اليهود السوفيتيين . وادى الصراع فى الديمقراطيات الشعبية ضد « أممية بلا جذور » (شفرة تعنى اليهود) الى تورط زعماء شيوعيين محليين فى مذابح الائتلاف ضد زمر « المسكوفيين » التى يسيطر عليها شيوعيون من أصل يهودى (العديد منهم فر من الفاشية وطالبوا باللجوء الى الاتحاد السوفيتى فى الفترة التى توسطت الحربين) . ان التخلص من الموالين المخلصين لستالين وصل لحد مذهل فى تشيكوسلوفاكيا ففى محاكمة أكتوبر ١٩٥٢ الصورية حكم على رودلف سلانسكى الذى ظل سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى حتى سبتمبر ١٩٥١ ومن منصبه هذا أشرف على عملية اضطهاد الشيوعيين وغير الشيوعيين بالاعدام شنقا فى ديسمبر ١٩٥٢ ، كما أعدم غيره كثيرين من المناضلين البارزين ذوى الأرومة اليهودية . واتهم سلانسكى ورفاقه بالتآمر الصهيونى والتواطؤ المباشر مع شبكة التجسس الغربية . ولم يستطع سلانسكى الذى كان الراس المدبر للمذابح فى تشيكوسلوفاكيا أن يدرك التهم الغريبة التى وجهت اليه فحاول الانتحار فى زنزانته أكثر من مرة ،

وقد توسل سلانسكى لرئيس الحزب وصديقه السابق كليمنت جتولد أن يمنحــه فرصة يدافع فيها عن نفسه الا انه رفض · وكان الهــدف من هذه المحاكمات الصورية ادانة التآمر الذى يحاول القضاء على استقرار الكتلة الشيوعية ومن ثم لم يكن بالامكان ابراء ساحة المتهمين .

وفى مايو ١٩٥٢ اعلنت وسائل الاعــلام برومانيا نبأ التخلص من ثلاثة أعضاء من المكتب السياسى ، اثنان منهم كانا زعيمين لمركز موسكو للهجـــرة Moscow emigrecenter التابع للحزب وذلك أثناء الحـــرب العالمية الثانية ، وشغل الثلاثة منصب سكرتير الحزب . وتقاسموا السلطة المطلقة مع زعيم العصبة المحلية جورجيو ـــ دجى . وأحــد هؤلاء الثلاثة آنا بوكر الزعيمة السوفيتية المتمرسة والتى طالما احتفت بها وسائل الاعلام الشيوعية باعتبارها مناضلة منزهة عن الأخــطاء الا أنها فقدت وظيفتها كوزيرة للشئون الخارجية وحددت اقامتهــا . وكذلك اتهم رفيقها الموسكوفى المجرى المولد فاسيل لوكــا Vasilluca بالقيام بالتخريب الاقتصادى وذلك أثناء توليه لمنصب وزير المالية كما وجهت له تهمة التعاون مع السياسة البرجوازية اثناء نشاط الحزب السرى وتم القبض عليه ومات فى المعتقل فى أوائل الستينات ، أما ثالث هــذه المجمــوعة فهــو تيهــارى جورجيســكو Teahari Georgescu الشيوعى الوطنى والوزير السابق للشئون الداخلية واتهم بالتعاون مع فريق بوكر ولوكاس وحكم عليه بالسجن ولكن سرعان ما أطلق سراحه· وعمــل جورجيكو فيما بعد فى وظائف وضيعة ·

ان الظروف المحلية والدولية هى التى أدت الى هذه المذابح فى رومانيا . وكان هناك ثمة منافســة على السلطة بين جورجى دجى وآنا بوكر ، ومصدر تنافسهم لا يكمن على أية حــال فى اختلاف معتقــداتهم السياسية ولكن فى طموحهما الشخصى وغرورهما · واســتغل جورجى فى نزاعه مع بوكر اهتمام ستالين بجعــل الأحــلاف الشرق أوربيـــة الشيوعية « عرقية » أى اهتمامه بالتخلص من الزعماء اليهود بما فيهم آنا بوكر . واقتنع جورجى الكرملين بأنه أكثر الممثلين للمصالح السوفيتية ولاء واتهم مناوئيه باللجوء لحيل تهدف الى تقويض اســـتقرار الوطن واعادة الراسمالية .

فى الاتحاد السوفيتى بلغت الحملات المعادية لأمريكا والمعاديـــة للسامية أشدها وذلك فى فبراير ١٩٥٣ ، أى قبل موت ستالين بشهر واحد ، مع الاكتشاف الزائف « لمؤامرة الأطباء » . ووفقا للروايـــة الرسمية فان أطباء الكرملين وكان أغلبهم من اليهود ، قد تورطوا منذ أمد

بعيد فى أنشطة اجرامية تهدف لابادة القيادة السوفيتيــة وتصفيتهــا جسديا .

وهكذا تم القبض عليهم جميعا وخضعوا للتعــذيب الجســدى والنفسى الرهيب ، ولم يمنع اجراء محاكمة علنية صورية القيام بمذبحة شاملة معادية للسامية وتقويض استقرار السكان اليهود فى صربيا(٥) سوى موت الزعيم ستالين . ووصل النظام مع محاكمة سلانسكى « ومؤامرة الأطبــاء » الى أقصى حدود اللامعقولية ، وقــد وجهت اكثــر الاتهامات غرابة ضــد اليهود السوفيتيين واليهود الشرق أوروبيين ودون ادنى اعتبار للحد الأدنى من المصداقية . وكان « الخط الحزبى » مرنا يتغيـــر حسب نزوات الديكتاتور السوفيتى وافتقر الجميع بمــا فيهــم السكرتارية العامة المحلية الى الشعور بالحماية والبعد عن الاتهــام بالخيانة والمثول أمام محاكمة صورية . وبصرف النظر عـــن جـــريرة الضـــحية كــان شــاغل المستشــارين الســوفيت ، والمخرجين الفعليين لمسرحيات المحاكمات الصورية هو تأكيد صـــدق شكـــوك ومخـــاوف ستالين واضافة أسماء جديدة على نحو متــوال الى كشف المجـــرمين الذين افتضح أمرهم ، ولكن هذه المذابح طالت آخــرين غير زعماء التهمة فبمجرد أن تفشت هذه المذابح دوى صداها فى الحــزب كله وأسفرت عن شلل تام لكل استقلال فردى . واستخدمت الوسائل الارهابية اتمع أى اتجاه نقدى وأصبحت الطاعة هى المفتاح الذهبى للبقاء حيا .

وعند وفاة ستالين فى الخامس من مارس ١٩٥٣ كـــانت بلـــدان الكتلة السوفيتية منخرطة فى النظام السياسى الذى بنى على الارهاب كما اشتركت فى المساومات الايدلوجية والاقتصاد الموجه . وكـــانت المذابح باعتبارها أداة الحلف للاستبدال والتعبئــة الســياسية ظــاهرة مميزة لكل بلـدان الكتـــلة . ويرى زيجنيــو بريجنســـكى أن الســـمات الرئيسية للنظام الداخلى الستالينى هى جعل المنظمة المؤســســاتية جماعية ، وفهم التفوق والسيادة السوفيتية باعتباره تجســـدا لدور ستالين وزعامة الدولية الشـيوعية ، وكذلك النظـــر لدور الســـادلة الذى يعزى للأيديولوجية باعتبــاره مصـــدر الشرعية الســياسية للأحلاف الحاكمة ، واستغلال الاتحاد السوفيتى لاقتصاد الدول التابعة (٦) . ويمكن ان توصف هذه الممارسات السياسية بالنظر لسماتها الأساسية المميزة بأنها توتاليتارية خاصة بعد أن خطط حزب الدولـــة المنفـــرد بالسلطة لامتصاص أو ابادة كل أشكال الاستقلال الـــذاتى . وكانت المانيا الشعبيـــة الديمقراطيـــة German Democratic Republic

اقل الدول تأثرا بما يجرى لأن سياسة الدولة لم يتم ارساؤها الا بعد أن بنى سور برلين Berlin Wall فى عام ١٩٦١ ليكمل العزل التام لألمانيا عن الغرب .

★ تحدى تيتو وسقوط الحكم الفردى :

من الصعب المبالغة فى أهمية رفض تيتو للانحناء أمام دكتاتوريات ستالين . لقد كانت المرة الأولى التى يجرؤ فيها شيوعى تلقى تدريبه فى الكومنترن على تحدى سيادة الكرملين ويطالب بأن يكون لحزبه دور مستقل ، ومثلت معارضة ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩ التى أبداها تيتو فى مواجهة ضغوط ستالين وابتزازه نقطة تحول فى تاريخ الأممية الشيوعية . لقد كان اول رفض موفق لادعاء ستالين بأحادية الحقيقة ، ودحض المعتقد الستالينى عن الدولية ، والتمسك والاعتزاز بالقيم القومية فى مواجهة السلوك الامبريالى السوفيتى . ورفض تيتو عقيدة الكمنفورم التى يجب أن يحكم بموجبها كل الشيوعيين ويتوجهوا صوب الاتحاد السوفيتى وصوب ستالين شخصيا . وكان تيتو يرى ان كل حزب شيوعى ــ كبيراً كان أوصغيراً ــ من حقه ان يؤسس خطا سياسيا وفقا لمصالحه الخاصة التى يقررها بنفسه . ومنذ أن قادوا حركة مقاومة جماهيرية ناجحة لمواجهة المحتلين النازيين ، شعرت القيادات اليوجوسلافية بأن لها الحق فى تبنى رؤية مختلفة لدورهم القومى داخل عالم الشيوعية .

ان مطلب تيتو الخاص بتدشين القومية الشيوعية كان هو الانجاه السائد داخل الأممية الشيوعية . التى رفعت من شأن الأولويات الوطنية على المباذىء والأهداف الامبريالية . لقد كان مطلباً قومياً فى مواجهة الضغط الشديد الذى فرضه ستالين على الاتجاهات القومية . ومن ناحية أخرى لم يسمح باستئناف الحركات القومية والسمات الأيديولوجية لأوربا الشرقية فيما قبل الشيوعية ــ وعضد تيتو وجهة نظره عن أيدلوجية الوحدة اليوجوسلافية الاشتراكية والتى لا يجمعها أى شىء مشترك مع القوميات الصربية والسكرواتية والسلافية التقليدية ، وتجاهل ستالين تماما بل واحتقر الاعتزاز بالقومية ، ولم يدرك أن تيتو قرر أن يقاوم ضغطه ، وأمكن للشيوعى اليوجوسلافى أن يعبىء الرأى العام الا ان ستالين استاء من النظام السياسى الجديد وقال لزملائه فى المكتب السياسى : « اذا أشرت باحدى أصابعى ، فسيسقط تيتو » وهو ما نقله نيكيتا خورتشوف Nikita Khurshchev (٧) .

ولم ير الديكتاتور السوفيتى فى الاله اليوجسلافى سوى عبد جرؤ على أن ينازع سيده فى سلطته ٠

ولم يدرك اليوجوسلافيون مقدار ما يكنه لهم ستالين من كره وحقد ، وتصرفوا باعتبارهم موالين للاتحاد السوفيتى ولم يكن تيتو أقل ميلا للتصنيع من ستالين . ولم يكن اقل التزاما — فى مستهل حكمه — بمبدأ الجماعية . وقد خطط البوليس السياسى بقيادة ألكسندر رانكوفيك عمليات الارهاب ضد « أعداء الطبقة » فى يوجوسلافيا ٠ ولأنهم تخرجوا من مدرسة التقاليد الستالينية فقد نظر القواد اليوجوسلافيون للحزب على أنه مصدر المنطق والأداة الكاملة التى لديها اجابات جاهزة عن كل الأسئلة الصعبة وذلك من خلال تطبيق المعتقدات اللينينية الستالينية ٠

ومن ثم تمسك تيتو ورفقاؤه مبدئيا بالنماذج والقواعد الأيديولوجية اللينينية الستالينية ، وردت الزعامة اليوجسلافية على اتهامات ستالين بمحاولتها التفوق على ستالين فى الأرثوذكسية ٠

وفى المرحلة الأولى من الصراع رأى تيتو أن الصراع نجم عن سوء فهم مؤسف ولقى ما ابداه تيتو من استخفاف نحو الديكتاتور السوفيتى رد فعل عنيف من ستالين . وقد مر وقت طويل حتى انخرط الزعماء اليوجوسلافيون فى تناقض تام مع الستالينية التى كانت آنذاك فى أوج نضجها وقد استخدموا طرقا سلطوية فى تحديهم للستالينية تماثل تلك المستخدمة فى « الديمقراطيات الشعبية » فى صراعها مع « أعداء الطبقة » فالشيوعيون الذين رفضوا وجهات نظر تيتو وواصلوا ولاءهم للكمنفورم وأيدوا هجومه العنيف على الحزب الشيوعى اليوجوسلافى قد لقبوا « بالكمنفورميين » واعتبروا عملاء ، كما نفى بعض هؤلاء لمعسكرات المعتقلين السياسيين النائية بما فيهم جولى أوتوك Goli Otok (٨) الشيوعى المعروف ، وتدبر آخرون وسائل الهرب الى « الديمقراطيات الشعبية » المجاورة حيث شنوا حربا للدعاية ضد هؤلاء الذين وصموا بأنهم « العصابة التيتوية والخونة » ٠ وقد شجع تيتو ايجاد « طريق للاشتراكية » على أن يكون يوجوسلافيا يختلف عن مثيله السوفيتى المغالى فى البيروقراطية والسلطوية وذلك لحاجته الشديدة للدعم والتأييد الشعبيين ٠ ان تزايد حرص يوجوسلافيا على « ادارة شئون نفسها » ووعدها للعمال بالمشاركة فى اقرار المشاريع الصناعية نم عن رغبة حقيقية فى التخاصم مع النظام المتحجر

الذى يضع الادارة المؤسساتية البيروقراطية فى قبضة الاتحاد السوفيتى .

وضعف تيتو بعد أن عزلته حركة الأممية الشيوعية كلها وافترت على عقائده التى لاقت منه كل تقديس وفرض نموذج يوجوسلافيا « لادارة شئونها بنفسها » من أعلى ، ووضعت مبادرات الجماهير التلقائية تحت سيطرة الحزب الصارمة مستخدمين آلة الدعاية . ان الاصرار على مراعاة الشئون الداخلية ليوجوسلافيا كان المفترض ان يؤدى لانهيار النظام الشيوعى بل وتكوين خط سياسى يختلف عن مثيله فى الاتحاد السوفيتى تحت قيادة ستالين . وادخرت المطالبة بالأهلية صراعا ظهر فى المستقبل بين المراكز الشيوعية المتنافسة اضافة الى الصدام بين وجهات النظر الخاصة بالتفسير التوتاليتارى والانسانى للماركسية واللينينية . ورأى تيتو ومعاونوه فى النعرة العرقية أداة لتقوية القاعدة الجماهيرية أكثر مما لو كانت دافعا عميقا من أجل طلاق يوجوسلافيا من روسيا .

ان السياسة الخارجية لم تكن تنفصم كلية عن الشئون الداخلية ولذلك فان نقد تيتو لسلوك ستالين الامبريالى زاد من ضراوة نقده للنظام السوفيتى . وقد وصف النموذج السوفيتى فى عدد من الوثائق النظرية التى نشرها الشيوعيون اليوجوسلاف فى بداية الخمسينيات ، بأنه ديكتاتورية يسيطر عليها آلة ضخمة بيروقراطية . وأكدت هذه المنشورات على أن الحزب الشيوعى بالاتحاد السوفيتى لم يعد الحارس الخاص للبروليتاريا العالمية ، ولم يعد سوى مجموعة من البيروقراطيات وبقاؤها أصبح مرهونا باستمرارية المذابح ، وان النظام السوفيتى تدهور فتحول الى راسمالية دولية تديرها الطبقة الجديدة من الحكام البيروقراطيين . وفى عام ١٩٥٠ قرر تيتو وعصبته تجنب اخطاء ستالين فجربوا نموذجا يعطى للعمال حق السيطرة المباشرة على مشروعات الانتاج الا أن التيتويين لم يتخلوا تماما عن الدور القيادى للحزب . واستمر توظيف خلايا الحزب الشيوعى ، واستمرت الحكومة المركزية فى التحكم فى تعيين المدراء فى المواقع الصناعية وحاولوا تحسين صورة الحزب الشيوعى فى المجتمع باعتباره تشكيلا سياسيا ذا « شخصية فدائية وديمقراطية » .

وعندما أجرى تيتو هذه التغيرات بدا لستالين أنه تخلى بالفعل عن الاشتراكية واعتبر ستالين التشاور مع العمال فيما يتعلق بالمشاريع الصناعية واعطاءها الحق فى اتخاذ القرار النهائى دليلا قاطعا على الفوضوية السياسية و « الليبرالية البرجوازية » . ولم يغفر الزعماء

فى الاتحاد السوفيتى — حتى بعد وفاة ستالين — نظرتهم الى القيادة اليوجوسلافية وظلوا على وصفهم « بالارتدادية » . ولا تعد المحاولات التى بذلها الزعماء فى يوجوسلافيا للتقليل من الأضرار التى سببتها البيروقراطية الشديدة اصلاحا جذريا للنظام اذ أن تيتو أبقى على دور الحزب القيادى وجرم أى تشكيلات سياسية بديلة ، كما فرض رقابة صارمة على المطبوعات وعلى المصلحين أمثال ميلوفان دجيلاس نائب تيتو السابق ، الذى تجاوز الحدود المسموح بها داخل الحزب فى مجال « الابداع » .

فى عام ١٩٥٣ قرر الزعماء اليوجوسلافيون التخلى عن التعاونية فى الزراعة ، وتورط تيتو باعتباره المتحدث الرسمى فى نقد حاد وبناء لنموذج الاتحاد السوفيتى باعتباره نموذجا جامدا وديكتاتوريا . وعلى عكس النظريات السوفيتية التى أصرت باستمرار على ضرورة تقوية الدور الذى تلعبه ديكتاتورية البروليتاريا ، طالبه الشيوعيون اليوجسلافيون باستلهام الاشتراكية الحقة من الماركسية الأصيلة مما يحد من نطاق مشاريع الدولة حتى يتم « أفول دور الدولة » . ان عملية « البحث عن رجل » التى قام بها اليوجوسلافيون عندما نادوا بفلسفة وممارسات مختلفة للاشتراكية (٩) ، لم تتضمن الانفصال التام عن عقيدة الحزب باعتبارها مستودع العقلانية التاريخية . ان الصراع يكمن فى اصرار [illegible] المثين المفروض عليهم من قبل [illegible] الاستقلال القومى ببلادهم . لقد وجه الشيوعيون فى يوجوسلافيا نقداً نظريا للامتيازات التى يتمتع بها الحزبيون ومع ذلك لم يتم تقليصها وعندما هاجم ميلوفان دجيلاس الذى كان آنذاك نائب رئيس الدولة أعضاء النظم الحزبى (النومنكلاتورا) (١٠) تم طرده أولا من تحالف الشيوعيين اليوجوسلافيين ، ثم أعتقل بعد أن نشر اتهاماته « للطبقة الجديدة » من الملوك واعتبر « عنصراً مخربا » (١١) . وكان تيتو مستعداً لشجب الفضائح الستالينية وأن يأسف للبيروقراطية الاشتراكية الا أنه رفض تشجيع النقد البناء للأصول النظامية للأوتوقراطية (١٢) الشيوعية .

لقد طرح تيتو مبادرة ورؤية نقدية مختلفة تتمسك بنظام الحزب الواحد ولكن دون قمع . وفى خطابه للتهنئة بكريسماس عام ١٩٤٩ شجب تيتو الستالينية بسبب اقرارها للظلم والعدوان حيث قال :

« ان هؤلاء الذين يسكتون ضمائرهم بتبنى مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » يجب أن يتذكروا أن هذا القول المأثور شاع عمليا بين

اليسوعيين فى زمن المحاكمة الكاثوليكية الرومانية لكشف الهرطقة . لا يمكن للاعمال العظيمة ان تنجـز بوسائل قذرة أو بمشاعر مزيفة . ان الأشياء العظيمة لا يمكن أن تخلق الا بالأساليب النظيفة وبمشاعـر صادقة وهذا ما نؤمن به دائما » (١٣) .

ورغم هذا ، فان الزعيم اليوجوسلافى لجأ لنفس الوسـائل التى ينقدها مع التيار الراديكالى داخل حزبه . ان رؤية تيتو لم تختلف فى الواقع عن رؤية استاذه ، ولم يختلفا أيضا فى الهدف وهو الاحتفاظ بالسلطة المطلقة فى يديه .

الســتالينيون الشرق أوروبيين :

ان فهم تطورات الأحداث فى أوربا الشرقيـة فى الخمسينيـات يتطلب الحديث عن السمات الرئيسية للاحزاب الشيوعية فى هـذه البلدان ، فنجد أن جميع التشكيلات اللينينية فى المنطقة ـ وهذا نستثنى تشيكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا مـرة أخـرى ـ كانت تعـانى من عجـز دائم عن كسب الشرعية والدعم الجمـاهيرى ، رغـم انضـمام مـلايين الأعضاء لهـذه التشكيلات الا أن الشيوعيين كانوا قـلة واسـتمدت الأحزاب شرعيتها من ولائهم اللا محدود واللا مشروط للاتحاد السوفيتى ولستالين شخصيا .

ولم يقاوم أحد حتى الزعماء اليوجوسلافيون ادعاء الاتحاد السوفيتى بالهيمنة داخل عالم الشيوعية . ولم يبخل أحد بالتضحية مهما كانت كبيرة لاظهار ولائه والتزامه بالقضية الشيوعية .

ان الأممية كانت عقيدة لدى كل الأحـزاب الشـيوعية التى تتبنى فلسفة حـزبية واحدة ، وواجب العضو الفرد كواجب العبد وهو الطاعة العمياء للأوامر التى تأتى من أعلى وأطلق على هذا المنطق العسكرى المركزية الديمقراطية . وكانت الحياة داخل الأحزاب شعائرية وسلطوية وهرمية الى أقصى حد ويقوم الأعضاء بعملهم بما يتوافق مع رؤية القادة التى تتولى بمهارة عملية التنظيم والتوجيه وحصار كل أشكال الشقاق الحزبى والاتجاهات النقدية ، مما جعل المناخ مناسبا لازدهار الحمـاس الآلى والرومانتيكية المزيفة وتم استبعاد وابادة كل من عبر عن أدنى شك فى سياسة الحزب .

وتمت قيادة الأحـزاب الشـيوعية فى أوربا الشرقية بواسـطة نواة شديدة التعقيد والأحكام من العسـكريين الذين اقتنعـوا بضرورة تطبيق

النموذج السوفيتى فى بلادهم دون أى تحفظ أو تردد . وقد رأس احزاب الكتلة السوفيتية قادة ثوريون محترفون تلقى معظمهم تدريبهم فى مدارس الكمنترن وقد تم اختبار مدى ولائهم للاتحاد السوفيتى على مدار سنوات طويلة · ولتحقيق المشاريع الأساسية للستالينية ، أسس هؤلاء الناس نظاما من الارهاب والابادة ولم يفلت من هذا النظام حتى انصارهم المتحمسون · وفى هذه القطاعات الشيوعية لم تكن هناك مساحة للولاء الشخصى أو الارتباط بأى شيء سوى الحزب باعتباره أسمى من أى عنصر فردى . وتبنى الحزب وجهة نظر أحادية عن العالم باعتبارها الحقيقة الوحيدة المقبولة واعتبروا كل ما هو دونها ارتدادا وخطرا حقيقيا ، وأسفرت هذه الحساسية المفرطة تجاه أية حقائق لا يكون الحزب مصدرها عن معاداة للابداع . ونظرت أحزاب الكتلة السوفيتية لكل المبدعين بما فيهم المبدعين الشيوعيين أنفسهم نظرة شك وارتيات أى نقد قد يوجه للأوضاع الراهنة ، وأدى الاعتقاد بأن الأحزاب تجسد وعى طبقة البروليتاريا الصناعية ، الى محاولة الائتلافات داخل هذه الاحزاب لتوسيع قاعدتهم الجماهيرية لدى العمال .

وكشفت الصحيفة البولندية تيرسا تورانسكا Teresa Toransk فى سلسلة من المقابلات التى أجرتها فى أوائل الثمانينيات مع بعض الزعماء السابقين فى الحزب الشيوعى البولندى ونشرتها فى كتب بعنوان « هم oni » كل الأساطير والفنتازيا والسخط والأوهام التى سلبت الشيوعيين فى بولندا ارادتهم . وأهم هذه المقابلات كانت مع عضو المكتب السياسى Politburo وسكرتير اللجنة المركزية Centeral Committee Secretary السابق جاكوب بيرمان (١٩٠١ — ١٩٨٤) الذى حاول أن يدافع عن خيارات وتصرفات جيله السياسى اذ رأى أن الشيوعيين البولنديين كانوا محقين عندما اعتبروا سياسات ستالين فى بولندا بطولية ، وادعى أن السوفيت ضمنوا حرية بلادهم الاجتماعية والقومية . وعندما كشفت تورانسكا التى تربطها علاقة مع تضامن عن الكوارث والمصائب الفادحة التى سببها الشيوعيون للأمة البولندية فان بيرمان رد قائلا :

« ان هذا محض افتراء ، لقد اتينا بالحرية السياسية ··· لم نات الى هذا البلد كمحتلين ولم نتخيل انفسنا كذلك . وبعد كل الكوارث التى نزلت بهذا البلد اتينا بالحرية السياسية فى اكمل صورها لاننا تخلصنا اخيراً من هؤلاء الالمان وهذا اسفر عن شيء ما واننى اعلم أن هذا الشيء ليس بالهين · لقد اردنا لهذا البلد ان يتقدم للأمام وأن

يستنشق عبير الحياة الحرة • ان آمالنا كانت متعلقة بالنموذج الجديد ابولندا والذى لم يحدث مثيله من قبل وكانت هذه هى الفرصة الوحيدة التى واتت هذا البلد منذ الف عام ، كما كنا نريد أن تستثمر هذه الفرصة بنسبة مائة فى المائة • ونجحنا • وعلى اية حال فقد كنا على وشك النجاح لأننا كنا على حق ولم تكن آمالنا محض خيال ولم نستمد عزمنا من فراغ ولكن تاريخنا — بل التاريخ كان بجانبنا » (١٤) •

وهكذا لم يكن الشيوعيون فى حاجة لأى دليل عملى (اجتماعى أو ثقافى أو معنوى) يمنحهم الثقة بأنفسهم لان التاريخ هو الذى منحهم تفويضا ولان أحلامهم عظيمة من أجل تحقيق الخلاص دون أدنى اهتمام لمصير هؤلاء الذين كرسوا هذا المخطط اليوتوبى ، وكانهم يحاولون فرض السعادة على الناس وذلك بالتوحد مع معتقدهم التبشيرى عن الدور المختار لأحزابهم مما جعل الأحلاف الشيوعية توصد أبوابها أمام أية اشارة تنبع من المجتمع الذى ثبطت همته ويدمل فى باطنه التمرد والفوضى • ولم تحاول هذه الأحزاب استقاء خططها من الواقع الفعلى لكل بلد بل جنحت هذه باستمرار الى فرض التغيير على المجتمع واذا لزم الأمر أن تقمعه • وهذا يفسر الهوة السحيقة بين الائتلافات الحاكمة أى « هم » كما أطلق عليهم المواطنين العاديين وجموع الجماهير أى « نحن Us » • وفيما بعد قاطعت الأحلاف الشيوعية فى اوربا الشرقية التقاليد القومية لبلدانهم لصالح جمعية « محررى البشرية » المتجاوزة للقوميات • واقتنع زعماء احزاب الكتلة السوفيتية مثلما كان لينين مقتنعا عندما أسس الحزب البلشفى فى بداية القرن العشرين بأن الشعب فى حاجة الى قوة خارجية لتنويره وتعليمه، وبدون حزب طليعى لن يكون هناك أمل فى عتق حقيقى • وفى نهاية لقائه مع تورنسكا أعرب بيرمان عن دفاعه المستميت عن السمو الأخلاقى للشيوعية الأصيلة ، وأكد أن اليوم الذى سيتحقق فيه الحلم بثورة كونية قادم لا محالة ، وسوف تصبح كل فضائح وجرائم الحقبة الستالينية مجرد ذكريات فقال :

« وبدون استخدام اية كلمات سحرية كى يبدو ايمانى قويا ، فاننى مقتنع بأن مجمل اعمالنا قد تم انجازها بمهارة وحصدنا اخيراً ثمارها وخلقت الوعى البولندى وذلك لأن كل المميزات التى انبثقت من منهجنا الجديد ستولد بل لابد أن تخرج للحياة واذا لم تدمر بحرب ذرية ولم تختف داخل اللا شيئية فسيكون هناك فى النهاية اختراق للعقلية التى ستكون لها طبيعة مختلفة تماما • وبعدها سنكون نحن الشيوعيين قادرين على تطبيق كل المبادىء الديمقراطية التى كان لابد ان نطبقها

لكننا لا نستطيع ، لأن ذلك فيه هـزيمتنا وابادتنا • ربمـا يتـم ذلك فى خمسين أو مائة عـام ، اننى لا اتكهن ، ولكننى على يقين بأن ذلك سـوف يحدث يوما ما »(١٥) •

ان بيرمان وغيره كثيرين اعتقدوا بأن التاريخ فى صفهم وكان هذا الاعتقاد السمة التى ميزت الأحلاف الشيوعية فى كل البلدان التابعـة للاتحـاد السـوفيتى • وقد كان لدى آنا بوكـر نفس الايمـان وظنت أن الاتحاد السوفيتى هو عماد الانسانية التقدمية . وفى الوقت الذى تحولت فيه بولندا للستالينية تولى الحكم فى بولندا بوليسلاف بيرت Boleslaw Bierut (١٨٥٦ — ١٨٩٢) وهو العميل السوفيتى السرى السابق الذى خدم كمرشد لكمنترن فى بلغـاريا وتشيكوسلوفاكيا والنمسـا خلال الفترة التى توسطت الحرب . وحكم بلغاريا « رباعى » مكون من الزعيم الشيوعى ماتيـاس راكوسى (١٨٩٢ ـ ١٩٧١) الذى قضى خمسـين عاما فى سجون الادميرال هورثى بسبب ممارساته الشيوعية ومزاملته الوثيقة لارنو جيرو (القيصر الاقتصادى) وجوزيف ريفيا Jozsef Revia « الأيديولوجى الرئيسى » وميهـاى فاركاس (وزير الدفـاع) • وتـولى قيادة الحزب فى بلغاريا فالكوتشرفينكـوف Vulko Chervenkov (١٩٠٠ — ١٩٨٠) الذى خدم فى الثلاثينيات كنائب لمـدير مدرسـة الكمنترن اللينينية بموسكو . وفى المانيا الشرقية تولى زعامة الحـزب ولهـلم بيـك Wilhelm Piek (١٨٧٦ ـ ١٩٦٠) وولتـر البـرخت Walter Albricht (١٨٩٣ ـ ١٩٧٣ ـ اللذان تركا وطنيهما بعد اجتياح هتلر فى ١٩٣٣ وقضى هؤلاء الزعماء ـ هذه الفترة فى منفى بموسكـو وعادوا الى المانيا فى عام ١٩٤٥ •

اما فى رومانيا وبعد التخلص من عصبة (بوكر — لوكا) قـاد جورجى جورجيو — دجى الحزب الشيوعى (١٩٥١ — ١٩٦٥) وكان عاملا فى السكة الحديد وقضى أكثر من عشر سـنوات فى السـجون ومعسكرات الأشغال الشاقة كـما قضى الزعيـم التشيكوسلوفاكى كلمينت جـوتولد (١٩٥٣ — ١٩٥٦) سنـوات الحـرب فى المنفى السوفيتى (١٦) . وفى موسكو التقى الجميع خلال سنوات الحرب أو خلال الفترة التى توسطتها الا ان قصـة ما جمع بينهم من علاقات لهـا كتاب آخر وتم اعداد بيرمان وبوكر وراكوسى وغيرهـم من الزعماء الشيوعيين الشرق أوربيين كى يكونوا ميلشـيات تتخذ ستالين قدوة لها فى السلوك الثورى الصحيح وابدوا اعجابهم بصلابة الزعيم السوفيتى وبصراعه ضد عصب المعارضة وشاركوه عداءه للغـرب • وهكذا آمن تلاميذ النظـرية السـتالينية بنظـرية التعـاظم الدائم والمسـتمر للصراع

الطبقى وبذلوا قصارى جهدهم لاقامة نظام يقمع كل الاتجاهات الناقدة وراوا فى عقيدتهم الاشتراكية الصواب كله وفى الرأسمالية الشر كله ، وليس هناك طريق وسط بين الاثنين ، وانطلاقا من هذا الايمان زرعوا هذه المبادىء فى عقول الطلائع فى بلدانهم . وكى يتعرف الشيوعى على الماركسية لابد أن يبدأ بتعلم وحفظ نصوص الكومنترن Comintern Vulgate وقبولها دون تحفظ باعتبارها شعارات ستالين الناجعة ، بل ورأى الشيوعيون فى الكتلة السوفيتية أن صياغات ستالين التعليمية أفضل ما عبر عن أفكارهم ومعتقداتهم الخاصة . وكان الامتزاج العقلى والعاطفى بين النبوءة والأنظمة شيئا لا يتزعزع .

وعندما توفى ستالين قاست الأنظمة الشرق أوربية مشاعر اليتم ، اذ كان ستالين اكثر من مجرد نصير بل كان حامى حماهم ومحقق أحلامهم ورمز قوتهم ، والمصدر الحقيقى لسلطتهم وبدونه سوف يشعرون بالعجز .

نيكيتا خرتشوف و « المسيرة الجديدة New Course »

وعادت القيادة السوفيتية بعد وفاة ستالين لفرض هيمنتها على الاقطار التابعة . وأثر تفجير الصراع الشرس على السلطة فى الكرملين على استقرار الائتلافات الحاكمة فى الاتحاد السوفيتى . وعندما استأنف السوفيتيون علاقتهم مع يوجوسلافيا رأى الزعماء الشيوعيون الشرق أوروبيين أن سلطتهم يحيق بها خطر جسيم ، ومن ثم قاوموا بكل ثقلهم انحراف تيتو عن الأيديولوجية الموضوعة ، بل واستحلوا دم الرفيق الشيوعى . وعلاوة على ذلك لم تتهاون زعامة الاتحاد السوفيتى الجديدة فى الحفاظ على قلعة ستالين الحصينة فى أوربا الشرقية الا أن الكرملين حاول تعديل بعض من عقائده الأساسية .

فى صيف عام ١٩٥٣ قام نيكيتا خروتشوف Nikita Khrushchev زعيم الحرب الشيوعى السوفيتى ومالينكوف Malenkov رئيس الوزراء وكلاهما موضع للاحترام ، باستدعاء الزعماء المجريين للاجتماع بهم فى موسكو حيث طلبوا منهم تطبيق استراتيجية جديدة ستضمن لعامة الشعب مستوى معيشيا افضل كما ستضمن انكماش الارهاب . واضطر راكوسى للتنازل عن منصبه كرئيس للوزراء لامرى ناجى Imre Nagy عضو المكتب السياسى السابق والذى استبعد من القيادة فى أواخر الأربعينيات بسبب مناهضته للزراعة التعاونية .

وفى ألمانيا الديمقراطية عجلت وفاة ستالين بتفشى التوترات فى حزب الوحدة الاشتراكى Socialist Unity Party (SED) الحاكم . وفى يناير ١٩٥٣ فرض الحزب عشرة فى المائة زيادة فى ساعات العمل فى مواقع البناء ببرلين (دون زيادة مماثلة فى الأجور) مما أدى الى اندلاع الاضطرابات والمظاهرات امام المقرات الرئيسية للحزب الشيوعى . وسحقت القوات الالمانية الشرقية والسوفيتية هذا العصيان المسلح المعادى للتوتاليتارية وكان الأول من نوعه فى أوربا الشرقية . ورسميا فان عشرات بل مئات على الأرجح ماتوا أثناء هذا الردع الحاسم . وفى كلمات تقطر مرارة عبر بيرتولت برخت Bertolt Brecht الشاعر والكاتب المسرحى الشهير عن هذه المأساة قائلا :

« بعد انتفاضة ١٧ يوليو ، ألقى سكرتير اتحادنا وريقاته الستالينية ، قائلا ان هؤلاء قد راهنوا على ثقتهم فى الحزب ، ولن تعود الا اذا تضاعفت الجهود . وعندئذ سيكون يسيرا على الحكومة أن تسحق الشعب أو تختار غيره » (١٧) .

ان انتفاضة برلين الشرقية كانت أولى حلقات سلسلة الانفجارات المتتالية للحنق الشعبى ، ضد الأنظمة العقيمة التى نصبت نفسها فى أوربا الشرقية بمساعدة مباشرة من الجيش الأحمر — وكان لتلك التمردات طبيعة مزدوجة . فهى عصيان سياسى ضد النظام الاجتماعى المعادى للحرية والذى أهدر كل الطاقات الانسانية من ناحية ، وحركات التحرر القومى ضد القوى الأجنبية الممثلة فى الاتحاد السوفيتى من ناحية أخرى . ولذا فان تعطش الشعوب الشرق أوربية للتمرد عام ١٩٥٦ عبر عن مطالب سياسية واجتماعية واقتصادية . وتصدى الشعب للنظام القائم بعد أن أدركوا أن أساسه هش ، وهاجموا أسلوب التعمية الأيديولوجية التى تبرر ظلم الشيوعيين الجائر. أما الماركسية اللينينية كما فسرها ستالين فقد فتحت عليها النيران فى المؤلفات والمقالات العامة للمبدعين أصحاب المذهب اليسارى الذين شعروا بأن العصب الحاكمة قد تلاعبت بأحلامهم الرومانسية وآمالهم البريئة ، وظل المبدعون الذين حجبت وجهات نظرهم ومنع نشرها بعيدا عن ما بدا أنه صراع العائلة الشيوعية ، ومن هؤلاء المبدعين نضرب مثالا واحداً بلوسيان بلاجا Lucian Blaga وهو واحد من الفلاسفة والشعراء الرومانسيين البارزين ، حيث منع الحزب نشر جميع أعماله فيما عدا بعض الكتب المترجمة وقضى حياته يعمل كأمين مكتبة .

وحاول الزعماء الجدد فى الاتحاد السوفيتى البرهنة لانصارهم

فى الحزب وفى الفرق العسكرية والحكومية ان زمن الارهاب الأعمى قد ولى . واستنتج الزعماء السوفيت خاصة بعد تمرد برلين أن الأساليب العتيقة للقمع والارهاب والاستغلال الاستعمارى فى أوربا الشرقية لابد أن تستبدل . وأبلغوا تناصلهم العسكريين فى عواصم أوربا الشرقية ضرورة استخدام أساليب جديدة للقيادة وصيغ جديدة للسلطة فى ظل هذه الظروف المتغيرة . وبادر السوفيت بالتقرب من تيتو وباقامة علاقات ودية معه وطلبوا ممن قاطعوه من زعماء شرق أوربا أن يحذوا حذوه . وادى التعديل فى « خط الحزب » الذى كان مقدسا وثابتا ولا يمكن تغييره الى التشوش وتخبط الأحلاف الشيوعية الشرق أوربية . وأدرك ماتياس راكوسى وعصبته فى المجر وكذلك جورجى جورجيو ــ دجى فى رومانيا ، وبوليسلو بيرت فى بولندا وأنطونين نوفتنى Antonin Novotny فى تشيكوسلوفاكيا ، وولتر البرخت وولهلم بيك فى جمهورية المانيا الديمقراطية وفلكو تشرفنكوف فى بلغاريا وانور خوجة فى البانيا أن استمرار وجودهم السياسى يعتمد على قدرتهم على التعامل مع مخلب الاتحاد السوفيتى الحاد اذا ما نشب فى بلدانهم. لقد انكشفت التهم الكيدية التى سبق ووجها الستالينيون المتشددون لمنافسيهم خلال المحاكمات بعد أن رد لتيتو اعتباره وكف الجميع عن وصف القيادات اليوجوسلافية باعداء الانسانية . وبادر اعداء الستالينية وهم ملينكوف وخروتشوف بنشر تلك العداوة على نطاق واسع فى أوربا الشرقية وكان طبيعيا أن تماطل القيادات المحلية التى استمدت شرعيتها ــ كما ذكرنا آنفا من تأييدها المطلق لستالين فى اعلان عدائها له ، ورغم أن هؤلاء عجزوا عن تقييد الحرية السياسية الا انهم وبالتأكيد قد أثروا على مسيرتها .

ولأن الاتحاد السوفيتى كان يندفع فى اتجاه احترام الحريات ، فان الضغوط من أجل احترام الحرية السياسية فى كتلة الاتحاد السوفيتى كانت قوية ومؤثرة .

علاوة على ذلك كان الوضع الاقتصادى فى تلك البلدان شديد التدهور . وتأكد الاتحاد السوفيتى من خلال المعلومات التى جمعها عملاؤه فى بلدان الكتلة ضرورة تبنى مسيرة جديدة وبسرعة والا ستكون الانفجارات الاجتماعية فى المنطقة حتمية . وفى المجر ، عين امرى ناجى وهو اقل من راكوسى وحشية ميلا للايدلوجيا رئيسا للوزراء بمباركة الاتحاد السوفيتى . وذلك فى يونيو عام ١٩٥٣ ، وأطلق العنان لبرنامج جرىء ملىء بالخطط الاقتصادية والسياسية الجديدة . وتتلخص استراتيجية ناجى فى تخفيف العبء الواقع أو المفروض على طبقة

العمال فى المصانع وتخفيف الضغوط عن كاهل الفلاحين وذلك بالتطبيق الجبرى للتعاونيات وتمهيد طريق جديد للشرعية يتضمن عفوا جزئيا عن المسجونين السياسيية وغلق معسكرات الاعتقال · وكان الاجراء الأخير يعد عمليا على قدر كبير من الأهمية ، بل كان أكثر تحديا لكل النظم الستالينية الشرق أوربية .

ان قرار ناجى بالتخلص من السجون المجرية اكسبه شعبية حقيقية وجماهيرية كبيرة ، جعلته منافسا لا يستهان به لراكوسى الذى اخذ موقفه يزداد ضعفاً .

واتبع الزعماء فى بلدان شرق أوربية اخرى نفس استراتيجيات الحرية السياسية الا ان التزامهم بها وتحمسهم لها كان اقل من ذلك الذى اظهره ناجى . وعند اندلاع الصراع على السلطة فى الكرملين حاول الرؤساء الشرق أوربيين المحليون كسب ثقة الزعماء السوفيتيين ، واعتبروهم اقل تورطا فى الانفصال عن الارث الستالينى الذى اكتسح اوربا . وادى ما حققه خرتشوف من انتصار على مالينكوف فى عام ١٩٥٥ الى ان يستعيد راكوسى سيادته وازيح ناجى من منصبه فى الوزارة والحزب الشيوعى بتهمة « الانتهازية اليمينة » .

وفى مايو من عام ١٩٥٥ اتخذ الاتحاد السوفيتى خطوة اخرى فى اتجاه تحويل هيمنتهم فى المنطقة لشكل مؤسسى وذلك بتكوين حلف وارسو كنوع من المصاهرة العسكرية التى تستند الى صلات أيديولوجية · وعبر زبجنيو بريجنسكى عن رأيه فى حلف وارسو فقال :

« انها المعاهدة الرسمية الوحيدة التى تشكل أهمية كبيرة لأنها تجعل الدول [الأوربية الشرقية] ملتصقة تماما باتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ، ولأنها تحد من العمل المستقل وتسمح بوجود (ومن ثم التأثير السياسى) القوات السوفيتية فى قواعد على أراضيهم » (١٨) ·

وضم حلف وارسو فى البداية ألبانيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا والمانيا الشرقية وبولندا ورومانيا والاتحاد السوفيتى · وبعد الانشقاق الألبانى السوفيتى فى ١٩٦٠ انفصلت قيادة تيرانا Tirana عن حلف وارسو الذى شجبه الالبان باعتباره اداة للامبريالية السوفيتية . وتخلت ألبانيا رسميا عن الحلف فى أغسطس عام ١٩٦٨ عندما غزا الاتحاد السوفيتى وأحلافه تشيكوسلوفاكيا . وبينما كفل حلف وارسو للاتحاد السوفيتى فرض هيمنته السياسية والعسكرية على البلدان

المتمردة وضمن تبعيتها له ، فان أول الاتحادات التى تشكلت فى عام ١٩٤٩ ضمن سياسة فرض هيمنة الاتحاد السوفيتى الاقتصادية على بلدان المنطقة كان مركز المساعدات الاقتصادية المتبادلة The Council of Mutual Economic Aid أو (CMEA) .

ان الأداة التى استخدمت لجعل اقتصاديات هذه البلدان معتمدة تماما وللأبد على الاتحاد السوفيتى هى « التخصص فى الانتاج الصناعى» وأعيدت صياغة مبادىء الاشتراكية الدولية ، لتلائم المفهوم الجديد لهيمنة اقتصادية محدودة وتنسق مع الجهود المبذولة لخلق كيانات اقتصادية عابرة للقوميات خاضعة كلية للمصالح السوفيتية . وبعد عام ١٩٦٠ كان مركز المساعدات الاقتصادية المتبادلة سيمثل الاطار الذى ستنفذ من خلاله سياسة التكامل الاقتصادى لبلدان شرق أوربا ذات الاقتصاد المركزى المخطط ، لقد كان من المفترض أن تنبثق عن هذه الجهود الاقتصادية المشتركة سوق اشتراكية متحدة · وبعد اجتياح عام ١٩٨٩ أصبح كل من حلف وارسو ومركز المساعدات الاقتصادية المتبادلة لا تربطهما أية علاقة وسعت الدول الأعضاء لحلهما · وفى الاجتماع الذى عقد فى فبراير ١٩٩١ ببودابست وضم وزراء خارجية ودفاع بلدان حلف وارسو ، تقرر حل الاتحاد العسكرى فى ٣١ مارس عام ١٩٩١ (١٩) .

مؤتمر الحزب الشيوعى السوفيتى العشرون ــ قنبلة معاداة الستالينية :

ان أهم الأحداث التى أدت الى تدمير ارث الستالينية كان « الخطاب السرى » الذى سلمه نيكيتا خروتشوف Nikila Khrushchev فى فبراير عام ١٩٥ لمؤتمر الحزب الشيوعى السوفيتى العشرين (CPSU) وفيه هجم خروتشوف لأول مرة الزعيم السابق وذلك لأسباب عدة : أولا انه أراد أن يطعن فى شرعية خصومه فىالمكتب السياسى للحزب السوفيتى لأن تعاونهم مع ستالين كان أكثر توفيقا منه وهم «فتسلاف مولتوف Vyacheslav Molotov ، لازاركا جنوفتش Lazarkagnovich جورجى مالنوف وكلمنت فورشيلوف Kliment Voroshilov » وثانيا . لأن تدمير أسطورة ستالين ضرورى لاستعادة امتيازات الحزب كمصدر فعلى للسلطة السياسية أو بمعنى آخر للتأكيد على الوقار المؤسسى لصفوة الحزب التى حاق بها الخطر بسبب استبداد شخصية ستالين ، وثالثا : لأن ادعاء « العودة الى اللينينية الحقة » باعتبارها الخط الحزبى الجديد يجعل خروتشوف يبدو كمدافع عن استعادة الشرعية الاشتراكية وحامى البيروقراطية من الارهاب السياسى السرى،

ورابعا : أعطى « الخطاب السرى » (لم يذكر وجوده فى السجلات الرسمية للمؤتمر ، ونشرته الصحافة السوفيتية فى بداية عام ١٩٨٩) الفرصة لخروتشوف لحصر أعدائه داخل كل من الائتلاف السوفيتى وداخل الحركة الشيوعية (بما فيهم بعض زعماء الدول الشيوعية وعلى رأسهم ماوتسى تونج Maozedong فى الصين) باعتبارهم ذوى عقائد فاسدة تعجز عن مواكبة التغيرات فى العالم المعاصر ٠

وتم ابلاغ الوفد المفوض عن الأحزاب « المتآخية » فى الحال عن ما يحمله « الخطاب السرى » لخروتشوف من قنابل موقوتة ، وتم اجبارهم أيضا على الاعتراف بأن اتهام « الدعاية البرجوازية » لستالين لعب دورا أساسيا فى الارهاب كان صحيحا ٠ وأكد خروتشوف على دور ستالين فى تحطيم حلف البلاشفة Bolshevik ، وعلى نزعاته الاجرامية ، وتورطه المباشر فى بناء نظام ارهابى ٠ ان افشاء أسرار الخطاب السرى بعد أن حصلت النيويورك تايمز New York Times على نسخة من الخطاب ونشرت نصه الكامل أثار ردود فعل واسعة النطاق ٠ وأشار ليتسك كولاكفسكى الى التجربة المريرة التى عاشها الآلاف من العسكريين الذين نشأوا على تعاليم ستالين الذى كان أكثر حكام العالم الشيوعى سلطوية عندما اكتشفوا أن « قائد الانسانية التقدمية ، والملهم ، والأب الروحى للشعب الروسى والأستاذ والمعلم ، والعبقرية العسكرية العليا ، بل أعظم عبقرية فى التاريخ كان ارهابيا يتلذذ بتعذيب الآخرين ، وبالقتل الجماعى ، مع جهله بالشئون العسكرية وهو ما عرض الاتحاد السوفيتى لطامة كبرى » (٢٠) . ان الخطاب ركز على سيكولوجية ستالين المضطربة واكد على شخصيته السيكوباتية ومن ثم افتقاره للمصداقية ٠ لقد حاول ستالين فرض نظام الحزب الواحد ومن ثم حكم بقبضة من حديد بمساعدة كتيبة من المؤيدين. ورأى خروتشوف أن البحث فى أسباب هذه الفضائح يرتبط بالكشف عن مسئولية ستالين الشخصية عنها ، وبدلا من التركيز على الظروف البنيوية الموضوعية التى افرزت مثل هذه الشخصية السيكوباتية وبدلا من التركيز على المقدمات اللينينية للستالينية ، بذل خروتشوف قصارى جهده ليبرىء ساحة « الحرس القديم » اللينينى البلشفى ٠

وفى خطاب خروتشوف بدا بيريا Beria شيطانا بينما بدا ستالين كبيدق ساذج تلاعب به هذا المغامر المجرد من كل القيم . ويرى خروتشوف أن هلاك الحزب كان نتيجة لمكائد بيريا البشعة وشكوك ستالين المرضية . ولم يتساءل خروتشوف لم تقاعس الحزب عن مواجهة المسيرة التخريبية وأذعن لها مطأطىء الرأس ؟ . وكان البديل

الاستراتيجى من أجل البقاء ومنع هؤلاء الوحوش السادية من الوصول لقمة الحزب هو التخلص منهم وابادتهم . ولم يضمن الشيوعيون للجماهير أن انحرافات ستالين لن تتكرر فى المستقبل وعلاوة على ذلك فان التزام خروتشوف للصمت المحير والمشئوم ساعد فى تسديد الضربة القاضية لمصير ضحايا ستالين من اللاشيوعيين . ولم يبد خروتشوف أى ندم فى « الخطاب السرى » فيما يتعلق بملايين الفلاحين الذين تمت ابادتهم أثناء المجاعة التى سببتها الحكومة فى أوائل الثلاثينيات ، ولم يشر اطلاقا لحالات الاعدام التى تمت بالمنطقة أو لتصفية الاحزاب السياسية الديمقراطية ولم يبد أى ندم على تدمير الأحلاف القومية فى الجمهوريات الخاضعة للهيمنة السوفيتية . وفى نفس الورقة أكد خروتشوف على أن عام ١٩٣٤ كان بداية الكارثة وذلك عندما خطط ستالين لاغتيال زميل المكتب السياسى سيرجى كيروف Sergikirov لأنه ظن أن سيرجى ينافسه على القمة .

لقد رأى خروتشوف أن نكبة ستالين بدأت فى اللحظة التى قرر فيها أن يطلق هجومه ضد البيروقراطية الستالينية نفسها . ولم يعبر خروتشوف عى ادانته لمنطق الارهاب ، انما ادان التطبيق « المنحرف » للارهاب ضد خادمى المشروع الشيوعى المخلصين وهذه هى المغالطة الرئيسية للخروتشوفية التى بذلت جهدا خارقا لتنزيه اللينينية عن أى تعاون مع الستالينية ولم تقم سوى برد الاعتبار لضحايا الارهاب الستالينى الذين خدموا الحزب البلشفى وزعيمه بتفان . ويقودنا هذا المنطق لضرورة تحليل المحاكمات الصورية التى جرت فى الثلاثينيات وتفنيد التهم اللامنطقية التى وجهت ضد معارضى ستالين من « الحرس القديم » البلشفى — لقد تم التشهير بتروتسكى Trotsky وزينوفيف Zinoviev وكامنيف Kamenev ورايكوف Rykov وبوخارين Bu Kharin باعتبارهم أعداء الحزب وكثيراً ما تلقى ستالين المديح لصراعه الذى لا يكل ضد هؤلاء المتآمرين . ان التجميل الأيديولوجى لأسلوب الأكاذيب ، والفساد ، والقتل الجماعى والفزع المتفشى كان عقيدة « عبادة الفرد » . ان النظام السياسى سيبدو مختلفا لو أبدى ستالين مزيدا من التواضع والانسانية . ورفض خروتشوف وضع نوايا ستالين الشخصية فوق الشبهات . وكان آخر زعيم يتولى الحكم هو دائما الزعيم الشيوعى المخلص وكانت وسائله وليست غاياته هى التى تدان . واعترف خروتشوف بأن الجرائم الارهابية تمت « أثناء حياة ستالين وتحت قيادته وبموافقته » . وعلى أية حال عجل « الخطاب السرى » فى الوقت ذاته باصدار حكم البراءة على الزعيم الفقيد وذلك بالاشارة لالتزامه المزعوم بالمبادىء الثورية حيث قال :

« ان ستالين كان مقتنعا بان ذلك كان ضروريا من اجل الدفاع عن مصالح الطبقة العاملة ضد مكائد الأعداء وضد هجوم الطبقة الامبريالية . وقد راى ذلك من منطلق مصلحة الطبقة العاملة ومصلحة الانتصار الذى حققته الاشتراكية والشيوعية . ولا نستطيع ان نقول ان هذه ممارسات طاغية طائش .. واعتقد أن ذلك كان شيئا لابد منه من اجل مصلحة الحزب ومصلحة الجماهير العاملة وباسم الدفاع عن مكتسبات الثورة . ان المأساة كلها تكمن فى هذه الادعاءات والأكاذيب »(٢١) .

وبعيدا عن تبرير خروتشوف لأعمال ستالين ، فان « الخطاب السرى » أضفى الشرعية على التمرد ضد المؤسسات والقيم الستالينية . وحاول الاتحاد السوفيتى أن ينقذ ما يمكن انقاذه من أساطيره الأيديولوجية الا ان موجة التحرر اكتسحت كل البلدان التابعة وكانت المجر وبولندا هما أول من بادر لاكتشاف معنى جديد للاستقلال الذاتى وللتخلص من العقائد الستالينية المحنطة ـــ ويمكن استشعار الآثار العميقة الناتجة من المؤتمر السوفيتى فى كل بلدان الكتلة الأخرى حين جنحت انتلجنسيا الحزب للراديكالية ونقد مساوىء الماضى .

كوارث ١٩٥٦ فى بولندا :

لقد توفى الزعيم الشيوعى البولندى بوليسلو بيرت الذى أطيح به لافشائه أسرار المؤتمر العشرين فى مارس ١٩٥٦ وتبع ذلك صراع مروع على السلطة وقع بين فصائل مختلفة داخل ائتلاف الحزب . ولفهم السمات المميزة للشيوعية فى بولندا ، يجدر الاشارة الى الجذور السياسية والفكرية لتشكيل الحزب وكذلك الى المحن التى مرت ببولندا وهى تحت الحكم الستالينى . لقد كان الحزب الشيوعى البولندى السرى Polish Communist Party من اقل الأحزاب اللينينية الشرق أوربية التى تعانى من التفتت ـــ لقد استاء ستالين من الزعماء الشيوعيين البولنديين المتمرسين وخطط لابادتهم أثناء التطهير الكبير . وتم حل الحزب الشيوعى البولندى فى عام ١٩٣٨ بمرسوم من اللجنة التنفيذية Executive Committee للأممية الشيوعية Communist International التى اتهمت الحزب البولندى بأنه عش للجواسيس ، ووكر للعملاء المحرضين للبوليس السرى البولندى . لقد كانت لطمة خطيرة وجهها ستالين ضد المجموعة السياسية التى تعانى من الأمراض النفسية نتيجة لعملها السرى ومنها الشك ، والطائفية والافتقار الى الرؤية السياسية .

لقد أشار ايزاك دوتشر Isaac Deutscher الى أحد أسباب كره ستالين للشيوعية البولندية وهو علاقة الشيوعية البولندية بالتقاليد اللكسمبرجية المهجورة وتبنيها لمنطق الاشتراكية الراديكالية لروزا لوكمسبرج Rosa Luxemburg ولم يكنوا أى احترام لستالين رغم أنهم اعتبروا الاتحاد السوفيتى رمزا لمنتهى آمالهم . وهنا يجب أن نذكر أن الحزب الشيوعى البولندى قد صبغ على نحو مخز بالصبغة البلشفية وذلك فى أواخر العشرينيات وبداية الثلاثينيات وقبل مناضلوه أوامر الكمنترن دون أن ينبسوا ببنت شفة · وطرح ايزاك دوتشر سؤالا حول الآثار الستالينية على الحلف الشيوعى البولندى فقال :

((كيف حدث ذلك ، لابد أن نسأل ، كيف للحزب الذى يملك هذا الرصيد من النضال السرى الذى امتد لعقود وتبنى الفكر الماركسى الجليل ولفترة طويلة (امتدت سبع سنوات) ان يذعن على نحو مخز لهذا الهجوم الوحشى ودون أدنى اعتراض ودون القيام بأية محاولة للدفاع عن الزعماء المناضلين الشهداء ودون أدنى محاولة لرد اعتبارهم ولم يعلنوا أن هؤلاء الذين اعدمهم ستالين سيظلون أحياء وسيواصلون النضال ؟ كيف يمكن أن يحدث ذلك ؟ يجب أن نكون واعين تماما لما تعرضت له الشيوعية البولندية ولسنوات عديدة من قبل الستالينية للتعذيب المعنوى هذا اذا ما أردنا أن نفهم انهيارها التام تحت وطأة هذه اللطمة)) (٢١) .

ان الحزب الشيوعى البولندى استعاد نفسه كقوة سياسية فعالة فى المقاومة المعادية للنازية وكان ذلك أثناء الحرب العالمية الثانية ·· وكان زعيم الحزب فلاديسلاف جوميلكا وأصبح بعد تحرر بلاده سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى البولندى الا أن العصبة المسكوفية بقيادة بوليسلو بيرت وهيلارى منك Hilary Minc وجاكوب بيرمان استبعدت جوميلكا الذى قضى سنوات الارهاب الستالينى معزولا بعد أن حددت اقامته بمنزله .

ومن بين السمات المميزة والبارزة للثقافة السياسية البولندية فى العقد الأول من الحكم الشيوعى المقاومة القومية وضعف الأيديولوجية الماركسية اللينينية وقوة السلطة السياسية للكنيسة الكاثوليكية Catholic Church (٢٢) ورغم أن الصراع الأيديولوجى المستمر من قبل الشيوعيين ضد الكنيسة بات مستعرا ، فان الكنيسة الكاثوليكية ظلت تقوم بدورها فى استقطاب البولنديين · ولأن معاداة الستالينية كانت تتنامى فى الاتحاد السوفيتى فان الحلف الشيوعى البولندى اتخذ أول

خطواته فى طريق الانشقاق فانقسم لطائفتين الأولى من المدافعين عن الحرية السياسية والأخرى من الأصوليين المحافظين الذين رفضوا التخلى عن أى من العقائد التقليدية . ورفع عن جوميلكا قرار تحـديد اقامته وأطلق سراحه فى عام ١٩٥٤ وذهبت تهمته بالفساد « القـومى » المزعوم طى النسيان . وأصبحت بولندا فى عام ١٩٥٥ مرتعا خصبا للصراعات الفكرية الملتهبة ، وابتهج المفكرون لافشاء أسرار مؤتمر الحزب الشيوعى السوفيتى العشرين (٢٣) . وخـلال عام ١٩٥٦ أقيم أكثـر من مئتى ناد فكرى لبحث القضايا الشائكة فى ماضى الأمة وحاضرها بصراحة شديدة . ان اطلاق سراح الرأى العـام أعاد الحيـاة للمجتمع المـدنى البـولندى المعاصر .

وطرح المفكرون البولنديون مبادىء جديدة للاشتراكية . ولم يكن نقدهم للحزب الحاكم يرجع للحنين أو العودة للنظام الفائت بل يرجع لحد ما للاعتقاد بأن المبادىء الحقيقية للاشتراكية قد نسيها البيروقراطيون الشيوعيون فى غمرة اهتمامهم بتوسيع نطاق سلطتهم . لقـد عـانى المفكرون المتمـردون من آثار معنـوية ونفسـية مفجعـة تجمعت عن الاستبدادية الديكتاتورية وطالبوا بأنسنة النظام القـائم ، الا أن نهجهم كان نهجا تطويريا أكثر منه ثوريا . لقد أرادوا تغيير نظامهم من الداخـل وعلقوا آمالهم على زمرة الحزب الحاكم التى تبدو أكثر تفتحا . واطلقت قصيدة الكاتب الشـيوعى آدم فاسك Adam Wask «قصيدة للشباب» التى نشرت فى عام ١٩٥٥ العنان لمعركة سياسية وأدبية بين الليبراليين والمحافظين . وفى قصيدته شجب فاسك افتقار القيادة الحزبية للوعى بمدى تردى المستويات المعيشية للطبقة العاملة وأدان غياب نظـام شرعى عادل وندد بالكذب باعتباره أحـد السـمات التى يتعذر محوها من الحياة اليومية فى بولندا الستالينية فقال :

* الناس هناك مطحونون ،
وفى القـــاع يعيشـــون ،
أبدآ للمسرح لا يذهبون ،
والصغار من التفاح البولندى لا يأكلون ،
والبنون والبنات يكذبون بالاجبار ،
والزوجات يطردن خارج الديار ،
والمراهقون يموتون من غم القلوب ،
انهم يعانون الاجحاف والتحقير ،

انهم عرايا سلبهم قطاع الطرق الثياب ،
من أجل هؤلاء تناشد السلطة معنى للشرعية ،
فهؤلاء ينتظرون دعما ، وهؤلاء ينتظرون عدلا ،
ينتظرون ، وقد طال الانتظار ..

وبعد هذا الاتهام القاسى الموجه للنظام القائم ، عدد فاسك المطالب الأساسية للمجتمع المدنى الصاعد ببولندا الا انه راى مع زملائه الذين آمنوا بالعقيدة الماركسية ان الحل يمكن أن يأتى من خارج الحزب الشيوعى . وقد قدمت هذه المطالب لزعيم مستنير غير معروف استطاع فيما بعد ان يعيد للاشتراكية الحقيقية كرامتها ، وتعبر السطور التالية من قصيدته عن روح التعديلية كمحاولة لتصحيح مساوىء النظام دون التبرؤ من اكثر المؤسسات اهمية ألا وهى الحزب الشيوعى نفسه حين قال :

ـــ لنا على هذه البسيطة مطالب ،
ـــ مطالب اناس مهملة ،
ـــ نريد مفاتيح الأبواب الموصدة ،
ـــ نريد حجرات لها نوافذ ،
ـــ نريد حوائط لا تبلى ،
ـــ نريد معرفة ما خفى ،
ـــ نريد زمنا انسانيا ،
ـــ نريد بيتا آمنا ،
ـــ كى تضيق المسافات ،
بين العمل والكلمات

***

ـــ لنا على هذه البسيطة مطالب ،
ـــ ومن اجلها سنناضل ،
ـــ من أجلها سيموت الملايين ،
فى المعارك ،
ـــ من أجل حقيقة واضحة
ـــ من اجل خبز مغموس بالحرية

ـــ من أجل مشاركة فعليــة
ـــ من أجل مشاركة فعــالة ٠

***

نطالب بذلك كل يوم
نطالب من خلال الحزب (٢٤) ٠

لذا أطلق فاسك حملة معادية للأيديولوجيين الشــيوعيين الذين ردوا عليه بأكثر الطرق وحشية . ونشرت صحيفة الحزب الرسميــة تريبونا لودا Trybuna ludu القصيدة ووصفتها بأنها هستيريا طفولية ، وأشار الكاتب ستانيسلاف بارنتزاك Stanislaw Boranczak أن هذا العبث الطفولى جعل كتابة فاسيك تبدو موجهة ومحرضة :

« ان المنطق الذى تحــاول قصيدة فاســك اثباته منطـق ســخيف وان يتصرف كالطفل الذى تنتابه نوبة غضب عنـدما لا يوافق الواقـــع توقعاته ٠ ان القاء فاســك لقصيدته فى الصــالون الأدبى ١٩٥٥ كــان اهانة لكل فرد » (٢٥) ٠

ان قصيدة فاســك تحـــذير للجميع من الأحــداث التى ستقع فى القريب العاجل .

لقــد فقدت الطبقة الشــيوعية الحاكمة فى بولندا ثقتها لحظة إنعقاد مؤتمر الحزب الشيوعى السوفيتى العشرين ، وتحطمت الأوثان العتيقـة وانهــارت المبادىء المقدسة وتناثرت اشلاؤها هنا وهناك ، وأصبحت حاجة بولندا اتبنى نهج جديد لاشتراكية ملحة ٠

وبدا الانفصــال عن المعتقد الســتالينى الخاص بالدور القيــادى للأجهزة الحزبية بينا . وقرر المفكرون زيارة المصانع واجراء الحوارات مع العمال لنشر أفكارهم اللاارثوذكسية ، وبدأت الحياة السياســيـة والفكرية البولندية تتمحور الى قطبين ، قطــب المحافظين يشــدهم الحنين للستالينية وقطب انصــار التغيير ٠ وكانت الأهليــة أو قل اغــراء الوقوف على محددات مميزة للطريق البولندى نحو الاشتراكية تتجاذب بين القطبين مع ميل واهن للعودة للستالنية ٠ ورات معارضة ١٩٦٥ البولندية امكانية تحقيق الكمال من خلال النظام الشيوعى نفسه وليس بالخروج عليه ومن ثم اتسمت التغيرات بالتدريجية وخلت من الصراعات الضارية بين الحكام والمحكومين ٠ ان الأحــداث التى جــرت فى بوتسان Pozman فى يونيو ١٩٥٦ أكــدت عكس الاعتقــاد الســائد بأن

« الاصلاحات » يمكن أن تتم بطريقة سلمية هادئة حيث بدأت الطبقة العاملة فى اعلان تمردها .

واتسعت الهوة بين المصلحين والدجماتيين ، وسببت عودة جوميلكا للسلطة ضغوطا للابقاء على الحزب ونظراً للاضطهاد الذى عانى منه تمتع جوميلكا بشعبية جارفة حتى انه تمكن من تطهير صورة الحزب وحدث الانقسام بين الائتلاف الحاكم ، حول طبيعة العلاقات البولندية السوفيتية المستقبلية .

ورأى الليبراليون بل والمفكرون الرجعيون ضرورة اقامة علاقات بين بولندا والاتحاد السوفيتى بشرط أن تكون علاقة الند بالند .

ومنذ أن نحا الليبراليون منحى راديكاليا ، زاد تشدد المحافظين وعادوا لاستخدام الشعارات المعادية للابداع وللأجانب وللسامية · ووصلت الأزمات داخل قمة الهرم الحزبى لنقطة الانفجار . وطالب كل من ضباط الصف الحزبيين وجماعات الضغط اللاحزبية بعودة جوميلكا لرئاسة اللجنة المركزية · وفى نفس الوقت طالبوا باقالة فورية للمارشال السوفيتى قنسطنطين روكوسوفسكى Konstantin Rokossovsky من منصبه كوزير للدفاع (كان تعيينه فى هذا المنصب احدى الدلائل على انتهاك ستالين للشرعية واذلاله للاعتزاز القومى البولندى) · وقرر كسكرتير أول Edward Ochab الشيوعى المحنك الذى تزعم الحزب خلفاً لبولينسلوبيرت فى مارس ١٩٥٦ الموافقة على توقيع قرار ترشيح فلاديسلاف جوميلكا فى اجتماع اللجنة المركزية العاصف ١٩ اكتوبر ، وحضر الاجتماع ممثلو الاتحاد السوفيتى وهم نيكيتا خروتشوف وفيتسلاف مولتوف وانستاس ميكوين Anstas Mikoyan ولازاركجنوفتش الذين وصلوا لوارسو على نحو مفاجىء دون دعوة لمتابعة مجريات الأحداث والتأثير فيها ان امكن . ورغم التحفظات السوفيتية تم انتخاب جوميلكا كسكرتير أول First Secretary للحزب واعلن تأسيس « الطريقة البولندية للاشتراكية » · وأكد الزعيم الجديد على الحاجة لسياسة داخلية مستقلة وأكد مرة أخرى على بقاء بولندا على ولائها لحلف وارسو · وبينما لعب تيتو دورا مهما وخاصا فى الأحداث العالمية عندما حول يوجوسلافيا لدولة محايدة اقتصرت مطالب جوميلكا على الحصول على الاستقلال القومى . ورأى جوميلكا أن تحالف بولندا مع موسكو لا غنى عنه من أجل وحدة الأمة خاصة فى ضوء الحق الذى تدعيه المانيا الغربية فى بعض الأراضى الاقليمية .

ولم يجرؤ جوميلكا أن يتجاوز حدود الاصلاح المقيد حتى في السياسة الداخلية ولم يدرك مسئولية الحزب تجاه المستنقع الاقتصادى وظل متعلقا بأهداب الخطة المركزية ودافع جوميلكا أيدلوجيا عن الهيمنة الماركسية اللينينية ومنع اقامة حوار حقيقى مع الكنيسة الكاثوليكية ووصفها بالرجعية اذ كانت تناهض النظام القائم باستقطابها لكل من رأى فى الحكم الشيوعى حكومة مفروضة عليهم من قبل قوى أجنبية . واسفرت التغيرات التى أحدثها جوميلكا وكذلك الابطاء من الاستثمارات الصناعية والسماح بمزيد من التجريب الفكرى والفنى عن تخفيف حدة الضغوط الداخلية . أما المقاطعة الصريحة لستالين فكانت بالنسبة لجوميلكا طموحا بعيد المنال اذ كانت أقصى آماله تعديل النظام وليس استبداله . لقد خلا المناخ السياسى فى بولندا أثناء سنوات حكم جوميلكا الأولى من أى توترات مقارنة بالبلدان الشرق أوربية الأخرى الا أن التعددية السياسية ظلت مجرد أمنية . ووعد جوميلكا بشفاء سريع من التوعك الاقتصادى ، وخطط لتضليل الكثير من المفكرين الذين ظنوه عدوا حقيقيا للستالينية وتهللوا لوصوله للسلطة.

وفى الواقع لم يبد جوميلكا تفهما لوجهة نظر هؤلاء الذين طالبوا بتغيير ثورى داخل النظام ، وظل راضيا عن الهيكل المؤسسى القائم بصرف النظر عن امكانية سقوطه .

وأعرب جوميلكا عن ارتيابه فى المجالس العمالية المشاغبة ، وفى المواقع الصناعية واعتبرها تهديداً لسلطة الحزب . وأراد جوميلكا تدعيم أواصر سلطته داخل التنظيم الشيوعى فشرع فى قمع أية مبادرات قد تتولد تلقائيا من القاعدة الجماهيرية واستعاد سيطرة الحزب الكلية على المجتمع . وأطلق العنان فى عام ١٩٥٧ لمذبحة ضد المفكرين الرجعيين الذين اتهمهم بمحاولة تقويض النظام الاشتراكى . لقد تقلصت حرية الصحافة البولندية ــ ولم تكن كذلك من عام سبق ــ ومنع المؤيدين للاشتراكية الديمقراطية من الاقتراب من الجمهور ، وأصبحت التعديلية التى تبنوها هدفا لحملات تشويه تخططها السلطة . وتجسدت التعديلية فى وجهة نظر ليتسك كولاكفسكى الذى كان أستاذا فى الفلسفة بجامعة وارسو حين قدم فى كتابه القصير « ما الاشتراكية ؟» الذى صادره نظام جوميلكا سلسلة من التعريفات السلبية للاشتراكية واعتبرها النظام تحريضية ، كما نوه عن المعنى والمحتوى الحقيقى لمبدأ الاشتراكية . وألقى كولاكفسكى بما عرف عنه من سخرية وحصافة

الضــوء على أكثــر العــوامل اهمية فى العقيدة الرجعية فقال :

الاشتراكية ليست :

١ ــ مجتمعا تحدد فيه اقامة أى مواطن ويحاصره البوليس ·

٢ ــ مجتمعا يعيش فيــه الانسان تعسا لأنه لا يعبر عمــا يــدور بخــــلده .

٣ ــ مجتمعا يعيش فيه الانسـان على أفضل حال لأنه لا يفكر على الاطــــلاق .

٤ ــ الدولة التى يلعن جيرانها الجغــرافيا ·

٥ ــ الدولة التى تريد من كل مواطنيها أن يكون لديهم نفس وجهات النظر فى الفلسفة ، والسياسة الخارجية والاقتصاد والأدب والفن .

٦ ــ الدولة التى تحدد حكومتها حقــوق مواطنيهــا ولا يحــدد مواطنوها واجبات الحــكومة ·

٧ ــ الدولة التى بها ملكية خاصة لوسائل الانتاج .

٨ ــ الدولة التى تعتبر نفسها اشتراكية بالاجماع لانها تخلصت من الملكية الخاصة لوسائل الانتاج .

٩ ــ الدولة التى تعرف دائما رغبة شعبها دون أن تسأله .

١٠ ــ الدولة التى يردد فيها الفلاسفة الكتاب نفس ما يقولــه الجنرالات والوزراء .

١١ ــ الدولة التى يمكن التنبؤ فيها بعودة الانتخابات البرلمانية ·

١٢ ــ الــدولة التى لا تحب أن يطــالع مواطنوهــا الصــحف والمجلات (٢٦) ·

ان هذا التعريف الساخر للاشتراكية يعد أهم التحليلات التى تصف الأوضاع المزرية التى فرضــــها الشــــيوعيون على الأمم الشرق اوربية . وبينما اعد جوميلكا العدة لاحتواءالاختمار الثورى المتمــرد والقضاء على كل اثر له فى بولندا فان الحركة الجماهيريــــة فى المجــر نجحت فى اسقاط النظام القديم وبشرت بمجتمــع تســوده تعدديــة سياسية حقيقية .

نداء الحرية : امرى ناجى Imre Nagy والثورة المجرية :

أقيم فى بودابست فى ١٦ يونيــو ١٩٨٦ احتفــال مهيب لرد اعتبــار امرى ناجى وغيره من الشـــهداء بعد اكثر من ثلاثين عاما من تلطيخ النظام

لسمعتهم باعتبارهم محرضين للمؤامرة المضـادة للثورة عـام ١٩٥٦ ودفنوا فى مقبرة معلومة . وفى نفس الوقت اختلق النظام قصص تبرىء هؤلاء الذين خانوا الثورة وتواطئوا مع الغـزاة السـوفيت ٠ واجبـر جانوس كادار الرجل الذى أذعن للأمر السوفيتى وحكم الأمة لعقـود ثلاثة على الاستقالة من الحزب وقبل عام من انتهاء فترة رئاسته .
وحاول الزعماء الجدد كارولى جروس Karoly Grosz السكرتير العام وميكلوس نيميث Miklos Nemeth رئيس الوزراء جاهدين الحصول على السلطة تحت اسم الشيوعية الاصلاحية . وبسبب وجود جورباتشوف Gorbachev فى الكرملين لم يعد اجتياح ١٩٥٦ يوصف بأنه مضـاد للثورة ٠ لقد استمر حزب العمال الاشتراكى المجرى Hungarian Socialist Workers' Party فى المطالبة برد الاعتبار لامرى ناجى وزملائه ٠ وانضم امرى بوتسجاى Imre Pozsgay المصلح المنشق على جماعته ورئيس الجناح الليبرالى لائتلاف الحزب وكذلك روتسو نايرز Rezso Nyrs أبو الاصلاح الاقتصادى فى أوائل السبعينات للمعـارضة الديمقراطية عندما طالبت بكشف حقيقة اجتياح ١٩٥٦ القـومى ٠

وعندما حاول الشيوعيون الاصلاحيون فى المجر الانضمام لهـذا الركب الذى مجد اجتياح ١٩٥٦ تناهى لأسماعهم حديث وقح على لسان فكتور أوربان Victor Orban وهو أحد زعماء اتحاد الشبان الديمقراطيين (FIDESZ) Federation of Young Democrats وهو الحزب السياسى الذى ضم اعضاء معادين للديمقراطية فقال :

((فشلنا نحن الشباب فى التوصل لفهم اشياء كثيرة كانت تبدو واضحة للأجيال السابقة . اننا متحيرون فى أمر هؤلاء الذين افتروا على الثورة وعلى امرى ناجى ثم أصبحوا فجاة أعظم المؤيدين لسياسـات رئيس الوزراء السابق ، ونجد زعماء الحزب الذين نظروا لثورة ١٩٥٦ نظرة احتقارهم انفسهم الذين يتدافعون الآن للتمسح فى الاكفان كما لو كانت تعاويذ تجلب الحظ . لا يجب أن نمتن لوعودهم بدفن الشهداء بعد واحد وثلاثين عاما ، ولا يجب أن نشـكرهم لسـماحهم لمنظماتنـا السياسية بأن تمارس عملها)) (٢٧) .

ودل حديث أوبرن على الهوة الشاسعة بين الأوهام الرجعيـة للأجيال السابقة ورفض الشباب المجـرى الجلى لأية صـيغ شيوعية ، وفقد الحزب الشيوعى كل مصداقية له فهو الحزب الذى حكم ضـد ارادة الشعب وهو لا يستحق شكرا أو امتنانا لتبنيه المفـاجىء لمبـادىء التسامح ٠ ومن ثم كان الاحتفال بتأبين امرى ناجى فى يونيـو ١٩٨٩ وداعا رمزيا لهؤلاء المصلحين . وعلت الأصوات مطالبـة بمقاطعـة

حاسمة للنظام الشيوعي واقامة نظام سياسي تعددي قوامه اقتصاد حر وحكومة تحاسب من قبل الشعب . وقد تبنى ناجي هذه التجربة الرائدة منذ أكثر من ثلاثين عاما ، وأظهر شجاعة فائقة في الدفاع عن قضية الشعب ضد الشيوعيين الذين قمعوهم .

ولعبت الانتلجنسيا دوراً قياديا في الانفجار المجرى المبكر المعادى للشمولية وذلك لأسباب عدة : أولا أن الانتلجنسيا خضعت أثناء سنوات الحكم الستاليني لاجراءات قمعية وحشية ، ثانيا ان ممثليها اعتبروا أنفسهم ممثلين للقيم القومية التي حقرت الستالينية من شأنها ، وثالثا ان الانتلجنسيا اعتبرت نفسها المضطلعة بالدور القيادي في الصراع ضد الاستبداد باعتبارها ائتلافاً مستنيراً له تقاليد ثورية تعود لاجتياح ١٩٤٨ الاجتماعي والقومي ، ورابعا أن الانتلجنسيا البولندية والمجرية بطوائفها العريضة والتي اعتنقت قيم الماركسية لم تعد الألاعيب التي يقوم بها البيروقراطيون في الحكم تفتنهم .

وبالنسبة لعمال المصانع فقد أسرتهم وعود الشيوعيين بتحقيق العدل الاجتماعي والمساواة واستغلت الروح الجماعية التي اتسمت بها الأممية الأولى وسياسة الملكية الجماعية في بث شعور مزيف لدى العمال بأنهم سيحكمون المجتمع . وساهم هذا الشكل من المقصورية في توسيع الهوة بين العامل والمفكر فنظر العمال للمفكرين باعتبارهم المسببين للمشاكل ، بينما نظر المفكرون للعمال باعتبارهم القاعدة الاجتماعية الرئيسية اللازمة لاحكام السيطرة على النظام ، ولم يتم التعاون الحيوي بين الاجنحة الراديكالية لكل من الانتلجنسيا والطبقة العمالية الصناعية الا في السبعينيات ، وناشد المفكرون في عام ١٩٥٦ الدعم من الجناح المعادى للتيار الديماجوجي فيالأحزاب الشيوعية فحاولوا ضم بعض عصبة جوميلكا . وقد أبدى المفكرون في المجر الاهتمام بناجي وأنصاره لأن راكوسي وحاشيته خضعوا تماما للستالينية، وأن التيتوية لعبت دورا مهما في التحام حركة الاصلاح الراديكالية وانتقل أثرها لكل بلدان أوربا الشرقية واعتبر الاصلاحيون استراتيجية تيتو في رفضه للستالينية نموذجا لابد أن يحتذى ولم يخف اليوجوسلافيون مع التعديليين (٢٨) ، وبذلت حركة الاصلاح في أوربا الشرقية في عام ١٩٥٦ محاولة لحل التناقضات البنيوية والتوترات داخل كيان السلطة القائم الا أن هذه المحاولة التي قام بها ناجي وبعده كولاكفسكي لم تكن تهدف لالغاء النظام الشيوعي

بل شددت على امكانية اصلاح الوضع الراهن فى اطار الشيوعية ·
لقد فشلت التعديلية فى التحول لبديل للنظام الشيوعى لانها لم تهتم بمعاناة الجماهير أو الرفض القومى للشيوعية (٢٩) ·

لقد حلل آدم متشنك المؤرخ البولندى الشهير والمدافع عن الحقوق المدنية طبيعة التعديلية الماركسية فى مقاله « التطور الجديد » الذى عرض فيه استنتاجات لها دلالة عن ما يجرى فى بولندا بل وفى بلدان أوروبا الشرقية كلها · ويرى متشنك ان زيف الرجعيين يأتى من ايمان هذه الجماعة بأن الحزب الشيوعى لديه القدرة على احداث تغيير بنيوى وهو ما يعد المثالية بعينها :

« يعتمد مفهوم التعديلية على رؤية حزبية داخلية قاصرة · ولم تتحول ابداً لبرنامج سياسى · واقترحت أن النظام القائم يمكن ان يتحول لنظام انسانى وديمقراطى وأن الديكتاتور الماركسى كان لديه القدرة على استيعاب الفنون المعاصرة والعلوم الاجتماعية · وأراد التعديليون أن يتم التغير داخل اطار الحزب الشيوعى والعقيدة الماركسية · وهم يريدون أن ينتقلوا « من قلب » العقيدة والحزب فى اتجاه الاصلاح وتحقيق المصلحة العامة » (٣٠) ·

وأكد متشنك على أن نقطة ضعف التعديليين ترجع فى الأصل الى افتقارهم لبرنامج راديكالى معارض وتأثرهم بالأوهام والاخيلة الماركسية ولم يدرك التعديليون ان البرنامج الخاص بالتغيير الجذرى هو الوحيد الذى يمكن أن يمدهم بقاعدة جماهيرية :

« لا يكمن خطأ « التعديليين » القاتل فى هزيمتهم فى صراعهم من اجل السلطة داخل الحزب (ولم يكن بامكانهم الظفر بها) فقط ولكن فى طبيعة هذه الهزيمة ، انها هزيمة مسئولين تم طردهم من مواقعهم فى السلطة وجردوا من ثقلهم السياسى · وقد حدث ذلك لأنهم ارادوا تطبيق برنامج سياسى ديمقراطى يسارى التوجه على نطاق واسع » (٣١) ·

ان ما حدث فى المجر كان الأول من نوعه فالحركة الاجتماعية القادمة من القاعدة الجماهيرية فاقت توقعات وآمال جماعة التعديليين وتحولت الحركة الى ثورة ضد الشمولية بعد أن انضم اليها عمال المصانع وبعد قرار أمرى ناجى الشخصى بتبنى مطالب الانتفاضة الشعبية . ولأول مرة استخدم الجماهير فى المجر العنف للدفاع عن انفسهم ضد الأعمال القمعية التى فجرتها القوات الأجنبية · ومن الضرورى ان تؤكد هنا أن الثورة المجرية لم تكن مجرد رد فعل يهدف لاستعادة النظام القديم ancien régime ولكنها كانت انفجارا للغضب

الشعبى ضد انتهاك البيروقراطية الشيوعية لمبادىء العدل والمساواة بين البشر . وهذه الثورة الديمقراطية الأولى من نوعها فى أوربا الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية أصبحت نموذجا يحتذى به وكان لها أثر كبير على كل الحركات الاجتماعية المعادية للشمولية فى المنطقة ·

ان صلف وصفاقة الحزب الشيوعى المجرى تحت قيادة راكوسى وجيرو عجلا بانفجار السخط الجماهيرى .

وفى عام ١٩٥٥ وبعد عامين من تجريب سياسة « المسار الجديد » تم التخلص من ناجى وحاولت عصبة راكوسى أن تعيد هيمنتها الكاملة على البلد ، الا أن الوقت كان قد فات لأن هؤلاء الستالينيين الذين استماتوا من أجل استعادة السلطة لم يدركوا طبيعة المؤشرات القادمة من موسكو ، ولم تفدهم فى مواجهة ريح التغيير العاتية التى تهب على المنطقة كلها · ومن ناحية اخرى فان المفكرين البولنديين كانوا قد تذوقوا تجربة الديمقراطية فى العامين اللذين تولى فيهما ناجى رئاسة الوزراء ورفضوا أن تسلب منهم تحت نير الضغوط الحزبية . وتحدى المفكرون السلطة ضاربين بتهديدات راكوسى عرض الحائط ، ورفضوا تصديق الأكاذيب الرسمية واطلقوا العنان للبحث عن « ثورة العقل » (٣٢) . ان تقدم الحركة الثورية الجماهيرية كان لها مقدمات منطقية عديدة ، أولا ان تحدى السلطة الشيوعية لن يكون ممكنا طالما ظل الحلف الشيوعى متماسكا ، بمعنى أن الكوارث الاجتماعية كى ما تتحول لكوارث سياسية فى هذه الانظمة يجب على الأحزاب الشيوعية أن تفصل بين القضايا الأيدلوجية والشخصية . أما الصراع الدائر فى المجر بين المتشددين الستالينيين راكوسى وجيرو وحاشيتهما وجماعة التعديليين بقيادة ناجى زاد من هذه الهجمات ضد الدولة البوليسية . وثانيا أدى تأزم الموقف الثورى وتآكل سلطة الحزب الى افشاء الأسرار وخاصة « الخطاب السرى » لخروتشوف ففقد راكوسى لمصداقيته السياسية وبدلا من الاستعانة ببعض التعديليين لتحسين الموقف كثف الزعماء المجريون حملاتهم ضد أعضاء الحزب المتمردين وبادروا بنصب مقاصل جديدة ضد المفكرين النقاد . وشجع ما أصاب الحزب الحاكم من ضعف المعارضين على تكوين اتحاد يضم معظم المفكرين والطلاب وممثلى طبقة عمال المصانع . وفى صيف ١٩٥٦ تقريبا عم الساحة السياسية والثقافية مناظرات حامية حول قضايا جوهرية مثل قضية تاريخ الحزب الشيوعى ، حرية الصحافة ، ورد اعتبار ضحايا الارهاب الستالينى فى المجر .

وكانت حلقة بيتوفى Petofi Circle دليلا على صعود الحياة المدنية وعقدت فيها المناقشات والمناظرات التى تتعلق بقضايا دمقرطة الحياة العامة وطرق التغلب على التراث الستالينى . واستطاع مؤيدو ناجى أن يطالبوا بالأفكار التى عبر عنها رئيس الوزراء السابق فى مذكرة تخاطب قيادة الحزب وذلك فى الشهور الأولى من عام ١٩٥٦ . وتتطلب الدفع بتطوير الاشتراكية — حسبما رأى ناجى — ابتكار منهج جديد للماركسية ، وبدلا من تقديسها نادى بتعديلها تبعا للحقائق المتغيرة ، وفوق ذلك فان الاشتراكية كما يدعى ناجى مهددة بسبب اهتراء القوى السياسية الحاكمة والتى اتبعت النهج السوفيتى حيث نجد الديمقراطيات الشعبية قد « **تبدلت على نحو بين بديكتاتورية الحزب والتى لا تعتمد على عضوية الحزب ولكن على ديكتاتورية الفرد وعلى تحويل أجهزة الحزب وبالتالى أعضاء الحزب لمجرد أدوات تحركها هذه الديكتاتورية** » (٣٣) . ولا يملك هذا النظام السلطوى — والحديث لناجى — أى شىء يفعله بصدد الاشتراكية الانسانية : « **ان الحكم لا تشوبه أى روح اشتراكية أو ديمقراطية ولكن الذى يشوبه هو روح بونابرتية Bonapartist لديكتاتورية الأقلية . وأهدافه لا تحددها الماركسية ولا دراسات الاشتراكية العلمية ولكن تحددها وجهات النظر الأوتوقراطية والتى ناضلوا للحفاظ عليها بأى ثمن وبأية وسيلة** » (٣٣) .

ويمكن ان نحدد من خلال وجهة نظر ناجى كل الأصول الفكرية لأسطورة التعديلية ، فمن ناحية ندد ناجى بسيطرة الحزب القابضة على السلطة باعتبارها غير شرعية وضد الديمقراطية بكافة المقاييس ومن ناحية أخرى تمسك ناجى بتفسير « الاشتراكية العلمية » على انها مذهب للتحرر الانسانى ، ولم يذكر السبب الرئيسى للظروف القمعية التى أثرت فى ناجى وهو الادعاء الأيديولوجى بأن احتكار المعرفة والمعصومية من الخطأ هما سمتا الحتمية التاريخية الماركسية . ومثل هذه الجذور الفكرية لتحدى ناجى « للديكتاتورية البونابرتية ، والفردية» باسم التحول الانسانى للاشتراكية فارتكزت على « **نظام بنيوى وشرعى خاص بالديمقراطيات الشعبية بهيئته التشريعية وحكومته وبدمقرطة الحياة الاجتماعية والرسمية بكاملها** » (٣٤) .

ووصلت هذه القضايا فى المناقشات التى تمت داخل حلقة بيتوفى الى مدى أبعد من مجرد التطوير بل لمدى تجاوز أهداف ناجى المعلنة ، وشعر الكتاب والصحفيون المشاركون فى المناقشات بأنهم تحرروا من الحصار والقيود التى فرضها المنطق البلشفى على أفكارهم ، وادركوا

ان الخطأ فى الأيديولوجية والتى بررت وحدانية السلطة وقصرها على عصابة من البروقراطيين المتعطشين لسفك الدماء . ومثالا على ذلك هو تيبوردرى Tibor Dery الكاتب الذى عمل طويلا كمناضل نشط فى الحركة الثورية اذ زفع صوته فى واحدة من المناقشات مجاهراً برفضه للنظام الذ مجد جرائم ستالين قائلا :

« طالما اننا نوجه نقدنا لشخوص بدلا من معرفة مكمن الخطأ سواء فى النظام نفسه أو فى الأيديولوجيا فلن نحرز أى تقدم واننى واثق بأننا سنتخلص من الزعماء الحاليين وكل ما اخشاه أن نطاردهم ويطاردونا وكلانا فى هذه الحالة من الضعف .. يجب أن نبحث فى نظامنا الاشتراكى عن الأخطاء التى سمحت لزعمائنا باساءة استخدام سلطتهم بل وتركتنا أيضا عاجزين عن التعامل مع بعضنا البعض بالشكل الانسانى الذى نستحق . وان الأخطاء فى القضية لهى اخطاء بنائية قلصت حقوق الأفراد لحد كبير وزادت فى نفس الوقت من اعبائه » (٣٥).

وأعلن المفكرون البولنديون أن الحرية مبدأ عالمى ولن تقف عند الحدود التى وضعتها الطبقة الحاكمة الانانية .

وان عقيدة الحزب التى تفسر كل المفاهيم الأخلاقية فى ضوء مصالح الطبقة العاملة كما رسمها المشيعون الشيوعيون قد طرحت جانبا باعتبارها دجلا ، وبدا أن فكر الحزب (Partiinost) الذى ظل لوقت طويل بمنأى عن أى شكل من أشكال استعباد العقل وحظر الملكة الابداع . وعبر جيولاهاى Gyua Lahay وهو أيضا كاتب ستالينى سابق ــ بما لا لبس فيه ــ عن اشتياق الانتلجنسيا لحرية ثقافية وسياسية كاملة وذلك حين قال :

« حسنا » ، دعنا نحصل عليها بسرعة . نحن نتحدث عن الحرية الكاملة للأدب ... فالكاتب مثله مثل أى شخص آخر يريد أن يقول الحقيقة دون قيود ، أن ينقد أى شخص وأى شىء ، أن يحزن ، أن يحب ، أن يفكر حتى الموت .. أن يؤمن بوحدانية الاله أو لا يؤمن ، أن يشك فى صحة الاحصائيات ، أن يفكر بطريقة لا ماركسية ، أن يكره زعماء بعينهم ، أن يعتبر القانون هو حياة الشعب » (٣٥) .

وتعطشت حركة الاصلاح لدمقرطة بنية الحزب واطلاق العنان للاصلاحات الاقتصادية وتخلص سريع من المركزية ، وتحرر سياسى وحرية ثقافية وشخصية .

ان تزايد تحدى المصلحين جعلت الستالينين فى القيادة ينتابهم الفزع والحيرة بصدد الخط السوفيتى الجديد ولم يجدوا طريقة للتعامل معه ، تحول راكوسى وأتباعه لديناصورات سياسية ، ونظروا للمفكرين النقاد على أنهم عناصر مخربة تريد استبدال النظام القائم بالرأسمالية . وفى مارس ١٩٥٦ وتحت ضغط من القاعدة الجماهيرية اضطر راكوسى الى أن يوافق على رد اعتبار لاسلو راجيك . ولأن راكوسى هو الرأس المدبر للمحاكمات الصورية لم يتحرك على أى مستوى سياسى لتقديم التعويض التاريخى . وفى صيف ١٩٥٦ وعندما أقدم راكوسى يائسا على اطلاق حملة جديدة ضد « المؤامرة التى يقودها « امرى ناجى » المزعومة قرر السوفيت أن يستغلوا نفوذهم وأن يستبدلوا الطاغية الستالينى الذى أصبح فى موقف يحسد عليه .

ان استبدال راكوسى زاد الأمور سوءا ، اذ تولى الحكم ايرنو جيرو الرجل الثانى فى قيادة الحزب اذ عجز عن المطالبة بممارسات سياسية نظيفة فى وقت تصفية الحسابات الوحشية . وبحثا عن طريقة لتوسيع وتقوية سلطته بالتعاون مع عدد من الشيوعيين الذين تمت محاكمتهم وسجنهم خلال الارهاب الستالينى قام جيرو برد اعتبار جانوس كادار الذى كان عضوا بالمكتب السياسى ووزيرا للشئون الداخلية كما تخلى عن أسلوبه السابق وحاول مد أواصرا الصداقة مع يوجوسلافيا . ولقد كانت هذه لمحات متفرقة عن طبيعة هذه الجماعة السياسية التى فقدت كل شرعية لها . وكان تولى جيرو للحكم يعد تحديا للشعب المجرى بأسره ، رغم ما قام به جيرو من اجراءات تصالحية وفشل الحزب الشيوعى فى القيام برد فعل قوى ضد الاضطراب الذى بلغ أقصى مدى له .

لقد تحول الحزب فعلا الى فيلق سياسى اقتصرت وظيفته على نقل وتنفيذ قرارات الحكام المتضاربة . ان فريق جيرو أهدروا الارادة الشخصية وألقوا اللوم على الديكتاتورية التى يحميها البوليس السياسى الذى لم يثبت أمام الغضب الشعبى المستعر كما فشلت البيروقراطية الشيوعية فى التصدى للمقاومة الجماهيرية العظيمة .

لقد أصبحت الراكوسية قائمة دون راكوسى منذ أن اقتصر عمل جيرو على القاء الخطب الساخطة على ناجى وفريقه الذين ترددوا فى اعلان تخليهم عن ولائهم للحزب ولم يتخلصوا سوى من اسطورة ستالين وابقوا على رؤيتهم الرومانتيكية للحزب باعتباره مخولا من التاريخ للقيام بدور تحررى حتمى . وفى اكتوبر ١٩٥٦ عاد ناجى لوضعه السابق فى الحزب الا أن جيرو رفض تعيينه رئيسا للوزراء .

وفى ٢٣ اكتوبر خرج مئات الآلاف من المواطنيـــن الى شــوارع بودابست مطالبين بتأسيس دولة القانون وبمعاقبة راكوسى وعصابته وباعادة تعيين امرى ناجى كرئيس للوزراء ، وبتسريح البوليس السياسى وبسحب القوات السوفيتية من قواعدها بالمجر . وقد اكتسبت هذه الحركة الثورية شخصية سياسية وقومية وتحــولت لعصــيان شــعبى سبب الفزع لجيرو الذى أسرع بطلب العون من روسيا وأعلن حالة الطوارىء ووجه خطابا عنيفا وصف فيه التمرد بأنه « مضاد للثورة » ، وأمر البوليس باطلاق الرصاص على المظاهرات السلمية ولهذا السبب قررت اللجنة المركزية عزله ليحل محله ناجى· وانتخبت قيادة جديدة للحزب ضمت كلا من ناجى وكادار ، وبمجرد أن أدى ناجى اليمين الدستورية أعلن عن برنامجه من أجل الدمقرطة . ورغم تدخل الاتحاد السوفيتى القصير فى ٢٤ أكتوبر فان القوات السوفيتية عملت بأسلوب « انتظـــر لترى» · وأكد السفير السوفيتى فى المجر يورى أندروبوف Yury Andropov لناجى أن حكومته لن تتــدخل فى الشئون الداخليـــة لبلده · وما بدا على أنه مجرد جمهرة تحــول الى ثورة شــعبية · واكتشف امرى ناجى الشيوعى المحافظ ، ان الشعب يريد التخــلى كليــة عن النظام الشيوعى واقامة نظام تعددى حقيقى . وتشكلت مجالس ثورية فى المصانع كشكل من أشكال الديمقراطية . واكتسب ناجى جماهيرية كبيرة عندما قـــام باستشعار نبض الحركات التاريخية فى بلده وتبنى المطالب الشعبيـــة الخاصة بالتخلص من النظام الستالينى . ان العمل الثورى فى الداخل قويت شوكته بعد صحوة ناجى وجماعته وما مارسوه من ضغوط وبعد اكتشاف ازدواجية موقف الاتحاد السوفيتى بصدد التغيرات التى تتم فى المجر · ومن ثم ، لا نستطيع أن نقــول ان ناجى بدأ كمصـــــلح وانتهى كثورى ولكن تجاوز فيما بعد منطق احــداث التغيير فى اطار الحـــزب الشيوعى ولحق بزخم الحركة المضادة للنظــام التى اجتاحت كل الصروح الحصينة للاشتراكية البيروقراطية .

وبتحريض من الحركة الجماهيرية المتدفقة ، قرر ناجى أن يوسع قاعدة حكومته وذلك بقبول مبدأ التعددية السياسية . ومع حلول نهاية أكتوبر ١٩٥٦ كفت المجر عن الأخذ بالديمقراطيات الشعبية ، وتحركت سريعا نحو نظام تعددى . لقد قرر الاتحاد السوفيتى التعامل مع هذا التحدى الذى قام به احد تابعيه السابقين فخرج باعلان ٣٠ أكتوبـــر الذى أقر فيه بالتزامه الشديد بمبادىء المساواة الكاملة فى العـــلاقات التى تربط موسكو بالدول التى اصطلح على تسميتها العائلة الاشتراكية وعندما أقر السوفينون بالانتهاكات السابقة لهذه المبادىء وعد الكرملين

باحترام السيادة القومية للأقطار الشرق أوربية . لقد كان لهذه الوعود السوفيتية اثر مهدىء على الشعب · فأساء ناجى تقدير مدى تصميم موسكو على حفظ النظام الشيوعى فى المجر فبعد عدة أيام اثبتت روسيا عدم تهاونها مع هذا النوع من الحكومات وذلك عندما تدخلت القوات السوفيتية تدخلا مباشراً للقضاء على حكومة ناجى الشرعية ولسحق حركة المقاومة المجرية .

وجاء التدخل السوفيتى الثانى فى المجر بسبب قرار ناجى بتدشين النظام المتعدد الأحزاب وبتكوين « مجلس عسكرى ثورى » لقيادة القوات المسلحة المجرية ، فاستشعر الاتحاد السوفيتى الخطر يهدد وجوده فى المجر وادركوا أن انهيار الحزب الشيوعى المجرى أصبح وشيكا فاتخذ الكرملين قرار التدخل المباشر واعادة النظام السلطوى البيروقراطى ، لقد عجل القرار الذى اتخذه ناجى فى ٣١ أكتوبر باجراء مفاوضات لانسحاب المجر من حلف وارسو ، وقراره فى أول نوفمبر باعلان المجر دولة محايدة بهذا التدخل المباشر اذ أدرك الكرملين ان المجر قد بدأت مسيرة قد تنتقل عدواها لدول أخرى فتقضى على تبعية هذه الدول للاتحاد السوفيتى اذ قامت الثورة المجرية بالتخلص داخليا وخارجيا من الأطر المؤسساتية لنظام الديمقراطيات الشعبية . ونظرا للغضب الناجم عن هذا التحدى غير المسبوق ونظرا لضغوط المتشددين داخل حركة الأممية الشيوعية وخاصة ماوتسى تونج فى الصين ، قررت القيادة السوفيتية أن تضع نهاية لتجربة التعددية المجرية . واختفى جانوس كادار من بودابست ليعلن من احدى المحطات الاذاعية السوفيتية ولادة « حكومة العمال والفلاحين الثورية » وفى ٤ نوفمبر هاجمت القوات السوفيتية المواقع والوحدات العسكرية الموالية لحكومة ناجى . ولجأ ناجى وأنصاره الى السفارة اليوجوسلافية ، واضطروا بعد أن أعطاهم كادار وعدا بعدم اتخاذ أى اجراءات انتقامية ضدهم لقبول اللجوء السياسى الذى عرض عليهم من قبل الحكومة الرومانية ، وهناك — فى رومانيا — خضع جميع زعماء الحكومة لاستجوابات مستمرة من قبل موظفى البوليس السياسى السوفيتى بمساعده موظفى الحزب الرومانى والمتحدثين باسم المجر .

وفى يونيو ١٩٥٨ تمت محاكمة صورية لناجى وانصاره فى بودابست وحكم عليهم جميعا بالاعدام شنقا .

ان محاولة ناجى لتدعيم الاشتراكية بالديمقراطية كان لها أثر عظيم ولا نبالغ لو قلنا ان هذا الاصلاح الراديكالى قد تجاوز حدود

المنطق الذى تطرحه الأممية الشيوعية الذى تبناه تيتو فى يوجوسلافيا الذى لم يسمح بالانشقاق الكامل عن الشيوعية ولم يطبق النظـــام التعددى فى بلده رغم النقد القاسى الذى وجـه لأسـاليب ستالين الديكتاتورية • ان قضية الشيوعيين القوميين امثال تيتو وجوميلكا كانت دفاعا عن ذاتيتهم القومية والاحتفاظ — فى حالة يوجوسلافيا — بهامش واسع نسبيا من الحرية فى مجال السياسة الخارجية . ان الشيوعيـة القومية — كما كان يقول ميلوفان جيلاس — ظلت دائما شيوعية رغم أنها أقل استبدادية (٣٧) . وأصبح واضحا لناجى أن دمقرطة النظام الحاكم تتطلب انهـاء الادعاء غير الشرعى للحـزب الشيوعى بحقـه فى احتكار السلطة .

ان مشكلة امرى ناجى كانت فى تمزقه بين ولائه للشيوعية والقيم الديمقراطية وكذلك فشله فى ادراك مدى ما اتسم به السلوك السوفيتى من استبدادية على الصعيد الدولى ووضع ثقته فى زعمائه وخدعتـه ووعودهم . وعلى اية حال لقد كان ناجى زعيما له قيم أخلاقية نبيلة جعلته يلتزم قدر الامكان بوعوده للأمة المجرية الا أنه أجبر مثل جوميلكا على تقليص الحركة الثورية ومناورتها ثم خنقها فى النهـاية ، لقد قاوم الاجتياح فى المجر منطق الاسـتسلام للأمر الأجنبى بعد قـرار ناجى بمناصرة الضحايا لا الجلادين .

والدرس العظيم المستفاد من الثورة الديمقراطيـة المجريـة أن الحركة الجماهيرية التى استلهمت من مثاليات انسانية كان فى مقـدورها القضاء على الطغيان الحقير والقيام باختراق حقيقى لعالم التوتاليتارية الخانق ، وانهاء الارث الذى تركته معاهدة يالطا فى أول عشرة أيام من الاجتياح وعبر فرانس فير Ferenc Feher وأجنس هيلر Agnes Heller عن ذلك فقالا :

« لأننا نعيش فى عالم تتعـاون فية القوى العظمى بشكل مريب ، وفيه تخون القضايا الراديكالية أهدافها الأصيلة ، وفيـه تعـانى حركات التحرر من أنواع شتى من طغيان الاستبدادية الأصولية فان شهر اكتوبر المجرى ، [لأنه ديمقراطى راديكالى ومستقل ونادى «بجمهوريته الجديدة» الاشتراكية] يعد عملا شريفا وواعدا ، لأنه جعـل الأمة تشـعر بثقـة معنوية واجتماعية كانت فى أشد الحاجة لها » (٣٨) .

ان هذه الثورة التى تحطمت آمالها فى التحرر والعتق السياسى استمرت لعقود طويلة مثالا على روح التضامن المجرية •

ان مبدأ السياسة الواقعية Real Politik لم يستطـع هزيمـة البحث القومى عن الحقيقة التاريخية رغم المعـاهدة التى فرضها كادار

الذى نجح فى اقامة نظام من انجح الأنظمة فى دول المعسكر الشرقى .
ان الأكاذيب السمجة التى بنى على أساسها حكم كادار الذى زعم وجود « مؤامرة مضادة للثورة » بتحريض ناجى ، واصدقائه لم تسفر الا عن مزيد من التمرد ، وبدلا من دفن ذكرى اللحظات البطولية للعصيان أثارت دعائية كادار الحنين لتجربة ناجى فى التعددية (ونظرت اليها الجماهير كنموذج) وتفشى بين المواطنين اعجاب كبير بالسياسيين الذين فضلوا التضحية بأنفسهم عن التعاون مع المحتل . وأصبحت تضحية ناجى مثلا تحذو سياسات ما بعد الاشتراكية حذوه وساعد دحض ناجى لعالم البيروقراطية الشيوعية المخادع مع تأييده لحق المجتمع فى الحلم الذاتى فى مقاطعة الطريقة الأبوية والبلشفية المستبدة فى ادراك شرعية التمردات المدنية ضد الوضع الارهابى الراهن ، ومن ثم دشن ناجى تقليد المعارضة السياسية الذى ارتكز على اللا عنف ، والفخر المدنى ، والمسئولية الأخلاقية . ان اشارة ناجى لمحدودية التحدى الخرتشوفى للستالينية ، واعتقاده فى امكانية قلب النظام الجائر القائم يعد نبراسا لأجيال المستقبل من المنشقين فى الكتلة السوفيتية بكاملها ، وهكذا تعلم العالم الشيوعى كله من تجربة الثورة المجرية . وفى ذلك قال فير وهيلر :

« لقد كان للثورة المجرية السبق فى مهاجمة النظام العالمى المستبد الذى يدعه هؤلاء الذين وقعوا اتفاقيتى يالطا وبوتسدام Potsdam (٣٩). انها الثورة المجرية التى كانت درسا نتعلم منه ان الحكم الشمولى يمكن أن يتداعى من الداخل وهو عكس ما اعتقده الناس لأمد طويل » (٤٠).

وعلى عكس ناجى الذى آمن بسيادة الشعب ، فضل جانوس كادار ان يذعن للمنطق الامبريالى ويطيع أوامر خروتشوف . لقد كره الشعب المجرى كادار كما لم يكره زعيما من قبل ، اذ تم فى عهده اعدام ناجى ورفاقه فى يونيو ١٩٥٨ بتواطؤ منه. وحاول كادار بعد أن خفف السوفيت أنفسهم من توجههم المتشدد واذعان خروتشوف « لتعديلية » ماو أن يهدىء الشعب الثائر لناجى ورفاقه ، وفى نفس الوقت أعدم واعتقل عشرات الآلاف من أبناء الشعب كما نفى آخرون اجباريا .

وتسببت المذبحة التى دبرها كادار والمتعاونون مع المحتل وما تبعها من عواقب فى استنزاف وتصفية الانتلجنسيا فى المجر ومنهم جورج لوكاس الفيلسوف المجرى الماركسى الذى تولى منصب وزير الثقافة فى أول حكومة ثورية لناجى وظل سنوات عديدة عاجزا عن نشر أعماله واتهمه مأجورو الحزب بانه « تعديلى خطر » . أما الكتاب والمناضلون

الذين اشتركوا فى دائرة بيتوف فقد تركوا وطنهم وهاجروا وبعضهم اعتقل .

وبعد القضاء على الثورية المجرية مع حلول عام ١٩٥٦ ظلت مناطق النفوذ التى صدقت عليها اتفاقيات نهاية الحرب العالمية الثانية كما هى ، كما استعاد الاتحاد السوفيتى دوره كحارس للأرثوذكسية داخل الكتلة الشرقية وتأكد من أن أى بدع مماثلة لما فعله ناجى لن يكون له أدنى تأثير على البلدان التابعة • وفى وثائق مؤتمر الأممية الشيوعية الذى تم فى موسكو فى نوفمبر ١٩٥٧ ، وصفت التعديلية والشيوعية القومية بأنها انحراف عن الماركسية اللينينية • ان ما نشر فى عام ١٩٥٨ عن برنامج الحلف الشيوعى اليوجوسلافى اعطى الفرصة للدوجماتيين أمثال جورجيو دجى برومانيا والبرخت Ulbricht بالمانيا الديمقراطية لتجديد هجماتهم على تبتو والتيتوية . وتأكد السوفيت من أن هيمنتهم الأيدلوجية والعسكرية ستصمد فى وجه أى دخلاء .

لقد كانت موسكو مستعدة لتحمل ما تلاقيه من احتقار وازدراء على الصعيد العالمى كى تحافظ على وحدة الكتلة ضد أى محاولة شيوعية قومية • لقد سحب تيتو أيضا تأييده لامرى ناجى ، بسبب الضغط السوفيتى المتواصل • ولم يشأ الزعماء فى يوجوسلافيا أن يجابهوا العزلة مرة اخرى ولذلك أذعنوا للزعيم السوفيتى عن الخطر المضاد للثورة فى المجر واعتبروا حكومة ناجى « ابتسار » وقرروا فى نهاية الأمر أن يتولى كادار للحكم •

وكشفت الثورة المجرية أن الخروتشوفية Khrushchevism هى فى واقع الأمر استراتيجية للحد من اجراء تعديلات فى قمة الحزب وبرهنت بما لا لبس فيه على الطبيعة الامبريالية للاتحاد السوفيتى وهيمنته التامة على دول الكتلة الشرقية ، وداخل هذه الامبراطورية السوفيتية لم يسمح خروتشوف بتقدم الحركات الاستقلالية فى جمهوريات مثل البلطيق Baltic ومولدافيا Moldavia أو اكرانيا Ukraine بل استمر فى تطبيق برنامج ستالين عن السوفياتية ولم يقبل الغاءه وعلى الصعيد الدولى كان قمع الثورة المجرية دليلا على هيبوقراطية القيادة السوفيتية فى ادعائها التخلى عن الطرائق الستالينية فى تعاملها مع البلدان التابعة ، وصفق حكام الولايات الشيوعية الأخرى لردع الثورة وللحكم الذى صدر ضد ناجى وأنصاره عام ١٩٨٥ ، بل ان جوملكا الذى عانى أكثر من غيره من الهيمنة السوفيتية وصف تدخل روسيا فى المجر بأنه « التصرف الصحيح والضرورى » (٤١) . وطبقت

السياسية الجديدة ، وهى تضييق الخناق الأيديولوجى ، على كل بلدان أوربا الشرقية ، وعادت القوى الستالينية تنظم نفسها بحيث تتخلص من معارضيها الليبراليين · وفى ألمانيا الشرقية ، كمثال ، اجبر الفيلسوف الماركسى ايرنست بلوخ Ernst Bloch على الهجرة بعد أن شنت السلطة حملة شعواء ضده · وقبض على فولفجانج هاريتش Wolfgang Harich أستاذ الماركسية الشاب الذى وضع برنامجا لتحويل بلده للمسار الديمقراطى . واكدت صحف الحزب على ضرورة التصدى « للأيديولوجية البرجوازية والتعديلية » · وهكذا ازداد نفور مفكرى شرق أوربا يوما بعد يوم من هذه السلطة الدوجماتية وعبر الشاعر جيرارد زويرنز Gerhard Zwerenz عن ذلك قائلا :

ان الأيام تمر كئيبة
فمن الخوف
صمت الكتاب
وفى الحصار
ندوات النقاد
والأدب المنشور
كفر به الجمهور
ولكنهم يدفعون له الأجور (٤٢) ·

وفى تشيكوسلوفاكيا حيث كان الاقتصاد أكثر انتعاشا عنه فى دول الكتلة الشرقية الأخرى ، طمأنت هزيمة الثورة المجرية الستالينيين الجدد برئاسة حليفه جوتولد ، انتونين نوفتنى الذى اعتقد ان سماح الاتحاد السوفيتى بمزيد من التحرر لن يضر · وفى عام ١٩٥٨ واثناء الحملة المضادة للتعديلية وبعد عامين من حل الكمنفورم رسميا تأسست جريدة دولية تعبر عن وجهات نظر مشتركة لحركة العالمية الشيوعية وذلك فى مدينة براغ واتخذت اسم قضايا السلام والاشتراكية Problems of Peace and Socialism وهى نفس الجريدة التى اتخذت اسم نشرة الماركسية العالمية World Marxist Review ·

وبعد عام ١٩٦١ تبنى الشيوعيون المجريون استراتيجية داخلية أكثر ديمقراطية ، ولخلق حد أدنى من اجماع الرأى القومى قاطع كادار الشعار الستالينى « من لا يكن معنا فهو ضدنا » واستبدل به آخر أقل استبدادية وهو « من ليس ضدنا فهو معنا » . وبعد المؤتمر الثامن للشيوعيين المجريين فى نوفمبر ١٩٦٢ ، أعلن كادار سياسة التصالح القومى وتبنى استراتيجية اقتصادية تهدف الى رفع المستويات المعيشية

للجماهير وتشجيع الملكية الخاصة المحدودة ، والعمل الحر الصغير وبارك خروتشوف استراتيجية المهادنة التى اتبعها كادار والتى عرفت باسم « اشتراكية التجانس » . وفى مارس ١٩٦٣ أصدر عفوا عاما وأطلق سراح آلاف من المعتقلين السياسيين المجريين . وفى مقابل مساحة الحرية المحدودة طالب النظام رعاياه بالكف عن توجيه أى نقد للاتحاد السوفيتى وبالتغاضى عن شهادة ميلاده التى وقعت بالدم . وأبدى الحزب استعداده للتعاون مع كل الأذكياء الذين لا يتساءلون عن الشرعية السياسية (٤٣) .

★ **محاولات الاستقلال : معاداة التبعية الستالينية فى رومانيا وألبانيا :**

فى رومانيا ، خاصة بعد قمع الثورة المجرية شددت القيادة الستالينية قبضتها على الشئون الداخلية ، وتخلص جورجيو - دجى من العصبة الموالية لخروتشوف التى حاولت ان تطيح به ، واهتم بشدة بالتخلص من عضوين بالمكتب السياسى وهما اسويف تشيزنفتش Isoif Chisinevech المنظر الرئيسى للحقبة الستالينية فى رومانيا وميرون قنسطنتينسكو Miron Constantinescu الشيوعى الماركسى الذى ابدى ميلا نحو التعديلية . ورغم انهما لا يتمتعان بشعبية كبيرة الا أن جورجيو أصر على أن يفضح دورهما فى ارهاب أوائل الخمسينات باعتباره أحد الدلائل على تورطهم فى أنشطة معادية للحزب . وكان خروتشوف فى هذه اللحظة مشغولا جدا فى صراعه ضد مناوئيه الستالينيين فى الكرملين حتى انه عجز عن مد اتباعه الرومانيين بأى دعم . وفى عام ١٩٥٨ حدثت مذبحة ضخمة للانتلجنسيا فى الحزب وطرد عشرات الآلاف من الحزب الشيوعى وبعدها سمى رسميا حزب العمال الرومانى Romanian Worker's Party وفى يونيو ١٩٥٨ اسفرت المفاوضات السرية بين جورجيو دجى وخروتشوف ، عن قرار الكرملين بسحب قواته من رومانيا ، وكان ذلك يعد دليلا على ثقة الاتحاد السوفيتى المطلقة وإن محدودة فى الرومانيين الأرثوذكس وفى قدرتهم على حفظ النظام واستقراره ، وكان فى سحب القوات السوفيتية من رومانيا ما اقنع الغرب بأن التدخل فى المجر كان مجرد حادثة وأن السوفيت لم يكن لديهم النية لاستمرار سياستهم الامبريالية تجاه الاقطار التابعة السابقة . وفيما بعد ثبت أن الشيوعيين الرومانيين برئاسة جورجيو دجى قد خدعوا خروتشوف ، اذ كان هدفهم هو ضمان اتساع هامش استقلالهم القومى رغم خضوعهم لأى انذارات وذلك لمزيد من النكوص عن الستالينية . وفى الحقيقة كانت رومانيا والبانيا أكثر الدول الاشتراكية التى تعرضت للقمع السوفيتى .

ولم يجرؤ أحد فى رومانيا على تحدى سلطة جورجيو ، حيث يتعرض كل من يجرؤ على توجيه تهمة الاشتراك فى مفاسد الستالينية للتصفية الجسدية . لقد ارتقت سياسة جورجيو — دجى لأعلى مستويات الستالينية ، فقد فضل التصنيع الكبير وشن حملات لا هوادة فيها من أجل احلال التعاونيات . وفى ربيع عام ١٩٦٢ أصبحت الزراعة الرومانية تعاونية . وأعلن جورجيو — دجى انتصار الاشتراكية الباهر وبداية مرحلة جديدة وهى « اكتمال البنية الاشتراكية » . وبدا لجورجيو أن حملة خروتشوف الثانية المعادية للستالينية فى المؤتمر الثانى والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى فى أكتوبر ١٩٦١ ونقل رفات ستالين من ضريح لينين Lenin's Mausoleum خطأ لا يغتفر .

وكزعيم ستالينى متمرس استاء جورجى من سياسات الزعماء السوفيتيين الغربية اذ رأى أن المزيد من الليبرالية لن يسفر الا عن تقويض دعائم النظام القائم وتهديد أنظمتهم .

لقد كان جورجيو — دجى مثل خوجة بألبانيا ونوفتنى بتشيكوسلوفيا والبرخت فى المانيا الشرقية يتفق مع ماوتسى تونج فى شعوره المفرط بقوة وأهمية معجزات ستالين .

وفى عام ١٩٦٠ زار أنور خوجة زعيم الحزب الشيوعى الألبانى موسكو لحضور مؤتمر الأممية الشيوعية الثانى وفيه هاجم خروتشوف لدوره المحرض الذى يهدد الاستقرار فى عالم الشيوعية وقد كان لهذا المؤتمر آثار مفجعة . وبعد عام من هذا المؤتمر وجه الشيوعيون الصينيون نفس الهجوم على خروتشوف ومنحوا خوجة مساعدة اقتصادية . وبعد أن اعلن خروتشوف المقاطعة الاقتصادية لألبانيا ، وأصبح الشيوعيون الألبان بعد المحاولة السوفيتية لاذلالهم وحصارهم أكثر نقاد « التعديلية الحديثة » ضراوة واتهموا خروتشوف بأنه يحفر مقبرة الأممية الشيوعية . وامتنعت البانيا عن المشاركة فى انشطة الكتلة الشرقية وقطعت العلاقات الدبلوماسية مع موسكو والدول التابعة لها (٤٤) .

وأسفرت المقاومة المحدودة للستالينية والتى تمت السيطرة عليها تماما عن شن هجوم جديد على المنافسين السابقين لجورجيو مثل عصبة (بوكر — لوكا) وكان قد تخلص منهم عام ١٩٥٢ . وفى عام ١٩٥٧ اعادة الكرة فتخلص من عصبة تشيزنفتش — قسطنطينكو) وتم شنق عضو المكتب السياسى السابق لوكريتيو بتراتشنسكو Lucretiu Patrascau فى عام ١٩٥٤ واستمر فى تشويه سمعته باعتباره خائنا للطبقة العاملة . وفى نفس الوقت أكد جورجيو — دجى على

عصبوية ائتلافيي الحزب والحكومة . واستبدل الحزبين المجريين واليهود برومانيين عرقيين قدموا فروض الولاء لجورجيو - دجي لصعودهم السريع والمفاجيء للسلطة . وفى هذا الوقت ظهر نيقولاى شوسسكو Nicolae Ceausescu أصغر الأعضاء فى المكتب السياسى واعتبر وريثا للزعيم .

وبادر جورجيو — دجي بالتقرب ثانية من تيتو ليتمكن من مواجهة الهجوم السوفيتى وهتف للمطالبة بعدم التدخل السوفيتى فى الشئون الداخلية للبلدان الأخرى . وعندما أراد خروتشوف أن يدفع فى اتجاه تكوين وحدة تكاملية عابرة للقارات داخل مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة (CMEA) ، عارض الرومانيون بعنف هذه الاقتراحات وقاطعوا اجتماعات القمة بالكتلة الشرقية ، ولم يعد امام جورجيو — دجي وعصبته وسيلة للدفاع عن هيمنتهم السياسية سوى تأمين استقلال البلد الاقتصادى ، ولانهم تلاميذ المدرسة الستالينية فقد آمنوا بأن الطريق الى الاستقلال الاقتصادى هو التصنيع السريع مع التأكيد على أهمية الصناعة الثقيلة ، والاكتفاء الاقتصادى لرومانيا لأن الطريقة الوحيدة للافلات من الضغط الأجنبى — ويعنى هنا الضغط الروسى — لقد نشرت الصحف الرومانية فى عام ١٩٦٣ - ١٩٦٤ عددا من المقالات المعادية للسوفيتيين وانتقدت الخطط السوفيتية لفرض الاندماج على اقتصاديات بلدان دول شرق أوربا . وفى ذات الوقت ونظراً لتدهور نفوذ خروتشوف فى الكرملين اتخذ جورجيو — دجي موقفا محايداً من الصراع الواقع بين الحزب الشيوعى الروسى والصينى . لقد انتقد جورجيو — دجي خطة خروتشوف لفرض الدمج لأنه أدرك أن رومانيا ستدخل ضمن الترتيبات الشرق أوربية الجديدة وستخضع للاقطار الأكثر تقدما مثل المانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا . ولعبت العداوات الشخصية بين جورجيو - دجي من ناحية والبرخت ونوفتنى دورا مهما فى تفجر الصراع .

وفى صيف ١٩٦٣ نشرت الصحافة الرومانية وثائق عن طرفى الصراع الصينى السوفيتى وعن «الخط العام لحركة الأممية الشيوعية»، وهنا نستطيع أن ندعى أن جورجيو الذى لم يدخل ضمن عصبة ماو الثورية استغل الوقيعة بين عملاقى العالم الشيوعى لخلق منطقة نفوذ خاصة به ورصد ج ف براون J. F. Brown ذلك قائلا :

« لقد فهم جورجى الداهية دلالات النزاع الصينى — السوفيتى Sino-Soviet حول الاقطار الشرق أوربية التابعة . ورأى انهم

يستطيعون الآن فقط مناورة الكرملين . وفى الوقت الذى كان فيه مستعدا لأخذ جانب السوفيت ، لم يكن لديه مانع فى أن يصبح ماويا Maoist ، كوسيلة للحصول على تنازلات الاتحاد السوفيتى » (٤٥).

وفى الواقع فان جورجيو ــ دجى تعاطف مع دفاع ماو العنيد عن التراث الستالينى . وفهم جورجيو مثله مثل كل من عاصر زمن الارهاب أن حملة خروتشوف المترهلة ضد تأليه الفرد لن تسفر سوى عن عزله من قيادة الحزب الشيوعى . واستخدم دجى القومية سلاحه لتقوية نفوذه ، وتذكر الشيوعيون الرومانيون الذل الذى تذوقوه على يد موسكو فأداروا لها ظهورهم وتعهدوا بالالتزام بالقيم القومية ، ورد اعتبار الرموز الثابتة للانتلجنسيا الوطنية وأعيدت كتابة التاريخ وفقا لخط الحزب الجديد ولم تعد الروسية اللغة الأجنبية الالزامية التى تدرس بالمدارس . وفى ابريل ١٩٦٤ بلغ النزاع السوفيتى الصينى اشده على نحو غير مسبوق فأصدر الحزب الشيوعى الرومانى بيانا يتعلق بالقضية الرئيسية داخل حركة الأممية الشيوعية ، وتأثر هذا البيان باستقلال تيتو وأكد على حق كل حزب شيوعى فى تقرير استراتيجيته الخاصة وانكروا على الكرملين الهيمنة التى يتمتع بها داخل الكتلة الاشتراكية ونادى بعلاقات جديدة فيما بين الأحزاب والبلدان الشيوعية ، على أن يكون قوامها المساواة والاحترام للعادات والمصالح القومية .

ان تحدى رومانيا لهيمنة الاتحاد السوفيتى اكسب جورجيو ــ دجى جماهيرية عريضة رغم الخط السوفيتى البين الذى تبناه ، وشعر دجى بأنه فى مأمن فأعلن عفواً عاما عن المعتقلين السياسيين ونشرت مخطوطات كارل ماركس Karl Marx التى طال فرض الرقابة عليها وهى المخطوطات التى تنقد سياسة الامبراطورية الروسية التوسعية تجاه الامارات الدانوبية Danubian فى القرن العشرين . وتم تنظيم جماعات عمل قدمت نقداً راديكاليا لما قام به الاتحاد السوفيتى من سلب ونهب لرومانيا فى الخمسينيات . ان اعادة المطالبة بالقيم القومية خدمت بالطبع مصلحة جورجيو ــ دجى ومعاونيه فى الائتلاف الشيوعى الذى حاول مناورة الرموز القومية كى ما يفرض هيمنته وسيطرته المطلقة على البلد . وفى نهاية حكم جورجيو ــ دجى وفى مارس ١٩٦٥ كان على رومانيا أن تختار بين محاكاة تيتو فتسمح بمزيد من المرونة الايدلوجية والانفتاح على الغرب أو ترك الحزب الشيوعى قابضا السلطة فتدعم العداء السلطوى القومى لأى تحرر ، لقد توفى جورجبو دجى فى مكتبه عام ١٩٦٥ ولا يستطيع أحد أن يتكهن بمجريات الأحداث لو أن جورجيو عاش فترة أطول .

وبعد وفاته اتبع خليفته نيكول شاوشيسكو منهج مناوءة الستالينية لتعزيز سلطته ، الا أنه لم يستطع التحكم فى مقدرات السلطة من خلال معارضته للسوفيت مثلما فعل جورجي فحاول أن يجعل نفسه زعيما قوميا . ان الصبى الذى كان يعمل صانعا للأحذية لم يتلق تعليما حقيقيا ، لم يثق فى المفكرين ورفض الليبرالية أياً كان شكلها وتأكد من فكرة القومية لخدمة مصلحته وأخذ شاوشيسكو بصلف بالمنهج الستالينى فى مجال الاقتصاد الا أنه سمح خلال السنوات الأولى من حكمه بالتحرر — نسبيا — من القيود الدجماتية المفروضة على الحياة الفكرية فى القطر ، وفيما بعد انشغل فى تعزيز نفوذه وبناء رؤية أصيلة للشيوعية القومية لتتضمن المبادىء الماركسية اللينينية والعرقية ، وآمن شاوشيسكو — كستالين — بالدور المقدر للحزب الشيوعى ودافع عن هيمنته وانفراده بالسلطة . وكان حلمه الكبير اقامة دولة قوية شديدة المركزية ومتسعة عرقيا وأشار بثقة الى « الشعب الموحد العامل الذى يتحدث لغة فريدة من المفردات الشيوعية » . وبالمقارنة بالزعماء الشرق أوربيين الآخرين تمتع شوشيسكو الى حد ما بوضع مميز ، اذ حكم بلدا تخلو أراضيه من جنود القوات السوفيتية ، وبدلا من استخدام هذه الميزة لدمقرطة النظام السياسى فقد اقام حكما فرديا ديكتاتوريا والذى سيصل فى الثمانينيات الى أقصى درجات اللامعقولية .

بلغاريا : التحالف المخلص

ان الاتجاه البلغارى نحو الخرتشوفية عكس الصراعات التى تفشت بين القيادات السوفيتية . واستمد تودور جيفكوف Todor Zhivkov الزعيم البلغارى الشرعية السياسية من افشائه لأسرار مؤتمر الحزب الشيوعى السوفيتى العشرين . وفى الواقع خطط جيفكوف فى عام ١٩٥٦ للتخلص من راعى الكمنترن السابق ونصيره فالك تشرفينكوف .

وفى جلسة ابريل ١٩٥٦ الكاملة الأعضاء تم التصديق على أكذوبة جيفكوف باعتباره ممثلا للشيوعية الجديدة . واستمر الصراع بين جيفكوف وعصبة تشرفينكوف حتى المؤتمر الثانى والعشرين فى عام ١٩٦١ عندما وضع خرتشوف الاطار السياسى المعادى للحركة المضادة للستالينية والتى اجتاحت الأقطار التابعة . وبعد ازاحة تشرفينكوف من الحزب

استمر الستالينون فى معارضة دعوات جيفكوف من اجل اذابة الجليد الذى اصاب الشئون الداخلية • وفى مؤتمر الحزب الواحد والعشرين احيط انتصار جيفكوف على معارضية الستالينيين بهالة من التقديس وهاجم جيفكوف انتون يوجوف Anton Yogov رئيس الوزراء المتشدد الذى شارك فى مذابح الخمسينيات وعزله من منصبه الحزبى والحكومى ومع ذلك كان جيفكوف نفسه بيروقراطيا شيوعيا ماهرا التزم بالليبرالية السياسية ولكن دون حماس حقيقى • وفى عام ١٩٦٢ قلد جيفكوف خروتشوف عندما تحدى المفكرين فبدءا بالفنانين الليبراليين السوفيتيين امثال الشاعر بافجنى يوفتشينكو والمثال ارنست نيزفستنى Ernst Neizvestny فخطط لمذبحة هائلة للبلغاريين المعادين للستالينية • وتم نفى كل من انتقد النظام • وابعدوا عن العاصمة صوفيا واستأنف البوليس السياسى مطاردته لكل من حام حوله أدنى شك ، وأعدمهم لمعارضتهم للنظام . وعندما تنحى خروتشوف من الحكم فى أكتوبر ١٩٦٤ ، حاول جيفكوف الفوز بالحظوة لدى القيادة السوفيتية الجديدة وعلى راسها ليونيد برجنيف Leonid Brezhnev والكسى كوسيجين Aleksei Kosygin . وفى ربيع عام ١٩٦٥ دبر الشيوعيون المتمرسون بالتعاون مع قيادات الجيش للاطاحة بجيفكوف الذى أعلن تأييده غير المشروط للاتحاد السوفيتى بعد أن نجح فى قمع الانقلاب وجعل من هذه التبعية مصدرا أساسيا لقوته ، وفيما بعد عندما يكف الاتحاد السوفيتى دعمه ويفقد مصدر قوته ، سيتمكن الانقلابيون فى المكتب السياسى من الاطاحة به فى نوفمبر ١٩٨٩ .

الخلاصة :

ان الصدمة التى نجمت من الحملات التى شنها خروتشوف لمعاداة الستالينية ألقت بظلالها على كل بلدان شرق أوربا • وأسفرت الفوضى التى تفشت فيما بين الائتلافات المحلية عن فقدان الحزب لهيمنته ولاحت حركات التحرر فى الأفق خاصة فى بولندا والمجر . وطالما انكشف زيف التهم التى وجهها الستالينيون لتيتو أصابت المنطقة حمى الشيوعية القومية . ان انهيار أسطورة ستالين وتحطيم ادعاءات خروتشوف الخاصة بطرح منهج جديد مبتكر لنظام ثورى شجعت المفكرين الأرثوذكس على مساءلة النظام القائم وتحديه .

لقد مرت كل بلدان أوربا الشرقية مع نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات (وبدرجات متفاوتة) بتجربة ازدهار الاتجاهات التعديلية

التى ظهرت فى أجرأ صورها فى بولندا والمجر ، حيث قوض الصرح الستالينى تحت ضغط التيارات الناقدة وانهارت النسق الشيوعية بسبب الآلية السياسية القائمة فنما جنين نظام سياسى تعددى ، الا أن هذه التيارات الناقدة سحقت من قبل القوات الروسية فى نوفمبر ١٩٥٦ . وبعد هزيمة الثورة المجرية ، حاول السوفيتيون استعادة تماثل وانساق الكتلة لكن محاولتهم باءت بالفشل ونمت فى كل بلدان شرق أوربا اتجاهات ترفض المركزية ورفضت الأحلاف المحلية الطريقة المهينة التى يحضون عليها تحت الحكم الشيوعى .

ومن ناحية أخرى ، جاءت المبادرات فى تلك البلدان من الزعماء المحليين ، وأجبروا موسكو على الاذعان لقراراتهم ومنهم الزعيم الشيوعى والتر برخت الذى اقنع الكرملين بأن ازالة سور برلين هى الطريقة الوحيدة لوقف النزيف الديموجرافى فى بلده .

وفى المجر فاز كادار باجماع الرأى القومى بسبب فتحه لملف أحداث عام ١٩٥٦ ودوره فى رد اعتبار حكومة ناجى الشرعية . لقد كانت مساومة قوامها الأكاذيب وأنصاف الحقائق والأوهام الخاصة بامكانية اصلاح النظام الشيوعى القائم من الداخل بدلاً من استبداله . ورغم افتقار المجر للاستقلالية فى ادارة شئونها الداخلية ، الا أن اتساع هامش الحرية الفردية والحد من سلطات البوليس السياسى أحدث توازنا ما داخل القطر . واحتفظ الرومانيون بمسافة متساوية بينهم وبين كل من موسكو وبكين والتزموا الحياد فيما يتعلق بالصراع الحاد المتصاعد بين العملاقين الشيوعيين . لقد اتسمت سياسة رومانيا الخارجية بشىء من الاضطراب بينما حافظوا على أدواتهم القمعية سليمة والتصقوا بالتفسير الستالينى الأصولى للبنى الاشتراكية . واستمرت يوجوسلافيا فى تبنيها لسياسة عدم الانحياز الخارجية الا أن تيتو لم يخف دعمه لبرنامج خروتشوف المعادى للماوية .

وعلى الصعيد الداخلى أجريت اصلاحات جديدة فى اتجاه الادارة الذاتية وأسس النقاد الماركسيون صحيفتهم براكسس (٤٦) Praxis . ونادوا من خلالها بطلاق لا رجعة فيه للاشتراكية البيروقراطية . وانتقدوا تيتو وحلفه الشيوعى بسبب تناقض موقفهم من مقاطعة النموذج الاشتراكى السلطوى — القائم على عبادة الفرد . ان البانيا هى البلد الوحيد الذى استطاع بفضل عزلته وأدواته القمعية أن يقضى على أى شكل من أشكال المعاداة للستالينية .

وعندما تكونت الكتلة نتيجة لاحتلال ستالين الامبريالى لأوربا الشرقية ظهرت دلائل واضحة تنم عن الاعتلال الذى اصابها . وحاول خلفاء خروتشوف احتواء هذه الاتجاهات المتناقضة بتطوير أشكال جديدة من العلاقات فيما بين الدول .

وتحت قيادة برجنيف أصبح التوازن الخاص بالمبادرات السياسية الخارجية بين الاتحاد السوفيتى وأحلافه على رأس أولويات الكرملين الذى حاول اقامة نوع جديد من العلاقات تتمتع بموجبها كل الأقطار بنفس الحقوق ويكون عليها نفس الواجبات . وسمى المفهوم الجديد للوحدة « الدولية الاشتراكية » وهو المفهوم الذى جعل المصالح السوفيتية والشرق اوربية تتقارب واعتبرت أية محاولة للتشكيك فى طبيعة هذه العلاقات شكلا من أشكال الانحراف عن الخط الأصيل للماركسية اللينينية .

لقد عملت كل الأنظمة القائمة فى دول أوربا الشرقية تحت اسم « الاشتراكية المتطورة » الذى وصفته الدعاية الشيوعية بأنه النظام السياسى المستقر الذى بنى على الاقتصاد الديناميكى واجماع الرأى الاجتماعى . وحقيقة الأمر أن الالتفاف حول البرجينيفية قام على الجمود السياسى ونشر اللامبالاة والاستقلالات الجماعية : لأنه كان مشابها للحقبة الستالينية وان كان أقل بشاعة منها .

ولم يعتمد الميثاق الاجتماعى الخاص بالمجتمعات الشيوعية فيما بعد الستالينية على الارهاب فقط ولكن على الاجراءات الوقائية المتبادلة بين الحكام والمحكومين ، فبينما حمى الأول نفسه بدرع من المصالح الاجتماعية تخلى الأخير عن حقه فى التمرد ضد النظام الجائر الجامد ، وعلى أية حال كان هذا العقد الاجتماعى مرفوضا بل وموضعا للشك ، فالحكام لا يتمتعون بشرعية حقيقية بينما أخذ الوضع الاقتصادى فى التدهور ولم يعد يكفل الاستمرارية لهذا الاتفاق فانهار النظام تماما . واضافة لذلك فان شرعية هذه الانظمة كانت مزيفة لانها لم تصل للسلطة — باستثناء حكومة يوجوسلافيا — بناء على رغبة الجماهير ، كما فقدت هذه الأنظمة الأيديولوجية التى خدمت عقيدة الماركسية اللينينية كل ما خلع عليها من قدسية ، نتيجة للحملات المعادية للستالينية والاجتياح الاجتماعى لعام ١٩٥٦ .

وعلى عكس الستالينيين العقلانيين الذين قادوا الأحزاب الشيوعية الشرق أوربية فى أوقات القمع الوحشى فان الائتلافات الصاعدة نظرت للماركسية على أنها عقيدة شعائرية اجبارية ورفضوا الادعاء اللينينى

بالعالمية واعتبروا للستالينية كيانا هشا . لقد اخذت قلة من الأعضاء فى الائتلافات الشيوعية بالأفكار الستالينية بل لقد استخدموا اللينينية فقط كستار يخفون وراءه دكتاتورياتهم لضمان سرمدية حكمهم واحتكارهم للسلطة .

هوامش الفصل الثـانى :

(١) George H. Hodos, Shotrials : Stalinist purges in Eastern Europe. 1948-1954 (New York : Praeger, 1987), pp. 11-12.

(٢) البلشـفى •

هو عضو الجناح الروسى المتطرف فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى الروسى الذى تولى السلطة بعد ثورة نوفمبر ١٩١٧ فى روسيا كما يعتبر البلاشفة قبل الثورة ممثلين للأغلبية بينما المناشفة تعنى الأقلية فى الحزب – (المترجم) •

(٣) Ibid, p. XIII.

(٤) The trialoh. Loszlo Rajk in Gale Stockes, from Stalinism to Pluralism : A Decumentary History Eastern Europe Since 1945 (New York and Oxford : Oxford University Press, 1991, pp. 69-70.

(٥) See Louis Rapoport, *Stalin's War Against the Jews : The Doctors' Plot and the Soviet Solution* (New York : The Free Press, 1990).

(٦) Zbigniew Brzezinski, *The Soviet Bloc : Unity and Conftict* (Cambridge : Harvard University Press, 1967), p. 137.

(٧) Jacques Rupnik, *The Other Europe : The Rise and Fall of Communism in East-Central Europe* (New York : Schocken Books, 1989) p. 116 : on Stalin versus Tito. see fihrushev's ê'Secret Speech" in Tariq Ali, *The Stalinist Legacy* (Harmondsworth, Middlesex : Books, 1984), p. 256.

(٨) See Ivo Banac, *With Stalin Againsi Tito : Cominformist*
See Ivi Banac, *With Stalid Agaisdt Tito : Cominformist*
versity Press, 1988).

(٩) See Oskar Gruenwald, *The Yugoslav Search for Man : Marxist Humanism in Contemporary Yugoslavia* (South Hadley, Mass. : J. F. Bergin, 1982).

(١٠) نومنكلاتورا Nomenklatura

هى طريقة فى التسمية تستخدم فى مجال العلوم والفن والأنظمة ، وهى طريقة دولية لتصنيف الأسماء اللاتينية الجديدة فى مجال البيولوجيا أو من أجل تصنيف الأسماء اللاتينية الجديدة فى مجال البيولوجيا أو من أجل تصنيف الأنواع الحيوانية والنباتية ، وفى السياسة تاتى بمعنى « تكنوقراط الدولة/الحزب » أو شريحة متميزة من البيروقراطية – (المترجمة) •

(١١) See Milovan Djilas, The New Class : An Analysis of the *Communist System* (New York : Harcourt Brace Jovanovich, 1957), and idem, Of Prisons and Ideas (Orlando : Harcourt Brace Jovanovich, 1986).

(١٢) الأوتوقراطية Autocracy

تطلق على الحكومة التى ينفرد فيها شخص واحد بالسلطة المطلقة وصنع القرار — (المترجمة) ·

(١٣) Wolfgang Leonard. *Three Faces of Marxism : The Political Concepts of Soviet Ideology, Maoism, and Humanist Marxism* (New York : Paragon Books, 1979), p. 268.

(١٤) Teresa Toranska, *"Them" : Stalin's Polish Puppets* (New York : Harper & Row, 1987), p. 257.

(١٥) Ibid, p. 354.

(١٦) For these biographies, see the appropriate entries in Branko Lazich and Milorad M. Drachkovich, *Biographical Dictionary of the Comintern : New Revised and Expanded Edition* (Stanford, Calif. Hoover Institution Press, 1986).

(١٧) Brecht as quoted by William Echikson, *Lighting the Night*, (*New York : Morrow*, 1990), p. 63 ; Timothy Garton Ash, "Comrade Brecht," in his book *The Uses of Adversiy : Essays on the Fate of Central Europe* (New York : Random House, 1989), pp. 28-46.

(١٨) Brzezinski, Soviet Bloc, p. 174.

(١٩) Celestine Bohlen. "Warsaw Pact Agrees to Dirsolve Its Military Alliance," *New York Times*, February 26, 1991.

(٢٠) Leszek Kolakowski, *Main Currents of Marxism* (Oxford : Oxford University Press, 1978), III : 451.

(٢١) Khrushchev's « Secret Report », in Ali, Stalinist Legacy (note 6 above), pp. 296-70.

(٢٢) Isaac Deutscher, *"The Tragedy of Polish Communism"*. in Isaac Deutscher, *Marxism, Wars and Revolutions : Essays from Four Decades* (London : Verso, 1984), p. 121.

(٢٣) For the Polish Political traditions, see Marcin Krol, "The Polish Syndrome of Incompetentners," in Stanislaw Gomulka and Antony Polonsky, eds.. *Polish Paradoxes* (Londod and New York., Routledge, 1990), pp. 63-75, and Jan Jozef Lipski, "Two Fatherlands, Two Patriotisms," in Robert Kostrazewa, ed., *Between East and West : Writings from* Kultura (New York : Hill & Wang, 1990), pp. 52-71.

(٢٤) Paul Zinner, ed., *National Communism and Popular Revolt in Eastern Europe : A Selection of Documents on Events in Poland and Hungary February — November* 1956 (New York : Columbia University Press 1956, pp. 47-48.

(٢٥) Stanislaw Baraczak, "Before the Thaw : The Beginning of Dissent in Postwar Polish Literature (The Case of Adam Wazyk's 'A Poem for Adults')," *East European Politics and Societies*, 3, no. 1 (Winter 1989) · 11.

(٢٦) Quoted in Irving Howe, *Beyond the New Left* (New York : McCall Publishing Company, 1970), pp. 31-32.

(٢٧) "Victory Orban's Speech at the Reburiat of Imre Nagy," *Uncaptive Minds*, II, no. 4. (August-October 1989) : 26.

(٢٨) التعديلية حركة فى الاشتراكية الماركسية الثورية تؤيد الأخذ بروح التطور (المترجمة) ٠

(٢٩) Wilham E. Griffith, "The Origins and Significance of East European Revisionism". in Leopold Labedz ed., *Revisionism : Essays in the History of Marxist Ideas* (New York : Praeger, 1962), pp. 223-38.

(٣٠) Adam Michnik, *Letters from Prison and Other Essays* (Berkeley and Los Angeles : University of California Press, 1985), p. 135.

(٣١) Ibid, p. 137.

(٣٢) See Gyorgy Aczel and Tibor Meray, The Revolt of the Mind (New York : Praeger, 1959).

(٣٣) Leonhard, Three Faces oh Marxism (note 10 above), pp. 282-83.

(٣٤) Ibid., p. 283.

(٣٥) Ibid, p. 284.

(٣٦) Ibid.

(٣٧) See "Christ and Commissar," an interview with Milovan Djila, in George Urban, ed., *Stalinism : Its Impact on Rusdia and the World* (Cambridge, Mass. : Harvard University Press, 1986), pp. 180-245.

(٣٨) Ferenc Feher and Agnes Heller *Hungary 1956 Revisited : The Message of a Revolution — A Quarter of a Century After* (London : (*George Allen & Unwin*, 1983), p. 150.

(٣٩) بوتسدام . مدينة فى ألمانيا الشرقية تقع شـمال غرب برلين ـ (المترجمة) ٠

(٤٠) Ibid., p .vii.

(٤١) Quoted by Albert Camus in his preface to *The Truth about the Nagy Affair : Facts. Documents.* New York . Praeger, 1959), p.vii.

(٤٢) Quoted by Melvin Coran in his masterful essay "East German Revisionism : The Spectre and the Reality", in Leopold Labedz, ed., ***Revisionism : Essays on the History of the Marxist Ideas*** **(New York : Praeger, 1972), p. 254.**

(٤٣) The journal ceased to come out in 1990 as an effect of both the dramatic changes in Eastern Europe and Gorbachev's markedly diminished interest in what used to be called the "world communist movement."

(٤٤) See William E. Griffith, *Albenia and the Sino-Soviet Rife* (Cambridge, Mass. : MIT Press, 1963).

(٤٥) J. F. Brown *The New Eastern Europe : The Khrushev Era* and After (New York : Praeger, 1966), p. 206.

(٤٦) **براكسس**

وتعنى الممارسة العملية لما اعتنق نظريا ـ (المترجمة) ٠

الفصـــل الثالث

من الانصهار حتى التجمد

« الاشتراكية الحقيقية » تحكم أوربا الشرقية

« لا يوجد هناك مثل شيوعية لم تحملها التوتاليتارية ومن ثم لم تصبح توتاليتارية ولا ظلت شيوعيـــة »

آدم متشنك ·

لقد تم اقصاء نيكيتا خروتشوف عن منصبه كسكرتير أول للحزب الشيوعى السوفيتى Soviet First Secretary وكرئيس لمجلس الوزراء Chairman of the Council of Ministers وذلك فى أكتوبر عام ١٩٥٤ نتيجة لضربة وجهت له من داخل الحزب بتدبير من القوى الستالينيـــة البيروقراطية الجديدة التى لم تقبل الأساليب التى انتهجها المذكـــور ووصفتها بأنها « خطط رعنـــاء » ووجهوا لخروتشوف تهمة اضعاف سلطة الحـــزب الشيوعى بما أجراه من اصـــلاحات · لقد حرص الزعماء الجدد فى الكرملين على استعادة وحدة عالم الشيوعية التى تضررت على نحو خطير من تفاقم الهجوم العنيف الذى شنته على الصين ، فألغوا البيانات المعادية للستالينية التى أصدرها خروتشوف . واختفى الاسم المدوى للسكرتير الأول الســـابق لأكثر من عشرين عاما من الخطـــابات الرســـمية السوفيتية .

ان الحملة التى شــــنها ليوند برجنيف ونيكـــولاى بودجورنى Nikolai Podgorny وميخائيل سبسلـــوفيت M. Khail Suslovate على الصيغة الخروتشوفية للبلاد ، وتخطيطهم لضربة القصر فى أكتوبر اتسمت بالاعتـــدال الا أنهـــا كانت محاولة واضحة لرد اعتبار ستالين (١) ·

وأثر القرار الروسى باستعادة الوحدة الأيديولوجية والاتساق داخل الكتلة على أوربا الشرقية . وفى البداية خشى زعماء أوربا الشرقيـــة المحليون على مناصبهم من جراء التغيير الذى يتم فى الكرملين ، الا أنهـــم سرعان ماتأكدوا بأن روسيا سوف تستمر فى منحهم العون والدعم . لقد كانوا أدوات لروسيا لذلك شعروا بالامتعاض نحو ايماءات السكرتير

الأول السابق (خروتشوف) المعادية للستالينية وفضلوا أن يتعاملوا مع قيادة سوفيتية أكثر روتينية وبالتالى أكثر جمودا . وحاول الزعماء السوفيت الجدد أن يستنهضوا الأجهزة الاستشارية الدولية القائمة وأكدوا على التزامها المتزايد بالتضامن بين الأحزاب الحاكمة فى الكتلة السوفيتية . لقد قبل جميع زعماء بلدان حلف وارسو باستثناء جورجى – جورجيو دجى الذى توفى ١٩٦٥ وكذلك خليفته نيكولاى شوشيسكو اعادة الهيمنة السوفيتية على الكتلة – الشرقية كما طالبتهم البرجنيفية Brezhnerism بضمان الاستقرار الداخلى والانسجام الأيديولوجى والاحجام عن المبادرات المنفردة فى السياسة الخارجية · وسعد الحكام فى تلك البلدان بوضع حد لمحاولة خروتشوف الارتجالية ·

لقد استغلت الدعاية السوفيتية تزايد الصراع الصينى السوفيتى والتدخل الامريكى فى فيتنام لاثارة الجدل وتقوية الروابط بين الأحزاب الحاكمة فى أوربا الشرقية .

* ربيع براغ ومذهب خروتشوف :

ان العاصفة التى أثارها مصلحو براغ (٢) فى تشيكوسلوفاكيا لتقديم نموذج للاشتراكية يختلف راديكاليا عن نظيره السوفيتى وضع نهاية للفترة القصيرة التى اتسمت بالهدوء والاستقرار فى أوربا الشرقية وذلك فى عام ١٩٦٨ · وحاول الزعماء الجدد بتشيكوسلوفاكيا الفوز بشعبية عريضة وضم فئات اجتماعية متعددة للعملية السياسية مما أثار شك العقائديين فى تشيكوسلوفاكيا ودول حلف وارسو ، وخاصة جمهورية ألمانيا الديمقراطية وبولندا والاتحاد السوفيتى . ان افتقار الاحلاف للشرعية السياسية وهو ما يفسر اجتياح ١٩٥٦ فى المجر وبولندا كان ينبىء بكارثة على وشك الوقوع . ورغم المحاولات التى بذلتها البيروقراطيات الشيوعية لخلق شكل من أشكال اجماع الرأى الدولى الا أن الشعوب اعتبرتهم ممثلين للنموذج الستالينى المستبد . وفى تشيكوسلوفاكيا انخرط الرئيس أنتونين توفتنى نفسه فى الاعداد للمذابح وعارض دائما رد الاعتبار لهؤلاء الذين عانوا من جراء الارهاب، وبعد رد اعتبار رودلف سلنسكى ومتهمين آخرين رسميا وكانت احدى المحاكمات الصورية فى عام ١٩٥٢ قد ادانتهم ، رفض نوفتنى اعلان ادانته الكاملة لتلك المذابح كما قاطع كل الحركات التى ترمى الى اصلاح البنى السياسية والاقتصادية المفرطة المركزية ·

لقد عم البلاد ركود اقتصادى وجمود سياسى وهبطت الروح

المعنوية للشعب وتعالت الأصوات داخل وخارج الحزب الشيوعى لمقاطعة النموذج الستالينى .

وأقيمت الحوارات الثقافية فى أوائل الستينيات والتى هاجمت ادعاء الحزب بحقه فى السلطة وتحدى المفكرون الحزب من خلال الحلقات الدراسية التى عقدت فى ليبلسى Liblice (٣) فى عام ١٩٦٣ لمناقشة أعمال Franz Kafka كما أثاروا كثيراً من علامات الاستفهام حول عقيدة الواقعية الاشتراكية التى نظرت للفن باعتباره تابعا للقيم السياسية . واعتبر المفكرون قصص كافكا الرمزية التى تحكى عن انسان تحول الى وحش Leviathan (٣) بيروقراطى مفزع ، ارهاصات تحذير من الديكتاتوريات الشمولية الجديدة ، وقال ادوارد جولد ستكر Eduard Gold Stucker رئيس اتحاد الكتاب التشيكوسلوفاكى اثناء ربيع براغ Prague Spring أن مؤلف « مستعمرة الأشغال الشاقة The Penal colony » يلعب دوراً رئيسياً فى الصراع ضد العزلة التى تفرضها الستالينية وضد الحرب الباردة (٤) . وفى تعليقه على انشقاق المفكرين ادان نوفتنى صعود موجة التعديلية باعتبارها خطرا حقيقيا على الاشتراكية التشيكوسلوفاكية . وفى صيف ١٩٦٧ وفى مؤتمر اتحاد الكتاب ، هاجم المفكرون الرقابة التى يفرضها الحزب على الابداع الثقافى ، ومن بين معارضى نظام نوفتنى كان هناك عدد كبير من الكتاب الشيوعيين السابقين الذين تحرروا من الاكاذيب والادعاءات الرسمية، ومنهم لودفك فاكوليك Ludvik Vaculik الذى القى خطبة مؤثرة يعارض فيها القيود التى يفرضها النظام على ممارسة الحقوق الانسانية الأساسية فقال :

« ان الموقف الثقافى — السياسي لا يجعلنى اشعر بالأمن والأمان ولأن النظام يحاول أن يجرنا الى حلبة الصراع : اننى كمواطن لا اشعر باننى فى مأمن بل اشعر اننى معرض دائما للمصائب واشعر أن هذا النوع من اللقاءات لن يتكرر ثانية — أيجب أن أكون ممتنا ؟ لا يمكن . اننى لا أرى اية ضمانات مؤكدة . صحيح أن الأوضاع اصبحت افضل فى المحاكم ، ولكن القضاة انفسهم لا يشعرون بأن الضمانات كافية . اننى أرى العمل فى مكتب المدعى العام يتحسن ولكن هل لدى اى منا ضمانات وهل نشعر بالأمان ؟ ساكون سعيداً اذا اجريت معهم حوارا لينشر فى المجلة ولكن هل تعتقد أنه سينشر ؟ اننى لا اخشى مقابلة المدعى العام ولن اجيبه عن اسئلته ، فلم أصدر حكما على ، وثمة سمعة اناس لم يحصلوا عن حقوقهم الأساسية بوصفها حقوقا طبيعية ولم تعارض المجالس القومية عودتهم لوطنهم ؟ الا أن ذلك لن ينشر . لماذا

لا يرد اعتبار هؤلاء المضطهدين ؟ لماذا لا يتوقفون عن اضطهادهم للمواطنين ؟ لماذا نساومهم بالمال ؟ لماذا لا نستطيع أن نعيش حيثما نريد ؟ لماذا لا يستطيع مصممو الأزياء أن يذهبوا لفيينا Vienna ويقيموا فيها ثلاث سنوات ، ولماذا لا يذهب عمال الطباعة لباريس Paris ولا توجه لهم تهمة الاجرام اذا ما عادوا لأوطانهم ؟ » .

وبعد ادانة فاكيولك لمطالبة نظام نوفتنى فيما يتعلق بالتخلى التام عن الممارسات الستالينية أعلن رفضه لادعاء الحزب بتحقيق التقدم الاقتصادى ليوجوسلافيا خلال عشرين عاما من الاشتراكية وسجل جميع المشكلات الانسانية فى تشيكوسلوفاكيا وأهمها مشكلات البنية الأساسية التى تعجز عن تقديمها الأنظمة اللا ديمقراطية مثل الحاجة الى الاحساس بقيمة المجتمع الكاملة والاحساس بأن القرارات السياسية تخضع لمعايير أخلاقية والاحساس بقيمة العمل مهما كان ضئيلا ، والحاجة للثقة المتبادلة بين الناس ، والحاجة لتمتع كل الناس بالعلم والتربية فقال :

« وكنت أود الا اقول أن جهودنا تذهب سدى اذ لا شىء مما أطالب به له قيمة عندهم — بل ان قيمته فى أنه تحذير مسبق . وحتى فى هذه الحالة فان المعرفة الانسانية سوف تتزايد وتتقدم . ولكن هل كان ضروريا أن يتحول بلد عرف على وجه الدقة المخاطر التى تهدد ثقافته وتراثه لمجرد أداة كى يحصل على هذا النوع من المعرفة ؟ » .

وبعد هذه الخطبة لم يكن فى مقدور أحد منع الصراع الذى وقع بين مناصرى الحزب والمفكرين ، فقام النظام بطرد فاكيولك وعدد من الكتاب الذين يشاركونه الرأى من الحزب الشيوعى ، كما نظم حملات لتشويه صورة المفكرين النقاد وحاول تعبئة العمال ضد آرائهم الانشقاقية الا ان ذلك لم يسفر سوى عن تعبئة الطلاب والجامعيين ضد السلطة .

ان تعالى النظام على السلافيين وتعامله معهم بطريقة مزرية أسفر أيضا عن مزيد من الازمات ، وازدياد الصراع بين المفكرين وأعضاء حكومة الحزب البيروقراطية فى سلوفاكيا للحصول على مزيد من الاستقلالية لسلوفاكيا فى علاقتها مع حكومة براغ . وكان السكرتير الأول للحزب الشيوعى السلافى وهو الكسندر دوبتشك الذى تخرج فى مدرسة الحزب العليا High Party School فى موسكو والمعروف بنزعاته الخروتشوفية (٦) من بين الذين تورطوا فى هذه الحركة .

وأيد جوساف هوساك Gustave Husak هو الآخر الحقوق السلافية داخل الجمهورية الاتحادية كما نزعم هوساك المحامى المحترف والشيوعى المتمرس عصيان عام ١٩٤٤ السلافى المسلح المعادى للنازية ، ووجهت اليه فى احدى المكائد الستالينية فى اوائل الخمسينيات تهمة القومية مما جعله يبدو نصيرا للحركة الاصلاحية .

واستمر الصراع السياسى فى القمة فيما بين أكتوبر ١٩٦٧ ويناير ١٩٦٨ يتزايد حدة فلم يعد أعضاء اللجنة المركزية يدعمون نوفتنى لأنهم اعتبروه متهما ومسئولا رئيسيا عن الكارثة التى أصابت البلد مما جعل نوفتنى يناشد برجنيف مطالبا بالدعم السوفيتى المباشر لنظامه . وبعد زيارة قصيرة لبراغ أدرك السكرتير العام السوفيتى أن موقف نوفتنى ضعيف جداً ويتعذر الدفاع عنه ومن ثم وجد أن الحل الوحيد للأزمة هو ابعاده الفورى ، وفى يناير عزل الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى فى جلسة اللجنة المركزية الكاملة الأعضاء نوفتنى من منصبه كسكرتير أول وحل محله الكسندر دوبتشتك الزعيم السلافى الذى تحدى سلطة نوفتنى فى مناسبات سابقة . وفى غضون أسابيع قليلة بدا واضحا ان برنامج الزعيم الجديد سوف يتجاوز حدود علاج اهتراءات النظام . وأجبر نوفتنى فى مارس على الاستقالة من منصبه كرئيس لتشيكوسلوفاكيا ، وخلفه لودفك سفوبودا Sudvik Svoboda أحد جنرالات الجيش المبجلين وكان قد استبعد فى السابق من قبل الستالينين .

وكان جوزيف سمركوفسكى Josef Smrkovesky الذى انتخب رئيساً لمجلس النواب القومى National Assembly من بين ضحايا المحاكمات الصورية . واستبدل دوبتشيك الشيوعيين المتشددين فى اللجنة التنفيذية بحزبين آخرين مقربين له .

ولم يكن هدف القيادة الجديدة ازالة النظام القائم بل جعله أكثر عصرية وفاعلية .

وطرح المصلحون الشيوعيون فى أبريل ١٩٦٨ وثيقة مهمة هى « برنامج العمل » التى عبر فيها دوبتشيك عن اقتناعه بالأوهام الخاصة بامكانية تعديل النظام الاشتراكى وبأن النظام المركزى يمكن أن يكون فعالا وعمليا . ورغم أن هذا البرنامج أبقى على التزام الشيوعيين التشيكوسلوفاكيين بالماركسية اللينينية الا أنه أكد على ضرورة توجه النظام نحو الديمقراطية، وضرورة التخلى عن أسلوب الأوامر الديكتاتورية وتعهد باحترام رأى الشعب وتنفيذه وبالبعد عن سياسة القمع ؛

وتمسك بالشرعية كأساس جوهرى وضرورى لاقامة كيـــان ســـياسى متعـاف . وتضمنت الوثيقة التى ســميت « طـــريق تشـــيكوسلوفاكيا للاشـتراكية » النقاط التالية :

١ — تقديم ضمانات جديدة لحرية الرأى والصحافة والجمعيات والممارسات الدينية .

٢ — اقرار قوانين انتخابية تسمح للمرشحين بخيارات أوسع والاعتراف بأربعة أحـزاب غير شيوعية شريطة توحدها فى جبهــة قومية يسـيطر عليها الشيوعيون .

٣ — الحد من الامتيازات الممنوحة للحزب الشيوعى فى تعاملاته مع البرلمان والحكومة.

٤ — اجراء اصلاحات اقتصادية كبيرة لتقوية الاستقلال الذاتى للمؤسسات التجارية ، والسماح ثانية باقامة عدد محدود من المشروعات التجـارية الخاصة ، وتوفير العملة الصـعبة ، وزيادة التبادل التجـارى مع الغرب .

٥ — قضاء مستقل .

٦ — وضع فيدرالى للسلوفاك .

٧ — مؤسسة جديدة تمارس عملها بحلول نهاية عام ١٩٦٥ .

لقد كان البرنامج نتاج مصالحة تمت بين المصلحين الراديكاليين وعصبة المحافظين داخل مؤسسة الحزب ، وكانت بعض أفكاره واعدة وبعضها الآخر تكرارا بحتا للشعارات اللينينية التى أفرط فى استعمالها لحد جعل الدور القيادى للحزب دورا مبتذلا . وأمكن للبـــرنامج — فى توجهه العام — أن يوضع موضع التنفيذ من قبل ممثلى الجناح الديمقراطى وواصلوا بحثهم عن نموذج جديد للاشتراكية .

لقد كانت محاولة للتحكم فى دفة الحزب وايجاد مرفأ له لاعادة الصحوة للمجتمع :

« أن هذه الاجراءات الأولية لا تعنى تنازلنا أو تخلينا عن مثلنـــا — دعونا وشأننا مع معارضينا ، فنحن مؤمنون بانهم سيأخذون بأيدينا للتخلص من الاعباء التى سببها تقليص وشل فعالية النموذج الاشتراكى اننا نريد أن نجعل القوى الجديدة المتغلغلة فى الحياة الاشتراكية فى حركة دائبة من أجل الوطن ومن أجل مزيد من التحدى الفعال فى سبيل

الأنظمة الاشتراكية وتقديم رؤى مستقبلية للعالم وتحقيق الاستفادة الكاملة من مزايا الاشتراكية » .

لقد التزم البرلمان التزاما عميقا بالمثل الاشتراكية ولم تبد القيادة الجديدة اى استعداد للتورط فى مقاطعة شاملة للنموذج السوفيتى للاشتراكية (٧) . وتمت الموافقة على رد الاعتبار لكثيرين من ضحايا القمع الستالينى وسمح لهم بتنظيم جمعياتهم ونواديهم . لقد كان البرنامج حركة اصلاح قام بها مجموعة من الشيوعيين الناقمين على الأداء الاقتصادى الردىء وعلى ما اتسم به حكم نوفتنى من اعتلال اجتماعى . ونظرا لتطور هذه الحركة واستعادة مجموعات اجتماعية نشاطها الذى يدافع عن الأفكار الاصلاحية ، فقد شجب انصار المجتمع المدنى التشيكى والسلافى الصاعد الهامش الضيق الذى سمحت به الاستراتيجية الرسمية من أجل الاصلاح والتجديد .

لقد أدرك دوبتشيك ومعاونوه أن الاشتراكية الحقيقية لا يمكن تحققها فى غياب الديمقراطية فسمحوا بتدفق المبادرات المستقلة من القاعدة الجماهيرية بما فى ذلك تكوين جماعات واتحادات غير شيوعية أو حتى معادية لها .

ان قوة الحركة التنويرية لاحلال الديمقراطية اذهلت المفكرين التشيكوسلوفاك الذين اتخذوا — دون مواربة — جانب أكثر أجنحة القيادة الشيوعية راديكالية . وفى ذات الوقت فشلت المراكز القيادية للحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى فى ايجاد صيغة متكاملة لحل المعضلات الأساسية التى تعانى منها البلاد . وجنح البعض فى اللجنة التنفيذية الدائمة للحزب نحو التعجيل بالاصلاحات الشاملة والجريئة ، بينما تخوف آخرون من مخاطرة فقدان سلطتهم السياسية اذا طبقوا النظام التعددى ومن صعود نجم قوى الجناح اليمينى والحوا على دوبتشيك أن يعقد سياساته الاصلاحية . وعلى أية حال ، فان غالبية الحزب أيدت الأفكار التى تبناها دوبتشيك وكانوا بين خيارين :

اما تطبيق اشتراكية ذات وجه انسانى أو العودة الى النظام الستالينى الخانق للحريات .

ان اهتمام القوى الأرثوذكسية الأهلية بما يقوم به الحزب من مبادرات فى اتجاه الاصلاحات أطلقت العنان لحركة مدنية دائبة ضد الشيوعية وحظيت بمشاركة وتشجيع الزعماء السوفيتيين وأحلافهم . وفى مارس ١٩٦٨ عقد مؤتمر قمة فى درسدن Dresden بألمانيا الشرقية

حيث عبر كل الزعماء الشيوعيين بحلف وارسو عن قلقهم بصـدد مجريات الأحـداث في تشـيكوسلوفاكيا · وفي الشهر التالى واثناء اجتماع جمع بين دوبتشيك وبرجنيف ، حاول الزعيم التشيكوسلوفاكى أن يهـدىء من المخاوف السوفيتية المتعلقة بخطر « الثورة المضادة » في بلده . وعبر بريجنيف عن انتقـاده لاصـلاحات دوبتشيك واستيائه من الحـكومات الشـيوعية ليس فى الاتحاد السوفيتي ولكن فى الاقطار الأخرى بالكتلة وقال ان السوفيتيين لا يمكن أن يتهاونوا مع الطمـوح التشيكوسلوفاكى لاقامة نموذج بديل ومجتمع يعامل فيه الفرد كانسان وليس كأداة لتنفيذ خطط الحزب .

لقد دخل العالم الشيوعى مرحلة جديدة من الازمات والاضطرابات بسبب تعمق الخلاف بين المصلحين التشـيكوسلوفاكيين وزعمـاء حلف وارســو ·

وعبر اليوجوسلافيون والرومانيون علانية عن رفضهم وادانتهم للتدخل الأجنبى لقمع مسيرة الديمقراطية فى تشيكوسلوفاكيا . وبعثت الأحزاب اللاشيوعية فى فرنسا وايطاليا واسبانيا بانذارات مشابهـة لموسكو . وفى الفترة التى حمى فيها وطيس المناظـرات حـول معنى الدولية الماركسية وحول حق كل حزب شيوعى فى تبنى خط سياسى يختاره ولا يفرض عليه فان العديد من الأحزاب الشيوعية الغربيـة طرحت برنامجها السياسى ، وتحدت الشيوعية الأوربية حق الكرملين فى املاء خطه على الأحـزاب الاخرى وأصرت على عدم امكانية الفصـل فيما بين الشيوعية والديمقراطية التعدديـة (٨) ، وحـظى رفـض التشيكوسلوفاكيين للنمـوذج السوفيتى لجموده ولافراطه فى المـركزية ولتشكله فى أى مبادرات ــ بقبول عدد من الأحزاب الشيوعية الغربية ايمانا منها بأن الحاجة أصبحت ملحة للتخلى عن العقيدة اللينينية الخاصة بدكتاتورية البروليتاريا · وعلى الطرف النقيض سعى الستالينيون فى الصين والبانيا لعودة النظام البائد واتهموا ربيع براغ بأنه محاولـة لافسـاح الطريق للامبريالية وفى نفس الوقت عارضوا ادعاءات الاتحاد السوفيتى الامبريالية لفرض هيمنة على شرق أوربا · ورغم ما يحمـله الرئيس الصينى ماوتسى تونج من عداوة للمنهج التعديلى الذى يتبنـاه دوبتشيك ، الا انه انتقـد السوفيتيين لاسـتخدامهم طرقا امبريالية فى التعامل مع أحـلافهم واطلق على برجنيف ورفـاقه اسـم قيـاصرة الكرملين .

ولم يسفر النقد السوفيتى لتشيكوسلوفاكيا سوى عن تحويـل الاصلاحيين لراديكاليين . واستمرت طبقة الانتلجنسيـا فى ممارسـة

ضغطها على القيادة المترددة للتوسع فى التعددية السياسية ولتقديم ضمانات كافية للتخلص من الطرائق الستالينية القمعية بلا رجعة · وبعد ان دعا جورباتشوف Gorbacheve لسياسة المصارحة (الجلاسونست) رفض مصلحو براغ مبدأ « ممارسة السياسة خلف الكواليس » · وانخرط الزعماء التشيكوسلوفاكيون بدءا بدوبتشيك السكرتير الأول وسمركوفسكى فى حوار مباشر مع ممثلى الرأى العام . وفى غضون شهر استيقظ المجتمع التشيكوسلوفاكى من سباته واصبح المتحكم فى عملية صنع القرار · واكتشفت الجماهير قدرتها على لعب دور أساسى فى تغيير المجريات السياسية ولم تعد مشاركة الجماهير مجرد شعار فارغ · وفى يونيو ١٩٦٨ نشر بيان بعنوان « ألفا كلمة للعمال والفلاحين والعلماء والفنانين وللجميع » فى الجريدة الأسبوعية الجريئة لاتحاد الكتاب « لترانى لستى أو قائمة الأدب Literanilisty » وقد قام لودفك فاكيولك بصياغته باحكام بحيث يرمز لرفض منطق القبول والاذعان وطالب بالانفصال عن أساليب الهيمنة السياسية والمناورة التى ينتهجها الاتحاد السوفيتى ، وطالب البيان بالتعجيل بعملية الدمقرطة والتخلص من الدوجماتيين فى قيادة الحزب كما طالب بالانتقال السريع للنظام المتعدد الأحزاب ، وقام سبعون من رموز الانتلجنسيا الليبرالية البارزة بتوقيع هذا البيان ثم دعم بتوقيعات اربعين ألف شخص ، وعبر البيان عن حالة عدم الرضا المتزايدة لبطء تنفيذ الاصلاحات وتردد السياسة الرسمية تجاه عملية التجديد ، واسرع الدوجماتيون بوصم الوثيقة باعتبارها « دعوة للثورة المضادة » ومعبرة بكل المعانى عن موقف متعسف ومتعصب . وعارض البيان فكرة الانتقام من هؤلاء الذين حكموا البلد لعقدين متتالين ورفض اى استخدام للعنف ، بل على العكس فقد أعربت الغالبية العظمى من التشيكيين والسلافيين عن أملها فى امكانية تحول الحزب الشيوعى الى قوة ديمقراطية حقيقية :ـ

« بداية ، اننا نعارض وجهة النظر ، التى تقول ان البعث الديمقراطى يمكن تحقيقه دون الشيوعيين أو بمعاداتهم اذ يعد ذلك افتراء غير مبرر ، فللشيوعيين تنظيم جيد البناء ويجب علينا أن ندعم الجناح التقدمى بداخله ... ان الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى فى حالة تاهب تام للمؤتمر الذى سينتخب اللجنة المركزية الجديدة . دعنا نامل ان تكون هذه اللجنة افضل من الحزب الحالى ، واذا قال الحزب الشيوعى الآن بانه يريد الحصول على الحكم فى المستقبل مستنداً لثقة المواطنين وليس القوة ، فدعنا نصدق ذلك طالما نؤمن بالجماهير التى تبعث الآن بمفوضيها لحضور مؤتمرات المقاطعات والمؤتمرات الاقليمية » (٩) .

ان الخلاف الرئيسى فى الصراع السياسى داخل الحلف الشيوعى اليوجوسلافى تمحور حول طبيعة الزعامة المستقبلية وحول المخاوف من المحافظين (وأنصارهم من السوفيتيين) حتى ان مؤتمر الحزب الأربعين الذى بدأ أعماله فى صيف ١٩٦٨ حاول التخلص منهم والتصديق على برنامج « الاشتراكية ذات الوجه الانسانى » الا أن دوبتشيك رفض ذلك واضعا فى اعتباره التهديدات السوفيتية المتزايدة كما رفض الاذعان للقوة الستالينية الجديدة التى اعتبرت البيان « مضادا للثورة » .

وتفاقم السخط السوفيتى لتهاون دوبتشيك فى اتخاذ اجراءات حاسمة لوقف عملية اللبرالية فقام خروتشوف بممارسة ضغوطه على الزعماء الشيوعيين فى كل من بولندا وألمانيا الشرقية . ان فكرة انتقال عدوى الاصلاح الذى اجتاح يوجوسلافيا الى البلدان الأخرى أثارت ذعر زعمائها . وفى شهر يوليو عقد حلف وارسو اجتماعا فى العاصمة البولندية وفى غياب زعماء تشيكوسلوفاكيا ورومانيا . ووجه المؤتمر خطابا منذرا للزعماء التشيكوسلوفاكيين يطالبهم باقتلاع نبتة الثورة المضادة » من جذورها وتطهير وسائل الاعلام من العناصر المعادية للاستالينية .

واوضح الخطاب الذى يعد بكل المقاييس انذاراً أن التعهد بعدم التدخل فى الشئون الداخلية لأى من البلدان الشيوعية من وجهة نظر الكرملين لا يعد سارى المفعول أو ملزما طالما القضية تتعلق بمستقبل الاشتراكية فى واحدة من البلدان التابعة .

وأصر السوفيتيون وأحلافهم على أن « الحفاظ على مكتسبات الشعب من الثورة » لا يعد قضية داخلية تخص زعماء تشيكوسلوفاكيا ، بل تخص المجتمع الاشتراكى كله وهو نفس السبب الذى استخدموه لتبرير تدخلهم العسكرى فى المجر عام ١٩٥٦ .

« ليس لدينا اية نية للتدخل فى [الشئون] الداخلية لحزبك أو بلدك ، ولا ننوى انتهاك مبادىء الاحترام والاستقلال والمساواة فى العلاقات التى تربط بين الأحزاب الشيوعية والبلدان الاشتراكية .. وفى نفس الوقت لا يمكن أن نقبل وجود قوى عدائية تدفع البلد بعيدا عن طريق الاشتراكية وتهدد تشيكوسلوفاكيا الصامدة لتخرج عن قطيع البلدان الاشتراكية . وهذا يعنى ان المسالة ليست شانك وحدك ، انها شان كل الأحزاب الشيوعية والعمالية والبلدان التى يجمعها التعاون والصداقة » (١٠) .

وهكذا حاول زعماء حلف وارسو ان يجبروا دوبتشيك ومعاونيه على انهاء عملية الاصلاح والتخلى عن طموحهم لتطبيق شكل جديد ومختلف للاشتراكية ولوحوا لهم بنذير التدخل العسكرى · ورفض دوبتشيك الاذعان لأمر الكرملين، ورفض التهديدات السوفيتية وشن هجوما مضادا فى خطاب بثته محطات التليفزيون فى الثامن عشر من يوليو ودافع فيه عن خيارات حزبه واحتج على اتهامه بالانتهازية والارتدادية :

« اخيراً وبعد سنوات عديدة ، اصبح المناخ فى بلدنا يتيح لكل شخص ان يعبر عن افكاره علانية بلا خوف ويعتز برأيه ويقرر بنفسه اذا كانت قضية هذا البلد وقضية الاشتراكية هى قضيتنا جميعا ويستعيد من خلال سياسة واضحة وأمينة وتطهير مخلص وأمين لمخلفات الماضى الكريهة ثقته بحزبنا ، ومن ثم نقول بهدوء ولكن باصرار (اننا) ندرك الآن ما هو الصواب فلا يوجد بديل آخر أمام هذا الشعب سوى تعميق التغيرات الديمقراطية والاشتراكية فى مجتمعه · اننا لا نرغب فى التخلى عن اى من مبادىء برنامج العمل مهما كانت ···· ان الحزب الشيوعى يعتمد على الدعم الثورى للشعب · ان دورنا فى حكم هذا المجتمع لن يكون ارشاديا ولكننا سنخدم تطوره الحر التقدمى الاشتراكى ولن ندافع عن حقنا فى السلطة باعطاء الأوامر ولكن بجهد اعضائنا وبعدل افكارنا » (١١) ·

لقد كان صداما بين وجهتى نظر سياسيتين أى بين التشيكوسلوفاكيين باصرارهم على الاشتراكية ذات البعد الانسانى وزعماء بقية دول الكتلة الذين اهتموا بالحفاظ على الأوضاع القائمة ، ومن ثم نظروا لتجربة دوبتشيك من أجل الديمقراطية نظرة مفعمة بالريبة ·

ان الزعماء السوفيتيين كستالينيين حقيقيين لم يتعاملوا مع المواطنين باعتبارهم ممثلين سياسيين مستقلين اذ رأوا أن ائتلاف الحزب لا بد أن يبقى على امتلاكه الكامل والمطلق للهيمنة على الحكم وتعتبر أية محاولة لاقامة مبدأ للسلطة يختلف عن مبدأهم خاصة ذلك الذى يكرس سيادة الشعب ، محاولة معادية تهدف الى التخريب ·

وبعد مرور عشرين عاما على الاجهاض الوحشى لربيع براغ لخص انطونين ليهلم Antonin Liehlm وهو واحد من أكثر المبدعين الفاعلين فى حركة الاصلاح معنى المحاولة التى بذلتها تشيكوسلوفاكيا لاعادة النظر فى الرؤية المتحجرة للاشتراكية وطرح نموذج بديل يطالب بمجتمع جديد يسود فيه احترام الحقوق الخاصة لأعضائه :

« ان المحاولة التشيكوسلوفاكية لاصلاح الاشتراكية الواقعية كانت محاولة لايجاد أسباب بناءة تفسر انهيار النظام الستالينى فى مجموعه ، ولخلق نموذج لمجتمع مدنى يعيد تجديد واصلاح نفسه بنفسه دون كلل . وكان من الممكن أن تسفر عن تحول تدريجى من الامبراطورية السوفيتية الى كومنولث تربطه المصالح المتبادلة خاصة المصالح الاقتصادية واقامة سوق واسعة مشتركة بينها بعيدة عن الاكراه العسكرى والسياسى » (١٢) .

ان البيروقراطيين فى حلف وارسو اعتبروا حلم التشيكيين والسلافيين والماركسيين الانسانيين كابوسا لانه كان المحاولة الأولى من نوعها لتحديد أهداف الاشتراكية والاهتمام بقضايا العزة والحرية الانسانية ، وادركوا أن تفشى اغراءات الاصلاح فى الأقطار الأخرى سيقوض هيمنة الحزب على المجتمع . لقد فشل دوبتشيك ومؤيدوه فى فهم الطبيعة الشمولية للنظام السوفيتى واعتقدوا واهمين أن برجنيف سيقتنع بمعتقداتهم الشيوعية الأصيلة .

وبناء عليه فان ربيع براغ قد ضرب بجذوره فى تربة من الأوهام وآمن زعماؤه بأن الاصلاح يمكن أن يولد من رحم النظام القائم ودون تغيره ، وأن الحصول على الدعم السوفيتى لمثل هذه المحاولات ممكن . وفيما بعد أدرك زدنك مليناز Zdnek Mylnar سكرتير اللجنة المركزية السابق والمنظر الأيديولوجى فى حكم دوبتشيك قصور فهم المجموعة الاصلاحية للبيئة السياسية التى يعملون فيها :

« لقد أساءت زعامة الحزب تقدير ثقلها فى الكتلة السوفيتية . ان الاتحاد السوفيتى لديه فكرة عما يجرى من اصلاح ولكنه لم يتخيل أن يصل التصدع فى أسوأ الأحوال لما وصل اليه فى تشيكوسلوفاكيا . وفى هذه الحالة ليس أمام المرء سوى التصرف مثلما يفعل كادار فى المجر وعندئذ سيكتشف انه عمل لا هدف يرجى من ورائه . وتوهم زعماء الحزب ان عشرين عاما من الشمولية قد أفسحت المجال لعملية الدمقرطة ، ومن ثم تمتعوا بدعم جماهيرى هائل وهو ما كانوا يهدفون اليه على الأرجح ليضمنوا قبول الشعب لكل ما يقومون به . وأخيرا لقد توهم الزعماء أنهم قادرون على تخطى حدود معينة شريطة وجود الدعم الجماهيرى » (١٣) .

وبمعنى آخر ، لقد تورط دوبتشيك وأعوانه فى أعمال تجنح الى اعاقة النظام الاستبدادى الموجود وتقويض السيادة السوفيتية فى الكتلة ، الا أنهم لم يقدروا مدى جدية التهديد السوفيتى باتخاذ رد فعل

مضاد ، وهكذا فشل الدبتشيكيون فى تقدير الهوة بين حلمهم الناهض بتجديد الاشتراكية والسياسة النفعية التى ينتهجها الاتحاد السوفيتى فى العلاقات الدولية والشئون الأيديولوجية · ورأى السوفيت أن الماركسية اللينينية أصبحت منذ أمد بعيد وهماً وذلك بسبب البيروقراطية ولم تحاول القيادات الحزبية فى المجتمعات ذات الطراز السوفيتى تجريب الاصلاحات السياسية والاقتصادية الجريئة : ويرجع ذلك الى القمع الذى مارسه خروتشوف فى أكتوبر ١٩٦٤ ضد هذه المحاولات الاصلاحية حتى لا تؤدى « لقلقلة النظام » ·

ولم يسمح الزعماء السوفيتيون بعودة الحركة المضادة للستالينية فى أى من البلدان التابعة ، وتوقعت القيادات السوفيتية من الأحلاف الشيوعية المحلية أن تسهر على الاستقرار الداخلى وتقمع أى اتجاهات ناقدة · وكتب ايفان سفيتاك (١٤) الفيلسوف المناضل عن القطيعة مع النظام الشيوعى حيث قال :

« ان اية ديكتاتورية بيروقراطية ينهار كيانها فور توقف النظام عن ممارسة القمع فى المجال الاقتصادى أو السياسى أو الاعلامى ، وهذا يعلل امتناع الديكتاتورية البيروقراطية التام عن مناصرة اى نوع من الحريات أو حقوق الانسان أو افساح المجال لازدهار الاقتصاد ، ان مهمة تحول الديكتاتورية التى تحتقر الدوافع النبيلة الى الديمقراطية مهمة مستحيلة .

ان المنظومة تقام كلها ثم تنهار كلها ، ومنذ ان رفض الشيوعيون التشيكوسلوفاكيون الاستسلام للأمر السوفيتى لتحجيم الاعلام المستقل اتسمت العلاقات بين موسكو وبراغ بالتوتر الدائم لأن برجنيف رأى أن اعلان الحقائق يمثل قنبلة موقوته يجب ان يتعامل معها الحلف أو يسقط ضحية لها · ولم ينتظر » (١٥) ·

وأجريت خلال شهرى يوليو وأغسطس مفاوضات جديدة بين المكتب السياسى السوفيتى واللجنة التنفيذية الشيوعية التشيكوسلوفاكية وتوصل الفريقان لاتفاق يضع نهاية للانتقادات والاتهامات التى يتبادلها الطرفان · وبعد ابرام الاتفاق عقدت قمة لحلف وارسو فى مدينة براتسلافا Bratislava ولم تحضرها رومانيا للمرة الثانية حيث ظهر مدى زيف الوحدة بين الدول الشيوعية . وتضمن التقرير الرسمى لقمة براتسلافا بعضا من العبارات السوفيتية التقليدية عن « الأعمال التخريبية للامبريالية » وأكد على أن البلدان الاشتراكية يجب عليها جميعا أن تفى باستمرار وثبات « بالقوانين العامة اللازمة

لبناء مجتمع اشتراكي وذلك بتقوية الدور القيادي للطبقة العاملة وطلائعها اي الحزب الشيوعي » (١٦) .

وتوقع السوفيت أن يتصرف دوبتشيك كشيوعي مطيع ، في مواجهة انتهاكهم لسيادة دولة تشيكوسلوفاكيا ، كما انخرطوا على الفور في تنظيم حملة ضد القوى الديمقراطية ووسائل اعلامها الا ان مارد الديمقراطية كان قد خرج من القمقم فاستحال على الزعماء الاصلاحيين أن يتراجعوا والا فقدوا مصداقيتهم السياسية . واكتسب دوبتشيك مكانته كزعيم قومي بسبب قدرته على مقاومة الضغوط السوفيتية لاعادة الرقابة على المطبوعات ولانتهاج اجراءات قمعية ضد تلك القوى التي يعتبرها الكرملين « تخريبية » . وفي نفس الوقت حاولت موسكو تعبئة القوى الدوجماتية في الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي على أمل أن يقع انشقاق في اللجنة التنفيذية ويتنحى دوبتشيك .

ولكن القوى المؤيدة للسوفيت كانت ضئيلة ولم تحظ الا بدعم ضعيف داخل البلاد وذلك لأن الدعم السوفيتي الرمزي لم يكن كافيا لاستعادة السيطرة البيروقراطية . واحتلت قوات حلف وارسو تشيكوسلوفاكيا في ٢١ أغسطس ١٩٦٨ وحاول السوفيتيون فرض حكومة اختاروا أعضاءها بأنفسهم ، كما احتجزوا دوبتشيك زعيم الحزب وأولدرتش كيرنك Oldrich Cernik وزعماء اصلاحيين آخرين كرهائن ونقلوهم لوحدة عسكرية في الاتحاد السوفيتي . ولتبرير التدخل نشرت البرافدا Pravda جريدة الحزب الشيوعي افتتاحية تتهم فيها دوبتشيك بتكوين جناح يميني وبأنه كون عصبة انتهازية قاموا بأعمال غير مسئولة مما استلزم تدخلا و « مساعدة دولية » من حلف وارسو . ورفض لودفك سفوبودا رئيس الجمهورية الاشتراك في المفاوضات في غياب الزعماء الشرعيين للبلد، مما اضطر برجنيف أن يوافق على اعادة دوبتشيك واعوانه لبلدهم . وسيطرت مئات الآلاف من القوات السوفيتية على المواقع الاستراتيجية في تشيكوسلوفاكيا . ولم يتوقع دوبتشيك الكثير لانقاذ تجربة الدمقرطة في تشيكوسلوفاكيا ووجه برجنيف بعجرفة شديدة تهمة خيانة المبادىء الدولية الاشتراكية للزعماء التشيكوسلوفاكيين .

وفي براغ شجب مؤتمر الحزب التشيكوسلوفاكي الأربعون بعنف التدخل السوفيتي وطالبهم باطلاق سراح الزعماء المختطفين .

لقد شعر الزعماء بصدمة نفسية وعجزوا عن ايجاد مخرج للموقف المأساوي الذي حلقه الاحتلال العسكري لبلدهم ، مما جعل دوبتشيك

ومعاونيه (باستثناء عضو اللجنة التنفيذية ورئيس الجبهة الوطنية د. فرانتسك كريجل (Dr. Frantisek Kriegel) يخضعون فى النهاية للمطالب السوفيتية . وقام برجنيف باجراء محادثات فى موسكو واستخدم الزعيم السوفيتى أساليب مهينة ليحط من شأن دوبتشيك ، وأوضح أن الكرملين لن يسمح بمزيد من البحث عن الاشتراكية ذات الوجه الانسانى . ورغم أن برجنيف كان مقدرا تماما ماقد يثيره التدخل السوفيتى من ثورة بين الأحزاب الديمقراطية والجماعات على الصعيد العالمى، الا أنه لم يخف احتقاره لكل من جرؤ على توجيه النقد للقرار السوفيتى . وبدا دوبتشيك كما لو كان مسلوب الارادة ، عاجزا عن اتخاذ أى اجراء لمواجهة الكارثة ، وأصبحت أقصى آماله ان يستطيع – عندما يعود لبراغ – الحفاظ على بعض انجازاته .

وأدرك دوبتشيك أنه لم يعد له أى دور فى السياسات التشيكوسلوفاكية فقد تحدته العصبة الموالية للسوفيتيين داخل المكتب السياسى ، وفقد دوبتشيك دعم انتلجنسيا البلد الناقدة وكذلك دعم حركة الطلاب . لقد أصبح دوبتشيك بعد عزله وتغريبه كبش فداء لكل الانتهازيين الذين أرادوا أن يؤكدوا للكرملين دعمهم اللا محدود للتدخل السوفيتى ومن بينهم دجوستاف هوساك الشيوعى السلافى الذى كان واحداً من أكثر الفاعلين فى ربيع براغ ولكنه فضل تغيير موقفه بعد الغزو . وفى أبريل ١٩٦٩ أصبح هوساك زعيما للحزب وأطلق العنان لعملية تطهير واسعة النطاق لأكثر من نصف مليون عضو من بينهم دوبتشيك وسمركوفسكى وكريجل Kriegel ، وملينار .

ورغم أن عملية التدخل العسكرى فى تشيكوسلوفاكيا كان أقل دموية عن مثيلتها فى المجر الا ان الموقف كان مأسويا . وقرر الآلاف من المبدعين التشيكوسلوفاكيين طلب اللجوء السياسى للخارج بينما ظل الآخرون يعانون من آثار سياسة « النظامية » أو استعادة النظام التى انتهجها هوساك . ولم يفلح السخط الشعبى المتفاقم أن يمنع الميلاد الجديد للبربرية ، وأصبح الشاعر الفرنسى الشيوعى لويز أرجون Louis Aragin الذى أعلن دعمه العبودى للسوفيتيين بما فى ذلك موافقته على قمع ١٩٥٦ للثورة المجرية وعلى التدخل السوفيتى فى تشيكوسلوفاكيا ووصف مذبحة الثقافة التشيكوسلوفاكية التى قام بها « النظاميون » بأنها « سلب الروح » . وابدت الحكومة ما تعرضت له تشيكوسلوفاكيا من عقاب رادع لوقف الصراع « داخل العائلة الشيوعية » الا أن القضية ، فى الواقع ، كانت قد تجاوزت نطاق « العائلة » ، فقد بلغ التدخل السوفيتى درجة القمع العنيف لأية

محاولة نبذل لاعادة تشيكوسلوفاكيا للثقافة الأوربيـة وللساحـة السياسية — وعبر الروائى التشيكى ميلان كنديرا الذى اجبر على مغادرة البلاد بعد عدة سنوات بسبب انتهاكاته السياسية المتكررة حيث قال :

« ان الذى يكمن وراء ستار الدخان الذى يحجب المصطلحات السياسية كالثورة ، الثورة المضادة ، الاشتراكية ، الامبريالية وغيرها ، هو مجرد تبادل للأدوار بين مدنيتين • مدنية الامبراطورية السوفيتية والتى غزت قطعة من الغرب ، قطعة من أوربا ، والأخرى المدنية التى تخص بلدان قلب اوربا الأخرى وهذا ما اسماه أرجون Argon « بسلب الروح » • وفى يوم ما سوف يكتب جامعو الأساطير السوفيتية عنها باعتبارها فجر التاريخ الجديد الا اننى أراها (سواء أكنت على خطأ أم صواب) بداية لنهاية أوربا » (١٧) •

وبعد الغزو تخلت حملة الدعاية السوفيتية عن طريقتها لتبرير حق حلف وارسو فى التدخل متى شعر الكرملين بأن « الفتوحات الاشتراكية » تتربص بها المخاطر • ونشرت البرافدا فى السادس والعشرين من سبتمبر مقالة لسيرجى كوفاليف Sergei Kovalev خبير الوثائق الخاصة بالشئون الدولية حيث وضح مبدأ السيادة المقيدة بتفاصيله الكاملة . ورأى كوفاليف :

« ان اضعاف أية واحدة من الروابط فى النظام العالمى للاشتراكية يؤثر مباشرة على كل البلدان الاشتراكية ، وكل حزب شيوعى ليس مسئولا عن شعبه فقط وانما عن كل شعوب البلدان الاشتراكية وعن الحركة الشيوعية بكاملها » •

ان البرافدا استنتجت بعد تقديم "هذا التفسير" لمبادىء السيادة الدولية والمساواة بين الدول الاشتراكية ، وهو التفسير الذى يخدم مصالح الطبقة الحاكمة ، ان الاحتلال السوفيتى لتشيكوسلوفاكيا يعد تحقيقا لحق البلد فى تقرير مصيره • ان قوات حلف وارسو ، كما ادعى الاتحاد السوفيتى :

« لم نتدخل فى الشئون الداخلية للبلد ، انهم حاربوا دفاعا عن حق الشعب التشيكوسلوفاكى فى تقرير مصيره ليس بالكلام ولكن بالعمل ، حاربوا دفاعا عن حق الشعب فى التفكير وتقرير مصيره بنفسه دون تدخل من جانب المعادين للثورة أو الدوجماتية التعديلية او القومية»(١٨) •

واعتبر هذا اللون من الدجل الوقح الاحتلال الأجنبى مساعدة دولية ، ورأى التشيك واليوجوسلافيون ان اللغة المهترئة التى استخدمها المحتلون والنظاميون ترمز للقمع والعودة لتطبيق نوع جديد من السياسة الستالينية ان لم تكن هى ذاتها • واستغرق الشفاء من صدمة التدخل والعودة تدريجيا للصراع من أجل بناء مجتمع مدنى بعيدا عن المؤسسات والقيم الرسمية وقتا طويلا •

وبعد الاحتلال السوفيتى لتشيكوسلوفاكيا والقمع المشين لحركتها الاصلاحية تشكلت العلاقات بين أقطار حلف وارسو وفقا لتعريف موسكو للسيادة « المقيدة » • والقى برجنيف فى نوفمبر ١٩٦٨ خطابا فى وارسو حيث أكد من جديد على المبادىء الأساسية لهذا المذهب ورأى السكرتير العام السوفيتى أن الدول الشيوعية جميعا يجب أن تقبل دون اعتراض « المبادىء العامة للماركسية اللينينية » ، وأن أى انشقاق عن ارثوذكسية موسكو المعروفة ستعد خيانة لمبادىء الدولية الاشتراكية وللسوفيتيين الحق فى مجابهتها حتى لو اضطرت للجوء للقوة العسكرية • وبالطبع فان ماسمى بالنظامية فى تشيكوسلوفاكيا أعطى درسا لا ينسى لكل من تسول له نفسه محاولة تقليد تجربة دوبتشيك ، وتلا الصدام مع ربيع براغ أن أطلقت موسكو العنان لحملة ضارية لقمع أية محاولات اصلاحية سواء فى الاتحاد السوفيتى أو فى الكتلة • لقد عم الفساد فى كل مكان وفقد الشعب روح التضامن وأى شعور بالتفاؤل . وأثرت حالة التوتر العام على كل بلدان الكتلة الاشتراكية . ومن ثم تم شجب الانفصال لمرة ثانية وأصبح التجمد السياسى والاقتصادى العلامة المبزة للثقافة السياسية للستالينية الجديدة التى وصفت دائما بأنها برجينيفية Brezhenevism •

ولقد تعلم المبدعون النقاد فى أوربا الشرقية درسا مهما من ربيع براغ اذ اكتشفوا أن اعتقادهم المثالى فى امكانية اصلاح النظام الشيوعى من الداخل أثبت فشله كما أكدوا المعنى الحقيقى للمرونة التى يبديها الكرملين تجاه أى نموذج بديل للشيوعية بعد الغزو السوفيتى لبلدهم . لقد كانوا شيوعيين مخلصين واعتقدوا ان الزعماء السوفيتيين متمسكون حقا بالاشتراكية كمثال ونموذج . لقد غاب عنهم أن برجنيف ومساعديه لم يكونوا سوى انتهازيين اشتركوا فى المذابح الستالينية ليضمنوا استمرارهم فى وظائفهم ، ولم تكن مقولاتهم عن الحرية وحقوق الفرد سوى شعارات جوفاء • لقد تشكك المبدعون التشيكيون والسلافيون فى صحة المعتقدات الديمقراطية التى تتبناها القيادات الحزبية (دوبتشيك

واعوانه) عندما تأكدوا أن ربيع براغ بدا كحركة استحدثها المصلحون في الحزب ، ولم تبغ سوى التحديث في النظام الشيوعي وليس القضاء عليه .

ان صلابة مصلحي براغ لم تنجم عن اعتقادهم بأن المصدر الوحيد للشرعية السياسية هو هيمنة الشعب . ان الفكرة الأساسية بأن الحزب قادر على ضمان الانتقال للتعددية التي يجب اعتبارها مركزا لانبعاث نظام تعددي جعلت الشعب متشككا ومترددا . وكان فيتسلاف هافيل كاتب المسرحيات والمقالات الشاب واحدا من هؤلاء المصلحين ولم يكن ينتمي مثل ميلان كانديرا ولودفك فاكيولك وبافيل كهاوت Pavel Kohout للحزب الشيوعي ولم يؤمن أبداً بالأوهام الخاصة بامكانية اصلاح النظام القائم من الداخل . وبعد مرور سنوات عدة ، طرح هافيل ملاحظاته التالية حول مبدأ الدمقراطية الذي يتبناه الشيوعيون المصلحون بقيادة الكسندر دوبتشيك حيث قال :

((ما سبب هذه الشكوك وهذا التردد ؟ . ومبدئيا لا بد ان نعرف مبلغ الاضطراب الذي أصاب قيادة الحزب في مواجهة كل هذه التطورات . فجأة تمتع هؤلاء الناس بدعم وتأييد عاطفي جم ، انه شيء لم يجربوا مثله من قبل لأن نوع الدعم الوحيد الذي عرفوه هو دعم يأتي من اعلى ، لقد ابتهجوا لكل ما يجري .

ومن ناحية اخرى فقد تخوفوا من النمو التلقائي العنيف للارادة الشعبية الطيبة . ومرة بعد اخرى فوجئوا بدعاية الشعب اذ أن الاحداث التي جرت بدت مبهمة بل ومخيفة في بعض الأحايين . لقد تجاوزت حدود ((المسموح)) ((والمقبول)) . دعنا نذكر ان هؤلاء الناس كانوا بيروقراطيين حزبيين عاديين نشئوا على مبادىء الحزب ، شربوا من اوهامه وعاداته واجحافه مع شيء من رؤية منهجية صحيحة وخلفية اجتماعة أصيلة وأفق أرحب قليلا ، والاختلاف الوحيد هو انهم فاقوا هؤلاء الذين احتكروا مراكزهم الطيبة ممارسة للفكر الحر)) (١٩) .

لقد حملت حركة الاصلاح الشيوعية تناقضا فهؤلاء الذين بدءوا الصراع بغية تأمل دقيق للوضع الراهن هم انفسهم حصيلة ، ونتاج الأوضاع القائمة . ان ثورتهم ضد اللا منطقية وظلم الستالينية لم يكن تمردا ضد الوجود الماركسي لبناء « المجتمع الأفضل » ولكنها كانت جهدا يبذل لتصحيح انحرافات برنامج أول ما يتسم به العقلانية والانسانية . لقد كانوا أبناء النظام المخلصين ، ولم تكن معارضتهم للقيادة السابقة تحديا للشرعية الأخلاقية والنظرية للاشتراكية التي على الطراز

السوفيتى . ولم يجرؤ أحد حتى المصلح الراديكالى مثل أوتاسيك Ota sik ـ أحد الاقتصاديين الرئيسيين لربيع براغ ـ على تجاوز حدود المنطق السائد أو تصور الضرورة الملحة للتخلى عن الخطة المركزية .

وكان ميلوفان جيلاس ـ المنشق اليوجوسلافى ـ كثيرا ما يشير الى الخطورة التى تنطوى عليها الصناعة الشيوعية بأن النظام يمكن ان ترسى قواعده ويكون فاعلا بمجرد تقوية وتدعيم أجزائه الضعيفة والقضاء على الفساد . والحقيقة أن كل جماهير بلدان الكتلة السوفيتية كانوا فى حالة عداوة عميقة للنموذج الموجود ورفضوا فكرة استمراريته . وعلى عكس دوبتشيك وأصدقائه المثاليين ، فهم المناورون الفاسدون فى الكرملين الواقع السياسى على نحو أفضل . لقد ادركوا أن تقديم اى تنازل لرفع شأن القوى الاجتماعية ودفعها للأمام سيؤدى فى آخر الأمر لمزيد من المطالب الراديكالية . وفى الحقيقة لقد كان برجنيف محقا . لقد كان حتميا أن يسفر تنقيح مفهوم الاشتراكية وتجريدها من الشكل الستالينى المخادع عن سقوط كامل ومدو للنظام القائم :

ان الاحتفاظ بالمؤسسات القائمة دل ضمنيا على حصانة العقيدة الرسمية وعدم خضوعها للتفنيد ، وأن المساس بدعاوى الحزب الشيوعى بالمعصومية من الخطأ حتى ولو كان هذا الادعاء مجرد تكرار اجبارى للشعائر الجوفاء سوف تنجم عنه ـ لا محالة ـ آثار ونتائج مأساوية عاجلة . ان وجود الطبقة الحاكمة امر لا يقبل الجدل لحفظ النظام ومعاملة الرعايا كعبيد خانعين ، لا كمواطنين أحرار لهم حقوق انسانية بعيداً عن مناخ التهديد والوعيد والرعب الذى يعيشون فيه كما كان وجودها ضرورة حتى لا يتمكن الرعايا من تنظيم أى احتجاجات أو عصيان مدنى .

ومن ثم كان لزاما على البوليس السرى ان يسهر على الهيمنة الديكتاتورية وان يقضى ـ باستمرار ـ على أى شكل من أشكال الانشقاق سواء داخل أو خارج الحزب الحاكم . ورغم أن البرجينفية خففت من وطأة الطريقة الستالينية الارهابية ، الا أنها استمرت فى الاعتماد على نفس المؤسسات والتكتيك الذى يمنع أى شكل من أشكال التخثر لسخط الشعب فتتحول لحركات سياسية أصيلة . لقد حلل روبرت كونكويست Ropert Conquest الطبيعة الثقافية السوفيتية تحت حكم برجنيف فقال :

« ان السلطة تتركز فى يد بيروقراطية عينت نفسها ، واعدت كل الترتيبات المؤسساتية لتحقيق احد هدفين ـ اما ضمان استمرار هذه

الحقيقة أو اخفاؤها • ومن ثم كان هناك نوعان من المؤسسات فى البلد ، نوع تنتقل من خلاله السلطة وآخر يلقى على أى نوع من السيادة الشعبية ظلال تحجبها • وكلا النظامين اكتمل طورهما فى زمن ستالين وكلاهما يسير الأمور بنفس الطريقة وحتى اليوم » (٢٠) •

* التمرد والتصعيد فى بولندا :

ان تحول برجنيف عندما جنح لمواكبة العصر وتحديث الستالينية ترك آثاره على الشكل المميز للنظم التى على الطراز السوفيتى فى أوربا الشرقية وهنا أيضا كان تيتو استثناء وذلك لعلاقته المتميزة مع الكرملين ولما يتمتع به من استقلالية أرحب • وفى بلدان أوربا الشرقية الأخرى أدى رفض الاصلاحات وتشديد السيطرة الأيديولوجية والسياسية الى فوضى عامة غامرة وارتباك تفشى بين أوساط المبدعين النقاد ، واحساس عام بالعجز والوهن دب بين المعارضين للأنظمة • وبدا أن أوربا الشرقية سوف تشفى من حالة الشلل الجزئى الذى اصابها بسبب قيام أحلاف فاسدة وغير فعالة تفرض الوحدة على مجتمعات يزداد سخطها ، وراحت المنطقة كلها فى سبات عميق خلال حقبة السبعينيات حيث انفرد الحكام بالسلطة دون ظهور تحد جاد من القاعدة الشعبية • وبدا أن « التهدئة » بأوربا الشرقية التى كانت أحد الأهداف الرئيسية لسياسة برجنيف الخارجية قد تحققت بالفعل الا أن بولندا اثارت ثانية مشكلات وازمات فى الكتلة فى أواخر السبعينيات والحقيقة أن البولنديين لم يشعروا بالرضا ابدا •

ففى عام ١٩٦٨ وقعت صدامات بين الطلاب الراديكاليين والأجهزة القمعية • ورغم مضى الشيوعيين البولنديين فى قمعهم لأية مبادرات ثورية قد تاتى من القاعدة ومنع اقامة أى اتحاد بين العمال والمفكرين الا انهم لم يستطيعوا منع تصاعد النقابات المشتعلة • ورغم الجهود التى بذلها البوليس لفك أواصر اية حركة تهدف لاقامة هذا الاتحاد بين العمال والمفكرين فان المدنيين البولنديين المدافعين عن الفعالية (٢١) خططوا لاختراق القمع الرسمى وتدشين موجة مضادة للشمولية والتى ستطيح فى نهاية الأمر بالأنظمة الشيوعية فى أوربا الشرقية •

ان تمرد البولنديين فى نهاية الستينيات كان مقدمة للاختراق التاريخى للجسد الشمولى فى بولندا • لقد تخلى فلاديسلاف جومولكا الزعيم الذى أتى للسلطة فى اكتوبر ١٩٥٦ كممثل للاتجاه الليبرالى داخل الحزب الشيوعى عن البرنامج الأولى المعادى للستالينية ، وبدلا من

توسيع نطاق الاصلاحات التى وعد بهـا شرع فى تمجيـد مبـدأ المحافظة على غرار الأسلوب البرجنيفى كما خطط للتخلص من المفكرين والنقاد . وانقسم كل من انصار جوميلكا والعصبة الراديكالية القومية الصـاعدة برئاسـة الجيرال متسلاف مونسار Mieczysław Moszar وزير الشئون الداخلية ورئيس اتحاد الفلاحين الشيوعيين السابق أثناء الحـرب العالمية الثانية زعامة الحزب . استغل موتسار بعد توليه الحـكم الاتجاه المعادى للأجانب واتهم جوميلكا بالدعة فى تعامله مع « المؤامرة الامبريالية الصهيونية » المزعـومة . وفى نفس الوقت استهدف مويدو موتسار تنفيذ اقتراحات خاصة بالاصلاحات السياسية والاقتصاديـة التى اعتبروها سببا فى أرجحة قارب الاشتراكية . لقد تبنى موتسار أيدلوجية المعاداةالسريعة للسامية مـع الكـره الشـديد لليبراليـة والديمقراطية . ان المصدر الأساسى لهذهالنظريات هو الأدب التقليدى المعادى للسامية والذى ظهر فى الفترة التى توسطت الحرب على يد مؤيدى الحزب القومى الديمقراطى المغالى فى القوميـة والشـوفينية ، ولأن المفكرين النقاد يرمزون لبحث الأمة عن المجتمع المفتوح ؛ فلم تدخـر حملة مونسـار أى جهد لتشويـه صـورة الانتلجنسيـا الليبراليـة البـولندية (٢٢) . وقـال البرفسـور جيرسى هولتسـر Jerzyholzer المفكر الليبرالى الكاثوليكى فى رصده لنوايا الحملة المعادية للسامـة التى تناور الرأى العام وذلك بتفجير خرافات معادية للأجانب :

« ان مارس [١٩٦٨] يمثل مناورة محكمة استهدفت ضمـير شرائح عريضة من الجمـاهير ، ولعبت معاداة السامية دورا جوهريا فى هذه المناورة . ومنذ أمد ادعو أن العداوة الصهيونية الخفية لرخـاء بولندا هى المسئولة عما اصـاب بولندا من سوء طالع . ان المحـاولات التى نقوم بها لنسب كل النجاحات لأنفسـنا وكل الاتهـامات الممكنة لليهود هى مجرد حنق ليس [الا] على اليهود بل على الأمة البولندية كلها » (٢٣) .

لقد حاولت فصائل أخرى داخل الائتلاف الشيوعى الدفاع عن التعديلات التوافقية التكنوقراطية التى تهدف لتحسين النظام القـائم اداريا . وكان ادوارد جيريك Edward Gierek آنذاك واحداً من زعماء هـذه المجموعة ثم أصبح زغيـم الحزب فى المنطقة الصناعية فى سيليسيا Silesia . وكان جوميلكا محاصرا بالعصبية الليبرالية التى تتضـاءل ، وبالمجموعة التكنوقراطية وبالعناصر القومية التى تتزايد حدتها ومن ثم

حاول الابقاء على المركزية واعتمد كثيرا على اتصالاته الشخصية مع الزعماء السوفيتيين .

ان الرجل الذى شجب بقوة « عبادة الفرد » فى عام ١٩٥٦ هو نفسه الذى أعيد الآن الى مجموعة صناع القرار — واستلهمت قراراتهم من ستالين ومنها ما بنى على وجهات نظر شخصية بحته تحتقر وجهات نظر الآخرين ، وهو ما أسفر عن وقوع المأساة وعجلت بالمزيد من التفكك والفساد (٢٤) .

- ان الاحوال الاقتصادية المتردية والافتقار للثقة فى الزعماء أسفرا عن انفجار الازمة الجديدة فى بولندا ومهد الاضطراب الاجتماعى لانهيار استراتيجية جوميلكا لتحقيق الاستقرار . وتشكلت حركة طلابية عارمة استلهمت قوتها من التغيرات التى وقعت فى تشيكوسلوفاكيا ومن التيار العام الذى عم أوربا للدفاع عن الفعالية المدنية .

ومن الكتابات الناقدة لعدد من المبدعين الكاثوليكيين والماركسيين الجدد الذين ألقوا الضوء على التناقضات التى لا يمكن تجاوزها أو تجاهلها فى النظام القائم . وكمثال على ذلك قام شابان ماركسيان فى بداية عام ١٩٦٥ وهما جيسك كورن Jacek Kuron وكارول مودزلفسكى Karol Modezelewski بتوجيه خطاب مفتوح لحزب العمال البولندى المتحد — أى الحزب الشيوعى — وقيد احتجاجا على الديكتاتوريات البيروقراطية القائمة . لقد أثار الخطاب غضب جوميلكا حتى انه وضع المفكرين فى المعتقل (٢٥) وطرد — كجزء من الحملة القمعية — أكثر فلاسفة بولندا الماركسيين شهرة ليتسك كولاكفسكى من الحزب ومنعه من التدريس فى جامعة وارسو فترك بولندا وانتقل لتدريس الفلسفة فى انجلترا والولايات المتحدة .

وفى ربيع عام ١٩٦٨ وصل الصراع بين الحزب والمفكرين ذروته . وفى مارس قررت الحكومة أن تمنع آدم ميتشيوتز Adam Michiewicz من عرض مسرحيته الكلاسيكية الوطنية « جدتنا حواء The Forebears Eve » وزعمت أن هذا العرض سيسفر عن اعلاء موجة المعادة للسوفياتية . واحتج اتحاد العمال على رقابة الحكومة واتهم الحكام بالجهل والفساد الأخلاقى . ونظم الطلاب فى جامعة وارسو احتجاجا الا أن النظام قرر ردعهم بأساليب ارهابية . وشن سفاحو البوليس السياسى والعساسون المسلحون ، حملة على حرم الجامعة ، نجم عنها اصابة واعتقال مئات من الطلبة . وبعد هذا التمرد أضرب طلاب المدارس والجامعات .

وعبر ستيفن كردينال فيتزنسكى Steven Cardinal Wyszynski كبير رؤساء بولندا عن تخوفه من عواقب الطريقة الوحشية التى مارسنها الحكومة ضد احتجاج الطلاب المشروع الذى عبروا فيه عن شكاواهم . ويعد تمرد الشباب الحركة الاجتماعية الواسعة النطاق الأولى من نوعها منذ أكتوبر عام ١٩٥٦ . ان المفكرين الذين أملوا ذات يوم ان يقوم الحزب الشيوعى باصلاحات حقيقية كانوا من بين المحرضين والمؤيدين لهذا التمرد وكانت حركة مارس ١٩٦٨ هى النهاية للآمال التى هفت الى اكتساب الحزب قدرة على التغيير الذاتى . لقد كان التمرد لجيل فقد هويته مع وجود القيم الفاسدة والمفسدة للطبقة الحاكمة . ورغم أن الطلاب حرصوا على اعلان التزامهم بالاشتراكية الانسانية الا أنهم أعلنوا عن نيتهم لتشكيل منظمة متحررة من سيطرة ورقابة الحزب .

واتهم كل من جيريك وموتسار جوميلكا « برضاه الشخصى عن حركة التمديلية » وطالبا بقمع يكون عبرة للحركة الديمقراطية . واستمر الصراع بين جوميلكا وموتسار للعام التالى ، فحاول الأول أن يعبىء العمال لصالحه بينما أكد الأخير على معاداته الضارية للأنشطة الابداعية والسامية . ومثلت هذه الصراعات عوائق تحول دون اقامة سياسة موحدة متسقة فى القمة . وأطلق الستالينيون الجدد الشوفينيون شبحا جديدا يثير دائما « العداوة الداخلية » .

وبدلا من تفهم الأسباب السياسية لاحتجاج الطلاب وجهت القيادة اللوم « للمؤامرة الامبريالية الصهيونية » الاسطورية التى أثارت الاضطراب والقلاقل . وهلل الاعلام الرسمى للقومية الرومانية ولم يكف عن استخدام صيغ مبتذلة تشابه مثيلاتها النازية فى هجومهم على المفكرين النقاد والطلاب . لقد كانت الفرصة متاحة لتمرد ١٩٦٨ كى يحرز النصر وذلك لما أظهره من بطولة الا أن نقطة ضعفه الأساسية كانت فى طبيعته الابداعية البحتة وغياب التعاون بين زعماء الاحتجاج الطلابى وبين العمال الذين لم يدركوا أن الحملة القمعية الجديدة سوف تنال منهم أيضا .

وفهم العمال تمرد الطلاب بشكل افضل حال تردى الأوضاع الاقتصادية وأدركوا أن العيش على الوعود الفضفاضة التى تجذلها الحكومة بهدف التسكين شىء لا يمكن احتماله .

وقام جوميلكا البيروقراطى الذى عزل نفسه تماما عن جمهور الحزب بمجموعة من الاجراءات التى لم تلق قبولا جماهيريا وذلك فى

ديسمبر ١٩٧٠ فرفع أسعار الطعام والوقود بنسبة ثلاثين فى المئة . وخرجت مسيرات عمالية كبيرة فى المدن العمالية وبدأت فى ميناء جدانسك Gdansk .

ونجم عن تلك التظاهرات انهيار التوازن والتماسك فى قمة الحزب . ووصف جوميلكا ما أحدثه العمال من قلاقل بأنها «مضادة للثورة» وأمر الجيش والبوليس باطلاق النار على المتظاهرين .

ان الرجل الذى وصل للسلطة كرمز يمثل أحلام العمال من أجل حياة افضل ختم وظيفته السياسية كمستبد عنيف يقمع بروليتارية بولندا المتمردة .

واستفادت عصبة التكنوقراط من فقدان جوميلكا لشعبيته وخططوا للاطاحة به هو ومؤيديه . وفور انتخابه كسكرتير أول للحزب أدان ادوارد جيريك الاجراءات الانتقامية وقام بتعهد فريد من نوعه للحفاظ على رباط وثيق مع طبقة العمال البولندية . ولسخرية الأقدار أن جيريك نفسه أمر البوليس بعد عشرة أعوام عندما تفجر غضب العمال من جديد فى جدانسك باطلاق النار على المضربين ، الا أن تحرك البيروقراطية الحزبية جاء هذه المرة متاخرا ، فعجزت عن قمع الحركة . لقد مد العمال والمبدعون جسور الروابط الفعلية بينهما والتى فسر غيابها نجاح الأعمال القمعية السابقة . وبعد اضراب العمال عام ١٩٧٦ شكلت لجنة الدفاع عن العمال (KOR) Worker's Defense Committe التى أسسها المدافعون عن الحقوق المدنية والمفكرون النقاد بما فيهم الذين شاركوا فى حركة ١٩٦٨ (٢٦) . وعندما بدأ الاضراب فى جدانسك فى صيف ١٩٨٠ ولم يكن العمال وحدهم فقد تلقوا الدعم السياسى الضرورى من لجنة الدفاع عن العمال (KOR) ومن المناضلين الذين ذهبوا لجدانسك وأصبحوا مستشارين للجنة الاضراب الداخلية بالمصنع . لقد قام المفكرون أمثال تاديوتس مازوفسكى Tadeusz Mazawiecki وآدم متشنك وجاسيك كيرن Jacek Kurn وبرونسلاف جيرميك Bronislaw Geremek بدور بارز فى المفاوضات التى تمت بين الحكومة والعمال .

لقد وقع اجتياح عام ١٩٨٠ فى بولندا لأسباب عديدة منها تزايد انحرافات قيادات الحزب الشيوعى وتدنى المستوى المعيشى للجماهير، والتردى الاجتماعى العام والنضج السريع للمجتمع البولندى المدنى . وانبعثت الهامات سياسية طال سباتها بسبب بطلان زعم الحزب الشيوعى بضرورة تفرده بالسلطة السياسية ومن ثم لم يعد يلقى أى

دعم حتى من البيروقراطيين المحترفين . ان فقدان الحلف الحاكم لثقته بنفسه كان مقدمة لتصاعد مبدأ الفعالية فيما بين العناصر الراديكالية والانتلجنسيا وطبقة العمال . وعجزت قيادة جيريك لفسادها وعدم فاعليتها أن نجابه مشكلات البلد الاجتماعية والاقتصادية ولم يقدم تحقيرهم من شأن أزمة العمال أى علاجات للمصاعب والمحن المتزايدة التى تواجهها بولندا (٢٧) .

هوامش الفصل الثالث

(١) For excellent insights into the background of the conspiracy that eliminated Khruschev, see Sergei Khrushchev, on Khrushchev (Boston : Little, Brown & Company, 1990).

(٢) الاصلاحية تيار سياسى داخل الحركة العمالية ينفى ضرورة النضال الطبقى والثورة السياسية ويقف الى جانب التعاون بين الطبقات ويسعى الى جعل الرأسمالية مجتمع « الرخاء الشامل » بواسطة الاصلاحات التى تجرى فى اطار الشرعية البرجوازية — (المترجمة) ·

(٣) الليفيثان Leviathan . هو وحش بحرى عملاق ولكن يطلق اسمه على الدولة ذات البيروقراطيات العتيقة — (المترجمة) ·

(٤) See the interview with Eduard Goldstücker in Antonin Liehm, *Trois générations . Entretiens sur le phénomene culturel tchécoslovaque* (Paris : Gallimard, 1980), p. 212.

(٥) See the extensive passages of Ludvik Vaculik's speech in Harry Schwartz, *Prague's* 200 Days : The Struggle for Democracy in Czechoslovakia (New York : Prageger, 1069), pp. 47-48.

(٦) For Dubcek's political background, see William Showcross, *Dubcek Revised and Updated Edition* (New York : Simon & Schuster/Touchstone, 1990).

(٧) Vojtech Mastny. *Czechoslovakia : Crisis in World Communism (New York : Facts on File*, 1972), pp. 21-25.

(٨) For thoughtful contributions to the discussion on Eurocommunism. see George Schwab, ed., *Eurocommunism : The Ideological and political - Theoretical) Foundations* (Westport, Conn. : Greenwood Press, 1981).

(٩) For the full text of the manifesto, see Mastny, *Czechoslovakia*, **Ibid., p. 28-34.**

(١٠) Ibid., pp. 36.

(١١) Ibid., p. 44.

(١٢) Antonin J. Liehm, "It Was You Who Did It !" in Jiri Pehe., ed., *The Prague Spring : A Mixed Legacy* (New York : Freedom House, 1988), p. 172.

(١٣) Jacques Rupnik, *The Other Europe : The Rise and Fall of Communism in East-Central Europe* (New York : Pantheon Books, 1989), pp. 256-57.

(١٤) يعد ايفان سيفتاك أحد الكتاب المعروفين بتوجههم الراديكالى نحو الديمقراطية . وقد ذاق القمع والاضطهاد من قبل القيادة الشيوعية التشيكوسلوفاكية فى صيف ١٩٦٨ . وبعد التدخل السوفيتى صنفته وسائل الاعلام كواحد من الايديولوجيين للحركة المضادة للثورة والتى نجح تدخل حلف وارسو فى منعها ، وبعد عقدين من النفى فى الولايات المتحدة الامريكية عاد الى تشيكوسلوكاكيا عام ١٩٩٠ بعد انهيار الأنظمة الشيوعية .

(١٥) Ivan Sivtak, "The Premeture Prestroika," in Pehe, Prague, Spring, p. 179.

(١٦) Masiny, Czechoslopakia, p. 59

(١٧) Milan Kundera,, *The Joke* (New York : Penguin Books, 1982), "Author's Preface,' p. xiv.

(١٨) Masiny, Czechoslovakia, pp. 144-45.

(١٩) Vaclav Havel, *Disturbing the Peace : A Conversation with* Karel Hvizdala (New York : Knopf, 1990), p. 95.

(٢٠) Robert Conquest, Russia After Khrushchev (New York : Praeger, 1965), p. 6.

(٢١) لم يكن كونكويست Conquest الوحيد الذى أكد على الاستمرارية المؤسساتية بين الستالينية والبرجنيفية الا أن الدراسين الآخرين الذين شاركوا كونكويست وجهة نظره كانوا زبجنيوبريجنسكى وليونارد شابيرو Leonard Shapiro ، وقد أشار الى أن الستالينية سوف تتقوض طالما أبقت الأنظمة السوفيتية على احتقارها لحكم القانون .

على الستالينية :

See Leonard Shapiro, The Communist Party of the Soviet Union (New York : Vintage Books, 1981), pp. 628-29.

(٢٢) See Jakub Karpinski, *Countdown : The Polish Upheavals of* 1956, 1968, 1970, 1976, 1980 ... (New York : Karz-Cohl, 1982), pp. 105-55.

(٢٣) Jerzy Holzelr quoted in Tadeusz Szafar, "Anti-Semitism : A Trusty Weapon." in Abraham Brumberg, ed., *Poland : The Genesis of a Revolution* (New York : Vintage Books, 1983), p. 120.

(٢٤) Jan de Weydenthal, *The Communists of Poland : An Historical Outline* (Stanford, Calif. ; Hoover Institution Press, 1986), p. 121; Ray Taras, *Poland : Socialist State, Rebellious Nation* (Boulder, Colo. : Westview, 1986), pp. 103-17.

(٢٥) "The Kuron-Modzelewski Open Letter to the Party," in Gale Stokes, ed., *From Stalinism to Pluralism : A Documentary History of Eastern Europe Since* 1945 (New York : Oxford University Press, 1991), pp. 108-14.

(٢٦) Jan Josef Lipski, KOR : *Workers' Defense Committee in* Poland 1976-1981 (Berkeley : University of California Press, 1985).

(٢٧) For the birth of Solidarity, see Neal Ascherson, *The Polich August* (New York : Viking Press, 1982).

الفصـل الرابع

البعث العظيم

صعود المجتمع المدنى

« لقد كان بعثا عظيما من قبر العبودية لسماء الحرية . لقد انطلقت روحى من سـجنها ، ومضى الجبن وحل محله التحدى ، والآن فاننى عقدت العزم . ومهما طال بقـائى كعبد فلن اظل كذلك الى الأبد » .

فردريك دوجلاس
Frederik Douglass

بعد ربيع براغ ، عاد عـدد قليل من المنشـقين بأوربا الشرقيـة لأوهامهم الخاصة بامكانية تعديل الشيوعية من خلال ما يقوم به الجناح الليبرالى فى الحزب من مبادرات اصلاحية . لقد بات واضحا أن الاتحاد السوفيتى لن يسـمح بأية محـاولة جـديدة لتبنى الفكرة المشئومة الخاصة بالاشتراكية ذات الوجه الانسانى . وظل الزعمـاء السـوفيت على احتكارهم للماركسية اللينينية واقتلعوا ـ بحقـد ـ جذور أى شـكل جديد من أشكال « الانحـراف » عن هذه العقيدة ، بينما أدرك المفـكرون النقاد عبر بلدان أوربا الشرقية أن المطالبة الحقيقية بمجتمـع ، يتمتع أفراده بحياة مستقلة لا يمكن ان تقتصر على برنامج محدود يطرحه الليبراليون فى الحزب الشيوعى . وفى عام ١٩٧٨ حدد آدم متشنك نقاط الضعف الأساسى فى الاصلاح داخل الحـزب فى التوافق الذى تم بين المعارضـة والأسس النظرية والميتافزيقية للنظام القائم . لقد ظل المفكرون النقاد ـ رغم اشمئزازهم من البيروقراطية ـ على ولائهم لقيم الاشتراكيـة السامية ، ولم ينفصل نسقهم القيمى عن ذلك الذى بشرت به الأيديولوجيا الرسمية . ورأت الجماهير الساخطة أن الطبيعة الثورية للاشتراكية . قد زيفتها الممارسـات الستالينية المقيته التى أثارت الشـك والاحبـاط بين أفراد المجتمع . وقارن ميتشنك تجـربة اكتوبر البولندية بربيـع براغ فقال :

« رغم أن ربيع براغ لم يكن بتحريض من موسكو مثل اكتوبر البولندى ، الا أن هناك تشابها بينهما هو ما تبع كليهما من اندفاع حزبى فى اتجاه « حركة التحديث » ، وهو ما أوضح نقاط ضعف وقوة هذه الحركة . وترجع قوة الحركة لتفكك النظام من الداخل الذى تحول الى قنبلة موقوته — اذا جاز التعبير — توشك على الانفجار ، كما ترجع لعدم كفاءة وفاعلية الأجهزة الحزبية العليا أى الأجهزة الأمنية والجيش . وكمن ضعفها فى عجزها عن ادراك هويتها التاريخية الحقيقية أو بالأحرى تحديد غاياتها .

واستخدم زعماؤها المصطلح العام للديمقراطية فى هذه الحركة الا أن دلالة هذا المصطلح كانت سلبية تماما ومن ثم فقد معناه لدى الجماهير . ان الزعماء أنفسهم — فى مطالبتهم الناس بالواقعية والتحديث — فشلوا فى تقدير الموقف الجيوبولتيكى (١) (فى حالة تشيكوسلوفاكيا) وفى تقدير الأمانى الحقيقية للشعب (فى حالة بولندا) واستعادوا نظام الحزب الواحد الذى لا يبتسم الا لوجهاء الحزب . وفى الحالتين كانت النتيجة هى الاضطراب)) (٢) .

ان ربيع براغ كان أحد روافد الخروتشوفية الشيوعية ومن ثم فقد ما له من قبول لدى الجماهير . وأصبحت الحاجة ملحة لاستراتيجية مختلفة وهى العودة للمحافظة السياسية الخروتشوفية والتى لا تعنى تماما العودة الى الستالينية بل تمثل مرحلة جديدة — الى حد ما — من فساد الأنظمة الشيوعية . ووضعت هذه الاستراتيجية فى اعتبارها أسطورة النظام الموجود الآيلة للسقوط ، وانتهاء الجيل الأول من الصليبيين الستالينيين وصعود الأحلاف السياسية التى لا تعنى الا بالحفاظ على امتيازاتهم وانحرف النظام عن مسيرته الأولى وأصبح الركود والجمود هما سمتيه الرئيسيتين وتفشتا فى الأيديولوجيا الآلية والروتينية وتصدع الحكم فأصبح يسيرا على المعارضة مقاومته ثم هدمه .

وفى السبعينيات لم يكن هناك فى دول أوربا الشرقية الشيوعية زعماء يتمتعون بنفوذ متميز وغابت الأساليب الأيدلوجية المتسقة القادرة على تعبئة شرائح عريضة من الشعب . وافتقرت الساحة السياسية للاتحادات الحقيقية اذ أن السلطة اعتبرتها أخطر من معارضيها الرأسماليين . لقد استبدل النظام الكلاسيكى الشمولى بخليط من السلطوية التكنوقراطية والبيروقراطية الجامدة ، ولم تعد سيكولوجيا الارهاب ، الذى جعل الستالينية هى الممكن الوحيد وهو ما سبب

الاحباط للشعب شبحا يخافه أحد · لقد لجأت هذه الأنظمة دائما لوسائل وحشية لقمع المعارضة . ورغم أن المعارضون الذين طرحوا رؤى خاصة بالتطوير وبتكوين أحزاب سياسية بديلة كانوا قلة الا أن الانشقاق عن الستالينية بدا ممكنا ، ويمكن أن يكون له أثر اجتماعى حقيقى · ان الأنظمة وقعت تحت وطأة عبء جمود الائتلاف وتجاهلات الحتمية التاريخية وأظهرت دلائل التعصب مما أدى الى صعود للمجتمع المدنى الذى طال قمعه فاستشعر هويته وأطلق العنان لمعركة حامية من أجل استعادة المناخ الشعبى .

ان المعركة التى خاضها المجتمع المدنى فى السبعينيات والثمانينيات دفعها الأمل فى التغير الاجتماعى واقتناع الناس بأن اللعبة ليست أبدية وأن الكرامة الانسانية شىء يستحق التضحية . ان فرصة نجاح هذه المعركة كانت كبيرة وحقيقية . وبزغت فى بلدان قلب أوربا ـ ألمانيا الشرقية، بولندا ، المجر و وتشيكوسلوفاكيا ـ وكذلك رومانيا الحركات والجماعات الاجتماعية التى أعلنت تحديها للنظام وسعت لتكوين شبكة من المبادرات غير الرسمية والتى تناسبت فى تطورها ودفاعها عن مبدأ الفعالية من أجل تغيير اجتماعى مع تآكل الأجهزة الحاكمة ، كما تعد نتاجا طبيعيا للطريقة المشينة التى استخدمتها الأنظمة فى التعامل مع المعارضة ·

وشهدت الأقطار الخمسة محاولات عنيفة لسحق المبادرات الاجتماعية التى تهدف لاحراز التغيير الا أن ذلك أدى الى نتائج عكسية · ففى بولندا قوبلت جهود جيريك من أجل فك عرى المبادرات المدنية بردود فعل راديكالية أخذت فى التزايد من جانب المجتمع المدنى الصاعد . وفى ألمانيا الديمقراطية سحقت أجهزة البوليس الضخمة والحزب الحاكم كل أشكال الانشقاق وسجن معظم النقاد أو أجبروا على الهجرة .

أما فى المجر فقد رفض نظام كادار رفضا باتا الاستسلام لتصاعد الحركات المعارضة ، كما مارست سياسات المهادنة الكادارية أنواعا أخرى من المناورات لمواجهة المعارضين فلم تسع لاعتقالهم فقط ، بل تجرعوا أنواعا شتى من الاضطهاد · فحرم فلاسفة مدرسة بودابست أمثال فيرنز فيهر وآجنس هيلر وجورجى وماريا ماركس Maria Markus وجنوس كسى وميهالى فاجدا Mihaly Vajda وجورجى بنس (Gyorgy Bence) من حقهم فى التدريس والنشر فى بلادهم . وأجبر بعضهم على الهجرة بينما بقى آخرون أمثال كيس فى المجر حيث أسسوا

فى الثمانينيات معارضة « النشر السرى » Samizdat (٣) ، وأصبح هذا المصطلح هو العلامة المميزة لكل المواد المنشورة سرا ، فى الأنظمة الشيوعية ومنعت السلطة نشر أعمال منشقين مجريين آخرين ومعروفين جيدا أمثال ميلكلوس هراتسى والقصاص الشهير جورجى كونراد .

لقد اختلف رد فعل جوستاف هوسكا على الانشقاق فى يوجوسلافيا ، عما اتخذه كادار فى المجر · لقد خضع أعضاء حركة حقوق الانسان السرية والتى صدر عنها ميثاق ٧٧ فى يوجوسلافيا لاستجوابات البوليس السياسى وحرم بعضهم من وظائفه وتم اعتقال البعض الآخر .

لقد لاقى النقاد الاجتماعيون أسوأ اضطهاد فى رومانيا تحت قيادة نيكولاى شوشيسكو ، اذ جرم الطاغية أى نوع من أنواع المعارضة . واعتبروا النقد الموجه لشوشيسكو من قبل هؤلاء الذين يعيشون تحت النظام شبه الستالينى تقويضا لدعائم النظام · واحتقر شوشيسكو المنشقين واصطدم بهم وهاجم المحاولات المتواضعة التى قام بها زعماء تابعون للحزب للمطالبة بقيادة جماعية · وفى مثل هذه الظروف كانت فكرة التحدى الجماعى للنظام تعد فكرة انتحارية .

ووقع أكثر الانشقاقات أهمية داخل الحزب فى عام ١٩٧٩ عندما باغت الزعيم الحزبى المتمرس قنسطنطين بيرفالشيسكو Constantin Pirvulescu المؤتمر الحادى عشر للحزب الشيوعى الرومانى واتهم شوشيسكو بأنه بنى ديكتاتورية شخصية · واعتقل بيرفالشيسكو فورا وحددت اقامته جبريا كما سحقت قبل ذلك بثلاث سنوات الحركة الديمقراطية التى بادر بها الكاتب بول جوما (السجين السياسى السابق فى المعتقلات الستالينية) الذى أيد ميثاق ٧٧ وأجبر جوما نفسه على الهجرة الى فرنسا . وفى صيف عام ١٩٧٧ نظم عمال المناجم فى وادى جيو Jiu Valley اضرابا مطالبين بعدة مطالب منها التحرر من النظام السياسى . وأجهض الاضراب واختفى زعماؤه من عمال التعدين دون أى أثر يذكر.

واقتصرت أشكال الانشطة فى بلدان مثل رومانيا وبلغاريا على الاضرابات الفردية · وترى فى حالة الرياضى الرومانى والفاعل فى مجال حقوق الانسان ميهاى بوتس مثالا واضحا تماما على القمع اذ وجه فى عامى ١٩٧٧ و ١٩٨٧ نقداً صريحا لنظام شاوسيسكو كما اجرى مقابلات

مع وكالة صحيفة أجنبية وخاطب الحكومة فى بيانات لا حصر لها مؤكدا على أن هذا البلد فى طريقه لكارثة قومية . ولم يكن بوتس يتحــدى النظام الاجتماعى القائم ولكن كان يؤكد على فشل القيادة فى ادراك مدى ديماجـــوجية نظامها · وفى عام ١٩٨٧ ترك بوتس رومانيـا الى الولايات المتحـدة الأمريكيـة بعد توجيه الحكومة تهديداتها له وحددت منفاه فى احدى القرى . وبعد رحيل بوتس بفترة ليست طويلة وقعت رومانيا تحت وطأة التغيرات التى تجرى فى الكتلة كلهـا ، والتـردى الملحوظ فى بنية النظام القائم الذى تمثله زمرة شوشيسكو ، مما ادى الى تزايد الانشقاق فى عامى ١٩٨٨ و١٩٨٩ .

ورغم تزايد أشكال الانشقاق الفردى والجماعى فى رومانيا وفى كل بلدان حلف وارسو ، ورغم تفشى الفساد السياسى والأخلاقى واليأس فقد أصرت قيادة الحزب على التمسك بالسلطة وعدم التخلى عنها مهما كان الثمن . وحاول زعماء بلدان حلف وارسو تجاهل الأشكال الوليدة للفعالية السياسية ووضعها على هامش العمل السياسى . وفى هـــذه الظروف كان ميلاد حركة تضامن فى بولندا بمثابة طوق النجاة الحقيقى · وبدا بعد تشكيل حـركة تضامن التى سبقتها أنشطة لجنـة الدفاع عن العمال (KOR) أن النظام ــ حتى وهو تحت المظلة البرجنيفية ــ فى طريقه لأزمة طاحنة · ويتطلب فهم تطور المبادرات التى قام بها المجتمـع المـــدنى ادراك حجـــم الدور الـــذى قامت به المؤسســات المســتقلة فى بولندا بداية بالكنيسة الكاثوليكية وكذلك دور دوائر المفكرين الكاثوليك، بالاضافة الى عناصر أخرى مهمة منها تقوية أواصر الروابط بين المدنيين البولنديين المنادين بمبدأ الفعالية ومصادر الدعم والمعلومات فى أوربا وأمريكا بما فى ذلك مجلة الثقافة « كولتورا Kultura » التى تصدر فى باريس والتى مدت قناة اتصال كانت جسرا يربط بين المفكرين النقـاد داخل وخارج بولندا (٤) .

مقدمات صعود المجتمع المدنى :

ان منظمة تضامن فتحت فصلا جديداً فى تاريخ أوربا الشرقيـــة باستخدامها لكل الوسائل والامكانات ، لايقاظ الاتجــاهات الاجتماعية التى طـال ســـباتها وبفضـــحها للتصـــدعات التى أصـــابت الصــــرح التوتاليتـــارى ، وتبــع انهيــار هــذه الأنظمــة بعث المجتمع المدنى . ان بعث المجتمع المدنى فى بولندا جاء نتيجة طبيعية لمقدمات عدة منهـــا فقدان الأحزاب الحاكمة لسلطتها وهيبتها وثقتها بنفســها ، اضـافة الى بعض العوامل الدولية التى لعبت دوراً أثر فى تطور حركات المواطنين

فى قلب أوربا الشرقية مثل : توقيع اتفاقات هلنسكى Helsinki Agreement فى عام ١٩٧٥ من قبل ممثلى حلف وارسو . وكذلك الاهتمام بميثاق حقوق الانسان .

ولم يكن برجنيف أو جيريك هوساك أو كادار مؤمنين ايمانا حقيقيا بحقوق الانسان ولم يكن لديهم أى استعداد للاستمرار والعمل وفق المواثيق الدولية ، الا أن هؤلاء الزعماء أدركوا أن مبادىء المدنيين المدافعين عن الفعالية السياسية تتفوق على عقائد الحزب الجامدة . لقد نجح المدنيون فى اجبار حكوماتهم على التصرف بما يتوافق مع المعاهدات الدولية واضعين فى الاعتبار حقوق الانسان والمواطنين . ومن تلك اللحظة أصبحت هذه الجماعات غير الرسمية قادرة على تشكيل لجان عديدة فى الدول الشيوعية للدفاع عن المناضلين الذين عانوا الاضطهاد . لقد منح الزعماء السوفيتيون النقاد المحليين فرصة غير مسبوقة لتوجيه التساؤلات والمساءلات عن سياسات النظام وذلك رغبة منهم فى الظهور للعيان كشيوعيين صادقين . ان وضع الزعماء فى موقف دفاع لمخالفتهم الوعود التى أجذلوها والخاصة بتبنى انظمتهم لاستراتيجية جديدة تجاه جماعات المجتمع المدنى الصاعد فى أوربا الشرقية والتضامن مع ضحايا الانتهاكات لحقوق الانسان يعد أحد النجاحات غير المسبوقة للمعارضة .

بولندا : بعث المجتمع المدنى :

لقد انهار المجتمع البولندى فى نهاية السبعينيات بسبب القلاقل السياسية ، وبدلا من مواجهة فشل النظام فى مجال الاقتصاد الموجه وفى تبنى اصلاحات جريئة ، عادت البيروقراطية الشيوعية لاستخدام الديماجوجية والارهاب للحفاظ على الوضع الراهن . ان الحاجة لحركة تضامن المستقلة — التى لا تخضع لسيطرة الحزب — كمنظمة بديلة قادرة على استيعاب المطالب الاجتماعية من أجل احداث تغيير سياسى واقتصادى عاجل أصبحت ملحة مما جعل اللعبة السياسية التى أصرت على أن التغيير لابد أن يبدأ من موسكو تفقد فاعليتها . ورفضت الثورة البولندية السلمية المستقلة عقيدة التفرد بالسلطة التى يعمل بها الحزب الشيوعى ، وطرحت برنامجا من أجل تحويل مجتمع الكتلة السوفيتية لنظام التعددية . ان تعطش منظمة تضامن لسبر غور التحديث حرر المواطنين من الأعباء التى أثقلت كاهلهم بسبب الأنظمة البيروقراطية التى كانت تحط من شأن المجتمع المدنى . ان الجهود التى

بذلت من اجل حركة اجتماعية جديده خلقت ندا لا يكل ينازع الحكومة في سلطتها وهي الحركة التي أدت ـ حسبما يرى ماكس فيبر Max Weber الى تقدم وتطور فئة المواطنين القوميين (٥) · ان تطور مثل هذه الحركة ـ مع تضافرها بمؤثرات تلقائية ومؤسساتية كانت احتمالا لم يتصور الستالينيون تحققه · لقد قامت حركة تضامن ـ ميلادا وشهرة ـ بسبب ايمانها بأن النظام القائم فقد سلطانه . ولم يعد نظام جيريك ـ أيدلوجيا وسياسيا ـ هو النموذج التقليدى للتوتاليتارية · ورغم أن المؤسسات القمعية ظلت قائمة الا أن وظيفتها قد قلصت فعلا ، كما رفضت أغلبية الجماهير قبول ادعاء الحزب الشيوعى بالشرعية اذ شعروا بأن « **خمسة وثلاثين عاما من الفوضى السياسية قد جاءت بالأمة لنقطة الافلاس الاقتصادى والسياسى الاجتماعى وان أى حل حقيقى لمشكلة بولندا يتجاوز مجرد اجراء تغييرات فى مجالى السياسة الاقتصادية الى تغيير طبيعة العلاقة بين السلطة والمجتمع المدنى » (٦)** ·

وكشفت حركة تضامن (١٩٨٠ ـ ١٩٨١) أن هيمنة الحزب غير شرعية ونفضت غبار السنين عن العنصر الأصيل الذى تنطوى عليه الارادة الشعبية . لقد فكرت الحكومة البولندية مليا فى اللجوء الكامل للقوة العسكرية لمعارضة حركة الاحتجاج الجديدة فى أغسطس ١٩٨٠ الا أن الحزب الشيوعى وجد نفسه عاجزا فى مواجهة الحركة الاجتماعية التى لا تقاوم . وأبرم ممثلو الحكومة ولجنة الاحزاب اتفاقا فى ٣١ أغسطس ينص على أن الدور القيادى للحزب هو أقصى ما يمكن التفاوض حوله الا أن القيادة الشيوعية اتخذت موقفا دفاعيا · وفى نوفمبر أصبحت منظمة تضامن نقابة عمالية مستقلة شرعية ـ وهكذا أجبرت الحكومة الشيوعية على الاعتراف بحق النقابة المستقلة فى الوجود مما جعل وجودها الأيديولوجى الكلى فى الحكم يبدو كخدعة . وبعيداً عن التمسك بالتفويض التاريخى لحكم المجتمع ظل الشيوعيون فى السلطة بفضل الجمود البحت واستخدام منطق القوة · ولم يستطع الحزب الشيوعى نفسه تجنب بعث المجتمع المدنى ، وبدا ذلك واضحا فى مؤتمر الحزب فى يونيو ١٩٨١ حين بلغ الصراع بين الفلاحين والديمقراطيين والتقليديين ذروته بسبب الامتيازات والتنازلات التى منحت لتضامن .

ان المؤثرات الخارجية وبالتحديد الضغوط الخارجية وخاصة من الاتحاد السوفيتى وجمهورية المانيا الديمقراطية زادت هذه الدراما تعقيداً . وفى خريف عام ١٩٨٠ اصبحت حركة تضامن بالفعل حركة

اجتماعية قوية ، وانضم لصفوفها العمال المفكرون والطلاب والفلاحون. ولم يعد فى المستطاع تأجيل الصراع بين البيروقراطية الحزبية والتحدى الشعبى على يد النقابة المستقلة . لقد دعمت الكنيسة الكاثوليكية - دون تدخل مباشر فى الصراع السياسى وبما لهـا من هيبة وتأثير - المطالب الاجتماعية للنقابة . وفى نفس الوقت حاولت الهيئة الكاثوليكية تهدئة المناضلين الفاعلين فى تضامن ، وسعت لايجاد جسر بين الحكومة والمعارضة . وفى الحقيقة لقد سيطرت ثلاثة اتجاهات رئيسية على الساحة السياسية البولندية طوال عام ١٩٨١ وهى : الحزب الشيوعى - الكنيسة الكاثوليكية - وحركة تضامن التى أخذت فى الانتشار والامتداد . واكتسبت تضامن فى غضون شهور طبيعة هجومية اذ تجاوز جدول اعمالها القضايا الاجتماعية المحدودة ، وهدفت الى التفاوض حول المبادىء الدستورية للأمة البولندية . وفى نفس الوقت وبينما أخذ السوفيتيون فى جلد تضامن بسبب أهدافها التآمرية المزعومة ركز الاعلام الغربى على الاستراتيجية الطليعية للحركة بما فى ذلك استخدامها لوسائل سلمية بعيدة عن العنف من أجل تحقيق التغيير السياسى . ان الاهتمام الذى أبدته وسائل الاعلام الغربى بنضال تضامن لتحقيق العتق الاجتماعى والسياسى مد الحركة بدعم معنوى كانوا فى أشد الحاجة اليه أثناء هجومها العنيف على الشيوعيين الأرثوذكسى فى بولندا والخارج . وأصبحت المجابهة بين الحكومة وتضامن لا مفر منها ففى اكتوبر ١٩٨١ أصبح الجنرال ياروزلسكى الذى عين رئيسا للوزراء وذلك فى فبراير من نفس العام أصبح سكرتيرا أول للحزب الشيوعى وكان ذلك الموقف فريداً من نوعه فى الكتلة السوفيتية وانذر بتوجيه ضربة عسكرية ضد بولندا .

لقد اثارت المطالب الجريئة التى نادت بها حركة تضامن ذعر طبقة الحكام فى بولندا مما جعل الجيش يطالب فى ٣١ ديسمبر ١٩٨١ بتطبيق القانون العسكرى على البلاد ومنذ ذلك الحين تم حظر نشاط تضامن واعتقل زعماؤها ، الا أن تطبيق القانون العسكرى لم ينقذ النظام من مصيره . وبينما حاول النظام العسكرى أن يحصل على أوراق اعتماد جديدة من الشعب وأن يسرح القاعدة الشعبية التى كونتها النقابة اعلن الاتحاد السوفيتى تحت قيادة ميخائيل جورباتشوف بعد عام ١٩٨٥ تأييده للستالينية الجديدة ومن ثم لم يعد حظر منظمة تضامن منطقيا ، وفى عهد جورباتشوف أصبحت التهديدات السوفيتية بالتدخل العسكرى ، بسبب سياسات الزعيم التى تطورت وانتشر اريجها أمرا غير وارد بالمرة . ونظرا للتغييرات التى كانت تتم فى

الاتحاد السوفيتى وبسبب فشل خططه الاقتصادية والاجتماعية فـان ياروزلسكى منح عفـوا عاما عن المعتقلين السـياسيين وألغى القـانون العسكرى ووعد بانتهاج مسيره اصلاحية كما صـدق على سياسـة البروسترويكا لجورباتشوف . وأصبح نصيرا مقربا للزعيم السوفيتى فى حلف وارسو حيث جابه جورباتشوف ائتلافا تآمريا من زعماء رومانيـا وألمانيا الشرقية وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا المعـادية للاصلاح . ولم تكن جهود ياروزلسـكى لاسترضاء الجمـاهير كافية لاقنـاع المجتمع البولندى بمصداقية سياساته .

ان رفض الحكومة البولندية منح الشرعية لتضامن وتشويه صورة الفاعلين المدنيين البارزين ، أقنع البولنديين بأن نظام ياروزلسكى لا ينوى حقا التخلى عن الارث البغيض للقمع ، ومن ثم كان انفجـار الأزمـة الجديدة حتميا خاصة فى ضوء مشكلات الأزمةالاقتصادية المتزايـدة واتساع هوة الخلاف بين السلطة الرسمية والمجتمع المدنى المتنامى . لقد فسر ج. اف براون J. F. Brown المراقب المتمـرس للشئـون الشرق أوربية الاضطراب الذى ساد بولندا قبيـل اجتياح ١٩٨٩ فقال :

((حقيقة ، ان صورة بولندا الآن تمثل مجتمعين ـــ ((الرسمى)) و ((البديل)) . ويتكون ((الرسمى)) من كيان النظام وعدد كبير من الناس التى تتعاون بارادتها أو عدم ارادتها مع النظام . والمجتمـع « البديل » الذى يلعب فيـه الشـباب ـ وهم يتخبطون ـ دورا عظيمـا ، مستخدمين وسائل اعلامهم الخاصة ، وهى الأنشطة الأدبية والثقافية والتربوية . ويتجنب المجتمـع « البـديل » الاصطدام بالمجتمع «الرسمى» كلما كان ذلك ممكنـا . لقـد وجـد المجتمعـان فى جميع بلدان أوربا الشرقية الشـيوعية ، الا ان الهـوة بينهما لم تـكن بمثـل عمـق تلك التى وجدت فى بولندا اذ لم يكن المجتمـع « البـديل » قد نظـم جيـدا وبالتـالى لم يستقل ذاتيا » (٧) .

ان قرب وقوع أية أزمة جديدة يتـوقف على مدى السـطحية التى سيبديها النظام القائم نحو ما يجرى فى بولندا . ورغم الجهود المتواصلة التى تبذلها الاحلام الشيوعية لزرع نظم على الطراز السوفيتى فى شرق أوربا واضفاء الشرعية عليها الا أن النظام فى بولندا لم يظفر بموافقة شعبية حقيقية . وفى بولندا ـــ اكثر من أى بلد شيوعى آخر ـــ أصبح فقـدان القيادة الشـيوعية لشرعيتها جليـا . لقـد آمنت فئات معينة داخل الحزب الشيوعى فى عام ١٩٥٦ بأن التغيير يمكن أن يولد من رحم الحلقة الشيوعى تحديدا من الجناح « المسـتنير » ولكن بعد سحق ربيع براغ ، ...

وقمع ١٩٦٨ المعادى للمبدعين فى بولندا وأصبحت هذه القناعة مجرد وهم يتعذر الدفاع عنه . لقد عانت الشيوعية منذ قيامهـا فى أوربـا الشرقية من أزمات مستمرة ، أزمة السلطة والشرعية ، أزمة الأخلاق وبالطبع أزمة الفاعلية الاقتصادية . لقد عانت الانظمة من نوعين من الازمات ظاهرة وكامنة ، وعندما فقد الحزب الحاكم ثقته بنفسه وظهر الممثلون السياسيون كبديل تحـولت الأزمات الكامنـة لمواقف ثـورية . ولا بد ـــ حسبما ترى اللينينية الكلاسيكية ـــ لكى تقع الثورة أن يكف الحكام عن اللجوء للأسـاليب القديمة وأن يكف المحكومون عن الامتثال للاسـاليب البالية .

وتم التخلى عن الرمزية السياسية الزائفة للنظـام القـديم وألغى كل ما هو محظور سياسيا ، وتحطم فجأة الحاجز الذى يمنع التجريب السياسى ، وانقلب المبـدأ الكلى للحقيقـة السـياسية رأسا على عقب تحت وطأة هذه الظروف ، وسطع نجم هؤلاء الذين شهرت بهم السـلطة باعتبارهم « أعداء للشعب » كرموز حقيقية للأمل القـومى لتحقيـق « الخـلاص » ويشمل الانتقـال عادة تعـديلا لنسـيج السـلطة . وصرح لجماعات اجتماعية وسياسية جديدة بالانضمام للكيان السياسى .

وأصبح خلق مناخ شعبى باستعادة الهيبة المدنية أمرا له الأولوية بعد أن حقرت الأصول الستالينية من شأن المجتمع المدنى وجعلت من أفراده وبالقوة مجرد صبية يقومون بأعمال صبيانية ، ولكى يستعيد المجتمع المدنى لهيبته كان لابد أن يصل لأقصى درجة من الوعى بذاته . لقد شملت الضغوط النفسية التى مارسها ستالين زرع الخوف من الكائنات الانسانية التى تتورط فى أنشطة سياسية توصف بأنها تخريبية . ان أى شكل من أشكال النقد والاستغلال يعنى ـــ حسبما ترى التوتاليتارية ـــ هجوما على ادعاء الأمة وتظاهرها بالمعرفة والقدرة الكليتين . وأشار جاسيك كورن الفاعل المدنى البولندى الى أن بزوغ الحركة الاجتماعية الجماهيرية فى بلد شيوعى سيعقبها نتـائج ستكون أكثر قوة من أى محاولة يقوم بها النظام لاجهاضها ، ولا يمكن أن يتم هذا التطور دون نضوج المعارضة ودون النيل من استبدادية النظام الستالينى فقال :

« ان الأمر يرجع لعام ١٩٥٦ . اننا لم نتخل عن الشيوعية بعـد ، ولكننا مع الرأى القائل بأن الحركات الاجتماعية يجب أن تكون مستقلة عن الحزب والحكومة . لقد مرت العلاقة بين المفكرين والعمال بأوقات عصيبة خلال الفترة من ١٩٦٨ الى ١٩٧٠ وفى عام ١٩٦٨ أدرك المفكرون ضرورة التحالف مع العمال . وبعد عام ١٩٧٠ وصل العمـال لنفس الاستنتاج . وأفـرزت التجربـة لجنة الدفـاع عن العمال (KOR)

التى اثمرت محاولاتها لتعزيز قدرة الحركات الاجتماعية على تنظيم نفسها ثمارا رائعة وذلك فى عام ١٩٨٠ » (٨) ٠

وأضاف كورن وهو واحد من مؤسسى المعارضة البولندية وأكفأ واضعى استراتيجيتها قائلا :

« حقيقة ٠ لقد قمعت تضامن وتحولت للعمل السرى ، ولكن هذا لا يمكن ان يغير حقيقة أن اسس النظام التوتاليتارى قد قوضت ٠ لقد خلقنا ودعمنا حرية التعبير حتى أن السلطويين كان لا بد لهم أن يفتحوا نار الاعلام الرسمى علينا ٠ وبسبب ما مارسته تضامن السرية من ضغوط فان كل تلك الحركات الاجتماعية التى طال صمتها لم تعد مجرد دمى ، هناك طريق واحد : من التوتاليتارية الى الديمقراطية ، ولقد قطعنا فى سبيل ذلك شوطا كبيرا » (٩) ٠

ان بقاء تضامن فى بولندا فى ظل القانون العسكري وقدرتها على خلق ثقافة مضادة عن طريق دور النشر ، وصناعة الأفلام ، والجرائد والمجلات التى لا تحصى ، وأشكال أخرى من الفعاليات الاجتماعية المستقلة يكشف مدى ما خسره النظام وعجزه عن ممارسة طرقه القمعية التقليدية ٠ وكانت بولندا بلدا تحكمه دكتاتورية فظة تستخدم القمع والجمود الاجتماعى والمناورة والتهديد بشبح التدخل السوفيتى الذى لا يقهر الا أن ذلك لم يجعل قيام المعارضة بدورها مجرد فكرة دونكشوتية بل لقد تمتع البولنديون حتى فى أحلك ظروف القمع الذى استخدمه النظام العسكرى بمجال أرحب للعمل من اجل الحرية ولممارسة أنشطة أكثر استقلالية من تلك التى أتيحت للرومانيين تحت حكم الديكتاتور شوشيسكو ٠ ويعود الاختلاف بين النظامين للضغوط التى مارستها الحركات الاجتماعية البولندية على الجسد السياسى ، اذ أن تضامن خلقت ــ رغم هزيمتها المؤقتة ــ احساسا بالوحدة السياسية والثقة المتبادلة وهما الصفتان اللتان لم تتمتع بهما الدولة التوتاليتارية التقليدية ابدا .. وحقيقة فان جيل المعارضين بما قام به من تحد ــ أثناء الحكم العسكري ــ قد أدى مهمته على أكمل وجه وضمن ديمومة الصراع رغم غياب زعمائه التاريخيين فى المعتقل ٠ وظهرت صحيفة تضامن السرية تيجودنك مازوفتس Tygodnik Mazowsze للوجود دون انقطاع وبلغ توزيعها خمسين الف نسخة ٠ وتكونت اللجان غير الرسمية لجمع التبرعات لعائلات المناضلين المعتقلين وغيرهم من ضحايا القمع ٠ وفى الوقت الذى بدا النظام مسيطرا تماما على مجريات الأحداث ، استمرت حركة المجتمع المستقلة بل وازدهرت ٠

« اذا كان القانون العسكرى عقبة فى طريق المجتمع المستقل ، فان الوضع التوتاليتارى يعد كارثة » (١٠) .

هكذا قال آدم متشنك بعد اطلاق سراحه من المعتقل ، مفسراً التناقض الذى وقعت فيه السلطة الحاكمة بعد فشلها فى كسب أى دعم شعبى وهو الدعم الذى يعد مهما لها كيما تستمر فى السلطة .

ان ظهور تضامن فى اغسطس ١٩٨٠ ومطالبتها بالتدخل الدائم فى الشئون القومية أدى خلال وقت قصير الى حتمية التغيير فى بولندا خاصة بعد ظهور نواة جديدة على الصعيد السياسى التف حولها المناضلون الانسانيون المدافعون عن الحقوق المدنية وقد تمتعوا دوما بصورة جميلة Bona fids فى عيون العمال الراديكاليين . لقد حققت لجنة الدفاع عن العمال انجازا عظيما فكان مجال نشاطها الرئيسى المجال الاجتماعى بجانب المجال السياسى .

ورصدت اللجنة انتهاكات الحقوق المدنية ، كما نوهت عن أسماء هؤلاء الذين تورطوا فى مثل هذه الجرائم . ان روح لجنة الدفاع عن العمال كما أسماها جان جوزيف ليبسكى هى اللقاح الطبيعى لجنين المجتمع المدنى البولندى ، وقد ارتكزت على رفض مطلق للأكاذيب الرسمية .

« الصدق هو أهم المبادىء الأخلاقية التى تتبناها لجنة الدفاع عن العمال . وهذا المبدأ له — الى حد كبير — أسس ومبررات برجماتية عن ذلك الذى يشجب العنف والكره . لقد لجأت السلطات للمناورة والمساومة عندما تحرت اللجنة الصدق وقالت الحقيقة . لقد كان الأفضل لها ان تشجب الزيف ليساعدها ذلك على كسب الثقة عن الاستسلام لاحتمال أن الحقيقة التى تخفيها السلطة سوف يكشفها الاعلام » (١١) .

وعندما تكونت لجنة الدفاع عن العمال فى عام ١٩٧٦ بلغ عدد أعضائها ٥٩ عضواً فقط . وبعد عام واحد غيرت الجماعة اسمها الى اللجنة الاجتماعية للدفاع عن الذات Social Self-Defence Committee وأدرك جاسيك كورن وآخرون ممن لهم الخبرة فى صراعات المعارضة فى بولندا أن المجتمع المدنى — اذا لم ينظم حركته — سوف يجر بسهولة لمعارك ضارية وستفترسه قوات البوليس المترسة . وفى عام ١٩٧٠

عندما حاول المضربون فى جدانسك Gdansk أن يحرقوا المقر الرئيسى للحزب الشيوعى قال لهم كورن :

« لا تحرقوا لجانهم ، اذهبوا وأقيموا لجانكم » (١٢) .

لقد ساهم عامل آخر فى جعل موقف بولندا فريدا من نوعه وهو تواجد الكنيسة الكاثوليكية على الساحة وحيث نجحت فى مقاومة المحاولات الستالينية لاخضاع النظام لمنظومة معينة ، وظلت — كما أشار ليتسك كولاكفسكى :

« المصدر المستقل الوحيد للسلطة المعنوية فى مجتمع عليل »(١٣).

وتدريجيا وبحلول نهاية السبعينيات ولعجز النظام وفشله فى الاضطلاع بمسئوليات الاصلاحات بدأ تشكيل حلف قوى المعارضة فى بولندا ، وبفضل العمل المضنى الذى قامت به لجنة الدفاع عن العمال وكذلك جهود جماعات المفكرين الكاثوليك الذين وصفهم متشنك ذات مرة بأنهم « المعارضون الجدد » ، أصبح من الممكن خلق علاقة رمزية بين الانتلجنسيا الناقدة والكنيسة والعمال . وبذل المناضلون المدنيون فى لجنة الدفاع عن العمال وشبكة الاتصال الدولية جهودا فائقة لانجاح انفجار ١٩٨٠ . ولم يتمرد العمال فى بولندا على الصعوبات الاقتصادية ولكن على الهرم الكلى للاستبدادية الذى اتخذ اسم « الدكتاتورية » ولم يكن هناك أكثر من المفكرين المبدعين وعيا بأن تخلى النظام عن سلطته المعنوية شيء منطقى ، الا أن العمال أدركوا الفجوة الواسعة بين ما تدعيه الحكومة لتجسيد مصالح البوليتاريا وطبيعتها الأوليجاركية (١٤) البيروقراطية الحقيقية . وفى هذا الصدد قال كولاكفسكى :

« يمكن للمرء أن يرى منذ بدايات الاضرابات فى صيف ١٩٨٠ أن العمال كانوا على وعى تام بحقيقة أن الصراع من أجل الحصول على حريات ثقافية جزء أساسى من قضيتهم وأن هذه القضية ستخسر اذا لم يترجموا معاناتهم لعدد من المطالب السياسية المحددة منها حرية التعبير وحرية النشر ، وفى اطار وضع حد لانفراد السلطة بوسائل الاعلام ألغى العديد من القيود التى فرضت على الكنيسة كما أطلق سراح المعتقلين السياسيين . لقد كان واضحا منذ البداية أن تمرد العمال لم يكن ضد الفقر وظروف العمل المجحفة فقط بل كان — فى الأساس — تمردا ضد حكم البلاد بالأكاذيب » (١٥) .

ما هو الاطار الاستراتيجى الذى ضمن نجاح تمرد تضامن ؟

كيف أمكن للطريقة السياسية والابداعية التى انتهجها الفاعليون

المدنيون البولنديون أن تتجاوز الاجراءات الصارمة التى تتخذها الحكومة؟ يمكننا أن نجد اجابات لهذه الأسئلة فى ضوء المقالات السياسية المدوية لمتشنك والتى بين فيها مبادىء وغايات المجتمع المدنى البولندى.
وحلل متشنك فى مقاله « الارتقاء الجديد » الذى نشر عام ١٩٧٦ التقاليد السياسية للصراع المعادى للتوتاليتارية فى بولندا ، فرأى أن كل المحاولات التى استهدفت تغير النظام والتى جاءت بعد الادانة الشعبية للستالينية عام ١٩٥٦ حملت نفس الأوهام وهى امكانية تغيير النظام من الداخل . واعتقد التعديليون بأن صعود الجماعات الليبرالية لقيادة الحزب سوف يجعل الاشتراكية ذات الوجه الانسانى ممكنة . واعتقد « اليقينيون الجدد » الواحد تلو الآخر — اذ لم يكونوا سجناء « الرؤية الداخلية للحزب » — فى امكانية التأثير على الحكومة من خلال ما سمى « بالتعاون الناقد » . وعارض التعديليون خنوع الحزب للكرملين ووجدوا منبعا لمعارضتهم فى الانسانية الماركسية الأصلية ، ورأوا أن الاشتراكية على الطراز السوفيتى انحراف عن الوعود الأصيلة للمادية التاريخية . ان اليقينيين الجدد واغلبهم من المفكرين الكاثوليك لم يثقوا فى الرؤية الماركسية الا أنهم اعتبروا العلاقة الودية مع الاتحاد السوفيتى دعامة ضرورية لبقاء بولندا . ويقول متشنك :

« اذا اعتبر المرء تنظيم الدولة فى الاتحاد السوفيتى ككنيسة واعتبرنا العقائد الأيديولوجية الماركسية كانجيل ، فان التعديلية كانت موالية للانجيل وتطور تفسيراته الخاصة فى حين ان اليقينية الجديدة شايعت الكنيسة ولكن ايمانا منها بأن الكنيسة ستختفى — ان عاجلا أو آجلا » (١٦) .

ان افلاس التعديلية خاصة فى الستينيات لا يخفى اهميتها كتجربة تستفيد منها الانتلجنسيا الناقدة فى بولندا . ان هزيمة التعديلية تعنى فى دول رومانيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر نهاية الأوهام الخاصة باعادة تشكيل النظام القائم وكان التحرر التراجيدى من هذه الأوهام شيئا لا مفر منه لتحقيق الصحوة . ان تفكك السلطة فى الدول التى غابت أو قمعت فيها التجارب التعديلية مثل بلغاريا ورومانيا وصعود تيارات فكرية بديلة فيهما كان أكثر صعوبة عنه فى بولندا وبلغاريا حيث وجد التعديليون الانسانيون نقدا عنيفا للأحلاف الحاكمة وساهموا فى اعداد مناضلين شبان تخلوا فيما بعد عن العقيدة الماركسية كلية ، وفى ظرف تاريخى حاسم تحدوا النظام بما لديهم من طموح وآمال تفضح التناقض بين الأيديولوجية الرسمية وحقيقة الاشتراكية .

لقد روت التعديلية — رغم سذاجتها وتفككها — ظمأ الثقافة السياسية الشرق أوربية وساهمت فى تكوين الاحلاف السياسية والفكرية المعارضة كما ساعدت المعارك الأيديولوجية التى دارت من أجل محاولة اعادة الوجه الانسانى للماركسية فى تعميق فهم أعمال ميلان كونديرا وكازميرتس براندى Kazimierz Brandy ولا يعني ذلك ان هؤلاء الكتاب لم يعبروا الا عن الصراعات السياسية — لأنهم عبروا عن المبادىء العليا التى شملها الصراع بين الرجعيين الأيديولوجيين والموالين للتعديلية . وان التعديلية قامت — من بين أشياء أخرى — برد الاعتبار لمفهوم الانسان الذى تجاهلته عقائد الحزب كما أكدت على ضرورة المشاركة فى نقد الوضع الراهن مشيرة الى أن الائتلاف الحاكم لم يكن حصينا كما يبدو — لقد تخطى التعديليون نطاق الفعالية الاجتماعية التى ازدهرت فيما بعد من خلال الحركات اللا ماركسية والمعادية للماركسية التى نشأت فى السبعينيات والثمانينيات الا أن موطن الضعف فى هذه الحركات هو محاولتها اضفاء المثالية على السلطة القادمة واعتقادهم فى امكانية اصلاح عيوب النظام ومن ثم لا يوجد أى سبيل للتخلص جذريا من النموذج الماركسى الاجتماعى . لقد فشل ممثلو التعديلية فى طرح بدائل سياسية حقيقية للأنظمة القائمة وكان منتهى آمالهم هو رتق عيوب النظام لا التخلص منه وقال ميتشنك فى هذا الصدد :

((أعتقد أن خطأ التعديليين الفادح لا يكمن فى هزيمتهم فى الصراع داخل الحزب من أجل السلطة (حيث يتعذر فوزهم بها) فقط ولكن فى طبيعة هذه الهزيمة .. انها هزيمة أفراد طردوا من مواقع سلطاتهم ونفوذهم ولم تكن ارتدادا عن برنامج يسارى ديمقراطى سياسى له قاعدة عريضة . ولم يطرح التعديليون أبداً مثل هذا البرنامج)) (١٧) .

ان آخر المواصف التى هبت على الأوهام التعديلية جاءت مع احداث مارس ١٩٦٨ فى بولندا عندما أظهر الحزب الشيوعى طبيعته الشوفينية والفاشية الحقيقية بل اصابتهم صدمة التدخل العسكرى فى تشيكوسلوفاكيا وقمع حركة الاصلاح فيها فى اغسطس ١٩٦٨ — ويمكن القول بأن أحداث عام ١٩٦٨ دقت المسمار الأخير فى نعش التعديلية ، وبات واضحا لكل من أدرك مدى فداحة المأساة التى تمت هذا العام أن الخروج على السوفياتية لن يتم الا بمخاصمة قاطعة لكل الأوهام الماركسية . وكان ليتسك كولاكفسكى الماركسى التعديلى السابق مثالا للرؤية الجديدة الخاصة بالصلة الوثيقة بين رؤية الاممية الماركسية وممارسة الشيوعية فى القرن العشرين حيث قال :

« لقد أصبح سخفا أن نقول ان الماركسية هي قضية الشيوعية القائمة اليوم ، ومن ناحية أخرى فان الشيوعية ليست « خطأ » من شأن الماركسية ولكنها التفسير الممكن الذى يقام على أسس متينة رغم كونها بدائية وقاصرة فى بعض الأمور ·· لقد انتهت عبادة الفرد ــ وهو الاسم الفلسفى الذى استخدمه ماركس بنفس الطريقة التى انتهت بها كل المحاولات السابقة وأسفرت الشيوعية عن وجهها الذى يهدف لاسترقاق الانسان » (١٨) ·

ولكن كيف يمكن للمرء ان يتورط فى الصراع ضد الأجهزة القمعية العديدة التى تستخدم أفظع وسائل للتعذيب ومستعدة للجوء لأية وسيلة للدفاع عن امتيازاتها ؟ . لقد أصاب الاحباط التعديليين لانهيار أحلامهم الا أن اليقينيين الجدد طالبوا بالتوسع فى عالم الحريات المدنية (١٩) التى قبلوا فى سبيلها اعلان تأييدهم للدور القيادى للحزب المهيمن · لقد اكتشف التعديليون واليقينيون الجدد ــ بعد تزايد حدة الموقف ــ أن رؤيتهما كانت بعيدة كل البعد عن استيعاب الحقائق السياسية البولندية التى وجدت فى السبعينيات :

« ان الصراعات بين الجماهير والسلطات كشفت خداع الآمال التى عقدها كل من التعديليين واليقينين الجدد ووضعتهم فى موقف أجبرهم على القيام بخيار مأسوى · وعندما ينشب صراع ما لا بد أن يتخذ المرء موقفا ويعلن مع أى جانب هو المهزومين أم المنتصرين · وعندما يكون الصراع علنيا فان التعديليين المتحدين وكذلك اليقينين المتحدين يختارون حتما طريق الدمج بين السلطات القائمة والفروض التى تطرحها وجهات نظرهم · ان منح الدعم للعمال المضربين ، وللطلاب الذين عقدوا مؤتمراً جماهيريا صاخبا ، وللمفكرين المعتصمين كان تحديا للاستراتيجية الداخلية للحزب الخاصة بايجاد تسوية مع التعديليين واليقينيين الجدد » (٢٠)

وقدم متشنك طرحا ثوريا لتغيير قواعد اللعبة التى جعلت من النظام القائم فى الاتحاد السوفيتى ــ فى ذلك الوقت ــ عائقا رئيسيا للممارسات الجريئة المعادية للنظام · وعلى أية حال فقد رأى متشنك ان الصراع من أجل توسيع هامش الحريات المدنية ممكن ، ومن ثم كانت « الارتقائية الجديدة » أقرب للنموذج الأسبانى عنه للبرتغالى فى طريقة الانتقال من الديكتاتورية للديمقراطية · وبمعنى آخر ، فقد أصر متشنك على الحاجة الى التغيير بشرط أن يكون تدريجيا لا عنيفا مكتسحا أو سريعا مفاجئا · ان الاختلاف بين المحاولات السابقة من أجل التغيير

واستراتيجية منشنك أن الأخيرة قدمت لمجتمع حر وليس للحكام ، ولم يكن ذلك رفضا للرومانتيكية للحقائق الجيوبولتيكية ولكنها ـ الى حد ما ـ كانت تقريبا للمسافة بين مطالب المعارضة والجانب المحافظ بل والرجعى الامبريالى . ان الارتقائية الجديدة قد استندت الى افتراض مؤداه أن المجتمع يمكن أن يقلع عن ادمان التوتاليتارية وأن أفراده يمكن أن يتحولوا تدريجيا لمواطنين ودون الدخول فى صراع مع الحكام . وبدا أن تغلغل البنى القائمة وخلق شبكات متسقة للعمل والاتصال هما أحسن الوسائل التى تؤدى لتقدم هذا النوع من جداول الأعمال . وعلى عكس التجارب السابقة فان الارتقائية الجديدة رأت فى طبقة العمال عاملا جوهريا لتحقيق مثل هذا الانتقال السياسى :

« ان « الارتقائية الجديدة » ترتكز على الايمان فى قدرة الطبقة العاملة التى ـ بمجابهتها الصامدة التى لا ترضخ ـ أجبرت الحكومة فى مناسبات عديدة على تقديم تنازلات مدهشة ..

ومن الصعب التنبؤ بالتطورات التى تجرى فى الطبقة العاملة ، ولكن ليس هناك شك فى أن الائتلاف الحاكم يخشى ـ أكثر ما يخشى ـ هذه الجماعة الاجتماعية . وكان الضغط الذى مارسته طبقة الشغيلة ظرفا ضروريا من أجل ارتقاء الحياة العامة فى اتجاه الديمقراطية »(١٨).

ان فلسفة الارتقائية الجديدة أصبحت محوراً نظريا لنشوء المعارضة الديمقراطية فى بولندا وغيرها من الدول التى تقع فى قلب أوربا الشرقية . وكتب متشنك ببصيرته الناقدة عن الأحداث التى مرت فى بولندا بعد ذلك بأربعة أعوام قائلا :

« لابد للمعارضة الديمقراطية أن تحدد أهدافها السياسية لتصل لتسويات سياسية كأن يتمرد العمال فتعلن الحكومة انها « تريد أن تتشاور فى الأمر مع طبقة الشغيلة » بدلا من التخطيط لمذبحة دموية . وعلى أفراد المعارضة الديمقراطية الا يعتبروا رد فعل الحكومة « لانها لم تطلق عليهم النار » تنازلا كافيا بل على العكس ، يجب أن يظلوا على اتصال وثيق ومتواصل بعامة الشعب ويقدموا حقائق سياسية وينظموا أعمال الجماهير ويجب أن تطرح برامج بديلة وفيما عدا ذلك سيكون وهما » (٢٢) .

ويرى متشنك أن تضامن قادرة على تجاوز هويتها كنقابة عمالية لتصبح محوراً يلتف حوله المجتمع المدنى الصاعد . وساهمت طبيعة الحركة المعادية للبيروقراطية وكذلك اتباع برنامج اجتماعى شامل فى تحقيق الصحوة للأمة :

« ان جوهر منظمة تضامن العمالية Labor Union Solidarity التى اخذت فى تحقيق استقلالها يكمن فى استعادة الروابط الاجتماعية ، وتطلب الانضمام للنقابة العمالية ضمان الدفاع عن العمال والحقوق المدنية والقومية . ولأول مرة فى تاريخ الحكم الشيوعى فى بولندا يبعث « المجتمع المدنى » ويصل لتسوية مع الدولة » (٢٣) .

وارتكزت الاستراتيجية الكلية للارتقائية الجديدة على المفهوم السوفيتى للاشتراكية ، بمعنى أنها ارتكزت على ادراك المجتمعات المدنية بأن جهودهم القصوى تتوقف على الهامش الذى يمنحه السوفيتيون فى اية دولة تابعة لاجراء تغييرات سياسية . ونشبت الصراعات الشرسة فى الاتحاد السوفيتى الذى يحكمه عصبة من الحكام المسنين البرجنيفيين المتشككين فى التغيير باعتباره خطرا يحيق بالمصالح السوفيتية . وقدم ليخ فاونسا Lech Wilesca المتخصص فى الكهرباء والذى تخرج من الترسانة اللينينية Lenin Shipyard فى جدانسك والذى أصبح رئيسا لمنظمة تضامن ومن خلال سيرته الذاتية تبريرا لسياسات « الثورة المقيدة » كما اسماها آدم متشنك الذى لعب ولسنوات عديدة دور المستشار لقيادة المنظمة المستقلة . وقدمت سيرة حياة فاونسا رؤى تفصيلية عن المعضلات الاستراتيجية والفلسفية للمعارضة الشرق أوربية فى العهد الذى سبق مجىء جورباتشوف فقال :

« الحقيقة انه بدون اتفاق بين الحكومة والشعب ، ستصعب قيادة هذا البلد ، والحقيقة أيضا أنه رغم البيانات الرسمية عن المهام القومية ، فان هذا البلد لا يتمتع حقيقة بسيادته بل لا بد ان يعترفه البولنديون بأن سيادتهم مشروطة بالمصالح القومية والأيدلوجية لاتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية ، واخيراً فان الحكومة البولندية الوحيدة التى سيقبلها زعماء اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية هى الحكومة التى يسيطر عليها الشيوعيون ، وليس هناك ما يستدعى الاعتقاد فى ان الأمور ستتغير فى يوم وليلة ، أبداً لن يحدث .

ما الذى يستتبع ذلك ؟ يستتبعه ان اية محاولة يقوم بها النظام ضد ارادة الشعب ستؤدى حتما لكارثة ، وسيتبعه أيضا أن كل محاولة للاطاحة بحكومة الاضرابات البولندية هى ضربة مباشرة موجهة لمصالح اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية . هذه هى الحقيقة ويجب على كل فرد أن يدركها .

لقد وجه لي زملاء كثيرون اللوم ، واتهموني بالتخلي عن المطامح الخاصة بالاستقلال والديمقراطية — والآن أجيب عليهم بصراحة : في وضعنا الجيوبولتيكي الحالي لا أعتقد بأن الوصول للاستقلال والبرلمانية في مقدورنا الا انني اعتقد في امكانية التخطيط للاستقلال من الداخل ، وبمعنى آخر عندما نصبح مجتمعا أفضل على مستوى التنظيم والفاعلية فاننا سنثرى أوربا وبقية العالم ويمكننا أن نقدم خياراً بديلا معلنين عن تسامحنا وانسانيتنا . وعندما نقوم بذلك سنكون على درب الاستقلال والديمقراطية .

ان التعددية في كل مواقع حياتنا ممكنة ، وازالة الرقابة ممكنة ، والاصلاح الاقتصادى المنطقى ممكن ، والسياسة الاجتماعية العادلة ممكنة ، الصحافة والتليفزيون الخاضعان لقواعد المنافسة وبث الحقائق ممكنان ، استقلال العلوم واستقلال الجامعات ممكنان . وسيتبع ذلك تحكم مجتمعي في الاسعار وشبكة من مجالس المستهلكين يواكبهما محاكم قضائية مستقلة وأقسام للشرطة لا يعذب فيها الشعب .

سنحقق ذلك بالقوة لو لزم الأمر — بل سننتزعه من الحكومة فالحقوق لا تؤخذ أبداً كمنحة . لابد أن نكون حذرين اذا اضطرتنا الضرورة لاستخدام العنف كي لا تمزق الدولة البولندية اربا وكي لا نحرمها من سيادتها التي لها بالفعل (٢٤) .

ان كلام متشنك السابق دعوة لنبذ السلبية ، وتضمنت مهمته التي بدأت أثناء حركة احتجاج الطلبة في جامعة وارسو في الستينيات ، تكوين منظمة الدفاع عن العمال ، والمشاركة في فريق ليخ فاونسا من المستشارين ، ان فلسفة الارتقائية الجديدة كانت محاولة لايجاد مخرج من الورطة التي خلفها نظام ما بعد التوتاليتارية — أو في ضوء النهاية التراجيدية لربيع براغ وعدم اجراء تغييرات أساسية في مركز الامبراطورية واعتبار الكرملين بلدان اوربا الشرقية امتدادا طبيعيا لامبراطوريته الداخلية أدرك المناضلون أن أية محاولة لتحدى وتغيير شكل السلطة الحالي ستؤدى حتما للتدخل السوفيتي . ورغم كل الظروف كان لدى المناضلين المدنيين الكثير ليحققوه في البلدان الأوربية الشرقية المركزية وأهمها انشاء بنى متناسقة من المؤسسات ومن ثم أصبحت الحاجة ملحة لانشاء منظمة كتضامن . ولم تكن المنظمة الجديدة مجرد حركة يقتصر عملها على الدفاع عن مصالح العمال ، بل كانت — كما أشار فاونسا نفسه — صعوداً لشكل جديد من السياسات حيث عارضت الازدواجية التي يمارسها الحكام . وفيما بعد سيتحدث فيتسلاف هافيل

عن سياسة المصارحة وهو المعنى الأعمق الذى يكمن وراء انتصارها على مبادىء السياسة الواقعية Real potitik ، لقد تحول الحكم لحركة جماهيرية وانتصار للعقيدة الانسانية على البزجماتية البيروقراطية . ويضف ليخ فاونسا ــ فى سيرته الذاتية ــ تجربة تضامن على انها بداية لشكل جديد من السياسات ، وتجربة تضع فى الاعتبار المخاطر القضوى التى تتحدى الانسانية وحقوق الانسان . ان السياسات الجديدة لا تصف المجتمع الشعبى بالعصبوية ، وتؤكد على حق كل فرد فى الاختلاف وحق العصيان المدنى . ان أهمية منظمة تضامن يرجع لتجاوزها حدود بولندا ، فكان ميلادها أحد التطورات التاريخية التى رفعت الستار عن فصل جديد فى تاريخ الأمة القومى بل وبشرت بنظام عالمى جديد . وقال فاونسا فى هذا الصدد :

« ان تضامن هى اشارة أخرى تدل على بدء العهد الجديد . وان احمال الماضى قد زالت عن كاهلنا ، وهى تحثنا على البحث عن حلول جديدة ، وتحثنا على تحدى المشكلات المعقدة . اننا ــ البولنديين ــ تعرضنا لضغوط من كل الجوانب وكان لزاما علينا ان نختار ، ان نتحقق من التجربة من أجل انفسنا ، وأن ننشد من أزر بعضنا البعض وأن نستخلص من أعماقنا القوة المعنوية الضرورية للتأثير والتغيير . ورغم اننا كبلنا بقيود النظام المتحجر وعواقب حقبة خارج العصر وخارج كوكبنا ، فاننا فى أغسطس ١٩٨٠ قد تجاوزنا كل المخاطر وعجلنا بفجر عهد جديد . ان الأمة البولندية قد حققت ذلك أمام أعين العالم وبمنتهى القوة ودون تهديدات ودون عنف ودون دماء، واننا لم نطرح أيديولوجيات، ولا نظريات اقتصادية او مؤسساتية ، اننا ننشد ببساطة الكرامة الانسانية . وفى كلا المعسكرين الحر وغير الحر ، فان هذا الحدث البطولى قد اعتبر عملا ثوريا . ولكننا لا نرى فيما حدث اى شىء ثورى . اننا شعرنا بالفوضى التى نعيش فيها منذ سنوات طويلة وبدأنا نعرف أين نقف » (٢٥) .

ان النظرة الاستراتيجية التى قدمتها الارتقائية الجديدة تضمن ازدهار ثقافة سياسية بديلة فى بولندا دون حدوث صدام مباشر مع الائتلاف الحاكم .

لقد حاولت الحكومة البولندية القضاء على تضامن فى ١٩٨١ لاهتماماتها بمستقبل النظام السياسى وتحولها بقوة سياسية فتية بل وبسبب ضغوط الاتحاد السوفيتى . ويمكن للمرء أن يتصور رد فعل برجنيف وسيسلوف واللينينيين الأرثوذكس الآخرين على صعود نقابة مستقلة فى دولة تقع الى جوارهم .

لقد انتابهم الذعر خشية تحول تضامن لعدوى تصيب باقي دول أوربا الشرقية وربما الاتحاد السوفيتي نفسه · أن اعلان ياروزلسكى للقانون العسكرى لم يرجع كلية لاحتمال التدخل السوفيتي المباشر فى شئون الدولة . ان الدليل الواضح على طبيعة سقوط ١٩٨١ الذى خطط له منذ أمد ظهر فى وسائل الاعلام البولندية أثناء الحملة الرئاسية فى ديسمبر ١٩٩٠ عندما ترك ياروزلسكى الساحة السياسية وانتخب ليخ فاونسا رئيسا ، وطرح — على الفور — خيار التدخل العسكري السوفيتى وتم حظر جميع أنشطة تضامن بعد أن وقعت اتفاقيات جدانسك فى أغسطس عام ١٩٨٠ وقبل ممارسة الاتحاد السوفيتى لضغوطه (٢٦) . وفيما بعد وبعد أن تغيرت رؤية الاتحاد السوفيتى للعلاقات التى تربطه ببلدان الكتلة قرر الكرملين ترك الحرية لكل بلد ليتبع مسارها السياسى الخاص بها ، وتم استبدال الحدود الجيوبولتيكية الصارمة والتى فرضت تاريخيا لاحداث العزل التام لتلك الدول بغرض افساح المجال للتجريب ·

لقد فشل حكام بولندا فى اجراء اصلاح اقتصادى فعم السخط الاجتماعى وأضرب العمال وأصيبت الصناعة بالشلل . ان تضامن استمرت سراً رغم محاولات السلطة لقمعها . ان شبكة الصحافة السرية المستقلة التى تمتلكها تضامن ساعدت فى عودتها للمسرح السياسى فجأة باعتبارها ممثلا سياسيا يحظى بمصداقية كبيرة ·

وبحلول عام ١٩٨٨ أصبحت القضية تحدى النظام السياسى نفسه وتفرد النظام بالسلطة السياسية فى بولندا . وساعدت الارتقائية الجديدة فى تحويل الموقف لعمل ثورى خاصة بعد أن أثبتت الاصلاحات التى جربت فشلها وعدم جدواها .. ان تجاوز الوضع الراهن من خلال تنظيم انتخابات حرة كان البديل الوحيد لوقف هذه المعاناة . وقد علق البريطانى تيموثى كارتون آش Timothy Carton Ash محرر المقالات السياسية المتمرس قائلا : « ان ما حدث فى الشهور الأولى من عام ١٩٨٩ فى بولندا والمجر ليس مجرد رتق تقليدى للنظام أو مجرد تحكم المعارضة فى قواعد اللعبة البالية ولكنه كان — الى حد ما — دمجا للاصلاح والثورة معا فى خليط استراتيجى فريد انطوى على تبادل للثقة وقبول الحكومة لشريك — اى المعارضة الديمقراطية — وهو الشىء الذى كان يعد المستحيل عينه . ورأت المعارضة أنها للمرة الأولى تدخل فى صفقة تاريخية يمكن أن تصل بهم الى السلطة » ·

ان انقسام الشعب لفريقين « اصلاح أو ثورة » اصبح شيئا مألوفا فى بولندا والمجر فى بداية عام ١٩٨٩ :

« ان ما يحدث الآن هو خليط واحد من الاصلاح والثورة : ان « ثـورة اصلاح » أو ربما « اصورة » • وفى الاثنين هنـاك مؤثر قـوى وجوهرى لاجراء اصلاح فدائى وحتمى تقوده الأقلية المستنيرة (اقول الأقلية فقط) فى الأحزاب الشيوعية التى مازالت تحكم وتتربع — فى بولندا على قمة القوة العسكرية والبوليس . ان تقدمهم يكمن فى تقهقر للسلطة غير مسـبوق ، وشرعوا فى اقتسـام السلطة والحـديث عن الانسحاب منها فى نفس الوقت اذا خسروا الانتخابات » (٢٧) .

هذا ما حدث فى ثورة عام ١٩٨٩ حيث زالت كل الاعتبـارات السـابقة الخاصـة بالبرجماتية التكتيكية كما رفعت كل الأعباء عن كاهل الشعوب وذلك على أثر هامش المرونة السوفيتى الجديد الذى منحته للدول التابـعة .

ان جورباتشوف أقر فى السبعينيات والثمانينيات فلسفته الجـديدة الخاصـة بالعلاقات الدولية والتى ارتكزت على سيادة القيم الانسانية العالمية ، ولم يكن يخطر لأحـد أن اسـتمرار الهيمنة على كل بلـد أوربى شرقى يمكن أن يتحطم بمثل هـذه الطريقة الراديكالية • وأصـبح حتميا على استراتيجية المعارضة ان تركز على تدشـين حقيقة اجتماعية جديدة تختلف عن ذلك الاطار المؤسسى الرسمى الذى يرتـكز على الاكراه والأكاذيب .

✻ السياسات المضادة للسياسات : كيف يزغ المجتمع المدنى :

ان الكاتب التشيكى المدافع عن حقوق الانسان فيتسـلاف هافيـل كان افضل من عبر عن الالتزام بسياسة المصارحة . وانضم هافيـل ـ اثناء ربيع براغ ـ للمفكرين الذين انتقدوا مصلحى الحزب لجبنهم عن اختراق النظام السوفيتى التقليدى ، فحرم الشاب الذى تنتمى اصوله لاحدى العائلات البرجوازية من حقه فى استكمال تعليمه الجـامعى وعانى هافيل من سياسة التعصب والتمييز بين الأفراد التى تنتهجها الحكومة، كما اكتشف عدم وجود علاقة تربط بين ديماجوجية النظام والحقيقـة الاجتماعية لتشيكوسلوفاكيا ، وعبرت مسرحياته عن ورطة الانسـان الذى يعيش تحت نظم معادية للحقيقة والكرامة . ورفض هافيـل بعد الغزو السوفيتى لبلده الهجرة واستمر فى النضال من أجل الحصول على الحقوق المدنية فكان عضوا مؤسسا لميثاق ٧٧ ، وأحـد المتحدثين الرسميين عنه ، واعتقل هافيل عـدة مرات بسبب صراعه الذى لا هوادة فيه مع السلطة • وفى عام ١٩٧٩ قرر المنشـقون التشيكوسلوفاكيون البولنديون أن يتعاونوا لنشر مجموعة من المقـالات بعنوان : « الى الحرية

والسلطة » ، الا أن الطبعة التي صدرت تضمنت اسهامات تشيكوسلوفاكية فقط عن الموقف السياسي في كلا البلدين ولكن البولنديين اطلعوا عليها وقدروها حق التقدير . واشار زبجنيو راجيك زعيم منظمة تضامن وارسو Warsaw Solidarity للمقال الذى حرره هافيل فى هذه الطبعة وكان بعنوان « قوه المقهورين » حيث قدم للمعارضة من خلاله « الخلفية تاريخية ، والأساس النظرى لأعمالنا » (٢) . لقد ابدع هافيل عندما دمج وبطريقة مؤثرة الأفكار والآمال والعواطف التى عبرت عنها الجماهير بعفوية وبشكل راق . وقدمت الحركات الجديدة فى أوربا الشرقية تفسيراً نظريا يقنع الجماهير بشرعيتها السياسية . وتم اعادة طبع هذا الملف من المقالات التى حررها المفكرون المبدعون الا أن مقال هافيل قدم تحليلا مركزا وجامعا لطبيعة السلطة ، والانشقاق ، والمعارضة فى مجتمعات ما بعد التوتاليتارية .

ويتعرض مقال « قوة المقهورين » للأزمات المعنوية العتيقة التى يعانى منها الفرد في المجتمع غدا فيه الارهاب متفشيا ومتخفيا فى آن واحد، بل انه لجأ لكل أنواع القمع بشكل غير مسبوق . وطرح مقال هافيل استراتيجية لتحرير الفرد كما طرح بديلا لفلسفة الاستسلام والعجز التاريخيين .

وكان هافيل يؤمن بامكانية دحض منطق الاندماج وان الحرية مطلب لا يمكن قمعه ابداً .

ويصف المقال الموقف السياسى والمعنوى فى تشيكوسلوفاكيا المحايدة فى عهد هوكسا حيث أصبح التجاهل والتناسى سياسة قومية رسمية ، كما اكد المقال على امكانية انهيار المجتمع التوتاليتارى الذى يعانى من الاضمحلال .

ان التزام النظام بحد أدنى من المصارحة يعطى الفرصة للأفكار الناقدة كى تأتى فى الصدارة وتحدث الأثر الاجتماعى المرجو منها . ويتعامل مقال هافيل تحديداً مع المنطق الاجتماعى والمقدمات السيكولوجية للانشقاق ويحدد السمات التى تميز مجتمع ما بعد التوتاليتارية ، ان مجتمعات ما بعد التوتاليتارية سمحت بأشكال وليدة من التمردات اذا ما قورنت بالأوضاع الستالينية حيث خضعت كل أشكال النقد الحقيقى والبناء للقمع الفظ . ان الجهود الجماعية التى تبذل من أجل التحرر القومى كانت مستحيلة فى بلدان مثل ألبانيا ورومانيا ، ذلك لأن أنظمتهم جمعت كل خيوط السلطة فى يدها ـ وصاحب التخلص

من السلطة الشيوعية في تشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندا السماح بهامش محدود من الأعمال النقدية . لقد تميز نظام ما بعد التوتاليتارية بسمتين : الأولى اعتماد النظام الفاشي على الأوتوماتيكية (٢٩) والآلية أكثر مما يعتمد على أشكال التعبئة التقليدية للتضامن والتعاون ، والثانية ايمان الفرد بأن احداث التغيير في الظروف الراهنة لم يعد مستحيلا ، ولم يعد التعاون مع السلطة القائمة هو السبيل الوحيد للبقاء .

لقد اصبح كل فرد ــ القوى والضعيف ــ واعيا بالخدع والاساطير القديمة كما جرؤ البعض على التعبير عن رأيه علانية . ان الاقلية المحاصرة التى تعلن عن رأيها دون خوف هى البديل لاقامة نظام على أسس متينة :

« إن الشبح يطارد أوربا الشرقية ، شبح ما يسمى فى الغرب « انشقاق » ، الا انه لم يظهر للعيان بعد ، انه النتيجة الطبيعية والحتمية للحالة التاريخية القائمة لهذه الأنظمة . لقد ظهر فى الوقت الذى عجز الحكام فيه ــ لآلاف أسباب ــ عن اقامة نظام شرعى دقيق وكيفى بالتخلى عن كل العبارات التى تشجب اللا امتثالية أو الانشقاقية . وفوق ذلك لقد اصبح النظام متحجراً على المستوى السياسى فلم تعد هناك اية طريقة عملية كيما تتفذ الانشقاقية داخل بناه الرسمية » (٣٠) .

لقد تشربت الحياة ــ تحت وطأة الأيديولوجية الستالينية ــ بالأساليب الاحتكارية المستبدة واجبر الفرد على المشاركة فى طقوس جماعية من أجل «الاثارة الثورية، البطولية ، والتفانى والعنف الشديد »، ومن ثم بدت مؤسسات النظام التوتاليتارى منهارة تماما ، وأصيب اداؤه بالاعياء التام .

وما تزال ــ بالطبع ــ الأيديولوجية قائمة ، فى مجتمع ما بعد التوتاليتارية الا انها بقايا من آثار الماضى وعاجزة تماما عن اثارة مشاعر وردود افعال العامة من الجماهير .

ودلل هافيل على الأيديولوجية التى تتصف بالاحتكارية والازدواجية بحكاية رمزية يصف فيها بائعا للخضر والفواكه وقد وضع فى واجهة محله بين البصل والجزر شعاراً يقول : « يا عمال العالم ، اتحدوا ! » . حقيقة ، ان الخضرى لا يعير أى إهتمام لاتحاد بروليتارية العالم أو عدمه ، بالاضافة لذلك فهو يدرك تماما ان وضعه للشعار فى الواجهة

لم يرفع من شان قضية الدولية البروليتارية ، وليس هناك شيء أكثر بعداً عن اهتماماته اليومية من الشعار الماركسى الذى ينادى بوحدة عالمية للعمال . والسؤال الذى يجب أن نطرحه هو : اذا كان الخضرى لا يبالى بمحتوى الشعار فلماذا تصرف على هذا النحو ؟ ويجيب هافيل بأن الخضرى ــ بأدائه لهذه الشعيرة ــ يؤكد للسلطات التى أعطته هذا الملصق انه يتصرف بمنتهى الانضباط ووفقا لما تنتظره منه باعتباره جزءا من الكيان الاجتماعى .

واذا رفض التاجر أن يعرض الملصق فسوف يهدد تماسك هذا الكيان ويقوض قواعد الامتثالية ويتعرض للخطر . ورغم كل شيء فان الخضرى سيسأل نفسه ماذا بشأن عمال الوحدة العالمية ؟ ولماذا يجب ان يضع هذا الملصق بين التفاح والجزر ؟

وقال هافيل ان المعنى الخفى وراء تلميح بائع الخضر والفواكه تعود مباشرة لامتثاليته للأيديولوجية : « ان الشعار اشارة تحتوى فى حد ذاتها على رسالة بصعب فهمها الا انها محددة . ان الخضرى يقول لنفسه :

« اننى الخضرى فلان أعيش هنا واعرف ما ينبغى ان اقوم به . اننى أتصرف بالطريقة التى يتنظرونها منى . ويمكن أن يعتمد على وسابقى بعيداً عن اى لوم . اننى مطيع ولذا فلى الحق فى ان إعيش فى سلام » (٣١) .

واذا رفض الخضرى أن يذعن للشعار فانه بذلك سيمزق السلوكيات السوية التى أقرت اجتماعيا .

ان الفرد فى مجتمع ما بعد التوتاليتارية لن يكون عابداً متحمسا للقائد الأعلى ، ويكفى للمرء أن يصدق على قواعد الإتساق والإندماج باتباعه لها . ان التزام البائع باداء هذه الشعائر يعينه على تحمل النظام ، أما اذا واجهنا الخضرى بأن سلوكه يعد سلوكا ذليلا وخاضعا لأوامر السلطة ، فسوف يدافع عن نفسه قائلا ان عرض هذا الشعار فى واجهة محله لن يضير أحداً . وعلى أية حال فان هذا الشعار فقد ــ منذ أمد ــ كل معنى راق يحمله ، ولم يعد يلقى أدنى اهتمام . وأن وضع الشعار فى واجهة المحل يضمن للخضرى الاحترام فهو يلتزم بما تريده السلطة ولكن ، دون أن يعترف باذعانه الأخلاقى كأنه يقول :

« اننى ضعيف ، وخائف ، ومرعوب ولذا فاننى اكذب » ويقول : « اننى فقط اشايع ــ ولو بطريقة تجريدية . قضية لا تضر ولا تنفع . اننى افعل ما يجب ان يكون ؛ لأن تغيير العالم ليس من شانى » .

ان كشف الزيف الأيديولوجي للعبودية هو الدعـامة الأساسية لنظام ما بعد التوتاليتارية .

« وهكذا فان هذه اللافتة تساعد الخضرى على خداع نفسه كى لا يعترف بأنه ذليل يخضع للسلطة . ان اللافتـة تخفى خلف ظهـرها الخارع شيئا اكبر . هو الأيديولوجيا . ان الأيديولوجيا ليست طريقة موثوق بها لزرع الانتماء . ان الأيديولوجيا تقدم للفرد وهم الهوية ، والفخـر ، والأخلاق ولكنها فى نفس الوقت تجعل التخلى عنهم أمـراً يسـيراً ، وباعتبارها مستودع كل شيء موضوعى « يتجاوز الفرد » فانها تكسب الناس قدرة على خداع انفسهم وتجميل الوضع الحقيقى والتواؤم مع أنفسهم والعالم بطريقة التسويات المهينة . وتلقى الايدلوجيـا كـل تشجيع لأنها تضفى الشرعية على كل شيء . انها موجهة نحو الشعب ونحو الله . انها الستار الذى يمكن للبشر أن يخفوا وراءه « وجودهم الساقط » وتفاهتهم وتكيفهم مع الوضع الراهن . ان كل فرد يستطيع أن يجد عـذرا يبرر به فعلة الخضرى الذى يخفى رعبه ـ خشية فقـد وظيفته ـ خلف مصلحته المزعومة فى اتحاد عمال العالم ، كما يبرر الموظف الكبير مصلحته فى البقاء فى السلطة باستخدام عبارات مقنعـة عن خدمة الطبقة العاملة . ومن ثم فان طريقة التبريرات التى تستخدمها الحكومة تجعل النـاس سواء أكانوا ضحايا الأنظمة التوتاليتارية أم من دعائمها يعيشون فى وهم مفاده ان النظام السياسى فى اتساق مـع المنظومة الانسانية والنظام العالمى » (٣٢) .

ان الأيديولوجية هى بديل للارهاب الصريح وبديل لغـذاء العقل ويستخدمها النظـام للقضـاء على اى شكوك قد تنتـاب مواطنيـه . ان الأيديولجيا حقرت من القيم الإنسانية فقـدست الهزائم المعنوية وجرمت البطولة الأخلاقية . ان انشاء المجتمع المـدنى فى أوربا الشرقية يتطلب التمرد ضد الدور الارهابى للأيديولوجيا .

ان المجتمع المدنى كان محاولة لجعـل المنـاخ الشعبى معـاديا للأيديولوجيا وللخروج من الشكل السياسى الزائف الذى لجأ للمناورة ليمنع ممارسة حقوق الانسان . وحاول المجتمع المدنى ان يعيد ـ دفاعا عن « الاهداف الحقيقية للحياة » ـ تكوين حس اصيل لتحقيق التضامن الانسانى ، كما رفض ادعاء النظام السياسى العالمية واستمر الصراع فى كل بلدان شرق أوربا ـ باسم حق الاختلاف فى التفكير والعمل ـ لتحقيق تحرر المجتمع وعتقه . وفى الوقت الذى استخدم النظام الامتثالية والتفرقة كدعامتين له ، نبع المجتمع المدنى من الابـداع والأصالـة والتفرد .

ان فضح الزيف الذى يحمله جوهر نظام التوتاليتارى و « الآلية العمياء » التى تضمن تكاثر هذا النظام كان أحد أهداف المجتمع المدنى الصاعد . ولا بد ان نفهم — قبل طرح البديل — سمات النظام القائم ، فقد لجأ للمحاكمات الصورية والارهاب البشع لقهر الشعوب ، وافتقر لأى دعم شعبى أصيل ، كما فشلت أيديولوجيته فى استثارة التوهج الجماهيرى ، وبدد النظام — بفساده وجموده — الطاقة البشرية . لقد شعرت الجماهير بحسها الشعبى — ان النظام أفلس ولم يعد بمقدوره تقديم أى شىء لهم الا أن الأقلية هى التى جاهرت بذلك . ورأى هافل أن سرمدية النظام تكمن فى قدرته على المناورة باستخدام الشعارات والرموز · واللجوء الى التعسف والاكراه أكثر من أى شىء آخر ·

« ان النظام التوتاليتارى يطارد أفراد الشعب ، ولكنه يفعل ذلك وهو يرتدى قفازات أيدلوجية ، مما يؤدى الى تفشى النفاق والاكاذيب فى كل جوانب الحياة : فالحكومة البيروقراطية تدعى أنها حكومة شعبية ، وتستعبد الطبقة العاملة باسم الطبقة العاملة ، واعتبرت تجريد الفرد التام من كل حقوقه هو أقصى تحرر يمكن أن يحصل عليه كما تعتبر حرمان الناس من معرفة الحقائق ، نشرا لها ، وتدعى ان المناورة طريقة للتحكم فى الجماهير ، ويسمى الاستخدام القسرى للسلطة باسم التطوير ، ويعد التوسع فى نشر النفوذ الامبريالى دعما للهيمنة ، ويعد كبت الآراء الحرة اسمى شكل من اشكال الحرية وتتحول مهزلة الانتخابات لأسمى اشكال الديمقراطية ، ويصبح حظر التفكير المستقل هو أكثر الرؤى العالمية علمية ، ويعتبر الاحتلال العسكرى مساعدة أخوية · لقد زيف النظام كل شىء ؛ لأنه كان أسيرا لأكاذيبه انه يزيف الماضى ، ويزيف الحاضر ، ويزيف المستقبل · انه يزور الاحصائيات ، وينكر ملكيته لأجهزة بوليس كلية النفوذ وغير مسئولة · انه يتظاهر باحترام حقوق الانسان وبعدم لجوئه للارهاب ·انه يتظاهر بأنه لا يتظاهر بشىء » (٣٣)

لقد قدم هافيل تحليلا بارعا وعميقا للحقبة التوتاليتارية وكشف الأسس التى عمل بها النظام البرجنيفى ورأى انه لم يستخدم الأساليب التقليدية الفظة لارهاب الجماهير ، انه جعل المعاناة أقل وضوحا للعيان وحاول أن يلغى الحاجز بين الضحايا ومعذبيهم ، فالفارق بين هاتين الطبقتين يتلاشى تماما فى ظل نظام يجبر كل شخص على المشاركة فى أكذوبته الكبرى · ان النظام تعلق بالعقيدة الرسمية لأنها مصدر حياته بغض النظر عما تحمله من أكاذيب واضحة للجميع · ان ثقة الائتلاف الحاكم بنفسه تزداد كلما كانت ادعاءاته الأيديولوجية أكثر حبكة وحبطة .

ان الأيديولوجية تنادى بالاقتصاد المخطط وتبرر وضع قيود على حقوق الفرد وتمجد « الدور المقدر » للحزب الشيوعى ، ودونها ينهار النظام تماما . ومع توقف الدعم والتشجيع .

وفى الحقيقة ، فانه فى الوقت الذى يتقدم الاتحاد السوفيتى للائتلافات الحاكمة باعتباره سندها فان الانظمة الشرق أوربية انهارت مثل بيوت من ورق . وأطلق هافيل على نظام المبادىء الأيديولوجية ، والحظر ، وفرض القيود على كل الحريات « النظام الميتافيزيقى » :

« ان النظام الميتافيزيقى كان أساسيا للبنيفية الكلية للسلطة ، وهو نظام يفرز شكلا للاتصال يجعل التغيير الداخلى ونقل المعلومات والتعليمات ممكنا ، كما يضمن الاتساق الداخلى لبنية السلطة التوتاليتارية . انه الصمغ الذى يلحم بناها بعضها ببعض ، انه العقيدة والأداة ، ودون هذا الصمغ فان البنية — كبنية توتاليتارية سوف تسقط وتتحول الى جزئيات فردية متضاربة ومتناقضة مع بعضها البعض فى المصالح والسمات — ان الهرم الكامل للسلطة التوتاليتارية والتى تفتقر الى التماسك سوف ينهار ويتحول الى ركام كما لو كان الانفجار من الداخل »(٣٤) .

ان مثل هذه الفاشية الأيديولوجية ليس لها أى أساس منطقى مقنع ، ويجب على الأفراد — من خلال سلوكياتهم أن يصدقوا على شعاراتها رغم عدم ايمانهم بها لزيفها . ان المفاتيح التى استخدمها النظام التوتاليتارى لفرض هيمنته هى : أن تؤمن ، أن تكذب ، واستخدم تعبير « كما لو » تعبيرا عن آلية الخداع التام للنفس .

« ان الأفراد ليسوا فى حاجة للايمان بكل هذه الألغاز المحيرة ، ولكن لابد أن يؤمنوا بها أو على الأقل يجب ألا يرفضوها أو يلتزموا الصمت ولابد أن يتواءموا مع من حولهم ، ومن ثم فرض عليهم العيش فى كذبة . انهم ليسوا فى حاجة لأن يقبلوا هذه الكذبة ، انما يكفى أن يتعايشوا معها وداخلها . وبقدر ما يصبح ذلك حقيقة واقعة وبقدر ما يعبر الأفراد عن رضاهم عن النظام يظل هذا النظام قائما » (٣٥) .

ان الارهاب المعنوى للجماهير هو أهم ما ترتكز عليه السلطة التوتاليتارية . ويكتسب النظام فاعليته طالما قبل المواطنون أكاذيبه ، وكلما ظل المواطن العادى — الخضرى — مصدقا على هذا الهراء الأيديولوجى رغم وعيه بأنها محض أكاذيب سيظل النظام على حاله .

ان القضية ليست تحديداً لمصدر القمع فى الحكومة ولكنها تحديد الكيفية التى كبل بها الأفراد ببنية السلطة . ان الحكام مسئولون مسئولية مباشرة عن الاجراءات القمعية الا ان المواطنين كرسوا الوضع القائم بطاعتهم العمياء ورفضهم للمصارحة بالحقيقة . ورأى هافيل أن قدرة النظام على تحويل ضحاياه الى شركاء جعل الأنظمة التوتاليتارية تبدو مختلفة عن الدكتاتوريات الكلاسيكية . وتلاشت فكرة التغيير الأصيلة وحاول الأفراد ان يتوافقوا مع ما يبدو لهم أنه الشكل الممكن والوحيد للبقاء ، ويتقبلون ديماجوجية النظام ويرددوا شعاره ومن ثم يدعموها .

ولم يسفر هذا التعقيد عن تردى الروح المعنوية لدى الجماهير وتفشى اللامبالاة بينهم فقط بل عن يأس تام من التحرر من النظام .

ان النظام التوتاليتارى الشزوفرينى لم ينفذ الى المستويات المؤسساتية والسوسيولوجية فقط بل والى الجوانب السيكولوجية والعاطفية للأفراد ، ان الخضرى - عندما يرفع الشعار المضحك الذى ينادى بوحدة البروليتارية - فانه يقول للعالم انها الطريقة الوحيدة للبقاء ، ومن ثم فلا مفر من الامتثال للأوامر الرسمية ، ولكننا نقول له الليبرالية تبدأ من الفرد ؛ لأنها عتق للذات وتحرر من امبراطورية الأكاذيب وتبدأ بقرار من الفرد أن يعيش الحقيقة . ان العتق والتحرر من الزيف المتفشى فى كل مكان لا يمنح من الآخرين ولكنه قرار من الفرد - الخضرى - بأن يضع نهاية لما يرى أنه شكل شاذ من انكار الذات ، انه قرار من الفرد بأن يعيش وفقاً لمعتقداته ، ومشاعره الحقيقية ، وان يرفض الأكاذيب ويعيش الحقيقة . وعندما يرفع الخضرى الشعار من واجهة محله ويرفع صوته بانتقاد مساوىء الحكام ، فانه حتما سيستعدى هؤلاء الذين لم يأخذوا قرارهم بعد وما زالوا رهائن للأكاذيب الرسمية وسوف يزدرونه ويهاجمونه لخرقه القواعد ، وسيتحول لمنشق تجرأ ورفض أن يعيش عبدا الى الأبد . ان تمسك الفرد بانسانيته سمة آدمية حتى لو أدى ذلك للحط من قدره أو الى لفظه ونبذه .

ان أهمية تمرد الخضرى لا تقتصر عليه كفرد فالنظام سوف يقتفى ما قد يتركه مثل هذا التمرد من أثر معد على بقية الأفراد ويقضى عليه .

((ان تمرد الخضرى لم يكن مجرد اهانة وجهها فرد للنظام ولكنه أكثر خطورة من ذلك ، لأن خرقه لقواعد اللعبة سوف يثير الفوضى

وسيفضح اللعبة . لقد كشف عالم الأكاذيب والمظاهر ، وحطم العماد الأساسى للنظام . لقد قلب السلطة راسا على عقب بتمزيقه لما تم دمجه وتوحيده . لقد أعلن أن هذه الحياة عيش فى الأكاذيب ، وكشف عن وجه النظام القبيح وفضح ما يركن اليه النظام من دعائم واهية . ان ما قام به الخضرى يعد خطابا موجها للعالم . لقد جعل الآخرين ينظرون ويحدقون فيما يجرى وراء الستار ، واثبت للآخرين أن العيش فى الحقيقة شىء ممكن . ان العيش فى الأكاذيب يمكن أن يمنح الشرعية للنظام عندما يكون نظاما عالميا . ان النظام لا يمكن — تحت أى ظروف — أن يتعايش مع الحقيقة ، ولذا فان أى شخص يتجاوز الخط المرسوم يعد تهديدا لسلامة النظام وكماله » (٣٦) .

ان تحدى الخضرى السافر للنظام تعبير عن صحوته ورفضه للنفاق الذى هو لب النظام التوتاليتارى . ان كل فرد يعرف تمام المعرفة أن النظام مجرد كذبة واضحة وروتينية الا أن المكاشفة بذلك تعد جنونا محضا وانتهاكا لكل المحظورات — ان تمرد الخضرى يكرس شكلا مختلفا من السلوك يسمح للفرد بالعيش فى الحقيقة ، وهو ما يعنى — بكل المقاييس — الحق فى الحياة وذلك لأن العيش فى الأكاذيب يعنى تشويه الحياة واجبار الانسان باستمرار على أن يخالف ضميره مستشعراً ازدراء النظام واستخفافه بذاته .

ان تمرد الخضرى يعد لكل هذه الأسباب عملا مشينا من وجهة نظر النظام لأنه تهديد لاستمراره وثقته فى اجبار مشيعيه على الكذب الى الأبد :

((ان النظام لا يرى فى عيش الحقيقة ورفض الرياء أى أبعاد انسانية (أى عودة الانسان لطبيعته الأصيلة) أو ابعاد فكرية (الكشف عن الحقيقة كما هى) أو ابعاد اخلاقية (ظهور قدوة للآخرين) . ولكنه يرى أن لها ابعادا سياسية واضحة تماما . واذا كان العماد الأساسى للنظام هو العيش فى كذبة ، فليس من المدهش اذن أن يمثل له العيش فى الحقيقة خطراً محدقاً . ومن ثم فقد لجأ للقمع العنيف لاخفاء الحقيقة)) (٣٧) .

ان قرار الفرد بخرق الدائرة السحرية التى ضربت حوله فيتحدى السلطة القائمة ويعلن الحقيقة كان مقدمة منطقية لخروج المجتمع المدنى للحياة ، وعندما يقوم كل فرد بذلك يقدم المساعدة للمجتمع كى يحيا حياة مستقلة ، ويستوعب اشكالا متعددة لبدائل ووسائل علاجية .

وسوف يحاول النظام بالطبع أن يمحق هؤلاء ، ويقنع الآخرين بأن هذا السلوك لا ينطوى على أى دوافع نبيلة ، ولكنه ينبع من عقل مشوش .

ان الصراع بين آلة القمع والفرد صراع غير متكافىء بالطبع والقادرون على تحمل المشاق المصاحبة لظروف الانشقاق قلة . ان الموقعين على ميثاق ٧٧ ، كمثال ، والذين قضوا أعواما طويلة فى المعتقل عملوا بوظائف وضيعة ولطخت سمعتهم وشوهت صورتهم فى الاعلان الرسمى ، الا أن الفعالية السياسية ، والمشاركة فى مبادرة مدنية غير رسمية يعد خطوة للأمام تساعده فى بلورة خيار سياسى بديل . ورغم أن ميثاق ٧٧ لم يشر الى طبيعته التعددية ورفض أن يقر فلسفة سياسية بعينها الا أنه يعتبر خطوة سياسية هى الأولى من نوعها . وفى ذات الوقت فان معايشة الحقيقة - حسبما رأى هافيل - لا يعنى بالضرورة التزاما سياسيا مباشرا وان الأثر الاجتماعى لرفض الفرد التعاون مع النظام لا يجب أن نبالغ فيه . ان نقطة الانطلاق لهذا الانفصال عن منطق الدمج هى فى الواقع قرار بالتوقف عن الكذب ، ان تعبير الفرد عن رأيه الحقيقى ، ورفضه لقبول الوضع الراهن بأوهامه وأساطيره واضراره على حريته الروحية كلها أشكال من العيش فى الحقيقة تتعارض - فى نهاية الأمر - مع اصرار النظام على احتكاره للسلطة . ان العيش فى الحقيقة ليست بالضرورة شيئا خارقا ولا تتطلب - كى تتحقق - أعمالا فدائية أو استشهادا . وقد اشار هافيل الى ذلك قائلا :

((عندما اتحدث عن العيش فى الحقيقة ، فمن الطبيعى الا يكون فى ذهنى مفاهيم بعينها مثل الاحتجاج أو بيان يكتبه مجموعة من المفكرون . ويمتلك الفرد كما تمتلك الجماعات ادوات ووسائل للتمرد ضد المناورات مثل المنشورات التى يكتبها المفكرون أو اضراب العمال ، أو حجر تلقيه مظاهرة طلابية ، الى مقاطعة الانتخابات المزورة ، أو القاء خطاب صريح فى بعض المجالس الرسمية أو حتى الاعتصام . واذا كان قمع أهداف الحياة عملية مؤقتة تستخدم فيها المناورة المتعددة الوجوه ، اذن - وفى نفس الاطار - فان كل تعبير حر حتى لو كان طبيعيا بالنسبة لأنظمة سياسية أخرى يعد تهديدا سياسيا مباشرا للأنظمة التوتاليتارية)) (٣٨) .

ان رد فعل السلطويين على تحدى المجتمعات المدنية الصاعدة فى السبعينيات والثمانينيات اختلفت من بلد لآخر . ان فرص نمو وتزايد المبادرات المدنية كانت أعظم فى المجر (جانوس كادار وفى بولندا (ادوارد جيريك) عنها فى تشيكوسلوفاكيا (جوستاف هوساك) أو عن

رومانيا (نيكولاى شاوشيسكو) ، وبعد أن تبنى جورباتشوف سياسات الجلاسنوست Glasnost والبيروسترويكا Perestroika اعتبر الفاعلون المدنيون فى بلدان حلف وارسو الحركة السوفيتية الحديثة فرصة عظيمة للتقدم صوب اجراء تغييرات كبيرة . وعندما زار الزعيم السوفيتى اتحاد الجمهوريات الالمانية الديمقراطية فى عام ١٩٨٧ هتف له الشباب الشرق أوربى تعبيراً عن اعجابهم بسياسته وسخطاً على الخط المحافظ الذى ينتهجه اريك هونكر Erich Honcher وتابعوه فى قيادة الحزب الشيوعى . وفى رومانيا حيث تفاخر شاوشيسكو بخلافه مع الاتحاد السوفيتى وجهت القيادة نقدها الرسمى الحاد لسياسات جورباتشوف. وأحكم الحزب الشيوعى قبضته على كل شرائح المجتمع ، ونحولت المعارضة فى هذا البلد كجهود فردية بسبب وجود البوليس السياسى ، وبسبب رد فعل شاوشيسكو المرضى نحو أى شكل من أشكال النقد حتى لو فى أدنى مستوياته .

ولكن العيش فى الحقيقة لم يكن مستحيلا حتى فى مثل هذا البلد ، وكان المناضلون مثل رادوفيليبسكو Radufilipescu (المهندس الشاب فى بوخارست والذى كان أول من أعلن معاداته لشوشيسكو ، ودوانا كورنيا Doina Cornea (المحاضرة الجامعية فى كالى Cluj التى ارسلت لشوشيسكو عرائض لا حصر لها تحتج فيها على مسناره السياسى الذى سيؤدى الى كارثة قومية) ، مثلا يحتذى على التمسك بانسانيتهم وحريتهم حتى فى أحلك الظروف . وتعرض هؤلاء وغيرهم ممن شاركوا فى أعمال المعارضة الجسورة فى رومانيا وبلغاريا لاضطهاد أسوأ مما تعرض له أندادهم فى الأنظمة الأخرى التى كانت أكثر مرونة . ان غياب الحركات الحبوبة فى رومانيا مثل حركة تضامن أو حتى المبادرات الفكرية مثل ميثاق ٧٧ لم تكن تعنى للجماهير أن الحياة المستقلة للمجتمع قد قمعت للأبد اذ أن انهيار المعارضة التام كان — رغم كل شىء — مستحيلا ، واندلعت فى البانيا — الحصن الستالينى المنيع — المظاهرات الطلابية وغيرها من مظاهر الفعالية السياسية وذلك بمجرد ان خمد الارهاب التوتاليتارى فى عامى ١٩٨٩ ، ١٩٩٠ .

ان تناول ملحمة المجتمعات المدنية فى أوربا الشرقية بالدراسة يتطلب دراسة الظروف السياسية التى بذلت فى ظلها الجهود المضنية لخلق لجان مستقلة . وضمن هذه الظروف نجد «الاستبدادية المستنيرة» كالتى لدى قادر الى بارانويا الديكتاتورية المركزية كالتى لدى شاوشيسكو . وقد أصاب هافيل عندما أشار الى أن تناول تطورات المجتمع المدنى فى بلدان مختلفة يتطلب أخذ معيارين فى الاعتبار :

أولا : عنـد تنـاول أثر الأنشطة المستقلة لابـد الا نتبـع طـريقة مقارنة جامدة (اذ كيف نقـارن ظروف بلد بآخـر) ولكن يجب أن نتناولها فى ضوء ظروف كل بلد على حدة .

((ان ما يبدو فى دولة ما على أنه استقلال متواضع ومحدود وحذر قد لا يظهر كذلك فى دولة أخرى — فاذا أعرب المواطن الرومانى مثلا عن انتقاده للظروف القائمة فى بلده ، فان هذه المحاولة قد تبدو دون المستوى ومتواضعة من وجهة نظر المواطن المجرى رغم أن الموقف فى رومانيا كان منذرا ، ومن ثم فان العمل الذى يمـر — فى بلـد ما وفى لحظة ما — دون أن يتوقف عنده أحـد ، قد يبـدو متطرفا ومناوئا فى بلد آخر بل قد يهز المجتمع كله)) (٣٩) .

ثانيا : ان المغزى الاجتماعى الحقيقى لمثل هذه الأعمال لا يعبر عنه — بالضرورة — عدد القائمين بها أو المشتركين فيها .

« القضـية هى ان هـذه الأعمال لها آثار غير ملمـوسة ، والمغزى الفعال لا يمكن دائما وبالضرورة ان ينبع من حجـم الظـاهرة التى أفرزته . ان الذين وقعوا ميثاق Charter 77 كانوا عـددا قليـلا الا أن جزءا كبيرا من المجتمع يعرفهم ويعرف حجم عملهم (أو على الأقل الشريحة العريضة من المجتمع الذى ما زال يهتم بالأمور العـامة والذى يمـكن أن نقول انها « تصنع التـاريخ » وهم يسـمعون عن هؤلاء الميثاقيين من الاذاعات الأجنبية)) (٤٠) .

ان الالتزام بقضية احياء الروح المعنوية للمجتمع لا يعنى بالضرورة تحقيق نتائج فورية ، بل على العكس فان فكرة التنظيـم الاجتماعى الذاتى تتضمن استراتيجية بعيدة المدى أو « المسـيرة الطـويلة » ضـد البنى الرسمية ، ويكون ذلك باتساع مدى المبادرات التى تأتى مـن القاعدة فتتحول فى النهاية لحركات اجتماعية أصيلة .

ان ذلك هو ما حدث فى بولندا حيث تكونت لجنة الدفاع عن العمال من مجموعة صغيرة من المناضلين ذوى التوجه المدنى الذين عملوا على تحقق توقعـات وآمال والهامات المجتمع بصورة عامة .

وعندما وقع الانفجار الاجتماعى فى أغسطس عام ١٩٨٠ بما له من أثر معنوى استطاع أن يمد حركة تضامن بمفاهيـم استراتيجيـة وبخبرات سياسية . ولا نستطيع أن نقلل من شأن القيمة التربويـة

لمثل هذه النواة الجماهيرية حيث قرر اعضاؤها أن يعيشـــوا الحقيقة وذلك لا يعنى أنهم انفصـــلوا تماما عن المجتمـــع الرسمى • وطالما ان الدولة هى الوحيدة التى تملك وطالما أن كل أشكال السلوك الاجتماعى من عملية الشراء وحتى التعلم تقع تحت سيطرتها ، فان من المستحيل أن يشعر الأفراد بالاستقلال التام ويصبح الشىء الوحيد الممكن هـو النضال لتوسيع هامش الاستقلالية للفرد ، أو قل لتقليل خضـوعه للدولة، ويقـول هافيل فى هذا الصدد :

« لا يمكن ان يقع بلد صـغير ذو شعب غير مستقل الى جوار بلدان ذات « شعوب مستقلة » دون ان يحـدث بينهم تفـاعل • هنـاك بلد ذو مواطنين « غير مسـتقلين نسبيا » ويفسحون بالتدريج وباصرار طريقـا « لاستقلالهم النسبى » عبر التحرر الروحى والتحدى المعنوى ليحققوا استقلالهم التام ، لذا فان توسيع الهامش الضيق من الاسـتقلال فى هذه البيئات ، هو الشىء الذى يجب تحقيقه والحفاظ عليه » (٤١) •

وعندما تفجر الموقف السياسى عام ١٩٨٩ فى تشيكوسلوفاكيـا وبدأت الفوضى التى تتسم بها العلاقات التى تربط الائتلاف الحـاكم تتفشى ، أصبح ميثاق ٧٧ ، مغناطيسا يستقطب هؤلاء الذين كانوا قد اجلوا مقاطعتهم للنظام •

ان ميثاق ٧٧ يعد أكثر أهمية بالنسبة « لثورة تشيكوسلوفاكيا التى فاقت نتائجها كل التوقعات » عن الأحلام الاصلاحيـــة للزعمـــاء السابقين الذين خططوا لربيع براغ • ويكمن قصـــور الدوبتشيكية فى فشلها فى التخلى عن النموذج اللينينى الرث وانتقال السلطة من ائتلاف الحزب الى المجتمـــع • وبعـــد أكثر من أربعين عامـــا من التعصـــب والاستبدادية والتشبع بالأكاذيب الأيدلوجية ، عم المنطقة كلها فقدان ثقة تام وذلك لتأصل عقيدة الاستعباد • وبات واضحا فى تشيكوسلوفاكيا فى عام ١٩٨٩ غيـاب الضغوط الاجتماعية التى تطالب بتحقيق استراتيجية ذات وجه انسانى وأن توجه الثورة يجب أن يعلى من شأن الأمل العميق فى التحرر ، وأسرع ميثاق ٧٧ — رغم طبيعته المتجاوزة للقوميات — يطرح صيغا سياسية جـــديدة ومميزة للنظام الذى سـيلى الشـيوعية ومنهـا صـعود المجتمع المدنى •

لقد كان ميثاق ٧٧ تجسيدا لفكرة التسامح والدفاع عن الحوار المفتوح وبرز ذلك فى كتابات هافيل وفى الأنشطة العامة التى جعلت هذا الميثاق أداتيا واكسبته مصداقية على طريق الانتقـــال الســـلمى

للتعددية . ان منظمتى مبادرة السلام Initiative for Peace وحقوق الانسان Human Right فى جمهورية المانيا الديمقراطية (الحركة التى تمت فى أواسط الثمانينات وجماعة موسكو المعتمدة Moscow Trust Group فى الاتحاد السوفيتي والمعارضة الديمقراطية فى المجر اعتبروا ان ميثاق ٧٧ يرمز لسياسات الثقة والأمل والتضامن الانسانى. لقد دب النشاط فى حركة الدفاع عن حقوق الانسان فأصابت النظام فى مقتل ، وأمكن للمحكومين أن يدينوا الحكام لسوء سلوكهم ، كما أثرت المراقبة التى فرضها الشعب على الحكومة على ممارساتها (ومن الأسباب الأخرى التى ساعدت فى ذلك الضغوط الدولية) .

وبتحليل الأحداث وتقييم نتائجها نجد ان الأنشطة التى تقوم بها لجنة الدفاع عن العمال وميثاق ٧٧ بدت قوية متماسكة على نحو استراتيجى ومؤثرة على نحو تاريخى ، كما أسفرت عن تغيرات غير عادية فى تلك المجتمعات وخلفت جنيناً لسلطة الأمة التى كانت على وشك ان تحل محل الانظمة الشيوعية المفككة خلال اجتياح ١٩٨٩ . ان استراتيجية المجتمع المدنى هى رفض ادعاء الحزب الشيوعى بدوره القيادى ، وهدفه هو تشجيع التعددية الأصيلة . ورغم الأعمال البطولية التى قام بها المجتمع المدنى فى أوربا الشرقية وتزامنها مع جهود أخرى قام بها كثيرون من أمثال هافيل ومتشنك فان دلالات وتوقعات سقوط هذه الأنظمة فى المستقبل المنظور كانت قليلة ، وبينما أعرب تيموثى جارثون آش ـ المراقب للموقف فى أوربا الشرقية ـ عن رأيه فى السيناريو المتوقع لمستقبل المنطقة وأكد على مزيد من التفكك والتحلل للأنظمة القائمة متخذة فى ذلك أشكالا « تركمانية » تنبأ آخرون ــ مثل ميلان كونديرا ــ بأن الدور التاريخى لأوربا الشرقية بالنسبة للعالم سوف يشطب . وعلاوة على ذلك فان المناضلين المدنيين فى المنطقة أدركوا أن رفضهم وشجبهم للشكل الرسمى للممارسات السياسية سوف يثير السلطة وخاصة أنهم كرسوا نوعا جديدا من السياسات ، اذ ان احتجاجهم المعنوى كان له مدلول سياسى مدو واستخدموا استراتيجية « اللاعنف » فى مقاومتهم لمحاولات النظام للحد من الفردية وتحويل الشعب لكيان خاضع وخانع تماما .

وأكد ميثاق ٧٧ أن مطالب الحركات الجديدة لم تكن بالضرورة سياسية وان السياسة لم تكن هدف التضامن غير الرسمى للشعب الذى قرر أن يعيش الحقيقة ويتحدى الديكتاتورية تحديا مباشرا . بل كانت معارضتهم ــ أولا وأخيراً ــ معارضة أخلاقية : انهم يفضحون لا أخلاقية الحكومة ويكشفون التناقض بين لغتها الطنانة وما تمارسه

فى الواقع . ان البند الأول فى ميناق ٧٧ كان احتجاجا على المحاكمة التى دبرت من جانب نظام هوساك ضد مجموعة من موسيقيى الروك يدعون « الشعب البلاستيكى The Plastic People of the Universe ورأت السلطة فى الدفاع عن الموسيقيين الشباب الذين رغبوا ببساطة أن يعيشوا الحقيقة الخاصة بهم — (والتى تعتبر بالطبع — مختلفة عن الحقيقة التى تمليها السلطة الرسمية عليهم) عملا يعد — على المستوى السياسى — هجوميا يدين الحكومة الا أن الوقوف الى جانب موسيقيى الروك لم يجد فى الدفاع عن حق الابداع الفنى . لقد كان رفضا لما أعطاه النظام لنفسه من حق للحد من الحرية الانسانية، واعتقال المواطنين لمجرد الابداع الفنى ، والتدخل فى حياتهم ، لقد كانت حربا ضد الحد من الحرية الأنسانية ، ومن ثم فان الدفاع عن عازفى موسيقا الروك يعنى الدفاع عن المعنى الأصيل للحرية والكرامة الانسانية . ويمكن أن يقال نفس الشىء عند الدفاع عن أنصار السلام أو المناضلين الأيكولوجيين المضطهدين بسبب معارضتهم للنظام العسكرى والتخريب اللا منطقى للبيئة . ان تمرد هؤلاء الضعفاء لم يكن — حسبما رأى هافيل — ذا أبعاد سياسية واضحة . ان السياسات المضادة للسياسات توجد تحديداً فى هذه المعادلة الحكيمة الواضحة لاستعادة كرامة الفرد :

« **فى النظام التوتاليتارى نجد التاريخ الحقيقى للحركات التى أخذت على عاتقها تدريجيا تحقيق مغلى سياسى لم يأخذ غالبا شكل مواجهات سياسية علنية بين قوى متناحرة ومفاهيم سياسية . لقد تعمقت هذه الحركات — فى أغلب الأحيان — بشكل « سابق على السياسة » حيث « العيش فى كذبة » يجابه « العيش فى الحقيقة » ، أى حيث الصراع الخاص بالنظام التوتاليتارى مع الأهداف الحقيقية للحياة .. مثل هذا الصراع يتطلب شخصية سياسية وذلك ليس لأن الأهداف المطلوب تحقيقها ذات طبيعة سياسية فى المقام الأول ولكن ببساطة لأن النظام التوتاليتارى المعقد المتاور يعتبر كل تصرف أو تعبير انسانى حر وكل محاولة للحياة داخل الحقيقة تهديداً سافرا له** » (٤٢) .

ان صبغ السياسات الرسمية بصبغة شعائرية وفقدها لشرعيتها من خلال التزييف المستمر للحقائق وفرض أحلاف مخادعة مزعومة تصل السلطة بمعايير تتعلق بالانقياد ، والمواءمة ، والتكيف ، والطاعة أكثر مما تتعلق بالخيال والذكاء والشرف وهى الأشياء التى سقطت من قاموس الحزب السياسى .

وتعد السياسة فى النظم التوتاليتارية ، مهنة تناسب الخانعين ، اما هؤلاء الذين يقدرون الحريات الانسانية فسوف يلجئون لكل شىء من الموسيقا وحتى الايمان بالقوى الخفية ، ومن البوذية وحتى التكبير ومن الجاز وحتى التأمل والالهام للحصول على حرياتهم . ان الأمر يبدو كأن السياسات قد أقرتها القوى الشريره الى الأبد ولا يتوقع أحد من السياسيين المحترفين أن يقدموا شيئا أفضل بينما رأى زعماء الحركة المنشقة من كتاب وشعراء وفيزيائيين ، وفلاسفة أن اعادة خلق السياسات يجب أن تتم خارج حدود السياسات التى رسمتها السلطة. ورغم أن الاحياء الأخلاقى المعنوى الذى أسماه هافيل « المناخ الحقيقى للسياسات » أثر على النظم التوتاليتارية فان الممارسات السياسية التى تتطلب رموزا منفصلة ومتحررة من الضبابية الايدلوجية هو أمر يجب أن يتم خارج دائرة السلطة المحافظة الفاسدة .

ان السياسات المعادية للسياسات التى طالب بها منشقو شرق أوربا ترفض النظر الى مبدأ الحقيقة الثابت على أنه غموض بحت . وكتب الكاتب المجرى جورجى كونراد الذى ألف عددا من الروايات الرائعة منها « الخاسر The loser » قضية عامل « The case worker » ومقال مهم بعنوان « ضد الممارسات السياسية » وهو المقال الذى استفز السلطة الحاكمة .

« ان معاداة الممارسات السياسية نشاط سياسي يمارسه هؤلاء الذين لا يريدون أن يكونوا سياسيين ويرفضون أن يشاركوا فى السلطة . ان معاداة السياسات حالة طارئة للمنتديات مستقلة توجه اتهاماتها للسلطة السياسية ، انها ضد السلطة ولكنها لا تستطيع أن تأخذ السلطة ولا ترغب . ان السلطة - هنا والآن - لها بالفعل ثقلها الأخلاقى والثقافى .

ان كلا من الانشطة المعادية للسياسات والحكومة يعملان فى اتجاهين مختلفين وفى مجالين مختلفين . ان المعادين للسياسات والحكومة يعملان فى اتجاهين مختلفين وفى مجالين مختلفين . ان المعادين للسياسات لا يؤيدون الحكومة ولا يعارضونها ، انهم يكونون شبكة تراقب السلطة السياسية ، ويمارسون ضغوطا انطلاقا من وضعهم الثقافى والأخلاقى بل ومن منطلق الشرعية الانتخابية - انه حقهم وواجبهم ، ولكنه - فوق كل شىء - دفاع عن أنفسهم » (٤٣) .

ان كلمات كونراد تحمل فى طياتها الى حد ما روح السخط الذى يجتاح أوربا الشرقية وفيه وصفت الممارسات السياسية بالامبريالية

أو بأنها محاولة لتسييس أجـواء الحياة · ويرى كونراد ان ممارسـة السياسات المضادة ، وفن المعارضة الديمقراطية يجب أن تجرى فى ضوء مستوى تدخل الحكومة فى الشئون الخاصة للأفراد . ان المجتمع المدنى هو استراتيجية من أجل استعادة أشكال التعاون والتواصـل الانسانى المتحررة من قهر وسيطرة الدولة .

« ولأن فيضان السياسة قد اجتاح كل زاوية وكل شق فى حياتنا تقريبا ، فاننى أحب أن أرى هذا الفيضان يتراجع . اننا يجب الا نسيس حياتنا ونبتعـد عن الممارسات السـياسية مثلمـا نبتعـد عن مرض معد · يجب علينا أن نحرر ممارساتنا اليوميـة البسيطـة من الاعتبـارات السياسية . واننى أطالب بأن تتولى الدولة الأمـور التى من شأنهـا تجديد عملها ، الا انها لا يجب أن تتـولى الأمور التى هى من شـأن المجتمع وحده . ومن ثم فاننى لن أصف المعارضة الديمقراطية بأنهـا سياسية ولكن بأنها ((ضد سياسية)) طالما أن نشاطها الرئيسى هـو العمل من أجل اللا دولية » (٤٤) ·

ان معاداة السياسة تصبح عاملا مساعدا للتفاعل وجهدا جماعيا للحد من قبضة الدولة على المجتمع واستعادة حقوق الفرد كقيمة عليا وهو شىء لا يقبل المساومة .

« ان أيديولوجية المعـارضة الديمقـراطية تؤمن ـ كالأديان ـ بأن كرامة الشـخصية الفـردية تعد قيمـة أسـاسية لا تتطلب مزيـدا من الايضاح · ان استقلالية البشر وتضامنهم هما قيمتان أساسيتان تكمـل احداهما الأخرى ومنهما تتواصل الحركة الديمقراطية مع قيم أخرى ··· ان التراث الثقافى للاحتجاجات المستقلة اهتـم بعـدم وضع أية مؤسسة فوق كرامة الانسان الفرد . وعندما تتحول الدولة أو بعض قوى الكتلة أو السوق العالمية لقيمة مطلقة، فان ذلك يثير التقاليد الأوربية التى تعتقد أن حقيقة القيمة العليا المزعومة أبعد ما يكون عن العالمية بل انها فى الحقيقة مجرد مصلحة خاصة بنفر من الحكام ·

ان ذلك تحديدا هو النقد الموجه للأيديولوجية والذى يقدم للمعارضة الديمقراطية الشرق أوربية طريقا للاسهام فى ثقافة حق الفرد وحـق الأفراد والأمم والقارات ككل فى تقرير مصيره)) (٤٥) .

❊ الانشقاق فى المجتمعات التوتاليتارية :

اذا كانت معارضة الدولة أصبحت قيمة مطلقة وحتمية فمن هؤلاء المنشقون الذين جرؤوا على تحـدى النظام وطرحوا أنساقا أخـرى تعلى

مبادىء احترام الحقيقة والكرامة الانسانية ؟ ان مصطلح المنشق قد ابتكره الصحفيون الغربيون ، الا أن كثيرين من النقاد فى مجتمعات الكتلة السوفيتية قد أعربوا عن تحفظهم حول دلالة هذا اللفظ وصلته بالموضوع . ولو اعتبرنا أن اناسا مثل فيتسلاف هافيل Vaclav Havel وجان باتوكا Jan Patoka فى تشيكوسلوفاكيا ، وجورجى كونراد أو ميكلوس هارتسى فى المجر وبول جوما أو دورين تيودوران Dorin Tudoran فى رومانيا وروبرت هافمان Robert Havemann أو ولف بيرمان Walf Biermann فى جمهورية المانيا الديمقراطية أو آخرين مثل ميلوفان دجيلاس فى يوجوسلافيا نماذج تحتذى ؛ لأنهم شاركوا فى الانشقاق باعتباره حركة دولية ذات توجه برجماتى فان المنشقين ، وأغلبهم مفكرون أدركوا أن الخضوع لممارسات النظام والسكوت على جرائمه هو اشتراك فيها . ويمكن تعريف المنشقين — حسبما رأى هافيل — وفقا للمعايير التالية :

« أولا هم هؤلاء الذين يعبرون عن وجهات نظرهم الناقدة بطريقة متكاملة ومنسقة ، « داخل الحدود الضيقة جداً المتاحة لهم ، ولذلك فان الغرب يعرفهم جيداً . ثانياً لقد تمتع المنشقون بسبب مواقفهم الأخلاقية وخاصة رفضهم لانكار الحقوق الأساسية للانسان ، باجلال خاص من العامة ورغم أن الشعب لم يظهر احتراما لهم فى مواقف عملية الا نادرا ، فان السلطات كانت واعية تماما بمدى شعبية المنشقين وتجنبت التورط فى قمع وحشى ضدهم اذ أن قيامهم بأى اجراء ضد المنشقين سوف يسفر عن مشاكل سياسية وتعقيدات على صعيد العلاقات الدولية » . وثالثا وكما رأينا فالمنشقون هم اناس يميلون للتعبير عن أفكارهم فى شكل مكتوب أى انهم ينحون منحى فكريا . انهم « يكتبون » وتأتى الكلمة المكتوبة بالنسبة لهم فى المقام الأول ان لم تكن اهتمامهم الوحيد — ويدعو المنشقون للوسطية السياسية وهو ما لفت اليهم الانتباه خاصة فى الخارج » (٤٦) .

وفى كتابه السجن المخملى The Velvet Prison قام ميكلوس هراتسى وهو واحد من طليعة المفكرين المجريين المنشقين بشرح أسلوب تحويل المفكرين الى منشقين . ويعد كتابه هذا ذا أهمية كبيرة اذ أنه يتناول تجربة كادار الخاصة « بالديكتاتورية الناعمة » . ورأى هراتسى أن جوهر التسوية الكادارية كان معاهدة صامتة بين كادار والمجتمع ، اذ منح الشعب مكاسب مادية وهامشا محدودا من الاستقلالية شريطة ألا يبدى المجتمع احتقاره للامتيازات الأبوية التى ورثها النظام بما فى ذلك حقه فى مصادرة ذاكرة الأمة ، وتشويه سمعة ثورة ١٩٥٦ ورفضه

لأية مناقشة حـــول طبيعة العـــلاقات المجرية السوفيتية · ولســـحريه الأقدار ، ، فان صدى وجهة نظر هراتسى عن الفنـــان المختار التى تنـــاولها فى كتابه كانت موضـــعا للشكوك ، اذ يقـــول ان الرومانتيكيين العتاة هم فقط الذين يستطيعون أن يشاركوا فى معارضة مباشرة للنظام وذلـــك بسبب سياساته الخاصة بممارسة القمع الناعم وابادة كـــل مصـــدر للفعالية الناقدة ولذا ، فان المنشقين يبدون كعناصر شـــاذة فى بيئـــة تهيمن عليهـــا الامتثـــالية والخضـــوع ·

« هذه الطيور النادرة هى فى الواقع نتاج لفكرة حضارة منقرضة، وترك وعدها بالديمقراطية ، والفردية ، والافكـــار الناقـــدة اثراً كان محسوسا رغم خفـــوته · انهم أهل هذه الثقـــافة الجـــديدة ولم يعرفوا عن الثقافة القديمة الا صورها السيئة · ان ولاء السلطويين للقديم ووقوفهم بعناد ضد الحديث يعد خيانه لأصولهم الحقيقية ·· هؤلاء اللقطـــاء لم يجذوا سوى زوالهم وانقراضهم ، انهم عمـــلات بطلت وعجزت عن تقديم نفسها للعـــالم الجديد الذى اعتبرها منقرضة » (٤٧) ·

لقد كان كتاب هراتسى ـــ قبل ظهور منظمة تضامن ـــ صوتـــا يعبر عن مشاعر الاغتراب ، واليأس ، والاحبـــاط التى تعـــانى منهـــا الأقليات المنشقة المحاصرة فى أوربا الشرقية .

ومن خـــلال السوداوية التى اتسم بهـــا كتـــابه نســـتطيع ان نستشعر خوف الكاتب الذى يحذر من الطـــاعة العميـــاء للأيديولوجيا الرســـمية بنفاقها وطنـــانتها ·

« ان امتثاليتنا الأيديولوجية لا تمنعنـــا بالطبـــع من الابتسام عندما نصطدم بالعقيدة وغالبا ما يضحك البيروقراطيون والفنانون معا · ولاننا مستنيرون ـ فاننا نعتبر النظر الى الشعائر الدينية على أنها دليل عـــلى ضـــيق الأفـــق ، وتطـــرف طفـــولى اذا ما قـــورن بمـــا غـــرس فينا من نسق أخلاقية تشربناها منذ الطفولة ، الا ان هذا التصور ليس له أثر على سلوكياتنا · وما تزال الماركسية الأساس الأسطورى لأفكارنا الخاصة بالمسـئولية المدنية · انها الأســـطورة التى تهيىء لنـــا ان أفكارنا عن خدمة الشعب أفكار مشروعة ، ان لهـــا وقعـــا مثـــل وقع قصة طائر الرخ المشهورة على عقول الأطفال)) (٤٨) .

ان كتاب « فنان الدولة » لهراتسى تجســـيد للعـــالم المغلق الجـــامد الذى لا حركية فيه ولا احساس بالترفع ، كل شىء يجرى كما لو أن الحزب قد أرسى هيمنته الى الأبد وأية معارضة تعـــد نوعا من أحـــلام اليقظة والدونكشـــوتية (غير المســـئولة) ، ولـــم تؤثر مرونة كادار

ومحاولته لتغيير حقيقة النظام من طبيعته ، فالسلطة ما زالت تكمن فى أيدى الطبقة الحاكمة الشيوعية الذين تعلموا — فى مثل هذه الحالة تحديدا — أن يتملقوا المفكرين ويزرعوا فيهم النرجسية ، وفى هذا الصدد قال الأيديولوجى جورجى اتزيل Gyorg Aczel :

« ان احكام قواعد اللعبة ، والأوضاع الجوهرية ، والقوة الاستشارية الشرعية (استخدام حق الفيتو فى أمور معينة) تظل دائما فى مقدور الدولة الاشتراكية » (٤٩) .

ان المعارضة لا تبدو ذات قيمة تحت ظروف التوحد العالمى المزعوم ، وهنا نتساءل : **كيف يكون للفرد اذن أية استقلالية ؟** ووفقا للصورة الخيالية لفنان الدولة كما تخيلها هراتسى فقد كان الفنان مستعداً لتبرير تسوياته الخاصة بانكار معنى الأشكال البديلة للتواصل :

« فى حضارتنا هناك نوعان فقط من المنشقين : ابطال سذج وفنانون شاردون . والنوعان حكم عليهم باللاعلاقية » (٥٠) .

وعلاوة على ذلك فان تعليقات هراتسى الحزبية لم تكن رفضا لسلوك المنشقين .

واعترف المؤلف بعد عدة سنوات من تأليف هذا الكتاب :

« آمل ألا أضطر للدفاع عن رأيى فى المنشق الذى دونته فى هذا الكتاب . اننى أنوى منذ البداية أن يكون الكتاب رفضا لمبالغات المنشق المتعمدة . وآمل ان يكون نشره دليلا يدفع اليأس الذى يضفى القتامة على كلماته ، ولهذا السبب اخترت ان استخدم فى اغلب الأحوال ضمير الغائب للتعبير عن فنان دولة ولم احاول أن أضع الزملاء فى فريق يعانى من الفردية الرومانتيكية » (٥١) .

لقد حاول مفكرو الدولة الذين رضوا عن ذواتهم وتعايشوا تماما مع النظام القائم وتمتعوا بامتيازاته النيل من مكانة المنشقين .

ورأى الكيان المؤسساتى الذى تمثله ثقافة الدولة ان المنشقين أناس يثيرون المشكلات معتنقين الأفكار المنطوية على مفارقة تاريخية خاصة بالحريات الفردية ، ويجب أن يظلوا على هامش المجتمع ، لأن المدنية الحديثة لا تستطيع ولا تأمل فى التعاون معهم . ويمكن أن تستغل السلطة بعض أفكار هؤلاء المنشقين وتدمجها فى العقيدة الرسمية ،

ولكنها بالتأكيد ستسلبها كل معانيها ودلالاتها . ومثال على ذلك هو استيلاء أيديولوجية الحزب فى الاتحاد السوفيتى على مصطلح الجلاسونست وهو شعار للحركة الديمقراطية . وبنفس الطريقة عرفت النظم التى تشبه نظام كادار الاصلاحى كيف تستولى على بعض المصطلحات ، مثل التعددية ، الحوار ، المصارحة وغيرها من المثل الشامخة التى أعلى المنشقون من شأنها وتستغلها لمصلحتها ومن ثم تضعف مدلولها .

« ويرى أحد المجرمين لو أن سولزينتسين Solzhenitsyn قد عاش فى المجر لكانت السلطة عينته رئيسا لاتحاد الكتاب . ومن ثم لن يكون هناك من يكتب « أرخبيل جولاج The Gulag Archpelago » وإذا فعل أحدهم ذلك فان سولزينتسين كان سيصوت على طرده وترحيله . فهذا إذن هو المناخ الذى يسود ثقافة ((الرقابة التقدمية)). ونحن نعتبر الدولة التى تعجز عن الاصلاح والفنان الذى يعجز عن التكيف كليهما تطرفا غير مقبول » (٥٢) .

ان هاراتسى يحول المفكر الى خادم للدولة ويرى فى رفض المنشقين للاذعان للدولة — رغم نبله — علامة على التشويه السيكولوجى الشديد . ان الصناعة الثقافية لاشتراكية الدولة قد وضعت المنشقين على الهامش ومن ثم انكرت عليهم حقهم فى الاختلاف كلية مع النظام بينما تحفظ الدولة لنفسها حقها فى اضطهادهم وعقابهم بل وحقها فى « اعادة اعتبارهم » تغييرا واقعا فى « خط الحزب » ويأتى الزعيم الجديد للسلطة بمجموعة مختلفة من الوعود . ويعتبر هاراتسى — الذى لا تعد أفكاره أفكار مؤلف — المنشقين « ضرورة » لتكملة النظرة الجديدة للشيوعية فى العهد التوتاليتارى :

ان عهدا جديدا من الكرم العظيم على وشك أن يبزغ فجره . وكما فى الامبراطوريات القيمة الصامدة فان كبار موظفى الدولة الخائفين يقيمون أديرة طاوية . وبالمثل تعتبر الدولة الاشتراكية الحديثة المنشقين المبتدئين كأفراد فى قطيع وحشى مشئوم ... وفيما بعد سوف « يعاد اكتشاف » بعضهم و ((رد اعتبارهم)) ومثل تلك القرارات كانت فى وسع السلطات المركزية ، وسوف يعلن العفو العام عندما يعين حاكم جديد . وغالبا ما يحول كل المنشقين على أن يصبحوا جزءا من البرنامج الرسمى عندما يعين وقت التنديد باسقاطات السلالة الحاكمة السابقة)) (٥٣) .

عندما كتب هراتسى هذا الكتاب فى أوائل الثمانينيات بدت المجر أكثر الدول تقدما فى الكتلة السوفيتية فيما يتعلق بهامش الليبرالية الداخلية . وبالمقارنة بالأوضاع فى رومانيا وألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا فان الدولة تعاملت مع المنشقين مرتدية قفازات ناعمة رغم أن آلة الدولة لم تأل جهدا لتبدد محاولات المنشقين التى يبذلونها للانفصال عن الجيتو السياسى ولشق روافد اتصال مع المجتمع الكبير . ونقب البوليس عن الصحافة السرية وتم استجواب المنشقين بل وتم القضاء عليهم ، وعلى أية حال ، فان النظام تجنب اتخاذ اجراءات صارمة ضد كثيرين منهم . ونظرا لتدهور الوضع الاقتصادى وتحقيق الاتحاد السوفيتى لأقصى آماله السياسية فى التعبير فان مجر كادار لم تعد أكثر ثكنات المعسكر الاشتراكى حصانة » .. لقد غدا شبابها راديكاليين وأصبحت المعارضة الديمقراطية قوة سياسية قومية ضاربة . وأصبح المنشقون بما فيهم هراتسى المهندسين المخططين لعملية الانتقال لأنظمة تخلف الشيوعية . والحقيقة أن حاشية هذا الكتاب كتبت فى ١٩٨٧ واعترف هراتسى بأن التغييرات التى قام بها جورباتشوف فى توظيف النظام السوفيتى وكذلك الموجة الجديدة المعادية للستالينية جعلت بعض تنبؤاته السوداوية تبدو بلا مصداقية ، الا أنه أصر فى نفس الوقت ان الجورباتشوفية تمثل انتهاج ائتلاف الحزب لنفس التكنيكات التى ضمنت النجاح الجزئى لتجربة السجن الناعم والتى تقدمها المجر تحت قيادة كادار :

« لقد وصفت هذا النموذج بأنه ما بعد الستالينى أو « التحول الناعم » أو « المدنى » للحكم الشيوعى فى تناقضه مع النموذج « الستالينى » أو « الجاف » أو « العسكرى » .. ان النموذج المجرى ربما يمثل جيداً تحولا أكثر منطقية وأكثر معيارية وأكثر صلابة للثقافة الموجهة . ولا بد أن يدرك جورباتشوف أن اقامة مجتمع ناجح حقيقة بنظام اقتصادى جديد يتطلب ضرورة رفع معنويات الانتلجنسيا الحكيمة باعطائها الحق فى التخطيط للمستقبل » (٥٤) .

هـوامش الفصـــل الرابع :

(١) الجيوبولتيكى : مجال دراسة تاثير البيئة الطبيعية والعوامل الجغرافية على الخصائص والظواهر والمؤثرات والتطورات السياسية للشعوب والدول وعلى تفاعلاتها وعلاقاتها بعضها ببعض ـ (المترجمة) •

(٢) Adam Michnik, *Letters from Prison and Other Essays* (Berkeley and Los Angeles : University of California Press, 1985), p. 157.

(٣) اختصار روسى لكلمة : Samstvennoyeizdotelstivo.
وتعنى النشر والسرى •

(٤) See Robert Kostrzewa, ed., *Between East and West : Writings from* Kultura (New York : Hill & Wang, 1990).

(٥) In an illuminating essay on Gorbachev, Kenneth Jowitt used this Weberian term to explain the rise of Solidarity as a resurgence of Poland's long-repressed civic culture. See Daniel Chirot, ed., *The Crisis of Leninism and the Decline of the Left : The Revolutions of* 1989 (Seattle : University of Washington Press, 1991), pp. 74-99.

(٦) Abraham Brumberg, ed., *Poland : The Genesis of a Re- .. volution* (New York : Vintage Books, 1983), p. 10.

(٧) J. F. Brown, *Eastern Europe and Communist Rule* (Durham, N.C. : Duke University Press, 1988), p. 197.

(٨) For an excellent analysis of this organization, see Jan Josef Lipski, *KOR : A History of the Workers' Defense Committee in Poland,* 1976-1981 (Berkeley : University of California Press, 1985).

(٩) Jacques Rupnik, *The Older Europe : The Rise and Fall of Communism in East-Central Europe* (New York : Schochen Books, 1989), pp. 258-59.

(١٠) William Echikson, *Lighting the Night : Revolution in Eastern Europe* (New York : Morrow, 1990), p. 161.

(١١) Lipski, *KOR*, p. 68 .

(١٢) Echikson, *Lighting the Night*, p. 160.

(١٣) Ledzek Kolakowski, "The Intelligentsia" sn Brumberg,

(١٤) **الاوليجاركية :** حكم القلة وهو احد اشكال ادارة الدولة الاستغلالية ، تعود فى ظله كل سلطة الدولة الى حفنة صغيرة من الاغنياء ـ (المترجمة) ٠

(١٥) Ibid., p. 66.

(١٦) Michnik, *Letters from Prison* (note 1 above), p. 136.

(١٧) Ibid., p. 137.

(١٨) Leszek Kolakowski, *Main Currents of Marxism : Its Origins, Growth and Dissolution* , vol. 111, *The Breakdown*, (New York : Oxford University Press, 1978), pp. 526, 530.

(١٩) **الحريات المدنية :** ذلك الجانب من الحقوق المدنية الذى يحدد القطاعات التى لا تتدخل فيها الحكومات ولاسيما ما يتناول حرية الحديث والنشر والاجتماع والمعتقد الدينى ـ (المترجمة) ٠

(٢٠) Michnik, *Letters from Prison*, p. 142.

(٢١) Ibid., p. 144.

(٢٢) Ibid., p. 147.

(٢٣) Michnik, "A Year Has Passed — 1981", in *Letters From* Prison, p. 124.

(٢٤) Adam Michnik quoted in Lech Walesa, *A Way of Hope : An Autobiography* (New York : Henry Holt, 1987).

(٢٥) *Ibid.*, p. 2.

(٢٦) See Stephen Engelberg, "As Jaruzelski Leaves Office : A Traitor or Hero to Poles," *New York Times*, December 22, 1990.

(٢٧) Timothy Garton Ash, *The Uses of Adversity : Essays on the Fate of Central Europe* (New York : Random House, 1989), p. 309-10.

(٢٨) Steven Lukes, "Introduction," in Vaclav Havel *et al. The Power of the Powerless* (Armonk, N.Y. . M. E. Sharp, 1990). p. 12.

(٢٩) الاوتوماتيكية (او الذاحركية) : مذهب يقول بأن جميع نشاطات الحيوان والانسان تتحكم فيها عوامل فسيولوجية والمقصود هنا أن الأنظمة السلطوية تعتمد على السيطرة على شعوبها وتحريكهم بشكل الى وتسلبهم ارادتهم ـ (المترجمة) .

(٣٠) Vaclav Havel, "The Power of the Powerless," in *ibid.*, p. 23.

(٣١) *Ibid.*, p. 28.

(٣٢) *Ibid.*, pp. 28-29.

(٣٣) *Ibid.*, pp. 30-31.

(٣٤) *Ibid.*, p. 32.

(٣٥) *Ibid.*, p. 31.

(٣٦) *Ibid.*, p. 40. Emphasis in original.

(٣٧) *Ibid.*

(٣٨) *Ibid.*, p. 43

(٣٩) Havel's contribution in Vaclav Benda, Milan Simecka, Ivan M. Jirous, Jiri Dienstbier Vaclav Havel, Ladislav Hejdanek, and Jan Simsa, "Parallel Polis, or an Independent Society in Central and Eastern Europe : An Inquiry," *Social Research*, 55. nos. 1-2 (Spring-Summer 1988) · 235.

(٤٠) *Ibir.*, p. 236

(٤١) *Ibid.*, p. 237.

(٤٢) See Havel, "Power of the Powerless," p. 48.

(٤٣) George Konrad, *Antipolitic* (San Diego and (New York : Harcourt Brace Jovanovich, 1984), pp. 230-31.

(٤٤) *Ibid.*, p. 228.

(٤٥) *Ibid.*, pp. 123-24.

(٤٦) Havel, "Power of the Powerles ," p. 57.

(٤٧) Miklos Haraszti, *The Velvet Prison : Artists Under State Socialism* (New York : Basic Books, 1987), p. 10.

(٤٨) *Ibid.*, pp. 142-43.

(٤٩) Ibid., p. 146.

(٥٠) *Ibid.*, p. 150.

(٥١) *Ibid.*, p. 162.

(٥٢) *Ibid.*, p. 156.

(٥٣) *Ibid.*, p. 158.

(٥٤) *Ibid.*, p. 162

الفصل الخامس

روح المجتمع المدنى

« ان السياسات المعادية للسياسات ناضلت لوضع الأمور فى نصابها ، وجاهدت لتظل بعيدة لا تتجاوز أبدا حدود عملها الخاص بالدفاع عن صقل المجتمع المدنى .. والمجتمع المدنى هو نقيض المجتمع العسكرى » .

جورجى كونراد

ان تطوير المجتمعات المدنية فى دول الكتلة ارتبط بوجود منارات الفكر المستقل — ان العيش فى الحقيقة — رغم ان البعض اعتبرها مثالية اخلاقية ذات مغزى اجتماعى محدود — قد أصبحت القوة الدافعة التى تكمن وراء خلق طرق بديلة للتفكير والعمل . ان حجر الأساس للمجتمع المدنى المتمرد كان قرار الفرد بالمطالبة بحقه أو حقها فى الاستقلال ، وقال هافيل فى هذا الصدد :

« ما هى الحياة المستقلة للمجتمع ؟ ان أشكالها وصيغها انتشرت على نحو تلقائى وشمل أرجاء واسعة . انها تشمل كل شىء من التعليم الذاتى والتفكير فى كل ما يجرى مرورا بالنشاط الحى الخلاق واتصاله بالآخرين الى أكثر المبادرات المدنية الحرة تنوعا بما فيها محاولة المجتمع المستقل لتنظيم ذاته » (١) .

ان السياسات الجديدة تعتمد على مبادرات المواطنين غير الرسمية كترياق يشل حركة عمالقة البيروقراطية ، وتشجع التجارب والمبادرات الحقيقية وتشكل براعم حركة الفعالية . ان الحفاظ على هذا التغيير يعد ضروريا لأنه كان حركة دءوبا نبعت من الجماهير وليس تغييرا فرض من أعلى أى من السلطة وهو ما أسفر عن صعود المجتمعات المدنية فى بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا .

وبادىء ذى بدء لا توجد ضرورة للمطالبة بتحطيم الأصنام الحاكمة أو اجبارها على التغيير ، لأن الموقف تطور وقام الشعب باستثمار

مثل هذه المبادرات المستقلة ، وأصبح المجتمع المدنى الممثل الشرعى على المسرح السياسى ، ومما أدهش البيروقراطية الشيوعية أن المجتمعات وجدت من يمثلها ويتحدث عنها رسميا فى المنشقين الذين طال اضطهادهم ورفضوا العرض الذى قدمته لهم الحكومة بالتعاون معها . ان استراتيجية المجتمع المدنى قد كرست الاعتقاد بأن عودة الحياة المستقلة للمجتمع هى الضمان الوحيد للانتقال السلمى الى النظام الديمقراطى ومثل هذه الاستراتيجية تذهب لابعد من البرجماتية المبسطة التى ينادى بهما هؤلاء المطالبون بسيادة السياسات التقليدية :

« هناك أوقات يتحتم فيها أن نمعن النظر فى مأساتنا لنفهم الحقيقة وبمجرد أن ننزل الى قاع البئر سنرى النجوم فى وضح النهار · والنيوم يبدو لى أن هذا البرنامج ((الاقليمى)) و ((المصغر)) و ((السلبى)) ـ أى برنامج الدفاع البسيط عن الناس ـ هو البرنامج الأمثل الأكثر ايجابية لأنه يجبر السياسات القائمة على العودة الى نقطة بدايتها وبمعنى أدق تجبرها على تجنب كل الأخطاء القديمة ومن ثم العودة لطبيعتهم كأفراد)) (٢) ·

ان نواة الانشقاق بدأت فى بلدان مثل المجر وبولندا وتشيكوسلوفاكيا والمانيا الديمقراطية حيث كانت النظم أكثر قمعية فى شكل مجموعات صغيرة من الأفراد تفكر بنفس الطريقة حيث أعلنوا تمردهم وقرروا أن يقاوموا ما يرتكب من انتهاك لحياة المواطن الشخصية · واحتجوا على أى شكل من أشكال خرق حقوق الانسان المتفق عليها عالميا وعبر هافيل عن ذلك قائلا :

((فى ((الحركات الانشقاقية)) الكتلة السوفيتية عادة ما يتخذ الدفاع عن الشعوب شكل الدفاع عن الحقوق الانسانية والمدنية وهذه الحقوق قد تم التأكيد عليها فى كثير من الوثائق الرسمية منها الاعلان العالمى لحقوق الانسان الى العقد الدولى لحقوق الانسان وكذلك فى نصوص مؤتمر هلسنكى الخاصة بالشئون الفردية · وقد انطلقت هذه الحركات من اجل الدفاع عن اى شخص يتعرض للاضطهاد لتبنيه روح هذه الحقوق · لقد حملت هذه الحركات نفس الروح وذلك بالاصرار دوما على ان النظام لا بد أن يقدر هذه الحقوق الانسانية ويحترمها وبتحديدها لمناحى الحياة التى لا تسود فيها هذه الروح » (٣)·

لقد أعلنت الحركات المنشقة موقفها المعارض للعنف والارهاب ورأت أن اعادة بناء حياة مستقلة لا يمكن أن يتم باسم السخط أو الانتقام ولكن باسم مبادىء التضامن الانسانى التى قمعت على نحو

مخــز وهــو ما اشــار اليــه آدم متشنك فى مقــال كتبه فى المستقل عــام ١٩٨٢ :

« ان جوهر البرامج التى تطرحها الجماعات المعارضة .. يكمن فى محاولة اعادة بنــاء المجتمع واستعادة الوشائج الاجتماعية بعيــدا عن المؤسسات الرسمية » (٤) .

لقد رفضت الحركات المنشــــقة منطق العنف باعتبــاره مصــــاديا للانتاجية ومتعارضا مع الأهداف المثـــالية لتلك المبــادرات الآتيــة من القاعدة الشــعبية .

وبينما اتسم النظام بالعنف فى بنيته الخاصة وفى كــل هياكلـــه الوظيفية ، اعترفت المعــارضة بأن سيادتها المعنوية انبثقت تحديدا من رفضها مشاركة الحكام فى منطقهم العســكرى . وشرح متشــنك عــلى نصــر جلى مســتنير هذا المفهــوم فى مقــاله الذى كتبه فى سجن جدانسك فى عــام ١٩٨٥ :

« ان هؤلاء الذين يدعون بأن اســتخدام القوة فى الصراع من اجل الحرية شيء لا بد منه يجب عليهم أن يثبتوا ذلك . وعليهم أن يثبتوا أيضا أن استخدام القوة فى موقف معين سيكون فعالا ولن يخذل فكــرة الحرية السياسية لنقيضها ، لن يستطيع أحد فى بولندا أن يثبت أن العنف سيساعد فى اجــلاء القــوات السوفيتية عن بولندا وازاحة الشيوعيين من السلطة . ان مواجهة اتحــاد الجمهوريات السوفيتية بمــا له من قوة عسكرية ضاربة يعد شيء مستحيلا لا يمكن تصوره وذلك لأننا لا نملك أسلحة .... وفى اعتقادنا أن البرجماتية لا تنفصل عن المثالية بــل تزاوجها . لقد تعلمنا من دروس التــــاريخ لذلك فنحـــن نشــك فى أن استخدام القوة للعصف بسجون الباستيل يعنى اننا نبنى — دون أن ندرى — باســتيل جديدا ، وليس حقيقيا أن التغير الاجتماعى يتم باعتباره نتيجة لتناحر عنيف بين قوى عدة . وعــلاوة على ذلك ، فان التغيرات الاجتماعية تأتى بعــد تحــد ومجابهة لأخلاقيات متنافرة ورؤى النظــام الاجتماعى . وقبل أن يصطدم عنف الحكام بعنف المحكومين ستصطدم القيم ونسق الجمال داخل العقول الانسانية » (٥) .

ان المجتمع المدنى يعارض أى اغراءات تقدمها له الديكتاتوريـــة الحاكمة ويبدى تشككه بصدد هؤلاء الذين يدعون امتلاك حلول واجابات مثلى جاهزة لكل المصاعب والاسئلة التى تواجه بنى الانسان ، ويعتبر

الفروق الأيديولوجية التقليدية بين اليمين واليسار ليس لها صلة بالموضوع فى الظروف القائمة .

وقال متشنك فى كلمة له حول تلك القضية ، خاصة فى ضوء تطورات ما بعد عام ١٩٨٩ فى أوربا الشرقية :

« ان المرء يستطيع أن يرى أن حماسة الحركات المنشقة المثاليه تحمل أكثر من بذرة للتفكير الناهض » .

ان الديكتاتورية التوتاليتارية تجاوزت مجرد اثارة الانقسامات الأيديولوجية الغثة ، ووجب على الليبراليين ، والمحافظين ، الانسانيين المدنيين والقوميين الراديكاليين ان يطرحوا خلافاتهم جانبا لأن لديهم عدوا واحدا مشتركا هو النظام الشيوعى ، وذلك لا يعنى أنهم تخلوا عن عقائدهم . وفى عام ١٩٨٥ ، عندما بدا ان النظام أكثر تصميما من ذى قبل على التشبث بسلطته ، فان طرح متشنك بدا مقنعا تماما اذ قال :

((اننى اعتقد أن الصراع فى بولندا بين اليمين واليسار يرجع الى الماضى . لقد اعتاد هذا الصراع أن يقسم مجتمعا تتنافر فيه الصراعات من أجل الحريات البرجوازية ، والحقوق المتفق عليها عالميا ، واستصلاح الأراضى ، واللاعقائدية ، وساعات عمل ، والرفاهية ، ونظام مدرسى عالى ، ودمقرطة الثقافة . ان التمايز يطفو على السطح فى منطقة الديكتاتوريات التوتاليتارية فيما بين مؤيدى المجتمع المفتوح ومؤيدى المجتمع المغلق . وفى الماضى قام النظام الاجتماعى على الحكم الذاتى والاتفاقيات الجماعية ، ولاحقا سيحكم النظام من خلال القمع والانضباط)) (٦) .

ان ميثاق ٧٧ فى تشيكوسلوفاكيا كان محاولة للتغلب على الانعزالية الأيديولوجية من خلال طريقة جديدة تحترم حقوق الانسان وهى أهم الأسس لبناء مجتمع حر . وأعلن الخبراء فى وثيقة اعلان ميثاق ٧٧ ان مسئولية حفظ الحقوق المدنية لا تقع فقط على الحكومات ولكن « على أى وكل فرد » . وبسبب ايمانهم باقتسام المسئولية اتحدوا وتوحدوا فى جمعية مفتوحة تكون ملتزمة بالدفاع عن حقوق الانسان ومتجاوزة لأى فوارق أيديولوجية ودينية أساسية قد يحملها الموقعون على هذا الميثاق :

((ان ميثاق ٧٧ حر ، غير رسمى ، وهو كميونة مفتوحة تضم العديد من القناعات والديانات وفيها تعايش بين كل التمايزات . ان

اعضاءها جمعتهم الرغبة فى العمل جماعة وأفرادا من اجل الحقوق الانسانية والمدنية فى تشيكوسلوفاكيا والعالم أجمع وهو ما تبنته الاتفاقيات الأخيرة لمؤتمر هلسنكى ١٩٧٥ وغيرها من المعاهدات الدولية المعادية للحرب والعنف والقهر • ومن ثم فان ميثاق ٧٧ يرتكز على التضامن والصداقة بين الشعوب ويؤكد فى بعض نصوصه على مثل بعينها » (٧) •

ان صياغة الميثاق الفضفاضة أشارت لمعاداتها للبناء الهرمى والسلطوى ، واكدت وثيقة الاعلان على أن الميثاق ليس منظمة :

« وليس له تشريعات ولا جرائد ثابتة ناطقة باسمه ، ولا عضوية مسجلة • كل شخص يوافق على الأفكار ويعمل من اجلها يجنى ثمارها » (٨) •

وأوضح الميثاق أنه لا يعتبر نفسه بديلا للسلطة القائمة أو ضربا سياسيا يسعى للحصول على السلطة ويتبع استراتيجيات خاصة به . ان انكار الشخصية السياسية للميثاق يتعلق بالطبع بقلق السلطة من أى شكل من اشكال النقد . ويعد أى شكل من الفعالية السياسية فى ظل « الاشتراكية النظامية » فى تشيكوسلوفاكيا عملا « هداما » ، ويتم اعتقال كل من يمارسها • وعبر الميثاق عن فهم للممارسات السياسية باعتبارها مجالا يعمل فيه المواطنون معا ، من أجل المصلحة العامة• وبهذه الطريقة أدرك السلطويون أن الحركة الجديدة لن تتدخل فى الممارسات السياسية الرسمية الفاسدة والمشوهة ، الا أنها لن تألو جهدا لاستعادة كرامة المبادرات المستقلة ، وتعد هذه المقولة رمزا للفلسفة المعادية للممارسات السياسية والتى تعد تأكيدا جديدا على أهمية الحقوق المدنية وشكلا من أشكال مقاومة فساد الممارسات السياسية فى دولة ما بعد التوتاليتارية •

« ان ميثاق ٧٧ لا يعد معارضة سياسية منظمة • انه يدافع فقط عن المصلحة العامة كما تفعل منظمات أخرى مشابهة فتناصر المبادرة المدنية فى كل من الشرق والغرب • ولم يكن فى نية الميثاق تحديد برامج راديكالية معينة تهدف للاصلاح السياسى والاجتماعى وبدلا من ذلك حاول تحديدا لفت الأنظار للانتهاكات التى ترتكبها السلطات ضد الحقوق الانسانية والمدنية وطرح حلول وتقديم اقتراحات عامة لضمان احترام مثل هذه الحقوق فى المستقبل كما عملت كوسيط فى النزاعات بين المدنيين والدولة » (٩) •

ان ميثاق ٧٧ — مثله مثل لجنة الدفاع عن العمال أو المعارضة المجرية المنشورة — رأى أن المعارضة العنيفة للنظام الشيوعى هى

الخط الذى لا يجب تجاوزه · وحاولت هذه الحركات استغلال أنظمة ما بعد التوتاليتارية المزعومة ، للدفاع عن قضية حقوق الانسان وتعميقها لابعد مدى ؛ وصعد المجتمع المدنى مرة أخرى باستخدام الثغرات الموجودة فى بنية النظام ، وتحدوا الحكام وطالبوهم بتحمل نتائج وعودهم وتعهداتهم · وأفرز هذا الصراع أشكالا جديدة من الوحدة واشكالا جديدة من الجماعات بما فيها جماعات السلام المستقلة والجماعات الايكلوجية ودور النشر السرية والجامعات الطائرة وكل أشكال التعبير الأخرى ــ وهو ما أسماه المنادون بحقوق الانسان التشيكوسلوفاكيون « الثقافة الثانية » . ولم يكن غريبا أن يقابل النظام هذه الحركات بردود أفعال عنيفة ولجئوا لاستخدام القمع · وفى نفس الوقت أدرك كل المشاركين فى هذه الانشطة أن جهودهم لن يكون لها أى مردود اجتماعى الا اذا تواصلت البنى المتوازية واخترقت وأثرت على مثيلاتها «الرسمية» وقال هافيل فى هذا الصدد :

« سنكون مخطئين تماما اذا فهمنا ان البنى المتوازية والممارسات الشكلية المتوازية نوع من الارتداد أو العزلة ولا تليق الا بهؤلاء الذين يعيشون فى رفاهية وتخلوا عن مثل هذا المسار ولا يبالون بالآخرين ·· ولا تستطيع أكثر اشكال السياسات المتوازية نضجا ورقيا ان تبقى ــ على الأقل فى ظروف ما بعد التوتاليتارية ــ الا عندما يتخلى الفرد ــ فى نفس الوقت ــ عن البنية الرسمية (السابقة) اذ تربطه بها الف علاقة فهو يشترى ما يحتاجه من متاجرهم ويستخدم نقودهم ويطيع قوانينهم » (١٠) .

ان المنشق سواء أكان رجلا ام امرأة يتحدى ما هو سائد من العقائد والعادات والمحظورات وشتى أنواع الاجحاف ويطالب بان يتغلغل الاحساس بالكيان الانسانى فى مفهوم المسئولية ، واذا كان هدف النظام هو اقناع الفرد بأن ما هو قائم هو الحقيقة الوحيدة الممكنة فان الحركات الجديدة رفضت ذلك قائلة بأنه لا يوجد شىء يقرر مصير الانسان ، كما لا توجد أية حتمية آلية تستطيع ان تجبر الفرد على قبول الوضع الحالى ولا أن تجعله يسلك مسلكا عبوديا . وفى أحد خطاباته التى أرسلها لزوجته أولجا Olga كتب فيتسلاف هافيل :

« ان مشكلة الكيان الانسانى ظلت دائما فى بؤرة تفكيرى عندما تشغلنى شئون الانسان ، ولا أستخدم كلمة « الكيان » لأننى أؤمن بانها تفسر اى شىء عن سر الوجود الانسانى بل استخدمتها عندما كنت اطور مسرحياتى او عندما كنت أفكر فيهم فيما بعد لأنها ساعدتنى فى تجسيد موضوعاتهم ونتائجها . وأجد ان « أزمة الكيان الانسانى »

هى اهم ما شد انتباهى ، وتتناول كل مسرحياتى هذا الموضوع اى الحط من احادية الفرد والتخلص من كل شىء يعوق اعطاء الوجـود الانسانى معنى واستمرارية وحلولا فريدة . وفى نفس الوقت ... نما فى تأملاتى اهمية مفهوم المسئولية الانسانية . لقد بدا يظهر بوضوح متزايد كقضية جوهرية تشتق منها كل الكينونات وبها تصمد او تسقط ، انها اساس ، وجذر ، ومركز الجاذبية انها المبدأ البنائى أو محور الكينونة ، و ((الفكرة)) من الأشياء التى تقرر مستواها وشكلها . انها حجـر الرحى الذى يربطهما معا وعندما تجف تبدأ الكينونة ايضا على نحـو انقلابى فى التفتت وتتحول الى اشلاء)) .

واستطاع هافيل باعادة اكتشاف العلاقة بين الاتساق الخاص بالشخصية وروح الواجب المدنى أن يصل لهذا الاستنتاج الجديد :

((ان سر الانسان هو سر مسئوليته)) (١١) .

وهكذا كانت الحركات الجديدة نقيضا للرؤية الرسمية للممارسات السياسية ، فبينما كانت الأحلاف الشيوعية منفردة بالحكم ، متزمتة فان المجتمع المدنى كرس مفاهيم الصراحة ، والحوار والسماحة . وفى عام ١٩٨٦ قدم هافيل ردا على الاستفسارات التى أرسلت له من الصحفى التشيكى المنفى كارل هافزدالا Karel Hvizdala اجابات عميقة كانت خلاصة تجاربه الفنية والسياسية .

واسفر هذا التبادل للآراء عن مذكرات رائعـة ، وكتـاب القى الضوء على مغزى الانشقاق كخطوة أولى فى اعادة بناء مناخ شـعبى يرتكن الى الثقة والتضامن . وكتب هافيـل مشـيراً الى الطبيعـة الأيدلوجية لميثاق ٧٧ :

((ربما يتحتم على أن أضيف شيئا آخر عن التعددية فى الميثاق ، فالميثاق لم يكن شيئا يسيرا على الجميع ، فكان لابد ان يتجاوز كثيرون خلافاتهم الداخلية القديمة الا ان الجميع استطاعوا أن يفعلوا ذلـك لأننا شـعرنا بأن تاريخنا اصبح شيئا جديدا تماما : ان جذين السـماحة الاجتماعية الأصيلة (وليس مجرد الاتفـاق بين البعض للاطاحـة بالآخرين ، كما كان الحال مع حكومة الجبهة القومية National Front بعد الحرب العالمية الثانية) ـــ سوف ينبه الذاكرة القومية ، وستبقى فى الذاكرة كتحـد استطاع ان يكسب الدعم فى أى وقت واى مـوقف ويجـذب اليه الاهتمـام » (١٢) .

ان دور الحركات الجديدة هو اقناع المواطن العادى (الخضرى) الذى يدعم النظام بطريقة جامدة ، لأنه لا يتصور وجود بديل له . ان التغير

ممكن حتى فى ظـل هذه الظروف السيئة التى يعيشها الجميع فى دولة ما بعد التوتاليتارية .

« لا يجب أن تتخلى عن الأمل » تلك هى الرسـالة التى تنقلها هذه الحركات لهؤلاء الذين شـاركوا فى اعادة بناء المجتمعات المدنية فى أوربا الشرقية .

« ان الأمل ، بهذا المعنى العميق الفعال ، ليس هو نفس البهجة التى تنتابنا عندما تكون الاشياء على ما يرام ، أو عندمـا تستثمـر مشروعات ستشق طريقها الى النجاح ، ولكن الى حد ما ، القدرة على العمل من اجل شىء ما لان هذا الشىء جيد وليس لآن لديه فرصة للنجاح . وكلما كان الموقف لا يبشر بالخير كـان الأمل أعمـق . ان الأمل لا يعنى التفاؤل ، انه ليس قناعة بأن شيئا ما سوف يقلب الأمور ، ولكنه احسـاس مؤكد بأن شيئا ما سوف يحدث ويكون له وقـع كبير دون الأخذ فى الاعتبار كيف سيظهر . وباختصار فاننى أعتقـد بأنـه أكثر أشكال الأمل عمقا وأكثرها أهمية وهو الشكل الوحيد الذى يحافظ على بقائنا فوق سطح الماء دون أن نغرق ويلح علينا ويحثنا كى نؤدى عمـلا جيداً ، والمصدر الحقيقى والوحيد لايجاد متنفس للروح الانسانيـة وجهودها . انه الأمل الذى يمدنا قبـل كل شىء بالقوة لنبقى ونسـتمر ونجرب الأشياء الجديدة باستمرار حتى ولو بدت الظروف من حولـنا لا أمل فيها ، هنا والآن » (١٣) .

يجب عـلى المرء أن يسـترجع الظـروف التى جـرت فى أوربا الشرقية فى العـام الأول من تولى جورباتشوف السلطة ، حيث لم يكن هناك أى امارات تدل على أن الزعيم السوفيتى يمكن أن يتورط فى أى شىء سوى عمله على أن يجعل النظـام الجديد فعـالا ومتدفقا . ولـم يستطع معظم المحللين للشئون السوفيتية التنبؤ بالتغيـرات الدراماتيكية التى ستحدث لمفهوم الاتحاد السوفيتى عن التضـامن فيمـا بين دول الكتلة . وأشارت الدلائل التى جاءت من موسكو الى اهتمام الكرملين باستبدال الزعماء الأوربيين القدامى بآخـرين جدد لتجديد وضخ دمـاء جديدة فى الأحلاف الشيوعية . وإستنتج معظـم الناس أن التوجـه السـوفيتى الجـديد كـان يقدم الدعـم والتشجيـع للمصـلحين الشيوعيين (١٤) .

وإعترف كثيرون مثل آدم متشنك فى بولندا وجانوس كسى فى المجر وهافيل فى تشيكوسلوفاكيا بأن التغـيرات التى تجـرى فى الاتحـاد السوفيتى وتأثيرها على الموقف المحلى فى كل بلـد شرق أوربى كانت

شديدة الأهمية والخطورة . وما زال المفكرون يرفضون تعليق كل آمالهم علي النوايا الطيبة لامبراطور مستنير · ان التغيرات لابد ان تتجاوز — اذا كانت جوهرية وصادقة — الوضع القائم للسلطة ، ومن ثم يجب أن تعاد الصحوة للمجتمع من جديد وذلك بممارسة الضغط الجماعى الذى تقوم به الجماعات والحركات المستقلة وكذلك بما تقوم به أجنحة معينة داخل الائتلاف الحاكم ، وبالتخلص من هؤلاء الذين يقبضون على السلطة المطلقة وباطلاق العنان للتحديث الاجتماعى . وأصر هافيل ردا على هؤلاء الذين بنوا آمالهم على نية جورباتشوف فى تحديث النظام والسماح باجراء اصلاحات عميقة، على أن هذه التغيرات لن تكون أصيلة وصحيحة ولن تسفر عن مجتمع لا شمولى الا اذا شارك المجتمع نفسه فى المسئولية · وبدا واضحا للجميع أن الصراع بين الحمامة والصقر أو بين الليبراليين والمحافظين فى المكتب السياسى سيسفر عن التعددية السياسية ، وعارض هافيل ومفكرون شرق أوربيين آخرون اعاقة رؤية المجتمع المدنى وعرقلة حركته التى لم يعد فى الامكان احتواؤها · ان النية الحسنة لأفضل سكرتير عام لا تكفى لتغير النظام ، انها تجمله وتجعله محتملا .

لقد اكتشف هؤلاء الذين يعتقدون بأنهم قد خولوا من قبل التاريخ لحكم وقمع الآخرين أى لاستخدامهم كأدوات لهم دون أن يتعرضوا لأى محاسبة مدى جدية وصدق الممارسات السياسية الجديدة ، ومن ثم أصبحت الأرض ممهدة كى يبزغ مجتمع مدنى ناضج وواع يشارك الحكومة مهام الحكم .

« اننى أترك لمن هم اكثر قدرة ومسئولية تقرير ما يمكن ان نتوقعه من جورباتشوف و « من القمة » اى ما يمكن أن يحدث فى أجواء السلطة الا اننى لا أعلق على ذلك اى آمال ، واهتم اكثر بما يحدث فى «القاعدة» وما يمكن توقعه من « القاعدة » وما يمكن تحقيقه من مكاسب لما تدافع عنه . ان السلطة فى يد شخص ما وهو يستجيب لحكم العقل ولسلوك هؤلاء الذين يحكمهم وذلك غالبا ما يحدث دون قصد ، بل ان سلوك السلطة يعد انعكاسا لما يحدث فى « القاعدة » اذ لا يمكن لأحد ان يحكم من فراغ » (١٥) .

ان المجتمع المدنى ملأ هذا الفراغ بفهم جديد للممارسات السياسية وذلك بتحديه ومقاومته للأجهزة القمعية السلطوية . فنجد هوساك وجاكسى فى تشيكوسلوفاكيا — كمثال — قد خرجا عن سياستيهما المتبعة لمحو ذكرى ربيع براغ ولزرع الاحساس بالقصور التام فى نفوس الجماهير ، كما ساهمت مبادرات مثل ميثاق ٧٧ والأعمال المدنية فى صحوة

المجتمع مرة أخرى . ولم يكن المنشقون — بما لهم من « دراية بالنفس والتحرر الذاتى » هم وحدهم الذين عارضوا النظام القائم بشكل مباشر بل شاركهم الجماعات والاتحادات ، كما عارضوا « المنطقة الرمادية » بين الحكومة والمعارضة معبرين عن صعود الفعالية الاجتماعية التى لم يتنبه اليها الا القليلون رغم دلالتها .

« ومرة بعد مرة تصيبنا الدهشة الشديدة والعجب مما يحدث كل يوم ومن المخاطر العظيمة التى خاضها الشعب بشجاعة ، كما اصابنا الذهول لمقدار الحرية التى تصرفوا بها ، ومقدار تعطشهم العظيم والكامن لمعرفة الحقيقة ، وتعطشهم لسماع كلمة حق وللقيم الأصيلة » (١٦) .

لقد تحررت عشرات الآلاف من الجماهير من قيودها ، وتكونت فرق الجاز رغم وجود الفرق الرسمية ، وانطلقت المظاهرات الضخمة للدفاع عن حرية العقائد الدينية . لقد كشفت الأحداث التى جرت فى النصف الثانى من الثمانينيات ، مدى عجز دولة ما بعد التوتاليتارية عن احتواء الضغط المتزايد من القاعدة الجماهيرية . وعندما تكونت مجموعة غير رسمية تدعى فونز Vons (لجنة الدفاع عن المضطهدين) صنفتها الحكومة ضمن « المنظمات المعادية للدولة » واعتقلت زعماءها بما فيهم هافيل . ان الانشطة المتنامية على نحو مفاجىء والتى تميزت بالاستقلالية كشفت عن الرأى العام الذى زيف وكمن وراءه الخوف واليأس .

ان هذه الانشطة تدل على السخط الاجتماعى العميق والكامن تحت السطح الخارجى لدولة ما بعد التوتاليتارية :

« قد لا تبدو هذه التغيرات للمراقب الخارجى شيئا ذا دلالة . اين العشرات والملايين من نقابتك القوية ؟ لماذا لم يتفاوض معك هوساك ؟ لماذا لا تهتم الحكومة بعروضك وتصرفاتك الطيبة ؟ الا ان هذه التغيرات تعنى كل شىء بالنسبة لأى شخص هنا ، انها الوعد الحقيقى للمستقبل اذ انه قد تعلم — منذ زمن بعيد — الا يقبلها من اى مكان آخر » (١٧) .

وتقدم المجتمع المدنى على نحو أسرع وأقوى فى المجر وبولندا عنه فى بلدان أخرى مثل جمهورية المانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفاكيا . وتستحق حالة المانيا الشرقية بسياساتها البيروقراطية وأرثوذكسيتها الجامدة أن نعيرها اهتماما خاصا ، الا اننا لا يمكن أن نفهم بسهولة أسباب انهيار نظام هونكر فى سقوط ١٩٨٩ دون الرجوع لتاريخ الانشقاق

الديمقراطى ودون الرجوع لتاريخ المعارضة فى ذلك البلد . لقد طالبت جمهوريه المانيا الديمقراطيه بعد قيامها بمباركه من ستالين وذلك فى اكتوبر ١٩٤٩ أن تكون الدوله الالمانيه الاولى للعمال والفلاحين . لقد كانت البلد الاوربى الوحيد الذى اعتمد وجوده على افتراض ايدلوجى مفاده ان الحقيقه يمكن ان تبرر فصل امه الى دولتين . وفى اغسطس عام ١٩٦١ قرر والتر برخت — خليفه هونكر — الستالينى المتشدد أن يشيد سور برلين للفصل بين الالمانيين ولمنع النزيف الديمجرافى الذى قد يسفر عن كارثة . ويعد هذا القرار اتبع الحزب الاشتراكى الديمقراطى الحاكم SED سياسة وضع الحدود والفواصل Abgrenzung لحفظ وتعزيز سياسة العزل بين البلدين . وسعت الدولة الشيوعية كى تؤكد شرعيتها الى الاستيلاء على التقاليد الانسانية « التقدمية » للثقافة الألمانية . وأصرت الدعاية الرسمية على أن جمهورية المانيا الديمقراطية التزمت بالدفاع عن السلام الا أن هذه الطنانة التى تخدم مصالح السلطة فشلت فى اقناع شعب المانيا الديمقراطية . لقد تأكد الشعب بما لا شك فيه أن النظام متورط حقا فى مسار عسكرى . وفى نفس الوقت فان الأوضاع الأيديولوجية الجامدة التى يفضلها زعماء الحزب أدت الى اضطهاد مستمر ومنظم لهؤلاء النقاد الذين حاولوا أن يقدموا بديلا للخط الرسمى . وتفرد زعماء المانيا الشرقية بانتهاج سياسة متعنتة فيما يتعلق بالاصلاحات التى لا مثيل لها فى أية دولة شيوعية أخرى باستثناء رومانيا ، شوشيسكو . وبدا أن هونكر فى سنوات حكمه الأولى . يتبنى منهجا جديد أكثر مرونة فيما يتعلق بالشئون الاجتماعية الدولية ، بل انه عبر عن اهتمامه بالحوار مع مبدعى الحزب وأخذ فى التمرد — تدريجيا — على دوجماتية النظام . وفيما بعد وخاصة بعد ١٩٨٠ رفض هونكر ابداء أى تساهل مع المعارضة ، الا أن زعماء الحزب الالمانى لم ينسوا ثورة يونيو ١٩٥٣ التى قامت بها الطبقة العاملة .

ولمجابهة ازدياد وتكاثر الأفكار الاصلاحية الديمقراطية أكد النظام على التزامه برؤية محافظة تماما للاشتراكية . وعندما جاء جورباتشوف للسلطة واطلق حملته المعادية للستالينية فان زعماء جمهورية المانيا الديمقراطية لم يخفوا استياءهم نحو ما اعتبروه نهج (مغامر) خطر . ولسخرية الاقدار فان القطر الذى سمح بوجود قواعد عسكرية على أرضية تحتلها قوات سوفيتية تبلغ ٤٠٠,٠٠٠ جندى تقوم حكومته بحظر توزيع أى منشورات سوفيتية تطالب باصلاح المسار الاشتراكى وساءت العلاقات بين الزعماء السوفيتيين والألمان الشرقيين وخاصة

بعد أن أعرب السوفيتيون علانية عن نيتهم فى التخلى عن المنهج الطبقى فى العلاقات الدولية . وقيل السناسينيون الموسميون فى المكتب السياسى الألمانى الشرقى مذهب ياكوفليف شيفرنادزة Yakovlev , Shevardnadze- الذى يؤكد على تفوق القيم العالمية مثل السلام وحقوق الانسان فى العلاقات الدولية بالاستياء والامتعاض وكان أهم حدث جرى فى الاحتفال بالذكرى السبعين لتأسيس الحزب الشيوعى الالمانى KPD فى ديسمبر ١٩٨٨ هو رفض اريك هونكر الاقتراحات الخاصة بتعديل سياسات الحزب الاشتراكى الديمقراطى الحاكم بما يتناسب مع رياح التغير التى تهب من موسكو :

((ليس لدينا سبب لتقليد الممارسة السياسية لهذا البلد أو ذاك من البلدان الشقيقة رغم أن ذلك يعد ، حقيقة ، بمثابة انكار سافر للتعاليم الأساسية للماركسية . السلام .... تحفظه سياستنا الخارجية ، وتصونه السياسة العسكرية ، ويدعمه تلقين الأجيال الصغيرة ، ويحميه الدعم الشامل من الأرض الأم للاشتراكية)) (١٨) .

وفى محاولة لدعم تواجده فى الحياة القومية أكد النظام ــ يائسا ــ على الكينونة القومية الألمانية الشرقية ، فحاول ــ أولا ــ أن يحقق لنفسه هيبة وجماهيرية من خلال التوحد مع الأيدلوجية الرسمية لرموز وأفكار بعينها والتى ترتبط باللحظات المهمه فى تاريخ الأمه الالمانيه ، كما أصر ثانيا ــ على أن جمهورية المانيا الديمقراطية تمثل الدعامة الرئيسية للنظام الشيوعى والمعنى السامى ((للدولية الاشتراكية)) . وهذا الزعم الثانى أوشك أن يفقد معناه بعد حلول عام ١٩٨٧ عندما تساءل هونكر وزملاؤه عن جدوى سياسات جورباتشوف الجديدة .

ولسنوات طويلة خطط الحزب الاشتراكى الديمقراطى لاستئصال الشظايا التى تطلقها الحركة المنشقة على الجسد الاجتماعى وبعد عام ١٩٨٠ واجه الحزب جهودا متنامية لتحقيق الاستقلالية كما شهد بداية حركة جماعية لمعارضة المسار العسكرى . وعلى الصعيد السياسى أدركت حركة السلام المستقلة الألمانية الشرقية أن الدولة التوتاليتارية ــ وهى ما يطلق عليها اسم الكتلة الشرقية ــ لن تدخل فى حوار مع قوى بديلة . ووجدت الجماعات الجديدة فى الكنيسة الانجيلية مصدرا للدعم والتشجيع ، وذلك بسبب وضعها الخاص والمتجاوز للمستوى السياسى ومن ثم قدرتها على دعم الحركة المستقلة الصاعدة بدرع قوى يحميها . ورغم أن العلاقات بين موظفى الكنيسة وممثلى الجماعات المستقلة وحقوق الانسان لم تكن تتسم دائما بالإنسجام ، فان المؤسسات الدينية تحولت لحلف مهم جدا بالنسبة للمناضلين المضطهدين .

وحاولت الجماعات الجديدة ان تشق قناة تصب فيها جهود هؤلاء الذين يؤمنون بامكانية دمج الألمانيتين وهو ما أدى الى اخفاق هذه الجماعات فى جذب مزيد من الجماهير من بين هؤلاء الذين ظلوا على اعتقادهم بأن الحزب مجرد دخيل شاذ وغير شرعى . وفيما بعد اتضح ان التعهد باقامة كيان دولة ألمانية شرقية سوف يصبح عقبة كؤودا فى سبيل الجماعات المعادية للسلطة والتى ستقود الصراع ضد نظام هونكر فى سقوط عام ١٩٨٩ . لقد رفض السلطويون تقبل الحقائق الواقعة وفهم الاشارات التى تبعث بها الجماهير كما هاجموا الجيل الأصغر اذى وجد فى الصرح الأيديولوجى للاشتراكية الألمانية الشرقية كذبة سمجة .. ان الشاعر ومؤلف الأغانى ساشا اندرسون Sascha Anderson هاجر الى الجمهورية الفيدرالية فى أغسطس ١٩٨٦ ، وقد ولد لعائلة مبدعة عام ١٩٥٣ ومن ثم كان ينتمى للجيل الذى رفض أن يعتبر الجمهورية الالمانية الديمقراطية « الأرض الأم »، كما رفض الايمان بأى أوهام تتعلق بالفضائل الانسانية للشيوعية . وفى هذا الاطار فان وجهات نظره اختلفت راديكاليا عن تلك التى تبناها الماركسيون المثاليون مثل البرفسور الفيزيائى روبرت هافمان Ropert Hvemann المحارب السابق المعادى للنازية والذى أصيب بالتدريج بالاحباط الشديد اثر الطغيان البروقراطى الذى يمارسه الحزب الاشتراكى الدمقراطى بسبب هؤلاء الذين تغنوا بالقصائد المعادية للوحدة ، ومثل ولف بيرمان Wolf-Biermann الذى نفاه النظام فى أواخر السبعينيات . وينتمى اندرسون لجيل من النقاد اللاراديكاليين المتحررين من الأوهام والافتتان ، واعتبروا النظام حزبا من الدجالين وفرصة للأوغاد السياسيين للحصول على الامتيازات وفرض سلطة لا حدود لها على رعاياهم الخانعين . ورأى اندرسون وانداده أن محاولة تحسين النظام تبدو مضيعة للوقت ، واتسم سلوكهم بالرفض التام للسلطة الا انه لم يكن رفضا حاسما :

« اننى لم أهتم أبداً بالنظام .. ولم اهتم بتقويض هذا النظام من الداخل . بل اننى لم أرغب فى أن اعمل وفقا لمطالب النظام » (١٩) .

ان معظم المنشقين ، على أية حال ، لم يرفضوا النظام الاجتماعى القائم قدر مارفضوا تشويه الحزب الاشتراكى الدبمقراطى للمبادىء الماركسية . وفى هذا الاطار كانت المعارضة الألمانية الشرقية بالتأكيد تتوارى خلف حركات مشابهة فى بولندا والمجر والتى تخلت عن آمالها التعديلية الخاصة باحداث التغير داخل النظام .. ان حالة هافمان ترمز لما هو قائم من اوضاع فهو معارض مطلق للديكتاتورية

السياسية وكان مقتنعا بأن النقد الماركسى يمكنه ان يؤثر بشكل قاطع على الممارسات السياسية للنظام التوتاليتارى . ورأى هافمان ومؤيدوه فى المعارضة الديمقراطية الصاعدة ، ان الحل هو اعادة التأكيد على الانسانية الفاعلة للاشتراكية ، ورأى ان اليوتوبيا الشيوعية التى ترتكز على مساواة حقيقية بين المواطنين هى المهمة الأولى لهذا العهد الجديد :

« لا بد من القضاء على هؤلاء الناس الذين يتمتعون بكل الامتيازات سواء أكانوا طبقات ام جماعات ، اذ لابد لكل واحد ، وكل شخص أن ينال نفس الفرصة ونفس الامتياز ، ونفس الامكانات ، ويجب ان تربطهم جميعا علاقات تقوم على المساواة والندية » (٢٠) .

ان النظام تصرف مرة أخرى بطريقة دراكولية فيما يتعلق بالتحدى الانسانى الذى أعلى من شأنه المفكرون أمثال هافمان ولقى الكتاب فى حركة الانشقاق معاملة فظة من السلطة فمنعتهم من نشر كتبهم ووضعتهم تحت مراقبة البوليس الدائمة ، وغالبا ما أجبرتهم على الهجرة .

وفى مثل هذه الظروف كان لا بد من انتهاج استراتيجية جديدة دخيلة . وكانت اعادة بناء المسيرة النقدية واعادة التفكير فى الامكانات المتاحة من اجل حركات اجتماعية مستقلة ضد تيار سلطوى قوى لفرض الهيمنة على تلك المناطق التى لم تجتحها كلية أفكار أو مبادىء ضرورة ملحة . ان الحل الوحيد أمام هؤلاء الذين يرغبون فى عمل أى شىء داخل جمهورية ألمانيا الديمقراطية بدا انه يتجاوز مجرد المعارضة الفكرية التى كانت تعتبر بطولية رغم أنها بدت هامشية ومعزولة . ومن ثم تم طرق قضايا جماهيرية ملحة بما يتوافق مع الالهامات والتوقعات والحاجات الشعبية وبما يتوافق مع وجهة نظر المفكرين النقاد فى ألمانيا الشرقية . وكانت القضايا الحيوية التى طرحت هى المناورة التى تلجأ اليها الدولة فى مواجهة فكرة السلام وعدم اهتمامها بالتدهور البيئى . وفى يناير ١٩٨٢ أعلن روبرت هافمان « عريضة برلين » الوثيقة التى ميزت ميلاد حركة السلام الالمانية الشرقية ووقع العريضة التى كتب أصلها راينر ابلمان Reiner Eppelmann الوزير اللوثرى ببرلين الشرقية والمشارك فى العمل الشبابى وآلاف من الجماهير (٢١) . وكانت القضية الرئيسية لعريضة برلين هى تحدى دعاية النظام العسكرى . واعيد رفع الشعار القائل «كلما كانت الاشتراكية اقوى ، كان السلام مضمونا» فى الملصقات الألمانية الشرقية الرسمية ورد الموقعون على « عريضة برلين » على ذلك قائلين :

« اننا نقترح اقامة مناظرة كبيرة حول قضية السلام فى جو من التسامح واقرار حق حرية الحوار واطلاق وتشجيع كل تعبير شعبى تلقائى يعبر عن الأمل فى السلام » .

واقترح الكتاب العديد من القضايا التى يمكن أن تكون موضعا للمناقشة والحوار . وبانكار ما قد يكون للحكم العسكرى من فضائل طرحوا الاسئلة الآتية :

(أ) أيجب أن نوقف الانتاج ، والبيع والتصدير لما يسمى بلعب الحرب ؟

(ب) أيجب أن نقدم فى مدارسنا دراسات عن السلام بدلا من التعليم العسكرى ؟ .

(جـ) أيجب أن نسمح بالعمل الاجتماعى من أجل السلام بدلا من الخدمة العسكرية لهؤلاء الذين يرفضون حمل السلاح لأسباب أخلاقية ودينية ؟ .

(د) أيجب أن نوقف كل العروض العامة للقدرة العسكرية وبدلا منها نقدم الاحتفالات الجماهيرية التى تعبر عن أمل الأمة فى السلام ؟

(و) أيجب أن نوقف ما يسمى بالتدريبات الدفاعية المدنية ؟ ولأنه لا يمكن تحقيق أى عمل مدنى عظيم فى الحرب النووية فان هذه التدريبات تجعل الحرب النووية تبدو أكثر جدية . أفلا يعد ذلك نوعا من الاعداد النفسى للحرب ؟ (٢٢) .

ومن الواضح أن جمهورية ألمانيا الديمقراطية كانت حصنا للدولة كى تواجه التحديات القادمة من القاعدة : ان الروح المعنوية للجماهير لم تكن عالية ، ومن ثم فان السخط تفشى بين الطلاب والمفكرين أكثر من العمال اذ أنهم لم يميلوا الى الانشقاق وفضلوا ان يقبلوا عرض الحكومة برفع مستوياتهم المعيشية عوضا عن السلام الاجتماعى . ومن ناحية أخرى كانت معلومات مواطنى جمهورية ألمانيا الديمقراطية عن حجم الفساد المتفشى فى الحزب الحاكم ضئيلة جدا رغم قرب وقوع الانهيار ... ى عامى ١٩٨٩ و ١٩٩٠ . وأيا كانت نظرة الشعب الى هؤلاء الزعماء من أمثال السكرتير العام للحزب اريك هونكر فان رئيس النقابة العمالية هارى ترش Harry Trisch ورئيس البوليس السرى ايربك مليك Erich Mielke فلم يشك أحد فى أن الشيوعيين فى المانيا الشرقية ذوى المظهر الاسبرطى الشجاع ، والواعظين المتقشفين ، ورواد سجون هتلر ومعسكرات الاعتقال كانوا يمتلكون

العربات الفارهة واكواخ الصيد الفخمة وحمامات السباحة ، وهم فى ذلك يختلفون عن نظرائهم من القادة السوفيت تحت قيادة برجنيف . وفى اوائل الثمانينيات كان هؤلاء الذين جرءوا على انتقاد الحزب الاشتراكى الحاكم لعدم اهتمامه بالمواطنين الحقيقيين أقلية تم عزلها تماما وكان من اليسير فصم عراهم واعاقة حركة الانشقاق لولا دعم الكنيسة لهم بسبب ايمانها الشديد بأن الحركة الاجتماعية من القاعدة قد بزغت لتعبر عن اهتمامات وآمال شرائح عريضة من الجماهير وظهر ذلك فى فوران تلقائى من العنف والغضب ، وشاركت الكنيسة حركة السلام فى الهموم الخاصة بالتدخل السافر للدولة فى الشئون الشخصية . ورأى أنصار السلام فى ألمانيا الشرقية أن فكرة تحويل « السيوف لشفرة محراث Schwerlez Zupfugshoren كانت أكثر من مجرد تشبيه بلاغى اذ كانت رمزا لقرارهم بالتمرد ضد العسكرية ، والرقابة ، والمناورة العسكرية والقمع الذى تمارسه السلطة ـ لقد كانت الطريقة الوحيدة لمقاومة محاولة النظام للاتجار بكل اشكال العمل الراقى وتشويهها . ان حركة السلام المستقلة فى جمهورية المانيا الديمقراطية كانت أولا وأخيرا مؤشرا للازمات الأخلاقية المتفشية التى أثرت على شرائح عريضة من شباب المانيا الشرقية فى بحثهم عن قيم ثابتة وفى سخطهم على الديماجوجية الثورية التى تتبناها الحكومة .

ان التغيرات السياسية التى حدثت فى الاتحاد السوفيتى وفى اقطار أوربا الشرقية بعد وصول جورباتشوف للسلطة فى ١٩٨٥ جعلت المناضلين من أجل السلام وحقوق الانسان أكثر راديكالية ، وأدرك أنصار السلام بعد أن تعرضوا للقمع الرسمى بأنهم فى حاجة لجدول أعمال اكثر توسعا وقرروا منذ بداية عام ١٩٨٥ أن يحددوا العلاقات بين السلام وحقوق الانسان فى منظومة . واطلقت مجموعة من قيادات المناضلين بما فيهم المتمرسون المحنكون فى حركات السلام غير الرسمية من أمثال راينر ابلمان Reiner Eppelmann ورالف هرتش Ralf Hirsh وولفجانج تمبلين Wolfgang Templin مبادرات لاقرار حقوق الانسان ، ووقع اكثر من ثلثمائة شخص عريضة موجهة لهونكر مطالبين بتنفيذ اعلان الأمم المتحدة العالمى لحقوق الانسان ، كما طالبت العريضة بالتخلى عن الحياة الاجتماعية العسكرية وخلق خدمة مدنية بديلة لتحقيق أهداف واعية وأدانت أيضا القيود المفروضة على السفر وطالبت بحرية التعبير والغاء الرقابة الا أن الحكومة تظاهرت بتجاهل المذكرة . وفى يوليو ١٩٨٥ أرسلت عريضة اخرى لمنظمة الشباب الرسمية معلنة الهدف الرئيسى لحركة السلام المستقلة وهو احياء المجتمع المدنى .

ونصت العريضة على أن الجمعيات السلمية والمبادرات والمنظمات والنوادى والأحزاب السياسية لا يجب أن تعول على الأحزاب السياسية الحاكمة . وأن قيام المجموعات المستقلة بمباشرة عملها دون قيود سوف يحمى المجتمع من :

«الانزلاق فى نظام ادارى جامد يكبت الابداع بين مواطنيها» (٢٣)٠

وفى هذا الاطار يدرك المرء فلسفة الارتقاء الجديد التى حركت صراعات المعارضة البولندية وانشأت الأيديولوجية العامة للمناضلين الديمقراطيين فى دول قلب أوربا الشرقية ٠ وفى نفس الوقت فان التصميم على العلاقات الحيوية بين السلام وحقوق الانسان كان جزءاً من رصيد الحركات المعادية للدولة التى كانت قد نمت فى بلدان الكتلة السوفيتية ٠ وهنا يجب أن نذكر مقال هافيل المشهور « اختراق الصمت » الذى كتبه فى ابريل عام ١٩٨٥ وفيه ناقش المنشق التشيكى الاتفاقيات الرئيسية بين المناضلين المنادين بحقوق الانسان الأوربى الشرقى وممثلى الحركات المعادية للنووية فى أوربا الغربية والولايات المتحدة . ويرى هافيل أن قضية سباق التسلح والحرب لا تكمن فى الحصول على الأسلحة ولكن فى استخدامها من أجل أغراض توسعية. ان الأوربيين الشرقيين لا يتعاملون مع السلام وحقوق الانسان كقضيتين مختلفتين أو منفصلتين ، لأنهم تعلموا من تجربتهم الخاصة أن الحكومات التى تحط من قدر حقوق مواطنيها لا يمكن أن تكون محل ثقة عندما تقدم على التزامات دولية .

« بدون مواطنين أحرار ، يحترمون أنفسهم ، ومستقلين لن يكون هناك أمم حرة او مستقلة ٠ وبدون السلام الدولى بين المواطنين وبين المواطنين والدولة ، لن يكون هناك ضمان للسلام بين الدول : ان الدولة التى تتجاهل رغبة وحقوق مواطنيها لن تستطع ان تقدم اى ضمان على انها تحترم رغبة وحقوق الشعوب والأمم والدول الأخرى ٠ ان الدولة التى ترفض مواطنيها وترفض حقهم فى الرقابة العامة على ممارسة السلطة لن تقبل الرقابة الدولية ٠ ان الدولة التى تنكر على مواطنيها حقوقهم الاساسية تصبح خطرا داهما على جيرانها ايضاً : ان الحكم الجبرى الداخلى سوف ينعكس حتما فى علاقات خارجية جبرية ٠٠٠٠ عدم المصداقية فى بعض المناطق يثير خوفا له مبرر من عدم المصداقية فى كل المناحى وكل الأمكنة ٠ ان الدولة التى لا تتردد فى الكذب على شعبها لن تتردد فى الكذب على الدول الأخرى ٠ كل ذلك يقودنا لاستنتاج مفاده ان احترام حقوق الانسان هو الوضع الأمثل والضمان الأوحد والأصيل لسلام حقيقى ٠

ان قمع الحقوق الطبيعية للمواطنين والشعوب لن يضمن السلام بل على العكس سيكون خطراً عليه » (٢٤) .

ان وجهة نظر هافيل كانت فى الواقع ردا على النقد وسوء الفهم الصامت الذى تفشى بين السلميين الغربيين فيما يتعلق باتجاهات المنشقين التى يشوبها الشك نحو الحملات الدولية المعادية للحرب .

ان الفلسفة الجديدة الخاصة بعدم انفصال السلام عن حقوق الانسان كان لها اثر قوى على الجماعات الغربية المعادية للأسلحة النووية ، والتى شاركت تدريجيا فى الأنشطة الخاصة بتدعيم قضية الحركات المعادية للتوتاليتارية فى الكتلة السوفيتية . وكان هافيل محقا عندما قال :

« لقد أصبح جليا أن هذا الانعكاس على التجارب اليومية المرة للمواطنين فى الدولة التوتاليتارية يؤدى منطقيا الى نفس النقطة وهى مزيد من التقدير لأهمية حقوق الانسان والكرامة الانسانية والحرية المدنية . ان ذلك هو جوهر ملاحظاتى وجوهر كل الانعكاسات الخاصة بالسلام . ان المتطلبات الأساسية للسلام والتى تحققت بعد أن دفعت الجماهير ثمنا غاليا وتميزت بالحماس الشديد والجديد ، هى أكثر الاسهامات أهمية لأنها جعلت الناس فى هذا البلد يفكرون باستقلالية، ويصلون لما وصلنا اليه اليوم من وعى عام (٢٥) .

ان العلاقة الوثيقة بين السلام وحقوق الانسان أصبحت فكرة مهيمنة على منشورات حركات السلام المستقلة الصاعدة فى المانيا الغربية ، وادرك المتحدثون الرسميون عنها ضرورة تجاوز جدول أعمال السلام المحدود ومعالجة قضية التغيير السياسى . وهذا لا يعنى أن السلميين الشرق أوربيين قد تخلوا عن مشروعهم الأصلى ولكنهم - الى حد ما - أدركوا أن السلام الداخلى لن يتحقق دون حوار أصيل بين الحكام والمواطنين من مختلف التوجهات السياسية ، ولا بد أن يكفل الدستور والقانون الحريات السياسية وخاصة الحق فى حرية التعبير والتوحد . وقرر المعارضون فى ألمانيا الشرقية بسبب التغيرات التى تجرى فى الاتحاد السوفيتى والأبعاد الجديدة للفعالية السياسية التى خلفتها سياسة الجلاسونست الانضمام للانشقاقات الشرق أوربية ووقعوا فى أكتوبر « الاعلام المشترك لأوربا الشرقية » احتفالا بالذكرى السنوية الثالثة عشرة للثورة المجرية .

وقد وقع الوثيقة مائة وثلاثة وعشرون من المناضلين السياسيين فى أربعة من بلدان الكتلة السوفيتية هى : تشيكوسلوفاكيا ، المانيا

الشرقية ، المجر وبولندا مطالبين باستعادة تقاليـد وتجـارب الثورة المجرية التى قامت فى عام ١٩٥٦ لتكون ارثا شعبيا والهاما لجهودهـم الحالية :

« اننا نستنفر العـزيمة الشعبية لنناضل من أجل الديمقراطية السياسية فى بلداننا ، من أجل الاستقلالية والتعددية التى تقوم عـلى مبادىء الحكم الذاتى ، ومن أجل وحدة سلمية لأوربا المتحدة ومن اجل التكامل الديمقراطى ومن أجل حقوق الأقليات » (٢٦) .

ان المعنى العظيم للاعلان المشترك ــ كمستجمع للامطار تهطل فيه أشكال التعاون بين المثقفين فى كل البلدان ــ لم يخف على القيادات الالمانية الشرقية ، فعادوا للتهديد وتوعدوا الموقعـين على الاعـلان وحقروا من شأنهم ووصف وكلاء الدعاية الرسمية الثورة المجرية بأنها « تمرد فاشستى » ، ورغم ذلك لم تأفل جهـود السـلميين والمدافعين عن حقـوق الانسان ، واستمروا فى جمـع زخمهم · وفى نوفمبر ١٩٨٧ نظمت الحكومة حملة بوليسية على كنيسة زيون zion فى برلين الشرقية ، فخرجت للوجود « الحدود » Grenzfall كنشرة اخبـارية تتحـدث باسم حركة السلام وحركة حقوق الانسان .

وفى يناير ١٩٨٨ اتخذت السلطة اجراءات انتقامية جديدة ضـد هؤلاء الذين طالبوا باصلاحات فورية ، وتم نفى نقـاد كثيرين بما فيهم الرسام باربيل بولى Barbel Bohley، وستيفان كروسكى Stefan Krawszyk الا أن الدولة سمحت لكروسكى بالعـودة بعد ستة أشهر ·

وبرز بوهلى Bohley أثناء اجتياح ١٩٨٩ الذى اطاح بحـكم هونكـر كواحد من زعمـاء المنبر الجديد New Forum وهو جمعيـة سياسية تدافع عن المجتمع المدنى فى ألمانيا الشرقيـة . وساهمـت السلطة بما أبدوه من عنت تجاه الجمـاعات ذات التوجه الاصلاحى ، فى تقطيع أوصال أية قوة فاعلة على الصعيد السياسى وذلك للحفاظ عـلى كيـان دولة ألمانيا الشرقية فى حالة الانفتاح السياسى الأصـيل ـ وبـدا الأمر وكأن هونكر يريد أن يتأكد من أن جمهورية المانيا الديمقراطيـة لا يمكن أن تظل قائمة دونه ودون مساعديه الستالينيين المغرورين . ان الأعضاء البارزين فى حركة السلام وحقوق الانسان سـلموا بالأثر المحبط للاعتداء الرسمى على بناهم الوليدة . ومع حلول نهاية ١٩٨٨ ادرك معظم الألمان أن توقع اجراء القيادة المسرفة فى المحافظـة التى يرأسها هونكر لأى تغيرات لم يعد ممكنا ــ ان خنق الانشقاق بشكل وحشى والافتقار الى القدرة على التنبؤ بنمو حركة حيوية مثل تضامن

فى بولندا عمقت الاحساس بالاحباط السياسى خاصة فيما بين الشباب وهو ما يفسر افتقار الجماعات والأحزاب التى أصرت على الاحتفاظ بكيان المانى شرقى منفصل الى الجماهيرية وذلك بعد نوفمبر ١٩٨٩ . وعلى أية حال نستطيع أن نقول ان المجتمع المدنى فى ألمانيا الديمقراطية ساهم — رغم هشاشته — فى فضح الرأى العام الزائف الذى يرتكن الى الاجراءات السلطوية . ولم يكن فى مقدور دولة المانيا الديمقراطية — استنادا لرؤيتها الأيديولوجية — التخلى عن التعذيب الجسدى السافر . ووضعت السلطة فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية المواطنين أمام خيارين : اما أن يبقوا فى منازلهم مع تقديم أدنى حماية اجتماعية لهم أو الرحيل ، وآثر أغلبهم الخيار الثانى . وكانت الجماعات الألمانية الديمقراطية السلمية وجماعات حقوق الانسان افرازا لمرحلة معينة من اضمحلال النظام الألمانى الشرقى .

وقد ساهمت هذه الجماعات فى أفول نجم سلطة النظام المزيفة وغدت متحدثة باسم الهموم القومية والسياسية التى طال كبتها . ورغم ان جدول أعمال هذه المجموعات كان محدودا ، فان النظام بدأ فى اسقاط تلك الجماعات التى وسعت من نطاق أهدافها القومية للالمانيين .

* من مجتمع مدنى الى تعددية سياسية :

لا يمكن انهاء هذا الفصل دون تحديد دور المجتمع المدنى فى التدمير الذاتى للمجتمعات الشيوعية . لقد بزغ المجتمع المدنى أثناء مرحلة معينة من اضمحلال النظام البيروقراطى السلطوى فى دول الكتلة السوفيتية بما فيهم الاتحاد السوفيتى نفسه .

ونظراً لغياب التقاليد السياسية وافتقار الائتلافات الحاكمة لعنصرى المرونة والتسامح فان نمو المجتمع المدنى فى بعض البلدان تقدم بخطى وئيدة عن بعضها الآخر ، وعلى أية حال ، فقد ساهمت عملية التمايز الاجتماعى وتكوين جماعات ذات مصالح متعددة — لحد كبير — فى خلق جو عام من الاستقلالية أو شبه الاستقلالية فى علاقة هذه البلدان مع الحكومة السوفيتية . ولم ترحب الأنظمة البيروقراطية بهذه التطورات وحاولت وأدها الا أن محاولاتهم قد منيت بالفشل . ان ما كتبه المؤرخ موشى ليفين Moshe Lewin فيما يتعلق بالاتحاد السوفيتى يعد نبراسا لبلدان أوربا الشرقية حيث قال :

« لم يعد أحد يهتم بهذا الفيزيف السياسى لمسألة الوحدة الكلية . ان الشبكات الحضرية المعقدة تشكل الأفراد وتدحض وجهات

النظر الرسمية . وتخلق خضما واسعا من الأعمال العفوية . وتخلى الزعماء المحافظون الذين أصابهم الاضطراب عن محاولة السيطرة على ما لا يمكن السيطرة عليه وعم سوء الادارة والتخطيط ولم يسفر تحويل المسار عن تحسين حالة الانكماش الذى أصاب النشاط التجارى ووضع النظام الدولة كله تحت ضغط اصابها بالشلل . ان التئام جروح المجتمع المدنى القادر على العمل وعلى صنع القرار هو أهم ما يميز بداية المرحلة الجديدة ولم يعد هناك أى احتمال للتراجع » (٢٧) .

ويمكن اعتبار المجتمع المدنى نوعا من المبادرات المتسقة والتلقائية واللا حكومية (رغم أنه لم يكن – بالضرورة – معاديا للحكومة) . وتتحدد معالمه فى المبادرات التى تأتى من القاعدة فى النظام ما بعد التوتاليتارية نتيجة لارتخاء سيطرة الدولة وتدهور القيود الأيديولوجية التى تفرضها الأحزاب الحاكمة . ان منظمة الدفاع عن حقوق العمال فى بولندا أو ما سمى فى الآونة الأخيرة « بالبديل البرتقالى » ، وكذلك ميثاق ٧٧ فى تشيكوسلوفاكيا وغيرهما من أشكال الأنشطة المنشقة فى الاتحاد السوفيتى ، « ومبادرة السلام وحقوق الانسان » فىجمهورية المانيا الديمقراطية وكل الانشطة المستقلة الخاصة بالسلام وبحقوق الانسان بما فى ذلك الصحافة السرية ، والمنشورات ، والجامعات الطائرة ، كما وجدت فى الثمانينيات وخاصة فى المجر وتشيكوسلوفاكيا . كل هذه المنظمات يمكن اعتبارها عناصر المجتمع المدنى النامى الذى قوض احتكار حزب الدولة للسلطة وذلك بتمجيده للالهامات الاجتماعية واستمر المجتمع المدنى فى بولندا حيث تمثل الكنيسة الكاثوليكية بديلا قابلا للتطبيق لزيف الدولة الأيديولوجى وظل قائما حتى فى أوج الحقبة الستالينية القمعية الا أن ذلك ظل فى حدود ضيقة . وفيما بعد وبعد موت ستالين وبداية التحررية ، انتشرت دوائر ونوادى المناقشة فى بولندا والمجر وادت الى اختمار سياسى وثقافى فى عام ١٩٥٦ . وكانت الجماعات التى قاومت التدهور الايكولوجى وطالبت بحماية التراث التاريخى جزءاً من الظاهرة الصاعدة التى نسميها المجتمع المدنى ..

ولا يجب أن نعتبر المجتمع المدنى نقيضا لسلطة الدولة ولكنه جهد يبذل للسيطرة عليها وللحد من مسارها التوسعى . وقد أصاب موشى لبون عندما وصف المجتمع المدنى بأنه :

« حاصل الشبكات والمؤسسات التى لا هى منعزلة فتتصرف على نحو مستقل عن الدولة ولا هى تنظيمات رسمية قادرة على تطوير

وجهات نظرها التلقائية فيما يتعلق بالقضايا القومية والمحلية فتفرضها على أعضائها وعلى الجماعات الصغيرة واخيرا على السلطات » (٢٨).

ان مرونة المؤسسات الرسمية واستعدادهم لاحتضان وتبنى المطالب الشعبية واستعدادهم لتوجيه الانتقادات الى قرارات الحكومة ، تتوقف — بلا شك — على درجة ما تبديه السلطات من تسامح ومرونة. وظهرت فى رومانيا — المفرطة فى الستالينية تحت حكم نيكولا شاوشيسكو — تيارات معارضة داخل المؤسسات الموجودة ، فنجد — كمثال — اتحاد الكتاب الذى انشأته السلطة ليكون أداة تسهل سيطرة الحزب على المجتمع الثقافى قد أخذ فى التحول فوجه النقد لتدخل القيادة الحاكمة فى الحياة الثقافية واحتج على الشوفينية الرسمية ، الا أن الكتاب الرومانيين عجزوا — لوجود القلاقل بينهم — عن تنظيم أى مؤتمر قومى بعد الشغب الذى حدث فى ربيع ١٩٨١ . وحدثت تغيرات مشابهة فى عام ١٩٨٩ داخل الاتحاد الرسمى التشيكوسلوفاكى حيث قرر أعضاؤه — ممثلين وكتاب دراما — أن يشجعوا النقد الموجه لنظام جاكس Jakes وظهر ذلك فى ميثاق ٧٧ وفى تكوين جماعات أخرى منشقة .

واستمر تصاعد المجتمع المدنى فى مراحل شتى ، ورغم ان الفكرة الأولى للمبادرات المستقلة — تحت الحكم الستالينى — كانت شيئا لا يمكن التفكير فيه حيث حقرت الستالينية من شأن هذه النواة اللارسمية للمقاومة والمعارضة . وعملت كل نظم الدعاية والبوليس السرى بأقصى طاقة لها لخلق وحدة تسمح للحزب ببناء ما أسماه كل من الفلاسفة السياسيين المجريين أمثال أجنسى هيلر ، وفرتز فير ، وجورجى ماركوز Gyorgy Markus « بالديكتاتورية المفروضة على الحاجات » (٢٩) . ان فشل الأنظمة الشيوعية فى كسب الدعم الشعبى منذ أن بدأ الارهاب فى الانحسار ومنذ تآكل الأسس الأيديولوجية أظهر قصور النموذج البرجماتى ، وأصبح واضحا أن أشكال المقاومة لما أسماه كارل فريدريتش Carl Friedrich وزبجنيو برزنسكى « ادعاء التوتاليتارية بالشمولية التامة » (٣٠) ظلت موجودة حتى فى أسوأ ظروف القمع والارهاب . ولابد أن نقول لهؤلاء الذين رغبوا فى اقامة نواة تعمل من أجل الاستقلال كنوع من المقاومة المضادة للسمات الجوهرية للنموذج التوليتارى أن النموذج يتعامل مع ما يحاول الحكام أن يحققوه أكثر مما يتعامل مع أدائهم فى الواقع . ورأى روبرت س توكر Robert-C-Tucker ان الجماعات التابعة للنظام هدفت الى هدم تام للطبيعة الانسانية باسم الأيديولوجية العالمية . وأصبح من المستحيل على النظم القائمة أن تحتفظ

بحماستها التبشيرية بمجرد أن بدأت فى التشكك فى بعض العقائد الأيديولوجية ـ وساهمت الكوارث الأيديولوجية فيما أسماه دوكر بدكاء « معادلة تحويل النظم الماركسية للراديكالية » وفى تشبعها التدريجى بالنزعة الدنيوية (٣١) . علاوة على ذلك لم تستبعد أكثر التفسيرات التوتاليتارية تفاؤلا احتمال القضاء على ما سمى بالخضوع الأبدى ، الا أن مصادر الثورة المضادة للتوتاليتارية ـ وفقا لهانا آرنديت ـ تزامنت تحديدا مع تلك البوادر التى تشير لاحتمالية صعود التوتاليتارية فى المجتمع الحديث أى صعود الحزب ، ومن ثم الاغتراب واليأس . ولا تستطيع المناورة الأيديولوجية تحقيق الانتصار الأبدى على الطلب الانسانى من أجل كرامة فردية ، وفى هذا الصدد قالت هانا :

((الهيمنة التوتاليتارية ، مثل الاستبداد ، تحمل داخلها الجراثيم التى تبيدها ذاتيا ، ولأن الخوف والعجز اللذين ينبعان من الارهاب هما مبدآن معاديان للسياسة ، ويلقيان بالرجال داخل موقف مناف للعمل السياسى ، فان الاغتراب والوحدة والاستدلال الأيديولوجى المنطقى ـ وهو الأسوأ ـ يمثلون موقفا مضادا للاشتراكية ويكرسون مبدأ هداما لكل الحياة الانسانية)) (٣٢) .

وفى الواقع فان الدرس المستفاد من اعادة بناء المجتمع المدنى فى الدول الشرق أوربية الشيوعية ينلخص فى أن دولة البوليس والعالمية الأيديولوجية لا تستطيعان الحط من شأن الحاجة الانسانية للاستقلال وتأكيد الذات الى الابد .

ولا يمكن فصل المجتمع المدنى عن أفول نجم الدولة السلطوية الأيديولوجية ، فمنذ ارتكاز الأنظمة الشيوعية على أكذوبة احتكار الحزب الحاكم للسلطة باعتباره العالم بكل شىء ، فان النسق القمعى الذى تبنوه حطمها وجعلها تمر بسلسلة من الكوارث الجسام . انهم يحاولون أن يجعلوا عقائدهم متسقة مع الواقع ولكنهم يرفضون تجاوز التغييرات المحدودة فى النظام السلطوى ، فكانت الاصلاحات التى اجروها تعوزها الحماسة وينقصها الاتساق . ونرى مثل هذه التجارب فى نموذج الخروتشوفية فى الاتحاد السوفيتى نموذج الكادارية فى المجر، باعتبارهما اكثر التراجم الأوربية الشرقية وضوحا (٣٣) . وقام الكاتب المجرى ميكلوس هراتسى الذى يعد واحدا من زعماء ائتلاف الديمقراطيين الأحرار Alliance of Free Democrats وعضو البرلمان المجرى بتصنيف مثير لمراحل ثورة المجتمع المدنى :

فالمرحلة الاولى تتزامن مع تحررية دولة الحزب وبداية ظهور اشكال من الأنشطة الانشقاقية المتفرقة . وفى هذه المرحلة ظلت المعارضة بدائية ولم تطرح برنامجا بديلا يعبر عن مطالب المجتمع . ويدعو هراتسى هذه المرحلة بمرحلة ما بعد الستالينية ويرى أن جوهرها يكمن فى الصراع ضد الخوف وتصاعد المبادرات المستقلة ووجهات النظر المستقلة والنشاط الاجتماعى متحررين من دولة الحزب .

وفى المرحلة الثانية التى يسميها هراتسى بمرحلة ما بعد التوتاليتارية صعد المجتمع المدنى بأكمل معانيه كجهد جماعى للحد من القيود المفروضة والامتيازات التى ترتع فيها الدولة السلطوية . وقد تناول هافيل ومنشنك هذه المرحلة بالتحليل فى كتاباتهم عن خلق البنى المتوازية و « الارتقائية الجديدة » . ان النظام فقد ثقته بنفسه وفسدت أخلاقياته ولم يعد قادراً على مواجهة السخط الشعبى المتنامى كما تقدم الاقتصاد - تحت رايته - بخطى متثاقلة . ان النظام السياسى القديم أخذ فى الانهيار والتحول لأشلاء وبدأ البحث عن آخر بديل يكون فى مستوى المبادرة الاجتماعية .

ان الأيديولوجية - الدعامة الرئيسية للتوتاليتارية الشيوعية لم تعد سوى طقوس فقدت معناها ولم تعد الرموز السائدة تنال ثقة المحكومين :

« ان الديمقراطية تحل محل الليبرالية كقضية أساسية للممارسات السياسية ، وبينما تضع الأخيرة ارادة وجدول أعمال دولة الحزب الواحدة ، فان الدمقرطة تعبر عن الرأى العام المتصاعد . ان النظام فى موقف دفاع ، وتوجد محاولة لاقامة الاقتصاد على أساس برجماتى ومن ثم نشب صراع ضد اللينينية القديمة داخل المنشأة التجارية الحكومية ... ان المجتمع يخوض معركة الشرعية ومعارك أخرى فى صراعه من اجل دمقرطة الحياة اليومية والفردية والتعددية ، ومبادىء التمثيل الشعبى وحقوق الأقليات . ان الخوف من الاشتراك فى انشطتنا تبدد واكتسبت جماهير عريضة القدرة على اعلان معارضتها وكذلك القدرة على اكتشاف امكاناتها الخاصة آخذين فى الاعتبار ما يجرى من صراعات » (٣٤) .

والمرحلة الثالثة التى دعاها هراتسى بمرحلة ما بعد الشيوعية حيث سقطت دولة الحزب تماما وأقيم نظام متعدد الاحزاب . ان ما طرحت الكاتب المجرى فى مقاله عام ١٩٨٨ كان - فى وقته - مجرد فروض الا أنه كان عاملا مؤثرا فى التطورات التى جرت فى تلك الدول حيث هب المجتمع المدنى ووصل لدرجة عالية من النضج :

« لقد فقدت معقوليتها ، فلا بد لدولة الحزب الواحد أن تنهـار ومعها بناها الضخمة . حقيقة ان الديمقراطية نبزغ ونقام على ركائز من طاقات وتجارب التعددية التى تشـكلت بالفعـل فى المجتمع المدنى . اما القضية الثانوية فهى التساؤل عما اذا كانت هـذه العمليه تتم تبعـا لنهج خوان كارلوس Juan Carlos فى أسبانيا كانتقال سلمى ام من خلال صدامات ثورية اصغر أو أكبر . ولم يعد مهما اذا وقـع هـذا الانتقال فى اطار اعادة تنظيم أوربا أو كان سابقا عليه . وبدون مصاعد ثورة المجتمع المدنى فى المرحلتين السـابقتين لا يمكن أن يكتب لهـذا الإنتقال النجاح » (٣٥) .

ان انهيار الدولة الشيوعيـة فى بلـدان مثل بولنـدا والمجـر وتشيكوسلوفاكيا حيث بلغ المجتمع المدنى أقصى تطور له ، حيث تم على نحو سريع غنه فى بلغاريا ورومانيا ،وذلك بسبب تفجر العنف فيهما حتى بعد التخلص من دكتاتوريى النظام السابق أمثال جيفكوف وشوشيسكو فى نهـاية ١٩٨٩ .

وقد تفاقم الصراع فى بلدان « الصف الشرقى » ، من أجل دولة القانون التى يكون لها حق مسائلة الحكومة وفصل السلطات وذلـك بسبب فقر التقاليد السياسية الخاصة بالفعاليات المستقلة خـلال مرحله المجتمع المدنى . وبعد ثورة ديسمبر ١٩٨٩ كانت رومانيا قد فقـدت معظم رموزها التاريخية المهمة التى تمثل الرأى العـام القـومى أمثـال فيتسلاف هافيـل .

الا أن القضية الحقيقية لم تكن فى غياب دور الأفراد الاستثنائى ولكن فى غياب البنى السياسية ، بالمقارنـة بتلـك التى انهـارت فى ضوء ميثاق ٧٧ . وبمعنى آخر ، فان رومانيا تحت قيادة شوشيسكو لم تمر بتجربة الانتقال لمرحلة ما بعد التوتاليتارية ولكنها شرعت بعد عام ١٩٧١ فى تقوية سيطرة دولة الحـزب الواحـد وعـودة التفسـير التقليدى للتوتاليتارية التى تشمل — لحد ما — الحفاظ على طائفـة الحكام والثأر من اى شكل من اشكال النقد والمعارضة . ولم يمـر الرومانيون بتجربة الرخاء تحت راية السلطوية الكادارية المستنيرة ولاحق من خلال تجربة نظام ياروزلسكى العسكرى ، رغم اصلاحاته الاقتصادية . ان استراتيجية المجتمع المدنى اقرت على اساس التدريجية واللا عنفة والتربية الاجتماعية من خلال المشاركة فى أنشطة تلقائية وعفوية .

هوامش الفصل الخامس

(١) Vaclav Havel. "The Power of the Powerless", in Vaclav Havel et al., *The Power of the Powerless* (Armonk, N.Y. : M. E.

(٢) Sharpe, 1990), p. 65.

(٣) *Ibidem*, p. 69.

(٤) Adam Michnik, *Letters from Prison and Older Essays* (Berkeley and Los Angeles : University of California Press. 1985). p. 28.

(٥) *Ibid.*, pp. 86-87.

(٦) Ibid., p. 91.

(٧) Hans-Peter Riese, *Since the Prague Spring : Charter 77 and the Struggle for Human Rights in Czechoslovakia* (New York Vintage Books. 1979), pp. 13-14 ; for one of the most informative and authoritative analyses of the rise of democratic movements from below in Czechoslovakia, see H. Gordon Skilling, *Charter 77 and Human Rights in Czechoslovakia* (London : George Allen & Unwin, 1981).

(٨) Riese, *Since the Prague Spring*, p. 14.

(٩) *Ibid.*

(١٠) Havel, "Power of the Powerless," p. 80.

(١١) Vaclav Havel, *Letters to Olga* (New York : Knopf, 1988), p 145.

(١٢) Vaclav Havel, *Disturbing the Peace : A Conversation with Karel Hvizdala* (New York : Knopf, 1990), p. 139.

(١٣) Ibid., p. 182.

(١٤) لقد ناقش سيورين بيلار Sweweryn Bialer وتشارلز جاتى Charles Gati وكارسين دويتشا Karin Dawisha على نحو متميز استراتيجية جورباتشوف للتخلص من الأحلاف البرجنيفية المستبدة ، وتشجيع الفرق الابداعية والاصلاحية التوجه والبرجماتية أو حتى التكنوقراطية · لقد انقلب الوضع وأعيد النظر فى رؤية القيادة السوفيتية وتم تشجيع المحلية أو التراث القديم كما أدانت موسكو ـ خاصة بعد عام ١٩٨٨ ـ (المعتقد البرجنيفى الخاص » بالهيمنة المحدودة » ودحضت المفهوم الذى طال اعتناقه عن الامبراطورية الخارجية · وفى هذا الصدد ، بدا أن جورباتشوف أدرك الوضع فى الدول الشيوعية السابقة ـ انظر :

(١٥)

(١٦)

(١٧)

(١٨)

(١٩)

(٢٠)

(٢١) بعد انهيار النظام الشيوعى فى عام ١٩٨٩ أصبح ابلمان Eppelmann عضوا نشطا فى المجموعة السياسية الحديثة النشأة والتى تسمى : الصحوة الديمقراطية "Democratic Awakening

(٢٢)

(٢٣) A. Wynton Jackson, "Introducion" to "GDR : Appeal on the Occasion UN Peace Year," *East European Reporter* 2, no. 1 (Spring 1986), p. 61.

(٢٤) Vaclav Havel, "An Anatomy of Reticence," in *Crosscurrents : A Yearbook of Central European Culture* (Ann Arbor . University of Michigan Press, 1986), p. 18.

(٢٥) Ibid.

(٢٦) For the full text of the statement, see Vladimir Tismaneanu, "Dissent in the Gorbachev Era — A Documentation," ORBIS, Summer 1987, pp. 243-43.

(٢٧) Moshe Lewin, *The Gorbachev Phenomenon : A Historical Interpretation* (Berkeley : University of California Press, 1988), p. 147.

(٢٨) Ibid, p. 80.

(٢٩) See Ferenc Feher, Agnes Heller, and György Markus, *Dictatorship Over Needs* (New York : St. Mortin's Press, 1983).

(٣٠) Karl Friedrich and Zbigniew Brezinski, *Totalitarian Dictatorship and Autocracy* (Cambridge, Mass. : Harvard University Press, 1965), p. 27.

(٣١) Robert C. Tucker, *The Marxian Revolutionary Idea* (New York : Norton, 1969), pp. 172-214.

(٣٢) Hannah Arendt, *The Origins of Totalitarianism* (San Diego : Harcourt Brace Jovanovich, 1973), p. 478.

(٣٣) "Kararism as the Modern State of" Khrushchevism", in Agnes Heller and Ferenc Feher , *From Yalta to Glasnost : The Dismantling of Stalin's Empire* (New York : Basil Blackwell, 1990), pp. 129-45.

(٣٤) Miklos Harszti, "The Beginnings of Civil Society : The Independent Peace Movements and the Danbue Movement in Hungary," in Vladimir Tismaneanu, ed., *In Search of Civil So ty : Independent Peace Movements in the Soviet Bloc* (New ... : Routledge, 1990), pp. 85-86.

......

(٣٥) Ibid, p. 86.

الفصل السادس

انتصار المقهورين :

أصول وديناميات الاجتياح الشرق أوربى

« ربما يبدو شيئا دراماتيكيا أن أصل لهذا الاستنتاج واضعه على هذا النحو ولكن أقسم أننى أعنيه — وهو أنه من الأفضل ألا تحيا على الاطلاق من أن تحيا بلا شرف »

فيتسلاف هافيل

ان العوامل التى أدت الى الاجتياح الشرق أوربى والى انهيار الكتلة السوفيتية لا يمكن أن نحصرها فى عامل واحد فريد من نوعه . فهذا الاجتياح أثر على تاريخ العالم وأفرز العديد من القضايا التى تفاعلت خالقة مجموعة من الظروف جعلت من التغيير شيئا ملحا وحتميا أول هذه العوامل هو اختفاء خيال المآتة السوفيتى اذ مثل الخطر الواضح للتدخل العسكرى السوفيتى لقمع القلاقل الداخلية فى البلدان التابعة عقبة خطيرة فى طريق ظهور الحركات الجماهيرية الفاعلة . ان عدم التخلى عن ما سمى بارث يالطا ، وما قامت به القوى العظمى من اتفاقيات دولية عام ١٩٤٥ جعلت أية حركة مقاومة فى الكتلة السوفيتية ضربا من الدنكشوتية محكوما عليه بالفشل الذريع ، وهو ما أعاق نمو الحركات الجماهيرية والمعارضة وما ظهر منها كان ضعيفا هشا . أن ادراك السوفيتيين لعجزهم التام عن الهيمنة على أوربا الشرقية باستخدام الصياغات الستالينية العتيقة أدى بهم الى اعادة النظر — خلال حقبة جورباتشوف — فى النظام السياسى داخل الكتلة واعادة تقييم شرعية الأنظمة الشيوعية المفروضة من الخارج فيما يسمى بالامبراطورية الخارجية .

وفى مناسبات عديدة أوضح مؤيدو الجلاسنوست بما فيهم الأعضاء المفضلين لدى جورباتشوف مثل جورجى شاخنزروف Georgy Shakhnazarov ، رئيس القسم الدولى فى الحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى CPSU والذى أصبح أحد المستشارين المقربين للزعيم

السوفيتي ان المفهوم القديم للاشتراكية والذي بني على الاكراه وجسكم الفرد واحتكار قلة بيروقراطية للسلطة لم يعد لوجوده أي تبرير اخلاقي أو سياسي . لقد كان ذلك هو المقدمة النظرية للتخلي عن النموذج البرجنيفي وانتهاج مسار جديد في العلاقات السوفيتية مع الأقطار التابعة سابقا . وعندما أدانت أعلى سلطة في الكرملين استخدام القوة والقهر لم يعد هناك ما يدعو السوفيتيين للالتصاق بأساطير الثورات الشعبية والتي زعم بأنها أتت بأحزاب أوربا الشرقية الى السلطة في الفترة التي توسطت الحرب العالمية الثانية . وبمجرد أن أعلن السوفيتيون قرراهم باعادة النظر وتفحص مسلماتهم الاستراتيجية واعادة التفكير في الدعائم الأيديولوجية لما سمي بالنظام الاشتراكي العالمي ، بدأ الخوف المتفشي بين مواطني الكتلة يتبدد وينقشع .

ويعد اعلان الفهم السوفيتي الجديد للاشتراكية الذي طرحه جورباتشوف وحلفاؤه المقربون بما فيهم الكسندر ياكوفليف Alexander Yakovlev عضو المكتب السياسي والمنظر الرئيسي للبيروسترويكا لم يعد هناك مجال للشك في ان ما قامت به دبابات حلف وارسو نحو ربيع براغ كان قمعا . وحقيقة ، لقد ادرك كثيرون في بلدان اوربا الشرقية أن مصلحي براغ قد دفعوا ثمن البحث عن الاشتراكية الانسانية التي يطالب بها الآن مؤيدو البيروسترويكا في موسكو . ان ديناميات الاصلاح في الاتحاد السوفيتي وضعت الزعماء الشيوعيين بأوربا الشرقية في وضع لا يحسدون عليه فأخذت نماذجهم السوفيتية التي يقبعون خلفها في الانهيار تدريجيا . وكانت الأرثوذكسية الأيديولوجية تعتبر في ذلك الوقت مجرد أثر للماضي الستاليني :

« في الماضي كان هناك دائما من يسمى « بالاشتراكي » وهو يعني كل فرد فعال ، والآن يقول السوفيتيون ان الفاعلية العملية ، اى كيفية تسير الأمور ستكون هي المعيار للاشتراكية التي يمكن تطبيقها في الواقع وهذا بدوره يفند النقطة المرجعية السوفيتية الثابتة والتي كانت موضعا للجدل في الداخل عن طبيعة الفاعلية وعن الأشياء التي يجب الابقاء عليها . والحقيقة ان الاتحاد السوفيتي الذي كان نموذجا للاشتراكية أصبح وبنفس القدر نموذجا للاصلاح السياسي يحتذى به لقد أصبح نموذجا لتحقيق الاصلاح الاقتصادي من اجل الجلاسونست ، ومن اجل الديمقراطية ، ومن اجل الدور الشعبي الشرعي للمفكرين ومن اجل الجماعات التي قمعت حتى الآن بما فيها الجماعات القومية ومن اجل تجريب صيغ جديدة للمناظرة السياسية والعمل السياسي . وكما لم تعد الستالينية نموذجا فقد أصبح فشلها وعدم فاعليتها وطغيانها

شيئا من الصعب تبريره بل ويجب النظر اليهم في ضوء المحددات القومية » (١) .

أن الانتقال السوفيتي المتنوع من التدهور الى التغير كان كافيا للتاكيد على التفكك السريع للانظمة الشيوعية في دول الكتلة .

ان الانتقال لما بعد الشيوعية ارتبط بتدهور ثقة الاحلاف الشيوعية بنفسها وهو ما كان انعكاسا للأزمات الأخلاقية والأيديولوجية التى تعانى منها هذه الانظمة . ان وجود مجموعات وحركات سياسية كان له أثر كبير فى نجاح الانتقال ، اذ شاركوا فى الهموم الاجتماعية وطرحوا بدائل اقتصادية وسياسية للممارسات السياسية الشائعة التى تبتز الجماهير . وقد أثرت المعارضة فى بولندا وتشيكوسلوفاكيا وبقدر أقل فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية ـ على الظروف والتحديات التى أدت الى تقطيع أوصال الانظمة الشيوعية ، كما ظهرت المجموعات الاصلاحية التوجه فى المجر وبولندا داخل قيادات القمة واعلوا من شأن الرؤى المشابهة لتلك التى احتفى بها جورباتشوف وجماعته فى الاتحاد السوفيتى .

ودعمت التغيرات التى تجرى فى الاتحاد السوفيتى ودول شرق اوربا بالقوى الديمقراطية فى كرواتيا Croatia وسلوفينيا **Slovenia** لاطلاق حملات شعواء من أجل الاصلاح ومن اجل التأكيد على هويتهما القومية ، ذلك بالرغم من أن يوجوسلافيا هى البلد الوحيد الذى لم يتوحد رسميا مع الكتلة السوفيتية .

وكان القمع فى رومانيا وبلغاريا اكثر تخطيطا بينما كانت المعارضة أقل تنظيما ، الا أنها توحدت فى مرحلة مبكرة مع وجود المجتمع المدنى الصاعد . ووقعت المجتمعات المدنية فى تلك البلدان فريسة لحملات السلطة فاصيبت لفترة طويلة بالشلل والذعر . وتعد البانيا أكثر الدول الشرق أوربية انعزالا وبدت متمسكة وبصلف بستالينية أنور خوجة الراديكالية ، وظل خليفة خوجة ، رامزى عليا ، سكرتيرا عاما وقضى فترة خدمته كشيوعى مخلص ، كما أبقى على نكسمجى ، أرملة الزعيم السابق ، كرئيس للمنبر القومى National front وظلت طائفة الزعيم الراحل كما هى كاملة لا تمس . واثناء احداث ١٩٩٠ عندما تكونت أحزاب المعارضة بالبانيا بموافقة الشيوعيين الحكام بدا أن هذا القطر لن يستطيع الافلات مما بجتاح اوربا الشرقية الشيوعية كلها من حركات اصلاحية .

ان المجتمعات الأوروبية الشرقية تأثرت بالتغيير الذى طرأ على علاقات الاتحاد السوفيتي بأقطار الكتلة ، وتخلص الاوربيون الشرقيون من خوفهم من الأزمات البنيوية التى عانت منها هذه البلدان ، خاصه بعد تزايد ادراك المؤيدين للنظام والموالين له بأن أى اصلاحات فى اطار النظام القائم لم تعد قادرة على التخفيف من حدة التوترات المتنامية ، وان الاشتراكية على الطراز السوفيتي استهلكت كل مصادرها الداخلية لتحقيق التكاثر وبدت مبتذلة تماما ، وبدت أى جهود تبذل لحفظ النظام مجرد وصفة أطالت عذابات المجتمع المدني . ان المجتمع لا يرقى فى غياب اجماع الرأى حول الأهداف الرئيسية والقيم المرجوة ، وفى اوربا الشرقية كان هذا الاجماع غائبا تماما خاصة بعد عام ١٩٨٨ ، وينطبق نفس الشيء على يوجوسلافيا ـ البلد الذى لم يندمج مباشرة فى بنية الكتلة . ان السرعة التى تمت بها الاصلاحات السوفيتية كان لها اثر معد فى أوربا الشرقية ، مما عجل بالاندفاع فى اتجاه الاصلاحات التى اجتاحتها ، كما استفحلت الصراعات بين المحافظين والليبراليين وهى الصراعات التى غالبا ما تخفت تحت اسم التوترات بين الأحلاف الكرواتية السلوفينية الأكثر تعددية والزعماء الصربيين الأكثر سلطوية .

أما العامل الرئيسى الذى أدى لهذا الاجتياح فهو الضغوط التى مارستها الدول الأوربية الغربية على الأنظمة الحكومية وغير الحكومية كى تفى بتعهداتها الدولية خاصة فى مجال حقوق الانسان ، ولعبت هذه الضغوط دورا مهما فى شد أزر المعارضة الداخلية ، خاصة بعد عام ١٩٧٥ عندما وقعت اتفاقيات هلسنكى الا أن الغرب زاد من تلك الضغوط بعد عام ١٩٨٠ فطالب الاتحاد السوفيتي بالتخلى عن استراتيجيته الامبريالية . كما لعب التحرك الراسمالى وازدياد حاجة الاتحاد السوفيتي للمساعدة الغربية أدوارا مهمة فى قلقلة الأسس التى تقام عليها الأنظمة الشيوعية . ان سياسات العزلة الثقافية والسياسية التى تمارس عادة من جانب الحكومات الشيوعية والرقابة المنظمة على المراسلات والتشويش على محطات الاذاعة الغربية ، هدفت جميعا لقطع الروابط بين جماعات حقوق الانسان الصاعدة فى الكتلة السوفيتية ومؤيديهم فى الغرب ، اذ أن شعور هؤلاء الذين يناضلون من أجل حقوق الانسان داخل الكتلة بأن هناك من يساندهم ويمد لهم يد المساعدة خارج بلادهم وبأن الغرب ليس صامتا عن الانتهاكات التى ترتكبها هذه الأنظمة ، كان عاملا مهما فى تطوير المجتمعات المدنية . ان فهم أسباب سقوط هذه الأنظمة السياسية فى أوربا الشرقية يستدعى فهم الدور الذى لعبه الغرب فى الاجتياح الشرق

أوربى وهو ما لا يمكن نجاهله ، وبمعنى آخر فان أثر الغرب على مدى وسرعة التغيرات فى أوربا الشرقية لم تكن أقل أهمية عن ذلك الأثر الذى تركه أسلوب جورباتشوف فى قيادة الدفة السوفيتية ، فقد تعاونا فى خلق بيئة دولية فضحت جمود البيروقراطيات الشيوعية فى أوربا الشرقية باعتبارها بقايا لماض مشين ومخز . وبينما شجع الغرب صعود القوى التعددية والديمقراطية التى تهتم بالتغيير المنظم وعلى نطاق واسع فان الكرملين علق آماله على اجراء اصلاحات محلية تشمل تجديدا للآليات الاقتصادية والسياسية القائمة دون التخلى منها .

* جورباتشوف التعديلى :

عندما تولى جورباتشوف السلطة فى مارس ١٩٨٥ كان نموذجا للحزبى الملتزم . اذ لم يكن فى تاريخه الوظيفى ما ينبىء عن نزعات ليبرالية جادة بل لقد أيد السكرتير العام السابق يورى اندربوف Uri Andropove ولم يرفض الشيوعية بسبب ليبراليته ولكن لاعتقاده بأن الاشتراكية لا بد أن تجدد من خلال العودة للقيم البلشفية الحقة التى لطختها محاباة الأقارب والفساد المفرط المتفشى فى الأجهزة الحكومية خلال السبعينيات وأواخر الثمانينيات . لقد نبعت بيانات وتصرفات جورباتشوف من عقل شيوعى حزبى برجماتى منظم . وأعلن الزعيم الجديدة فى السنتين الأوليين من حكمه تحديه السافر للعقائد الأيديولوجية الحصينة ، وتقدمت حملته المعادية للستالينينية ببطء شديد ، يصاحبها العديد من الارتدادات ، الا أنه تجنب — مبدئيا منح دعمه المباشر لمناصرى الليبرالية الحقة ، وظل اندرى سخاروف Anderi Sakharov الفيزيائى المشهور المناصر لحقوق الانسان معتقلا فى منفاه الداخلى بمدينة جوركى Gorky ، الا أن المراقبين استطاعوا — فى سنوات حكم جورباتشوف الأولى — استبيان بعض المرونة فى طريقة معالجته للقضايا النظرية والثقافية ، كما أشارت الدلائل على أن كثيرين فى بطانة السكرتير العام قد عادوا مرة أخرى الى محاولات خروتشوف لمعاداة الستالينية وهى المحاولات التى اخفقت فى الماضى .

وادرك فريق جورباتشوف الحاكم — بتحديهم الجمود البيروقراطى — أن الاصلاحات البنائية التى تؤثر على دعائم النظام الكائن هى الطريقة الوحيدة للقضاء على الفساد السائد واطلاق الطاقات الاجتماعية التى طال قمعها . ان الهجوم على المؤسسات القائمة بدا

بمعاداة البرجنيفية . وهاجم جورباتشوف فى مؤتمر الحزب السابع والعشرين والذى تم فى فبراير ١٩٨٦ (بعد ثلاثين سنة كاملة من المؤتمر العشرين التاريخى عندما أدان خروتشوف تأليه شخص ستالين) سياسة « النظام التنفيذى الموجه » وطالب باصلاحات جريئة فى كلا المجالين الاجتماعى والاقتصادى . وكشف جورباتشوف ـ بعد أن أطلق حملته ـ عن المصالح السياسية للبيروقراطية السوفيتية من الجيل الأوسط وعن مصالح مجموعة بعينها من المفكرين الحزبيين وعبر عن استيائه من الفساد وعدم الكفاءة والعجز التى اتسمت بها حقبة برجنيف . وقد أشاد جورباتشوف بالقيم التى تبناها جيل من القادة السوفيت الذين اعتنقوا قيم المؤتمر العشرين بما فيه من أفكار تنادى بالاصلاحات السياسية والاقتصادية والتعايش السلمى مع الغرب والتخلص من راديكالية البرنامج الماركسى اليوتوبى . وفى المرحلة الأولى وجه جورباتشوف نقده للفساد الروتينى والافتقار الى الابداع على الصعيد السياسى فيما يتعلق بسياسة صنع القرار . وفى ذات الوقت أصر جورباتشوف على دور الجماهير كمنبع للابتكار السياسى وسمح بقيام الآلاف من المنظمات غير الرسمية فى الاتحاد السوفيتى .

ان محاولة القيادة الجديدة للتحديث قد استلهمت من آخر كتابات لينين السياسية والاقتصادية . ونادى جورباتشوف ـ فى ضوء وجهات نظره عن السياسة الاقتصادية الجديدة ـ باللامركزية وبتخفيف سيطرة الحزب وقبضته الحديدية على المجتمع الا أن الاصلاح كان لا بد أن يهبط من القمة ولابد ان يحتفظ الحزب الشيوعى بدوره القيادى فى المجتمع . وقد وجه المفكرون السوفيتيون ، الذين طالبوا بانفصام راديكالى عن الماضى النقد لهذه الاستراتيجية ، واعتبروا الليبرالية مجرد استمرار للنظام القديم بكل عيوبه وأوصلوا بدمقرطة كل المؤسسات بما يسمح للأفراد بالتعبير عن وجهات نظرهم السياسية كاملة . ونظرا لاستيائه من سيطرة الحزب أعلن الكاتب المسرحى المعروف الكسندر جيلمان Alexander Gelman المناصر الصلب للديمقراطية فى أحد اجتماعاته باتحاد السينمائيين Cinematographer Union عن رأيه فيما يجرى قائلا :

« ان الديمقراطية تعطى فرصة لاعادة توزيع السلطة واستعادة الحقوق والحريات ، وخلق عدد من الأبنية المستقلة للادارة والمعلومات . والليبرالية هى التى تحافظ على كل دعائم النظام الادارى ولكن فى شكله المعتدل ، وهى أيضا قبضة حرة الا انها يمكن ان تطبق على المجتمع مرة أخرى وفى أية لحظة . وأحيانا تذكرنا الليبرالية ـ فى

الظاهر فقط ـ بالديمقراطية ولكنها فى الحقيقة الواقعة اغتصاب سياسى لا يحتمل)) (٢) .

لقد استغرق جورباتشوف بعض الوقت ليدرك استحالة التخلص التام من تراث الستالينية واعتقد الفريق الحاكم ـ فى البداية ـ انه سيتمكن من اصلاح النظام بالتخلى فقط عن بعض سماته ورتق الباقى منها . ان الحقبة التى كانت سمتها التعجيل والدفع بالاصلاح ـ لم تستمر طويلا . وأدرك جورباتشوف ومؤيدوه أن المشاكل لن تحل دون زج الجماعات الاجتماعية المريضة داخل الصراع السياسى ودون مراجعة العقائد الحزبية الجامدة . وأكد الجورباتشوفيون ومن بينهم هؤلاء الاقتصاديون المؤثرون والعلمانيون السياسيون والاجتماعيون على أن اجراء تغييرات حقيقية على الصعيد الاقتصادى لن يحدث دون اجراء اصلاحات سياسية تكون مواكبة لها ، وان المصالح الراسخة للنظام العسكرى الصناعى المعقد ومصالح اللوبى ومنها وكالة المخابرات السوفيتية KGB والبيروقراطيات الحزبية تعد عوائق رئيسية ، لأى محاولات لتحديث النظام الاقتصادى ، وكنتاج لتنامى الوعى بمدى صعوبة حل التناقضات الكائنة داخل النظام القديم تولدت سياسة البيروسترويكا .

ان السماح للجماهير بالمشاركة فى التغييرات وتحويل سياسة الجلاسونست (المكاشفة والعلانية) لحقيقة واقعة هو ما سيضمن النجاح للبروستريكا . وما يضاف لرصيد جورباتشوف أنه سرعان ما سلم بضرورة اجراء تغيير دراماتيكى كامل للنظرة السوفيتية للاشتراكية وأدرك ضرورة اعادة تخطيط النظام السياسى كله والحد من الامتيازات المخولة للحزب ومن السلطات المخولة لأجهزته القمعية . ان البحث عن دور للقانون وخلق نظام محاسبة وتحقيق التوازن فى الاتحاد السوفيتى أصبح له الأولوية فى جدول أعمال القيادة وكان الاختبار الحقيقى والتحدى الصعب للجورباتشوفيين هو التخلى عن انفراد الحزب بالسلطة ، والاقرار بالحاجة الملحة للمبادرات الاجتماعية وضرورة اقامة حوار مع المعارضين للنظام القائم وهو ما يتجاوز بالفعل حدود اللينينية .

وبينما أبدى الجورباتشوفيون استعدادهم للتخلى عن ارث الستالينية ، فانهم عزفوا عن الخوض فى نقد مغامر اللينينية .

لقد انعكست الأوهام الخروتشوفية الخاصة بامكانية اصلاح النظام من الداخل دون حدوث اصابات جوهرية فى مجالات شتى رغم

أن الهدف كان اجـراء تغييرات ثورية ، الا أن جورباتشوف وفريقه فضلوا ــ مع وجود جبهـات تعـارض التغييرات الدراماتيكية ــ الوقوف فى منتصف الطريق .

ان خطابات السكرتير العام تأرجحـت بين الالتزام بالصيغـة الراديكالية والخوف من أن تسفر هذه الاصـلاحات عن بلبلة النظـام ، وما يعنينا هنا أن جورباتشوف كان لديه الرغبة فى اعـادة النظـر فى العقائد الأساسية وفى القيام باعادة تعريف المفاهيم الأولية للاشتراكية، واعتنق ــ رغم تردده وتخوفه ــ المفهوم التعديلى للاشتراكية ذات الوجه الانسانى . ومثل أسلافه امرى ناجى بالمجـر والكسندر دوبتشيك بتشيكوسلوفاكيا أكد جورباتشوف على العلاقة الحميمة التى لا تنفصم بين الاشتراكية والديمقراطية .

وقد توجـه جورباتشوف خـاصة بعد المؤتمـر القومى التاسع عشر للحزب الشيوعى فى يونيو ١٩٨٨ صوب اعادة النظر فى التراث التاريخى للاشتراكية فى هذا العقد ، كما اكد على أن القيم الانسانيـة العـالمية تتجـاوز المصـالح الطبقيـة المحـددة والمحدودة ، كمـا وافق أيضا على أن الأمر (الدكتات) الامبريالى يمكن ادانته أخـلاقيا وان السياسة الخـارجية السوفيتية يجب أن تعـاد صياغتها مرة أخرى، ورغم أن استراتيجية جورباتشوف تنم عن يأسـه من تحقيق أهدافه ، الا أنه لم يتجاهل أن النظام السوفيتى تجابهه تناقضات عويصة وحـاول مواجهة المحن دون تخـل تام عن العقائد الرسـمية . وحاول الزعيـم السوفيتى أن يحصر ــ مثلما حدث فى ربيع براغ ــ الكوارث فى نطاق ضيق ، وأن يتخلى عن خطه الخاص بارجاء التنكر للستالينية .

وفى نفس الوقت ساهمت اصلاحاته فى صحوة كل من القـوى الاجتماعية والعرقية التى أمكن التحكم فيها بصعوبة دون اسـتخدام العنف ، الا أن سياسية البيروستريكا بكاملها قد تعرضت لاضطهـاد دكتاتورى حين طالبت باستخدام وسائل شرعية لحل الأزمات السياسية والقومية . ان أزمة نظام جورباتشوف ــ كما لخصها زيجنيو بريجنسكى على نحو واف ــ هى فشـل القيادة السوفيتية فى التخلى عن الأسطورة اللينينية الأيديولوجية كلية وهو ما يعد عقبة كؤودا فى طريق الديمقراطية:

((ان العقبات السياسية فى طريق البيروسترويكا كبيرة بل من الصعب تذليلها اذ يتطلب التخلص من الارث اللينينى اعادة تعـريف جوهرى لطبيعة الحزب الحاكم ولدوره التاريخى ولشرعيتـه ، كمـا سيتطلب الانفصام الحقيقى التخلص من التبسيط الكلى المخل اى التخلص

تحديدا من مقولة أن النظام الاجتماعي بكامله يمكن ان يتكون من خلال قرار سياسي يجيز خضوع المجتمع لسلطة الدولة العليا ويتصرف كعميل للتاريخ عالم بكل شيء • وسوف يتطلب الأمر قبول مقولة ان معظم التغيرات الاجتماعية تتم على نحو غير متوقع وغالبا بشكل تلقائي مع اخذنا في الاعتبار أن التعقد الاجتماعي لا يمكن ان ينسجم مع العباءة الأيديولوجية » (٣) ٠

ان الجهود الأولى التي بذلها جورباتشوف لانقاذ النظام من خلال القضاء على رذائله قد تناولها آدم متشنك ، في عام ١٩٨٧ في رؤينه « للاصلاح المضاد » ومشيرا لتطبيق ليتسك كولاكفسكي لمفهوم « الاصلاح المضاد » كحركة سياسية وأيديولوجية ترفض النقد الاصلاحي (المضاد) ، بل ولا تشجع ولا تهضم بعض النظريات الاصلاحية الخاصة بضمان تكيف البنى القائمة مع الظروف المتغيرة ٠ ويمعنى آخر ، ان وجهة نظر الاصلاح المضاد هي محاولة لتغيير القيم والمؤسسات من داخل النظام ، انها جهد مبذول لتوحيد الأفكار الناقدة داخل آلية وظيفية للنظام القائم كي يكف عن العدائية والتدمير فقال :

« **لو قبلنا هذه المنظمة ، « تضامن Soliderаty »** كحركة اصلاحية **عظيمة داخل حدود العالم الشيوعي فان جورباتشوف يستحق اذن اسم « المصلح المضاد الأعظم Great-Counter Reformer » وهذا معنى ((الاصلاح القادم من أعلى)) • ان الاصلاح المضاد هو اصلاح الهدف منه انقاذ النظام الشيوعي)) (٤) •**

ان فهم رغبة جورباتشوف في اصلاح النظام دون التخلي عن اسسه الأيدلوجية بدءاً من المبادىء اللينينية الخاصة بدور الحزب الشيوعي المهيمن لم يكن معناه القول بأن البروسترويكا كانت مجرد واجهة دعائية ، بل على العكس فان فهم المعنى الحقيقي للتغييرات السوفيتية التي بادر بها جورباتشوف تتطلب أخذ كل المحددات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والاستراتيجية في الاعتبار وهي المحددات التي سببت هذا الانهيار الدراماتيكي الحتمي :

((ان سياسة ميخائيل جورباتشوف كانت افرازا لصراع الأجيال داخل الهرم الحزبي السوفيتي ، انها نتاج للتخلف التكنولوجي وسنوات الحرب الطويلة في افغانستان Afghanistan ، وهي أخيراً حصيلة الخوف من المجابهة العسكرية والموقف الذي اتخذه الرئيس الأمريكي ريجان وهو موقف حاسم لا يقبل المساومة • ان جورباتشوف لم يكن ممثلا في مسرحية انه اصلاحي مضاد)) (٥) •

وعندما يجابه المركز مثل هذه التغيرات الضخمة المفاجئة ، وعندما تصبح لغة المنشقين لغة مقبولة لدى الأجهزة الأيديولوجية لتتحول الى عقيدة الحزب الرسمية ، وعندما تعرف الاشتراكية فى ضوء قدرتها على خلق دولة القانون ، فان هامش الفعالية السياسية للحركات الشرق أوربية المستقلة يتسع على نحو كبير :

« ان الاصلاح المضاد فى موسكو يمكن أن يفسح الطريق لتفكير جديد فى فلسفة خاصة بتسوية سياسية . انها تعلمنا أن نستخدم التسوية لضبط الصراعات الدولية أوالصراعات الاجتماعية داخل البلدان التى تحكمها الشيوعية بالفعل . واليوم فان الأمر يستحق الاعتماد على هذا الشكل من التسوية ، ويجب ألا ننسى أن الدعامة التوتاليتارية للمؤسسات السوفيتية ظلت على ما هى عليه » (٦) .

وبعد عام ١٩٨٨ فقدت القيود التى تفرضها الحركات الديمقراطية على نفسها فى أوربا الشرقية كل مبرر لوجودها فتحررت وانطلقت . ولأن الاتحاد السوفيتى أصبح أكثر مرونة فيما يتعلق بالفعالية السياسية الداخلية وغير الرسمية المستقلة فان دواعى الاعتقاد بأن جورباتشوف سيأخذ ــ آليا ــ جانب الأحلاف الشيوعية التى ضرب عليها الحصار فى أوربا الشرقية وذلك فى وقت الاضطراب السياسى والاجتماعى الخطير قليلة . ان الاصلاح السوفيتى المضاد فتح الطريق لثورة حقيقية فى أوربا الشرقية .

ان الانفصال عن الستالينية فى موسكو كان بمثابة الضوء الأخضر للتخلى عن اللينينية التى تتبناها وارسو وبودابست وبرلين الشرقية وأدرك جورباتشوف تدريجيا أن مجرد التحرر سوف يؤدى به وبمؤيديه الى نفس الورطة التى وقع فيها خروتشوف : ولم يكن لدى جورباتشوف قاعدة شعبية يحتمى بها عندما أبدى أعضاء الحزب كرههم نحوه ، وهذا يفسر قراره بجعل النظام السياسى نظاما مفتوحا لخلق برلمان حقيقى والحد من سلطة الحزب على نحو دراماتيكى وذلك بعد عام ١٩٨٨ . وبمواجهته بمنطق الصراع السياسى والتحدى المضاد والعلنى من الفئة البيروقراطية التى تقف حجر عثرة فى طريق التقدم ، اعترف السكرتير العام بأن الديمقراطية هى الضمان الوحيد لبقائه السياسى . وفى عام ١٩٨٩ أيقن جورباتشوف رغم تردده وشكوكه ــ أن دور المجتمع المدنى كشكل مضاد للنظام السياسى الجامد فى حاجة شديدة للتغيير ، وهو ما أكد عليه بوريس يلتسن Boris Yeltsin أحد النقاد الرئيسيين لجورباتشوف داخل الحزب (وحتى استقالته من الحزب الشيوعى السوفيتى فى المؤتمر الثامن والعشرين فى عام ١٩٩٠) .

ونظرا لتفاقم الصراع السياسى فى قمة البيروقراطية السياسية ، بدأ جورباتشوف متفهما لضرورة تمزيق العباءة الحديدية للايديولوجيا ، وتحرك نفس الرجل الذى أبدى – حتى نوفمبر ١٩٨٧ – استعداده لمدح فضائل العقيدة الماركسية اللينينية بجرأة تجاه اعادة صياغة القيم الأساسية للثقافة السياسية السوفيتية • لقد تطورت المناظرات التاريخية والنظرية الى درجة غير مسبوقة • ان نداءات البيروستريكيين امثال الكسندر تسبكو Alexander Isipko ويورى أفانزيف Youry Afanasyev كانت كلها تساؤلات عن الارث الذى خلفته الاشتراكية التى على الطراز السوفيتى • وبعد عام ١٩٨٨ تغير مفهوم العداوة فى العقيدة السوفيتية الرسمية فلم تعد تشبه الغرب بالشيطان الذى يحيك المؤامرات باستمرار ضد السوفيت ، ولم تعد الاشتراكية تساوى هيمنة البيروقراطيات الحمقاء على الجماهير المسلوبة الارادة ، وأعيد النظر فى المصالح السوفيتية الدولية فى ضوء « البيت الأوربى المشترك » • ان الفلسفة الشمولية للشيوعية – كما وجدت لأكثر من سبعة عقود – تعانى من أفول سريع نظرا لادراك الاتحاد السوفيتى للفشل التاريخى للنظام ، ولم يؤثر انتصار فلسفة التعديلية فى الكرملين على الامبراطورية الداخلية فحسب بل على الامبراطورية الخارجية أى كل الدول التى عرفت لأمد طويل بالكتلة السوفيتية واتسع صدر السوفيت للتجريب السياسى فى أوربا الشرقية على نحو له دلالة . وما استخدم ليكون لعبة من وجهة نظر السوفيتيين تحت قيادة برجنيف – وأعنى فكرة الاشتراكية ذات الوجه الانسانى – قد أصبحت خاصة بعد عام ١٩٨٨ الخط السوفيتى الرسمى وقال بريجنسكى فى هذا الصدد :

ان ما تضمنته تعديلية السكرتير العام فى الكرملين كانت شديدة الخطورة ، اذ أشعلت جدلا عنيفا مس كل مجالات الحياة داخل الاتحاد السوفيتى وأحيت التعديلية الشرق أوربية ، بينما أكدت الأيديولوجية الكاتدرائية التى حرمت الانشقاقات العقائدية على الخطر الداهم الناتج عن التخلى عن الجوهر العام للعقيدة الماركسية واللينية والشيوعية العالمية • وباختصار ، فانه لابد للتعديليين فى موسكو – حتى المتواضعين منهم – أن يعجلوا بالانفصال السياسى والخسوف العقائدى للشيوعية مما يجعلها ظاهرة تاريخية فريدة » (٧) •

أتذكر كيف حاول جورباتشوف منذ البداية أن يحافظ على كل من الامبراطوريتين الداخلية والخارجية ؟ لقد فضل فى سنوات حكمه الأولى

ان ينظم علاقاته مع بلدان أوربا الشرقية وجعلها اكثر فاعلية ، كما فضل اقامة علاقات أكثر قربا مع مركز المساعدات الاقتصادية المتبادلة CMEA وتنسيق الأعمال الدولية . ورمى جورباتشوف بانشغاله بالمسيرة الجديدة داخل الاتحاد السوفيتي الى الابقاء على أوربا الشرقية بعيدة عن الاضطرابات واهتم بالحوار مع الزعماء الشباب ذوى التوجه الاصلاحى فى تلك البلدان ومن ثم لم يشجع القيام بتغييرات فورية . ووصف سيورين بيالر Seweryn Bialer توجه جورباتشوف الأول نحو أوربا الشرقية على أنها سياسة متشددة شاملة تضمنت « **مزيداً من الاصرار على الارثوذكسية السياسية خاصة فى بولندا والمجر وعلى الاجراءات الصارمة التى تتخذ ضد المنشقين وتشجيع الحصار الفكرى وتشجيع حملات الدعاية الشرسة المعادية للغرب ، والمقاومة العنيدة ضد التجريب الاقتصادى ، واتخاذ اجراء سريع ضد الاضطراب الاجتماعى والسياسى أو ضد أية اشارات تبديها الدول التابعة للحصول على استقلالها** » (٨) .

الا أن هذا الاتجاه التدميرى والامبريالى لم يستمر لمدة طويلة . ولم يستطع جورباتشوف أن يفصل التطورات فى الاتحاد السوفيتى عن تلك التى تتم فى الأقطار التابعة .

ان موجات الجلاسونست كانت بمثابة قوة دافعة لفلول المعارضين السياسيين فى كل البلدان الشرق أوربية . وكمثال على ذلك نجد المناضلين من اجل السلام وحقوق الانسان فى المانيا الديمقراطية قد اتخذوا من الجلاسونست شعارا لهم تحدوا به القيادة المحافظة تحت قيادة اريك هونكر . وفى بولندا كانت حركة تضامن قوة دافعة ، وفى المجر بدأت المعارضة الديمقراطية فى تنظيم نفسها فى صورة حزب سياسى خاصة خلال عام ١٩٨٨ . لقد أدرك كل من السلطويين والمعارضين فى أوربا الشرقية ان جورباتشوف بتعريفه الجديد للاشتراكية قد بدأ مرحلة جديدة من العلاقات الدولية ، وتغيرت صورة الاتحاد السوفيتى كشرطى دولى يحرس ارثوذكسية القيادة المحلية حال مطالبة الزعيم السوفيتى فى المؤتمر التاسع عشر للحزب فى يونيو ١٩٨٨ بأن يشجب بلده « **كل شىء شوه الاشتراكية فى الثلاثينيات وأسفر عن الركود فى السبعينيات** » (٩) .

وفيما بعد وفى ديسمبر ١٩٨٨ توسع جورباتشوف أكثر فى فلسفته الجديدة الخاصة بالعلاقات الدولية . وفى خطابه فى دورة الأمم المتحدة اقر السكرتير العام بحقوق الأمم فى الدخول فى الصراعات من اجل الديمقراطية .

ان صراحته فى شجب الادعاءات السوفيتية الدولية عن ضرورة المنافسة الأيديولوجية مع الغرب تشير الى أن حديثه لم ينزلق الى الرطانة • ورغم أنه لم يتخل عن مفردات اللينينية فى لغته ، فان جورباتشوف فهم النظريات اللا لينينية على انها لا تحبذ اقامة علاقات بين الدول التى تخضع للاعتبارات الأيديولوجية :

« اليوم ، يعد الابقاء على أى نوع من المجتمعات « المغلقة » شيئا مستحيلا • وهذه دعوة لاعادة نظر راديكالية فى الأساليب الخاصة بمشاكل التعاون الدولى كعامل أساسى فى الأمن الدولى ••• اذ أن العهد الجديد يتطلب أيضا علاقات لا أيديولوجية بين الدول • اننا لم نتخل عن معتقداتنا أو فلسفتنا أو تقاليدنا ولا نطالب الآخرين بالتخلى عنها » (١٠) •

ان هذه العبارة — رغم أنها تعد تملقا من وجهة نظر اللينينيين العقائديين — كانت قاطعة فى اصرارها على ادانة ودحض منطق الحرب الباردة

ان فكرة تقسيم العالم وفقا لفواصل أيدلوجية ووفقا لطريقة ستالين بل ولينين فى التعامل مع الشئون الدولية ، خضعت لمفهوم جديد يسمح لكل دولة ان تقرر مصيرها • وما يضاف لرصيد جورباتشوف هو ادراكه أن الوجود السوفيتى فى أوربا الشرقية أصبح على المستوى الاستراتيجى أقل أهمية فى زمن الوحدة الأوربية European Integration ان دول شرق أوربا التى اتحدت — بالفعل — عسكريا ضد الاتحاد السوفيتى كانت تتحرك بخطى ثابتة لتجاوز خلافاتها السياسية ولخلق كتلة لها قوة اقتصادية لم تشهدها أوربا من قبل • ومع تفوق المستويات المعيشية فى أوربا الشرقية على مثيلاتها فى الاتحاد السوفيتى الذى كان فى طريقه للتحديث متجنبا مزيدا من العزلة ومنافسا لأوربا الموحدة اضطر السوفيتيون الى التخفيف من أعبائهم الامبريالية • ولم يعد هناك مبرر للاستمرار فى حماية البيروقراطية الشيوعية المحلية من الحركات الاجتماعية المتنامية القادمة من القاعدة ، بل على العكس فقد كان من مصلحة موسكو أن تبدو كمناصر للتغير والتقدم من أن تتصرف « كأخ أكبر » (استنادا الى التاريخ) يكون دائما على أهبة الاستعداد لاستخدام قواته لاعادة الامتيازات للطغاة المحليين •

لقد انبثقت الرغبة الجديدة فى التغيير السياسى فى أوربا الشرقية لان الاتحاد السوفيتى أدرك أن ثمن الحفاظ على الامبراطورية الخارجية كان باهظا — بما فى ذلك العبء السيكولوجى — اذا ما قورن

بفوائده ، فقد ادى هاجس لينين حول الحدود الغربية الى قيام الروس بالتوسع البعيد المدى فى أوربا وهو ما غرس بذور الثورات الشعبية . وفى نوفمبر ١٩٨٨ لاحت بوادر انفجار هذه السلسلة من الثورات :

« ان معظم الشعوب فى هذه البلدان الثمانى فى أوربا الشرقية والتى صبغت بالصبغة الشيوعية لم ترغب فى أن تحكمها هذه الحكومات الشيوعية ، ولم ترغب فى أن يحدد لها السوفيتيون ما يجب ان تكون عليه . وادت اربعون عاما من الحجرفة المزدوجة التى ابدتها موسكو — لأن ماركس يعلم افضل ، وروسيا تعلم ماذا يعنى ماركس حقيقة — الى شق قنوات للتمرد الشرق أوربى » (١١) .

ان المنهج الجديد الذى اتبعته روسيا فى أوربا الشرقية كان حقيقة نتاجا لمناقشات طويلة داخل مطابخ الفكر السوفيتى . ويجب أن نذكر أيضا أن جورباتشوف اختار عددا من المحررين السابقين لنشر الماركسية العالمية ومقرها براغ ليكونوا من بين مستشاريه الذين ابدوا تعاطفهم مع حركة دوبتشيك التجديدية فى عام ١٩٦٨ ، وشجبوا التدخل السوفيتى الذى قضى على هذه الحركة الاصلاحية .

ان وزير الخارجية السوفيتى ادوراد شيفرنادزه Edward Shevardnadze وهو واحد من أقرب المقربين لجورباتشوف فى المكتب السياسى كان له عظيم الأثر على عملية صنع القرار الذى ادى الى التخلى عن منطق الكتلة ، وقد أدانه النقاد المحافظون بعد استقالته من منصب وزير للخارجية فى عام ١٩٩٠ لدوره « المشين » فى انهيار القوة السوفيتية الدولية .

وفى يونيو ١٩٨٨ قدم السوفيتيون فى المؤتمر التعليمى السوفيتى الامريكى الذى أقيم فى الاسكندرية Alexandria وفرجنيا Virginia ورقة عمل هى خلاصة عمل جماعى لفريق من الاقتصاديين العاملين فى احدى أكبر المؤسسات فى النظام الاشتراكى العالمى World Socialistic System برئاسة الأكاديمى أوليج باجوميلوف Oleg Bagomilov ورغم انها ورقة شبه رسمية الا انها أشارت وبوضوح الى وجود تغيرات جوهرية فى المنهج السوفيتى تجاه أوربا الشرقية ، وأوضحت الورقة — بعيداً عن مسألة ازالة الخلاف الخاص بالعادات الثقافية والعرقية والسياسية والاقتصادية فى أوربا الشرقية — أن النموذج الاشتراكى السوفيتى الذى فرض على بقية دولة الكتلة : « لم يصمد لاختبار الزمن ، ومن ثم فقد فشل اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا » .

واقرت الورقة ان الحاجة لاجراء اصلاحات راديكالية تؤدى لخلق نموذج اشتراكى جديد يكون انسانى الطبيعة باتت ملحة . وقدمت الورقة تحليلا للسمات الرئيسية للسوفيتية كنظام بيروقراطى عسكرى قام على دعامتين هما الدمج والاكراه :

((لقد بدا نظام القوة السياسية فى اوربا الشرقية يتخذ البروسترويكا مرشدا له · ان النموذج القائم فى الاتحاد السوفيتى قد تشكل خلال الثلاثينيات والأربعينيات ، وقد تاثر هذا النموذج على نحو عميق بمعتقدات ستالين الحمقاء عن طبيعة الآليات السياسية للاشتراكية وتاثر كذلك بحالة المجتمع السوفيتى الرثة الذى افتقر الى التراث الديمقراطى والثقافة السياسية وفرض النظام الادارى الموجه الذى بدأ فى الاتحاد السوفيتى على بقية الدول الاشتراكية واتسم هذا النظام بالمركزية المفرطة ، والاحتكار المطلق لصنع القرار والتفكير المنفرد ، والتحقير من شان الجماهير (التى اعتبرها النظام مجرد ((جماعات تافهة)) وادوات فى يد السلطة) ، والعزلة عن العالم الخارجى . وهدفت المؤسسات السياسية الى تامين الاستقرار السياسى بالقمع والارهاب والحد من النزاعات . لقد قوض هذا النظام الذى طالب شعوبه بالطاعة العمياء دعائم الديناميات المجتمعية وقابليتها للحياة)) (١٢) .

ولن يخطىء القارىء لأعمال امرى ناجى التى كتبت فيما بين عامى ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ عن برنامج عمل الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى الذى انتهج فى عام ١٩٦٨ نزوعه الى التوجه الاصلاحى · لقد اعتنق الدارسون السوفيتيون نفس الأوهام التعديلية بأن التغير فى أوربا الشرقية يمكن أن يتحقق داخل حدود النظام ودون الخروج عليه ، واقتصرت قضيتهم على بناء نموذج جديد للاشتراكية .

ولم يجدوا اجابة شافية للسؤال المطروح وهو : هل كانت الدول فى تلك المنطقة مهتمة بتجريب نظام جديد أم لا ؟

وخلال عام ١٩٨٨ ، شارك السوفيتيون جزئيا فى الزيف التعديلى التقليدى وهو أن الاشتراكية سيكون لها مستقبل فى أوربا الشرقية اذا استطاعت التخلص من بيروقراطيتها الآخذة فى التزايد وأطلقت الطاقات الاجتماعية والابداع اللذين قمعا اثناء الحقبة الستالينية ، ورأى التعديليون فى عامى ١٩٥٦ ، ١٩٦٨ ان حل هذه الأزمة يكمن فى العودة الى العقيدة الماركسية الأصيلة . لقد تم التشويش على ما للاشتراكية من انحرافات وذلك بالاعتقاد الزائف والمطلق فى امكانية استرجاع مزايا الاشتراكية :

« يمكن تعريف جوهر النموذج الجديد للسلطة بانه منح السلطة المحلية والعمال والجماعات تفويضا للاضطلاع بالمسئولية ، وتوسيع هامش التعددية فى الحياة العامة ، ودمقرطة المؤسسات بما فى ذلك الحزب الطليعى بهدف خلق ضمانات اكثر فاعلية ضد احتكار طبقة المديرين والسياسيين المحترفين للسلطة اى ضد الأجهزة البيروقراطية » (١٣) .

وفى صيف عام ١٩٨٩ وجه جورباتشوف خطابا للجلسة البرلمانية للمجلس الأوربى بستراسبورج Strasbourg وفيه تجاوز المالوف فيما يتعلق بتأييده ودعمه للنموذج البرجنيفى للهيمنة المحدودة ، واعترف بانه لا يوجد نظام اجتماعى لا يقبل التغيير، وألمح الى ان مثل هذه الانتقادات يمكن أن تتم فى أوربا الشرقية أيضا . ان كلمة جورباتشوف فى ستراسبورج قد حللها المراقبون على نطاق واسع واعتبروها الضوء الأخضر للمصلحين فى أوربا الشرقية ليبذلوا جهودهم للتحرك تجاه نظام تعددى وتجاه اقتصاد السوق · ورأى جورباتشوف :

« ان الادعاء بأن دول أوربا تنتمى الى نظم اشتراكية متباينة هى حقيقة واقعة ، وأدراك هذه الحقيقة التاريخية وابداء الاحترام نحو حق السيادة لكل شعب وحقه فى اختيار نظامه الاجتماعى جعل مبدأ حق الاختيار من أهم المحددات اللازمة لمسيرة أوربية طبيعية · ان النظام الاجتماعى السياسى فى بعض البلدان تغير فى الماضى ويمكن تغييره فى المستقبل ايضا واعتبر ذلك شأنا من شئون الشعب نفسه يتوقف على رغبته ·· وأى تدخل فى الشئون الداخلية وأية محاولات للحد من سيادة الدول ـ سواء أكانوا أصدقاء أم حلفاء أم أى شىء آخر ـ لا يمكن الاعتراف بها او ايجازها » (١٤) ·

ان معنى خطاب ستراسبورج لا يمكن أن يخطئه المثلون السياسيون الشرق أوربيين سواء أكانوا حكاما أم معارضين · وفقد السبب الذى اعتادت الحكومة الشرعية أن تقدمه لتبرير التخطيط لاتخاذ اجراءات صارمة ضد المنشقين لتجنب التدخل السوفيتى كل معنى له .

لقد تم بالفعل اجراء تغييرات كبيرة فى أوربا الشرقية فى الشهور التى تلت هذا الخطاب · ففى فبراير وافق الشيوعيون المجريون على التحرك تجاه النظام المتعدد الاحزاب وهو القرار الذى لم يجرؤ أحد ـ منذ عام واحد فقط ـ أن يشارك فيه ، وفى بولندا نظمت الحكومة والمعارضة اجتماعا مشتركا فى ابريل أسفر عن توقيع اتفاقية تعترف

بشرعية المنظمة التى حلت وبموجب الاتفاقية منح الشيوعيون ثلث مقاعد المجالس الشعبية كما وافقت الحكومة على اجراء انتخابات حرة لمجلس النواب . ان الاتفاقية البولندية كفلت أيضا سيطرة الحكومة الشيوعية على الأجهزة العسكرية والأمنية وظلت الرئاسة الفعلية للجمهورية فى يد الجنرال ياروزلسكى .

ان الحركات الاصلاحية فى أوربا الشرقية لم يكن فى الامكان احتواؤها ، وكان منطق التغيير داخل الأنظمة السلطوية يطرح كلما قدم السلطويون تنازلات أكثر وكلما ظهرت مطالب جديدة للمعارضة تعبر عن آمال الجماهير المرجوة ، وأدركت الحكومة انها ان لم تستجب لهذه المطالب ، فسوف يزداد الاضطراب الاجتماعى ويصل الى أقصى مدى له فتضطر الى تقديم مزيد من التنازلات . وراقب جورباتشوف تلك التغييرات ولم يبد أى رفض تجاهها .

وفى أبريل عام ١٩٨٩ استقبل جورباتشوف الزعيم الشيوعى المجرى كارول جروتر ، وبعد مناقشة تجارب عامى ١٩٥٦ ، ١٩٦٥ عندما سحق السوفيت المحاولات التى بذلت من اجل الديمقراطية فى المجر وتشيكوسلوفاكيا قال لضيفه :

« يجب توفير كل الضمانات الممكنة التى تكفل عدم تدخل أى قوى خارجية فى الشئون الداخلية للأقطار الاشتراكية » (١٥) .

ان المنهج السوفيتى الجديد كان له أثر كبير فى أوربا الشرقية ، ونال من قوة المحافظين بدءا برومانيا والمانيا الغربية وانتهاء بتشيكوسلوفاكيا والمجر ، الا ان المحافظين المتشددين فى موسكو رفضوا التصديق على السياسات الستالينية الجديدة . وفى يوليو ١٩٨٩ عقدت قمة حلف وارسو فى بوخارست ، وفى هذه المناسبة تحدى جورباتشوف الائتلاف المتشدد داخل الكتلة عندما طالب بتحويل الحلف من حلف عسكرى سياسى الى حزب سياسى عسكرى ، ورفضت الورقة الختامية للاجتماع فكرة وجود نموذج اشتراكى كونى ، وبعد القمة أعلن وزير خارجية المجر جولا هورن Gyula Horn ان الوقت قد حان من أجل ممارسة اشتراكية ملائمة للعصر ومواكبة للتغيرات فى العالم الحديث . وقد عبر عن موقفه من المنحى الاصلاحى داخل الكتلة قائلا :

« اننا ايضا نسير فى هذا الاتجاه وارى أن ذلك أمر شديد الأهمية وان الزمن الذى تدخلت فيه كثير من الدول والأحلاف تحت أى سبب

وباية وسيلة فى الشئون الداخلية لعضو آخر قد فات ، وأن الحقبة التى تؤكد على ما سمى بالنموذج البرجنيفى قد ولت الآن والى الابد » (١٦) ٠

والخلاصة ان المحاولات التى بذلت فى البدء لبناء تلاحم جديد داخل الكتلة قد تبعها تحرك راديكالى من جورباتشوف لتبنى منهج متسامح لتحقيق الوحدة داخل الكتلة واقرار حق الاختلاف فى الرأى وتشجيعه عمليا ٠

لقد ارتبط التعديل فى سياسة الاتحاد السوفيتى تجاه أوربا الشرقية تحديدا بالصراعات الداخلية فى موسكو ٠ ولا بد أن نذكر هنا ما حدث أثناء المؤتمر التاسع عشر للحزب فى مارس ١٩٨٨ عندما نشر خطاب نينا أندريفا Nina Andrey Jevo المشهور وعندما انتقد المحافظون السوفيتون ما اعتقدوا انه سياسة التنازلات غير المبررة للغرب ٠ لقد كانت هناك علاقة مباشرة بين التصميم المتبادل على الدمقرطة الداخلية وعدم التورط فى مغامرات خارجية (وهو ما ينظر اليه عادة على أنه دفاع عن الغزاة « البروليتاريين » كما فى حالة غزو المجر وتشيكوسلوفاكيا) ٠ فقد وجهت اندريفا الأستاذ المحاضر من ليننجراد اتهاماتها للبروسترويكا وهو ما أثار سخط وحنق الائتلافات الصاعدة من القوميين الستالينيين والقوميين الروس كما عنفت بشدة الجورباتشوفيين بسبب اعلائهم من شأن ما رأته مسارا خطرا جدا فى العلاقات الدولية فقالت :

« لقد أصابتنى الحيرة فى الفترة الأخيرة تجاه المفاجأة التى ألقت بها احدى الطالبات بأن الصراع الطبقى من المفترض انه مجرد مصطلح مثله مثل الدور القيادى « للبروليتاريا » وكان الأمر سيهون لو انها الوحيدة التى ادعت ذلك فقد اندلع جدال عنيف حيث أكد أحد الاكاديميين المحترمين بأن العلاقات الحالية بين الدول التى تنتمى لنظامين اجتماعيين اقتصاديين تفتقر بوضوح لأى محتوى طبقى ، واعتقد أن الاكاديمى لم يهتم بشرح لم هى كذلك ؟ — رغم انه ظل لعقود طويلة يكتب العكس — وقد قال تحديدا ان التعايش السلمى ليس الا شكلا من اشكال الصراع الطبقى الذى يحدث على المسرح الدولى ٠ والآن يبدو أن الفيلسوف قد نبذ وجهة النظر هذه — ولكن لا عليك فكل الناس معرضة لأن تغير رأيها ولكن يبدو لى أنه من الواجب على هذا الفيلسوف على الأقل أن يشرح لهؤلاء الذين درسوا وما زالوا يدرسون كتبه : ماذا يجرى اليوم ؟ هل طبقة العمال الدولية لم تعد تعارض

الراسمالية العالمية بوضعها الحالى وبما لديها من ادوات سياسية ؟ » (١٧) ٠

والحقيقة أن أندريفا لم تكن الوحيدة التى رثت نهاية الحقبة الأيديولوجية والتوحد والتعصب والنظامية العمياء ، بل ان بعض الزملاء العاملين فى مكتب جورباتشوف السياسى ــ خاصة خصمه القديم يوجور ليجاتشف Yegor Ligachev ــ بدا لهم أن التفكير الجديد فى السياسة الخارجية هو « اذعان » للضغط الغربى ٠

ولم يذعن جورباتشوف لتحذيرات ناقديه واستمر فى الدفع لاجراء مزيد من التغييرات فى بنية الكتلة ، بهدف مساعدة الاصلاحيين داخل الأحزاب الشيوعية الحاكمة لتولى السلطة والتخلص من المأجورين الستالينيين ، وبنى جورباتشوف حساباته الاستراتيجية على ايمان عميق بأن الزعماء التعديليين فى أوربا الشرقية سوف يصلون للسلطة وسوف يتبنون رؤيته السياسية عن الاشتراكية التى تحترم القانون وحرية الأفراد ٠٠ وأصر وزير الخارجية ادوارد شيفرنادزة فى خطابه الذى القاه فى مجلس النواب فى ٢٣ اكتوبر أن « التغيرات التاريخية الكيفية التى تجرى فى أوربا الشرقية تتطلب انفصالا تاما عن الوصفات القديمة الجاهزة :

« ان قوى جديدة بديلة تدخل الساحة السياسية فى بعض هذه البلدان » (١٨) ٠

وأصبح واضحا ــ كما قال المتحدث السوفيتى الرسمى جينادى جيراسيموف Gennady Gerasimove ــ أن العقيدة البرجنيفية قد تم استبدالها بحق كل قطر فى أن يكون له « طريق خاص » (١٩) ، ومن ثم فان البعض قال ان ذلك يعد ايذانا بميلاد « عقيدة سينترا » « Sinatra Doctrinel » وهو الاسم الذى اطلق على قرار الاتحاد السوفيتى بالسماح لكل دولة شرق أوربية بأن تقوم بما يناسبها من اصلاحات ٠

وساهم التغير فى الموقف السوفيتى فى الاسراع باجراء تغييرات فى النظام السياسى والاقتصادى وتشجيع الاصلاحات فى بلدان حلف وارسو واحياء الاتجاهات التعديلية التى طال قمعها داخل الأحلاف الحاكمة فى تلك البلدان ، كما ساهم فى جعل الحركات الاجتماعية فى القاعدة حركات راديكالية وهو ما كان واضحا تماما فى بولندا والمجر ، وهما البلدان اللذان تقدما الى أبعد مدى فى تجريب السياسات

الليبرالية . ان ما بادر به جورباتشوف من استراتيجية جديدة شجعت فيما بين عامى ١٩٨٦ ، ١٩٨٨ العصب الليبرالية داخل الأحزاب الحاكمة على أن يكون لها الغلبة فتبادر باصلاحات اقتصادية سريعة وتجعل النظام السياسى منفتحا وتسمح بالمزيد من الفعالية الاجتماعية ، بما فى ذلك تكوين جمعيات وجماعات مستقلة . ان الأرض التى ستولد عليها الاستراتيجية الجديدة المختلفة رادبكاليا عن رفض برجنيف العنيد لأى تجربة فى الكتلة السوفيتية هى بولندا .

صعود تضامن وسقوط الشيوعية البولندية :

ان الخروج — بدون عنف — عن النظام السلطوى الذى بنى على أساس الديكتاتورية الأيديولوجية للحزب الشيوعى كان ممكنا فى بولندا نظرا لأن البعض داخل الحلف الحاكم وكذلك المعارضة ادركوا مدى الحاجة الى الوصول لتسوية ما ، وأدى نضج مثل هذا الاتجاه خاصة بين هؤلاء الذين غادروا البلد دون أى تفسير وظلوا بعيدا عن وطنهم لعقود طويلة وأدركوا مدى تأزم المشكلات الاجتماعية والاقتصادية الى ضرورة الوصول بالمجتمع الى مشروع محكم والا سيزداد الموقف سوءا . ورغم أن نظام ياروزلسكى حاول منذ أمد أن يكتسب شرعية قومية ، فقد اعتبرته شرائح عريضة فى المجتمع حكما عسكريا . وفى عام ١٩٨٨ وكاشارة تنم عن الرغبة فى المصالحة والنية الحسنة ، قان ياروزلسكى عين ماتزسلو راكوفسكى الصحفى والسياسى المتمرد رئيسا للوزراء . وفى عام ١٩٨٩ خفف ياروزلسكى من سطوته كزعيم للحزب وأكد أن جورباتشوفية راكوفسكى تسمو فوق أى شك وأنه سيكون خليفته الا ان الوقت كان متأخراً جداً على اجراء مثل هذه الاصلاحات فى بولندا.

وأدت موجتان من الاضطراب فى أبريل واغسطس ١٩٨٨ الى اجبار ياروزلسكى على ادراك صعوبة احتفاظه بالحكم رغما عن المجتمع ، وعجز النظام عن قمع الاضطراب الاجتماعى المتزايد دون الاستعانة بأداة جديدة للقمع رغم أن الجورباتشوفيين حرصوا على اجتناب العنف ، فجرب الحل العسكرى فى أوائل الثمانينيات الا أنه فشل فشلا ذريعا . وقوبلت كل محاولات النظام لاستقطاب المفكرين البارزين داخل بنية السلطة للتخلص من خطر احياء حركة تضامن بالرفض التام .

وبدأ أن الدخول فى حوار مع ممثلى حركة تضامن والاعتراف بضرورة مشاركتهم فى السلطة فى أوقات الازمات الاجتماعية الدراماتيكية

والأزمات الاقتصادية هو البديل الوحيد للمد فى عمر الهيولى الحاكم ، الا أن التوصل لتسوية مع هؤلاء الذين اعتبرتهم السلطة أعداء للأبد اعتبره المتشددون الشيوعيون « اذعانا » ، وقاوم الدجماتيون من قيادات الحزب مسألة شرعية الاتحاد المستقل الجديد مقاومة عنيفة وكان ذلك فى يناير ١٩٨٩ ، مما جعل ياروزلسكى وثلاثة من مستشاريه المقربين يهددون بتقديم استقالتهم اذا رفض الحزب قبول الحوار مع تضامن (٢٠) .

وفى نهاية الأمر اعترف كلا الجانبين — الحكومة وتضامن بأن الاجتماع حول المائد المستديرة والتفارض هو البديل الوحيد للخروج بالأمة من تلك الأزمة .

وبدأت المحادثات فى فبراير من عام ١٩٨٩ وأسفرت عن اتفاقية سياسية وقعت فى الخامس من أبريل حيث اعتبرت كل من منظمة تضامن وكذلك تضامن فلاحى القرى The Farmer's Rural Solidarity ولجنة الطلاب المستقلة Independent Student's Association وعناصر اخرى من المجتمع المدنى البولندى منظمات شرعية ، وحدد الاتفاق اطارا مؤسسيا للحكومة يضمن ان يكون لرئيس الدولة سلطات محدودة ، كما نص الاتفاق على انتخاب مجلس للشيوخ انتخابا حرا وكذلك انتخاب هيئة تشريعية (Sejm) يكون لها الحق فى الغاء فيتو مجلس الشيوخ ضد القوانين التى تشرعها الهيئة بثلثى عدد الأصوات ، وحصل الائتلاف الشيوعى (حزب العمال البولندى المتحد وأحلافه) فى الجولة الأولى من الانتخابات على ٦٥٪ على الأقل من مقاعد الهيئة التشريعية وظل الشيوعيون قابضين على وزارتى الدفاع والشئون الداخلية ، وحصلت المعارضة على حق اصدار صحف ناطقة باسمها كما تم الحد من البرامج الاذاعية والتليفزيونية التى توجهها الحكومة .

وقد دخلت بولندا — اذا ما قورنت ببلدان اخرى فى أوربا الشرقية — مرحلة جديدة من تاريخها وخرج المناضلون السياسيون المضطهدون من مخابئهم وتهللوا للعسودة للقومية . وفيما يتعلق بالاصلاحات الاقتصادية فقد نهض الاتفاق بأعباء الانتقال الى اقتصاد السوق دون تقديم تنويه واضح للاستراتيجيات التى ستتبع . واستمر الصراع بين الحكومة والنقابات المستقلة حول المؤشرات المبدئية للأجور فى الشهور التى تلت هذه الاتفاقية .

وامتدح ليخ فاونسا Lech Walesa رئيس منظمة تضامن الاتفاقية على انها بداية الطريق الى بولندا حرة وديمقراطية ، وأصر

على أن التسوية هى الحل الوحيد لضمان انتقال الأمة الى النظام الديمقراطى دون عنف :

« ان ممثلينا فى مجلس الشيوخ والهيئة التشريعية يمكن أن يكونوا قاعدة نقفز منها الى الحرية والاستقلال » (٢١) .

وفى الجولة الأولى من الانتخابات فى يونيو ١٩٨٩ ، دعم البولنديون بقوة مرشحى تضامن ورفضوا حتى مجرد الالتزام بموقف الحياد من فوز المرشحين الشيوعيين . ان الانتخابات باعتبارها أول انتخابات حرة فى تاريخ الكتلة الشرقية ، جاءت بأول هزيمة تاريخية للشيوعيين البولنديين وأصبحت تضامن قوة سياسية ضاربة وكان الموقف فى بولندا الأول من نوعه فى تاريخ الشيوعية فهناك برلمان حصلت فيه المعارضة اللاشيوعية على ٩٩ مقعدا من مائة فى المجلس التشريعى ودبت حركة سياسية نشطة على نحو متزايد ضمت تضامن والشيوعيين كما ضمت الأحلاف السابقة على الحزب الشيوعى والتى عادت الحياة فجأة وناضلت المعارضة لاقرار استقلاليتها وكف الجميع عن تقديم العون الآلى للشيوعيين . وبناء على هذه الترتيبات البرلمانية ضمنت تضامن هيمنتها كعضو له شرعية كاملة وهو ما كان أمرا مستحيلا منذ عدة سنوات .

وبسبب الأحداث التى اندلعت تدريجيا فى أوربا الشرقية أثناء اجتياح ١٩٨٩ استمر تقهقر وتراجع الشيوعيين البولنديين ، وكان جوهر التسوية هو الوعى بأن الشيوعية البولندية تلقى حتفها السياسى ولم تعد قادرة على الاحتفاظ بأى دعم اجتماعى جاد .

وفى اغسطس ١٩٨٩ أحرزت بولندا خطوة جديدة عندما قرر ياروزلسكى الذى أعيد انتخابه كرئيس للدولة بدعم من تضامن أن يعين تادوتز مازوليسكى المفكر الكاثوليكى البارز والمستشار الأول لتضامن رئيسا جديدا للوزراء ، ومن المعروف أن هذا القرار قد سبقته محادثة تليفونية من ميخائيل جورباتشوف للزعيم الشيوعى ماتزلو راكوفسكى عبر فيها عن استعداد موسكو (وقل رغبتها) لقبول حكومة تضامن الحالية مع أقلية شيوعية (٢٢) .

ولم يكن أمام الشيوعيين خيار آخر غير قبول هذه الصفقة ، والا سيكون هناك عودة للأزمات السابقة مع مزيد من الغضب الاجتماعى ، والاضرابات واندلاع العنف فى الشوارع . ويرى الشيوعيون أن الحكومة الائتلافية حيث كان ممثلو تضامن مسئولين عن التخطيط الاقتصادى والشئون الاجتماعية كان مكسبا سياسيا ، حيث القوا بعبء

العلاج والشفاء الاقتصادى ، والقرارات الخاصة بالاصلاحات الجريئة على كاهل تضامن بينما ظلوا هم صمامات للسيطرة على المجتمع من خلال وزارتى الدفاع والداخلية واصبح تادوتز مازوليسكى فى ١٢ سبتمبر أول رئيس وزراء غير شيوعى لبلد من بلدان حلف وارسو .

لقد امتدت الثورة البولندية لمدة عشرة أعوام طوال من النضالات البطولية ، والأحلام الرومانسية والقمع الفظ والبزوغ الفذ لمجتمع مبدع وثاب . ومنذ عام مضى لم يجرؤ أي مراقب على الاشارة الى سرعة وعمق التغيرات التى كانت على وشك الحدوث فى هذا البلد حتى اجتاحت السلطة بعد مفاوضات مضنية مع هؤلاء الذين اسماهم ياروزلسكى بأعداء الشعب واعتقلهم بعد اصداره للقانون العسكرى، وأصبح أعداء الشعب فيما بعد المهيمنين على اقتصاد البلد وأخذوا يستعدون للجولة القادمة من الصراع لاحراز الانتصار التام على الصعيد السياسى . ان التسوية البولندية بدت محدودة ومقبولة بل وعادية اذا ما قورنت بما حدث فى الشهور التالية فى بلدان أخرى بالكتلة الشرقية الا أنها كانت آنذاك أى فى خريف ١٩٨٩ تعد — من وجهة نظر السلطة — تغييرا ثوريا ، ولابد أن نذكر ان اللينينية كعقيدة رفضت اقتسام السلطة ورأت أن الدور القيادى للحزب الشيوعى أى احتكاره للسلطة مبدأ مقدس ، ان ما حدث فى بولندا نتج عن ادراك تام وغير مسبوق من قبل الشيوعيين بأنهم خسروا معركتهم مع المجتمع ، وفيما بعد ستتعالى بعض الأصوات بالنقد لموافقة تضامن على تولى رئيس شيوعى حكم بولندا وسماحهم للشيوعيين باحتلال مواقع حساسة فى الحكومة ولكن هذه الادانة لتضامن ، لم تأخذ فى اعتبارها تعقد الموقف البولندى والدولى فى صيف ١٩٨٩ حيث كان السوفيتيون أول من أعاد النظر فى التزامهم تجاه وجود جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، بينما كان الشيوعيون البولنديون على أتم الاستعداد لخوض صراع حياة أو موت للاحتفاظ بمواقعهم فى الجيش والشرطة ، وقد اشار تومثى كارتون آش فى كتاباته الى ان بلدان مثل بولندا والمجر عانت من مصاعب خاصة بالانتقال السلمى وتنبع هذه المصاعب من ضرورة قبول الحكام بالهزيمة السياسية .

((ان التكهن أصبح اصعب من اى وقت مضى ، وانشغل افضل والمع الناس فى كلا الجانبين فى بولندا بالخوض فى مغامرة عظيمة وخطرة ((أتعلم)) أن واحداً من اكثر زعماء الحزب البولندى تالقا قال لواحد من أكثر زعماء المعارضة البولندية ابداعا أثناء فترة الراحة فيما بين جولات المائدة المستديرة Roundtable بأن ((كل الكتب وصفت لنا مدى

صعوبة الحصول على السلطة ولكنها لم تصف لنا مدى صعوبة التخلى عن السلطة » (٢٣) ٠

ان التخلى عن السلطة لا يمكن ان ينفصل عن الازمات المعنوية والأيديولوجية للأحلاف الشيوعية حيث اصطدم الشيوعيون البولنديون بالفشل التاريخي للنموذج السياسي والاجتماعي الذى فرضوه على المجتمع ٠ ان اللينينين خسروا اللعبة ، وحاول الاصلاحيون أن ينقذوا ما يمكن انقاذه من التراث اليساري ٠ وفى يناير ١٩٩٠ وفي المؤتمر الذى عقده حزب العمال البولندى المتحد قرر الأعضاء استبدال هذا الاسم بحزب الديمقراطية الاجتماعية Party of Social Democracy وتولى قيادته زعيم جديد هو الكسندر كوفاسنسكى Alexander Kwasneski ، وصعد نجم احدى العصب داخل الحزب الجديد تحمل اسم الاتحاد الديمقراطى الاجتماعى Social Democratic Union بزعامة شيوعى اصلاحى وعضو سابق فى المكتب السياسى وزعيم حزب جدانسك Gdansk وهو تادوتز فيتزباخ Tadeusz Fiszbach ٠ ان فهم سقوط الشيوعية فى بولندا يتطلب مقارنة عضوية حزب العمال المتحد فى ١٩٨٦ عندما بلغت نحو ٢ مليون عضو بعضويتها التى لم تتعد ٦٧٠٠٠ (٢٤) فى مارس ١٩٩٠ ٠

واعترف الحزب الذى اعيد تشكيله بمسئوليته عن الجرائم التى ارتكبت خلال سنوات الحكم الستالينى ، وعن مأساة بولندا الاقتصادية، الا أن انتقاد الذات لم يكن كافيا لاستعادة الحزب لهيبته ٠

ويمكن أن نقول ان نهاية الشيوعية البولندية حدثت بسبب افتقارها لرصيد أخلاقى وسياسى محسوس ، اما هؤلاء الذين استمروا فى منح الوعود للقيام بتجارب ذات رؤى مفتعلة عن الاشتراكية ، فان الغالبية العظمى من البولنديين ردت عليهم بأن الاشتراكية فى نظرهم هى الحط من شأن الفرد ، واهدار البيئة ، واضطهاد الفكر الحر والسلب المعنوى لقوة المجتمع وعطاءاته ٠ ولم يكن فى بولندا اية رغبة شعبية لاعادة بناء الحزب الشيوعى ، ولم يرغب البولنديون فى عودة الاشتراكية بل أرادوا التخلص منها بلا رجعة ٠ ولعب وعى الجماهير بعد استنفاذ الحكام السلطويين لكل أسلحة الحفاظ على النظام واستمراره بما فى ذلك اصدارهم للقانون العسكرى ، دورا مؤثرا فى انهيار الشيوعية فى بولندا ٠

وفى اللحظة التى قدم فيها الشيوعيون البولنديون تنازلاتهم وقبلوا الحوار مع المجتمع حتى لو كان أ.اء.هم اتحقيق ذلك بهدف أملا لخدمة

أنفسهم وبطريقة ميكيافيللية ، حطموا الدعامة الأساسية لديكتاتوريتهم وهى احساس الجماهير بأن النظـام لا يمـكن تغييره ، وأن أى شكل من أشكال المعارضة سوف يسفر آليا عن تهميش واضطهاد المنشقين .

ان ادانة القانون العسكرى فى بولندا هى بداية التفسـكك التام للشيوعية فى أوربا الشرقية ، وبينمـا أدرك الشيوعيون ضـرورة اسـتخدام العنف السـافر ضـد عشـرة مـلايين من الجمـاهير التى نظمت نفسها فى اتحـاد مسـتقل ، اكتشفوا أن طبيعـة سـلطتهم لن تفيدها اقامة حكومة من الطبقة العاملة . لقد تم فضـح النظـام باعتباره ديكتاتورية بيروقراطية ومعادية للبروليتاريا . وبسبب توالى الازمات فى الكرملين والموقف السوفيتى السلبى تجاه الأحـداث التى تجرى فى أوربا الشرقية لم يعد هناك أى أمل فى التدخل الخارجى الذى يمكن على أثره انقـاذ النظـام . وتعـلق ياروزليسكى ومعاونوه بأهداب السلطة عندما عبروا عن شجبهم للزيف الأيديولوجى واعترفوا حينئذ بأن الأيديولوجية لم تكن سوى وهم وهرطقة ، وأن التشدق بالألفاظ استخدم لاضفاء الشرعية على السيطرة التى تفرضها أقلية صغيرة متعصبة عـلى المجتمع كله . ان العقد الطويل الذى بدأ بتدشين منظمة تضامن فى أغسطس ١٩٨٠ توج بانهيار الاحتكار الشيوعى للسلطة فى بولنـدا فى صـيف ١٩٨٩ . وتطلبت استراتيجية « الارتقـاء الجـديد » تقويضـا بطيئـا ومستمرا لسـلطة الحكومة وصعود القـوى المضـادة فى شـكل جماعات وحركات لا رسمية تكاثرت فى الثمانينيات رغـم اجـراءات النظـام القمعية .

ان توتاليتارية بولندا الفاشلة أصبحت نظـاما سـلطويا زائلا ، رغم ان حكامه رأوا أن الأزمة لن تسـتمر للأبد . وفى نفس الوقت تطلبت استراتيجية المائدة المسـتديرة أن يكون لدى كل من دعاة الوسـطية داخل المعارضة ، والمصلحين داخل الحكومة الرغبة لقبول الصفقة التى وصفها آدم مِتشنك ـ المؤرخ المنشـق ـ أفضل وصف حين قال : « رئيسـك ، ورئيس وزرائنا » . ومنذ هذه اللحظة فصاعدا كان الانتقال لنظام ما بعد الشيوعية ممكنا رغم أن المواقع الرئيسية فى الحكومة ما زالت تحـت سيطرة هؤلاء الذى أقروا القانون العسكرى . ويمكن أن نلاحـظ أن الانظمة العسكرية التى فرضت فى ديسمبر ١٩٨١ قد حقرت من شأن الحـزب الشيوعى كمركز لصنع القرار ونقلت السـلطة الى زمـرة تكنوقراطية لا تلتزم علنيا بالأيديولوجية . وبالطبع استمر الحزب فى الوجود وفى أدائه لوظائفه الشعائرية الا أنه فقد قدرته على الاحتفاظ بهيمنته على المجتمع لأمد طويل . وفسر ميهـالى فاجيدا الفيلسوف الاجتماعى

المجرى انهيار الشيوعية على أنه أفول الأسطورة القائلة بمعصومية النظام من الخطأ واحتكاره العلم :

« ان قوة النظام ارتكزت على تفرده بالعلم ورصده لأى شكل من أشكال العصيان ليقابل بالمثل وعندما أدرك النظام عجزه عن تطبيق هذا المبدأ ، بدأ يستجيب بدرجة ضئيلة لمطالب المجتمع ، ومن ثم انتهى سلطانه السحرى وانهار بالفعل – رغم ما تظاهر به من قوة – فى عام ١٩٨٩ . ان القانون العسكرى فى بولندا كان حقيقة نوعا من التسويه غير المعترف بها . وكان الحل « المعتاد » لأى تمرد هو التدخل السوفيتى والحل الأمثل هو تدخل جيوش الاحلاف فى حلف وارسو ، الا أن الاتحاد السوفيتى ادرك عجزه عن المخاطرة بالخوض فى حرب أهلية فى وسط أوربا فقبل القانون العسكرى كحل رغم ادراكه التام بأن الجيش البولندى سوف يقمع المجتمع بالعنف وهو ما كانت السلطة تعتبره البرهان على قوة نظامها ومن ثم كان القانون المدنى – من وجهة نظر النظام – فشلا وضربة أصابته فى مقتل » (٢٥) .

ولتوضيح هذه النقطة قال ماجيدا عن ٣١ ديسمبر من عام ١٩٨١ انه اليوم الذى أدانت فيه المعارضة الديمقراطية المجرية القانون العسكرى وأصدرت جريدتها بتسلو Bszelo :

« فى ذلك اليوم أصبح جليا أن النظام كان عرضة للانهيار ولم يعد مخلدا . وبعد ٣١ ديسمبر ١٩٨١ ، لم يكن هناك سبيل آخر أمام النظام سوى اتباع سياسة تكون مقبولة على الأقل من جانب العقلية الأوربية – لذا فان النظام تغير ولم يعد كما كان » (٢٦) .

ان الانفتاح البولندى فى ١٩٨٨ و ١٩٨٩ كان له أثر جوهرى على المنطقة كلها ، اذ نهضت الشعوب فى المجر ، فبدأ النظام فى التراخى فى السنوات الأخيرة ، وفى تشيكوسلوفاكيا حيث بدأ الناس ينظمون احتجاجات شعبية ضد القمع الذى مارسته السلطة على المناضلين المعارضين . ولم تفقد التغيرات التى وقعت فى المجر معناها الثورى بل أثرت على رومانيا / شوشيسكو الذى حاول يائسا أن يقنع زعماء حلف وارسو الآخرين بمنع تشكيل حكومة بقيادة تضامن بأية وسيلة حتى لو كانت التدخل العسكرى ، ويبدو ذلك مثيرا للسخرية اذ أن الرجل الذى اعترض فى أغسطس عام ١٩٦٨ على سحق حركة براغ الاصلاحية هو نفسه الذى يطالب عام ١٩٨٩ بقمع فورى لتجربة بولندا نحو الديمقراطية ، ولكن محاولات شوشيسكو المسعورة للحفاظ على الستالينية الجديدة لم تقنع أى أحد . ان أى

تحرك تجاه الاصلاحات فى أوربا الشرقية قد تطلب شروطا خاصة ، منها كف السوفيتيين عن تدخلهم المباشر ومن ثم أصبحت هذه الاصلاحات حتمية ولا سبيل لمنعها . وبزغت تضامن فى أوائل الثمانينيات كحركة قومية حقيقية أخذت على عاتقها بناء مجتمع متعدد الاحزاب واطلقت العنان لاصلاحات دراماتيكية بأمل حل أزمة بولندا الاقتصادية على وجه السرعة .

ومنذ اللحظة التى تشكلت فيها حكومة بقيادة تضامن أصبح واضحا أن الحركة لن تستطيع الاستمرار فى انكار طبيعتها السياسية وأصبح حتميا عليها ان تبنى نفسها كحزب سياسى منظم وربما تبنى أحزابا سياسية متعددة يمكنها أن تظهر على الساحة السياسية بعد الانهيار الحتمى للشيوعية لأسباب ايديولوجية . ان منظمة تضامن قد تصرفت كجسد واحد فى تحديها للعدو المشترك المتمثل فى دولة الحزب الشيوعى بكل أجهزتها القمعية العديدة . والآن وبعد أن أدركت هذه الدولة فشلها واضطلعت تضامن بعبء الشفاء الاجتماعى والاقتصادى للدولة ، فان التمايزات والعصبوية التى كانت بين مجموعات عديدة داخل الحركة والتى طال تجنبها لمواجهة العدو المشترك طفت على السطح ، وولى زمن التآخى وتخطى الخلافات .

ان المقاومة البطولية المضادة للشيوعية نجحت من خلال اعادة بناء رؤى سياسية متسقة ، ومتنوعة ـ لقد أصبح ليخ فاونسا الذى لم يكن معروفا فى البداية وظل بعيدا عن مجريات الأحداث الخاصة بالممارسات السياسية الجديدة العلامة البارزة لحركة تضامن . ومنذ أن شارك العديد من المستشارين السابقين والمناضلين البارزين بتضامن فى الأعمال المدنية وفى الحكومة عرفوا بالطبقة السياسية الجديدة .

اختراق المجر لحصون العدو :

وكما ذكرنا آنفا ان الاتفاقية الكادارية ارتكزت على الزام المعارضة السياسية بموقف الحياد والحفاظ على النظام القائم مع مزيد من المرونة وقبول النقد وهو ما يعد أفضل ما تم من صفقات فى ظل الظروف القائمة ـ وتعتبر الكادارية أزمة سياسية وستظل كذلك حتى تنتعش الأوضاع الاقتصادية المتردية أو تقترب على الأقل من المستوى المعيشى فى الدول الشيوعية الأخرى .

وفى عام ١٩٦٨ بادرت المجر بتجربة اقتصادية جريئة فى مجال التجارة اللامركزية ووضعت حدودا على الدور الاجبارى للتخطيط

المركزى وازدادت استقلالية المشاريع وتكونت طبقة ادارية متحررة من الأوهام الأيديولوجية ، وتم تشجيع المبادرات الخاصة · واذا اتبع الاصلاحيون أسلوبا ثابتا ، فان قوى السوق ستحرر، وربما وإتتها الظروف لاستقطاب الاستثمار الغربى . الا أن العناصر الجامدة فى القيادة المجرية الشيوعية والتى تدعمها موسكو هيمنت فى آخر الأمر على الاصلاحيين وتم التخلى عن الآليات الاقتصادية الجديدة · وكان جانوس كادار نفسه ـ أحد الحزبيين ذوى الخيال السياسى المحدود ـ معارضا للتورط فى اصلاحات يمكن أن تقوض أسس النظام الذى اعتبره الأفضل من وجهة نظر طبقة العمال · ورأى اللينينيون الذين أرقهم شبح البطالة بأن الاصلاحات السياسية سوف تخلق توترات اقتصادية متفجرة ، وفضلوا أن يبقى النظام على ما هو عليه واتهموا الليبراليين بعدم المسئولية ·

وهناك شىء واحد لا بد من توضيحه وهو : أن الدوجماتيين المجريين يختلفون فى الطراز عن نظرائهم الرومانيين والالمانيين الشرقيين والتشيكوسلوفاكيين ، لأنهم رأوا أن أساس أية حكومة هو اجماع الرأى المبنى على تسوية تكتيكية بين الحكام والمحكومين · ولم يكن كادار أو رئيس وزرائه جينوفوك Jenö Fock أو الأيديولوجى الرئيسى جورجى اتزيل Gyorgy Aczel يؤمنون بالاشتراكية على طريقة شاوشيسكو .. أو هونكر أو هوساك ، لأنها طريقة جامدة متصلبة الا أنهم لم يبدوا فى الوقت ذاته أى استعداد لتبنى تخاصم راديكالى مع القواعد التقليدية للعبة ، ونظروا للحزب الشيوعى باعتباره مركزا للحياة السياسية وتجسيدا للفهم السامى للمعقولية التاريخية ، ومن ثم كان طبيعيا أن يحقروا من شأن المحاولات التى قام بها الليبراليون لجعل النظام انفتاحيا ولتشجيع تواجد قوى تعددية فى الحياة الاقتصادية . وقد استبعد الزعيمان الحزبيان رتزونايرز وبيلا بيتزكو Bela Biszku من المكتب السياسى فى أوائل السبعينيات لما عرف عنهما من تبنى وجهات نظر اصلاحية .

ان الاستعانة بالعقائد اللينينية فى المجال الاقتصادى لا يعنى على أى حال اللجوء الى الارهاب السياسى · وقد ظلت المجر حتى أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات أقل بلدان حلف وارسو ممارسة للقمع ، وارتكزت هذه المرونة أساسا على الارتباط الهش بالمصالح الاجتماعية المتضاربة وهو ما ظهر بقوة فى الثمانينيات وكان التردى الاقتصادى ، والسخط الواسع الانتشار بسبب عجز الحكومة وفشلها قد ترك البلد فى حالة من الاضطراب العام · لقد فقد كادار الزعيم الذى وضع ثقته

فى نظام سياسى حكم المجر فى ظروف سيئة لولا أنه استطاع أن يجعل منها اكثر تكنات المعسكر الشيوعى حيــوية وهيبــة بمجـــرد أن ثبتت ادانته واعتبره الشعب – وعلى نطاق واسـع – نمـوذجا للفســـاد والبيروقراطية الشاذة بل وعقبة رئيسية فى طريق تجديد الحزب رغم ما حققه للبلد من تقدم .

وساءت الأحوال السياسية والاجتماعية فى الثمانينيات عندمـــا بدات مجموعات اجتماعية كبيرة فى استجواب الحكومة عن مدى فاعلية سياسات كادار . ولم تعد مناورات الزعيم العجوز تفى بالدين وبمجــرد أن أعطى جورباتشوف اشارة البدء لليبرالية الجديدة وشجع البحث عن مزيد من الاصلاحات فى بلدان الكتلة وجد كادار نفسه بعيـــدا عن الاتجاهات الجديدة فواجه تحديا من المعارضة بل ومن داخل الائتلاف الشيوعى نفسه . ان غرائزه السياسية والتى أثبتت صدقها فى حقبة برجنيف لم تساعده فى عهد جورباتشوف . وبدأ واضحا أن المجر تتحرك سريعا نحو الديمقراطية السياسية ، ولم يكن كادار هـو الرجـل الذى يسمح لمثل هذه المسيرة بالتقــدم . ولأن الرجل هـو الذى دبر وأشرف على قمع ما بعد عام ١٩٥٦ ولان الوضع الاقتصادى كــان آخــذا فى التدهور بدأ الشعب يسترجع دوره فى قمع ثورة بودابست .

وفى وثيقة سياسية نشرتها المعارضة الديمقراطية عـــام ١٩٨٧ بعنوان رمزى هو « العقد الاجتماعى The Social Contact » ، تم شرح فشل الكادارية فى ضوء الأفول الاقتصادى للنظام السياسى . ورفضت القيادة القديمة ادراك مدى قوة الأزمة الاجتمـاعية التى هزت بالفعـل كيان النظام المجرى . ورأى كتاب هذا البرنامج السياسى الذى نشر فى جريدة بتسلو Beszelo أن ارتقـاء المجتمع فى الثلاثين عاما الأخيرة والذى تبعه قمع للاجتياح الثورى لعام ١٩٥٦ جعل الاستمرار فى اجراء تسوية جوهرها انصـاف الحقائق والأخيلة الذاتية شيئا مستحيلا ، ان اجماع الرأى الذى جســدته الكادارية كف عن ضخ الثقة والدعم بين الشعب . وتقول الوثيقــة ان :

« جانوس كادار كان رمزا للوسـطية الذهبية فى المجـر ، وهو فى تضاده مع راكوسى لم يحاول أن يفرض على الشعب برامج مبالغـا فيها من أجل الاصلاح الاجتماعى ولم يرغب – على عكس امرى ناجى – فى قبول فرض قيود على حكم الحزب الشيوعى . وباحكام قبضته على السلطة واحتكارها تجنب ناجى أى انتهاكات لمصالحه قد تقوم بهـا أى جماعة قادرة على التعبير عن استيائها ، وقد عوض كل فــرد عــن خسارته أينما كان ذلك ممكنا . ان البلد .. الذى استحسن ســياسة

التعزية التى انتهجها كادار كان متشوقا لحيـاة آمنة وسالمة • وقبلت الدولة ان يحكم الحزب الحاكم باسم الشعب وان تحكم الاجهزة الحزبية باسم جمهور الحزب •وهذا ما يسمى باجماع الرأى » (٢٧) •

لقد قاد كادار البلد الى حتفه السياسى والاجتماعى ، وبدأت المعارضة الديمقراطية فى المطالبة بالرحيل الفورى لرجل ارتبط اسمه على نحو لا ينفصم بهذا النظام ، الا ان التخلص السياسى من كادار لم يكن كافيا • وبدلا من تكرار السياسات التى مارسها كادار ومعاونوه ، أعاد الحزب بناء علاقات جديدة مع المجتمع •

ان سياسة اجماع الرأى الزائف كان لا بد ان تقتلع من جذورها من خلال استراتيجية التسوية القومية ، وتحقق هذه التسوية يتطلب صحوة المجتمع الفورية من سباته الطويل ليبدأ فى تنظيم نفسه وكانت حفنة من المبدعين المغامرين تكفى لتحدى هيمنة الحزب الشيوعى كما شاركت شرائح اجتماعية عريضة بما فى ذلك بعض ممن فى داخل الجناح الاصلاحى فى الحزب الذين يقع عليهم ضغط من جانب الأعضاء الآخرين فى النقد الموجه من القاعدة ، مما دفع بهم لاتخاذ مواقف راديكالية فى مقاومتهم للدمج البيروقراطى • وترى المعارضة الديمقراطية أن السلطة لا تدخل حوارا الا اذا وجدت أن المعارضين ليسوا وحدهم أطراف المفاوضات.
لقد كان لزاما على المفكرين أن يتخلوا عن نرجسيتهم لصالح البناء المنظم لبوادر الفعالية المدنية ، وتعد هذه البوادر النواة والعمود الفقرى للمجتمع المدنى الصاعد لأنها ستطالب بانتقال النظام الى الراديكالية وبطرح جدول أعمال بعيد المدى وآخر قصير •

وعلى المدى البعيد فانهم سيستعيدون ارث أكتوبر ١٩٥٦ وذلك بالمطالبة بالتعددية السياسية والديمقراطية ، وحكم الذات فى مواقع العمل ، والحكومة المحلية المستقرة ، وتقرير المصير القومى والتزام الحياد فى السياسة الخارجية • ولأن هذه المطالب قد بدت راديكالية جداً بالنسبة لظروف عام ١٩٨٧ فقد أقدمت المعارضة الديمقراطية على تسوية حددت العلاقة بين بنية السلطة والمجتمع • ورفعت صحيفة بتسلو شعارات المرحلة القادمة الرئيسية بما فيها من نهوض سياسى وهى :

« رقابة دائبة على حكم الحزب ، هيئة قومية لها سيادة ، حكومة تراقب وتحاسب ، حرية الصحافة التى يكفلها القانون ، وقانون لحماية الموظفين ، تمثيل المصالح ، تحرر الجمعيات ، الأمن الاجتماعى وسياسة رخاء اجتماعى منصف ، وأخيراً المطلب الذى تم الاجماع عليه وهو الحقوق المدنية » (٢٨) •

وفى المرحلة الأولى من الجورباتشوفية لم يعلن الكرملين عن موقفه من الحقائق السياسية الشرق أوربية ومن ثم أكد « العقد الاجتماعى » مثله فى ذلك مثل الارتقاء الجديد لمتشنك على اعتبار أى تحد للدور القيادى للحزب الشيوعى محاولة ستحرز النجاح ، ومن ثم أصبح الهدف هو الحد من ذلك الدور ، ووضعه تحت رقابة شعبية والحصول على ضمانات تشريعية تمنع البيروقراطيات الشيوعية من الاستمرار فى بذاءاتها . الا أن الأحداث استمرت فى جمع زخمها ، وبعد عدة شهور من نشر هذه الوثيقة المدوية تقدمت جماعات مؤثرة داخل الحلف الشيوعى رؤيتها لاعادة تعريف دور الحزب فى المجتمع . ان الصراع العصبوى داخل القيادة والصعود الشهابى لأمرى ناجى كرمز لرؤية مجرية للجورباتشوفية عجل بسقوط الكادارية .

لقد أتت الحقبة الكادارية لنهايتها فى مايو ١٩٨٨ عندما استبدل مؤتمر الحزب القومى بالسكرتير العام قيادة رباعية مكونة من رتزونايرز القوة المحركة التى تكمن وراء الاصلاح الاقتصادى الذى تم اجهاضه فى أواخر الستينيات وكوروللى جروتز الذى أصبح السكرتير العام الجديد المسئول عن المتابعة اليومية للعمل الحزبى وكان عضوا حزبيا لا لون له وعينه كادار خليفة له ، والعضوان الآخران للرباعى كان أحدهما المصلح المتوهج امرى بوتزجاى والأيديولوجى الجامد جانوس بريز Janos Berecz الذى تبنى فجأة مبدأ التعددية .

وفى البداية أظهر جروتز ميلا نحو فرض هيمنته على الأجهزة الحزبية وحاول أن يضع الموقف تحت سيطرته التامة ، ولكنه لم يستطع أن يفرض هيمنته فى الواقع ، ومثلما فعل كادار فقد دعم جروتز القمع المضاد للثورة بعد عام ١٩٥٦ ، كما تسلق السلم الوظيفى كبيروقراطى حزبى مطيع . وقد تحدى جروتز بالتدريج أعضاء الجناح الاصلاحى الراديكالى داخل الحزب الشيوعى المجرى برئاسة روتزنايرز وأمرى بروتز جاى . وانتقد بروتز جاى قيادة الحزب بسبب رفضها اماطة اللثام عن حقيقة ثورة ١٩٥٦ وتحقيرها لناجى وكل ضحايا الارهاب الكادارى ، وأصر على ضرورة وضع الشيوعيين حدا لما يقومون به من ممارسات قمعية اذا أرادوا الاستمرار فى المشاركة فى النظام السياسى المتعدد الاحزاب . واستمر فى الدفاع عن مثل الاشتراكية التى رأى أن الممارسات الستالينية قد شوهتها .

وظل بوتز جاى — مثل جورباتشوف — متمسكا بمعتقداته الماركسية بينما رسم خطا قاطعا للتمييز بين الاشتراكية والتوتاليتارية

الستالينية ، الا أن هذا الاتهام للنظام القائم كان أكثر راديكالية عن كل ما قاله الزعيم السوفيتي من قبل عن التغيرات النظامية : .

« تلك هي أزمة الستالينية · لقد أصبحت ستارا داكنا ، ولا يمكن لهذا النظام أن يعيد تشكيلها لأنها فشلت وأثبتت عدم ملاءمتها للاضطلاع بالتجربة ودعم مشاعر الحرية لدى الشعب . لقد فشل هذا النظام فى خلق قوى داخلية محركة من الافراد والمواطنين وقضى على مبدأ التضامن بين افراد شعبه وحطم التعاون بين المنتجين . وتحت هذه الظروف فان القرار الوحيد الذى يمكن أن نتخذه هو حل هذا النظام الستالينى الشامل والتخلص من أيديولوجيته · ولا أعتقد أن جوهر هذه الأيديولوجية فى الماركسية أو فى الماركسية المحرفة لأنه ليس هناك شيء يمكن ان نقوم به حيال الماركسية ».(٢٩) .

وبعد أقل من عام واحد طرد كادار نايرز ، الديمقراطى الاجتماعى السابق ، الذى وصف على نطاق واسع بأنه رجل الكياسة وبعد النظر واستبدل به جروتز زعيما للحزب · وفى أكتوبر ١٩٨٩ عقد مؤتمر الحزب الشيوعى المجرى (واسمه الرسمى حزب العمال الاشتراكيين) وتقرر فيه تغيير هذا الاسم الى الحزب الاشتراكى المجرى وشجب الأيديولوجية البلشفية بما فى ذلك الادعاء بدور الحزب القيادى المضمون بشكل ثابت فى المجتمع . ورفضت جماعة منشقة على راسها جروتر وبروتز قبول هذا التغيير ، وتمسكوا باسم الحزب القديم بينما تخلى بوتز جاى ونايرز ورئيس الوزراء ميكوبس نيمث Mikbs Nemeth عن طريقتهم فى اقناع الراى العام بأنهم اخذوا ــ حقيقة ــ بمبادىء التعددية الحزبية.(٣٠) .

وفى نفس الوقت نظمت المعارضة نفسها ، وبزغ العديد من الأحزاب الرئيسية فى المجر خلال عامى ١٩٨٨ ، ١٩٨٩ · ووضع المنبر الديمقراطى Democratic Forum ــ الجماعة الشعبية المحافظة ــ فى اعتباره التدهور التراجيدى الذى أصاب الريف المجرى تحت الحكم الشيوعى أولا ، ثم أفول القيم الأخلاقية وتجاهل الشيوعيين لمصير الأقليات المجرية فى الخارج ثانيا .

ان الديمقراطيين الأحرار Free Democrates كانوا أساسا منظرين للحزب وقد اشادوا بآليات الاقتصاد الحر والمجتمع الليبرالى ، كما انخرطوا فى المعارضة الديمقراطية فى نهاية السبعينيات والثمانينيات التى نظم زعماؤها المفكرون حملة معادية للثقافة الشيوعية خلال عقود السبات الاجتماعى واللامبالاة السياسية تحت حكم الكادارية · ومن بين زعمائهم كان لاسلو راجيك المهندس المعمارى المناضل فى سبيل حقوق

الانسان الذى شنق والده فى محاكمة بودابست الصورية فى عام ١٩٤٩ ، وجانوس كسى الذى كتب عددا من المقالات هى الأولى من نوعها عن استراتيجيات المعارضة فى المجتمعات التى على الطراز السوفيتى ، وميكلوس هراتسى الذى ألف العديد من الأعمال كان أشهرها عامل فى مدينة العمال Aworker in a Workers' State والسجن الناعم Velvet prison وجاسبر ميكلوس تامس Gaspar Miklos Tamas الفيلسوف الذى ولد فى ترانسلفانيا Transylvania والذى هاجر للمجر فى ١٩٧٨ والتحق بالمعارضة ، وقد أصدر هؤلاء جميعا صحيفة مستقلة متواضعة هى بتسلو .

وفى صيف ١٩٨٩ نظمت المعارضة المجرية اجتماعا لاجراء محادثات مع الحكومة التى يسيطر عليها الاصلاحيون من الشيوعيين ، حيث تم الاتفاق على اجراء انتخابات حرة فى ١٩٩٠ . ان الانتقال للنظام المتعدد الاحزاب أصبح أمرا حتميا لابد أن يقبله كلا الجانبين أى أحزاب المعارضة ، والحزب الاشتراكى المهيمن ، الا أن العلاقة بين أحزاب المعارضة لم تكن دائما علاقة منسجمة • وفى الحقيقة لقد عبر الديمقراطيون الأحرار عن استيائهم من ممثلى المنبر الديمقراطى لأنهم أجروا مفاوضات مبكرة ويائسة مع بوتز جاى ومعاونيه دون دعوة المجموعات السياسية الأخرى ، وتم عقد اجتماع فى مونور Monor حيث طرح بوتز جاى وزعماء حركة المنبر الديمقراطى الصاعد الامكانات المتاحة لاقامة حوار فى المستقبل .

وفى صيف ١٩٨٩ فان الساحة السياسية فى المجر كانت فى حالة من التناحر والتأرجح بين الشيوعيين البرجماتيين الذين التفوا حول كارولى جروتز والاصلاحيين الذين أقروا الحوار وأيديولوجية الديمقراطية الاجتماعية (نايرز وبوتز جاى) والديقراطيين الأحرار والمنبر الديمقراطى . ان الحزب السياسى المجرى الفريد من نوعه — وهو اتحاد الديمقراطيين الشبان FIDESZ كان التشكيل السياسى الوحيد الذى ظهر للوجود فى ربيع ١٩٨٨ وأقام مؤتمره فى خريف ذلك العام بعد رفض الاستبدادية للوضع القائم ونبذها المتعجرف لأى تسويات مع الجيل الجديد • وأثناء مؤتمره الأول حدد اتحاد الديمقراطيين الشبان السن المطلوبة للعضوية ، وأجاز لهؤلاء الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والعشرين والخامسة والثلاثين فقط الانضمام للحزب . وأعلن الاتحاد فى برنامجه السياسى عام ١٩٨٨ ضرورة انضمام المجر للكميونة الأوربية • ولأنه اضطلع على نحو متزايد بدور نشط فى المجتمع المدنى المجرى ، فان اتحاد الديمقراطيين الشباب تحسب لأية مؤامرة تستهدف

حله ، ومن ثم كانت الحركة جزءا من موجة شرق أوربية صاعدة تناضل فى سبيل الحقوق المدنية وترفض أن تختزل الصراع الى مجرد صراع سياسى بحت :

« ان اتحاد الديمقراطيين الشبان ينأى بنفسه عن مقولة أن النوبة المرضية التى انتابت السلطة كافية لخلق الديمقراطية • اننا لا نعتقد بأن أى تنظيم جديد يرغب فى الفوز بالسلطة سوف يضمن احترام المبادىء الانسانية وحقوق الانسان • ان حماية الديمقراطية ، وأقصى ضمان لها بل وضمانها الوحيد بعيدا عن سيطرة الدولة يتمثل فى مجتمع ذى ثقافة ديمقراطية سياسية ، ونعتقد أن وجود الأحزاب التى تتنافس من أجل الهيمنة على حياة الأمة ضرورة ولكنها ليست ضمانا كافيا • لا يجب أن نتمسك بالسلطة ولكن لابد أن يكون لنا هدف من وراء التنظيم المبشر لأنفسنا بأمل أن يكون المجتمع الذى ولد من جديد والذى يتكون من كوميونات قادراً على انتخاب حكومته » •

وأعلن الاتحاد ، تأكيدا على التزامه بفكرة البنى الجديدة ، رفضه لأى شكل من أشكال العنف أو الطرق الديكتاتورية الارهابية :

« لقد وصلنا لنقطة لا بد أن ننظم فيها دفاعاتنا وبسرعة ودون تغيير موقفنا من الممارسات السياسية للسلطات التى هى عدو للمجتمع • ونحن نعترف بأن أكثر الأدوات فاعلية ضد السياسات الظالمة التى تخدم مصالح السلطة هى الطريق الديمقراطى فى التفكير والتنظيم وفى عملنا من أجل مجتمع قادر على بناء نفسه وخلق سلطته الحاكمة التى ستقف خلف خطوط دفاعية وهى الاستقلال الخارجي والمعتقدات الأخلاقية وكذلك التضامن ــ الذى لا يمكن فصمه ــ مع بعضنا البعض وهو شىء أصبح فى متناول أيدينا » •

وانعكاسا للفلسفة الأخلاقية لحركات المعارضة البولندية عبر اتحاد الديمقراطيين الشبان عن اعتقاده بأنه :

« ليس هناك هدف اجتماعى ذو قيمة أعظم من هدف ضمان حياة سلمية وحرة ومستقلة للمواطنين » (٣١) •

وأثناء الاحتفال باعادة تأبين امرى ناجى فى بودابست ، برز ممثلو اتحاد الديمقراطيين الشبان عن كل الرموز السياسية الأخرى بموقفهم الثابت المعادى للشيوعية ورأى فرنك كوتزج Frenc Köszeg المتخصص فى علم الاجتماع والذى كان محرراً فى جريدة بتسلو وأصبح أحد الأعضاء التسعة فى قيادة ائتلاف الديمقراطيين الأحرار انه لا يجب

اعتبار الحزب مجرد ناد يلتقى فيه المفكرون وقال كوتزج فى أحد حواراته الذى اجرى فى يناير ١٩٨٩ :

« صحيح أن بعض المفكرين المشهورين أعضاء مؤسسون للاتحاد ولكننا قادرون دائما على استقطاب أناس آخرين ، وعمال مؤهلين وعلى سبيل المثال ... فان عضويتنا بلغت ثلاثة آلاف الا انها اخذت فى التزايد خلال الشهور القليلة الماضية منذ أن بدانا فى طرح برنامجنا السياسى على الجماهير ـ ان الديمقراطيين الأحرار هم الممثلون الرئيسيون للمعارضة الديمقراطية التى حظيت باحترام الناس لأنهم وجهوا النقد للنظام القائم . وأريد أن اقول ان الديمقراطيين الأحرار هو حزب للمفكرين الراديكاليين كما انه حزب للجماهير الغاضبة ، وحزب لهؤلاء الذين يأملون حقيقة فى التمتع بانجاز التغييرات الراديكالية التى تبدو بعيدة المنال » (٣٢) .

ويعتقد كوتزج أن قوة المنبر الديمقراطى اخذت فى التزايد بين الطبقة الوسطى العريضة فى المدن الاقليمية ، خاصة بين هؤلاء الذين أنكرت عليهم الدولة ترقياتهم الاجتماعية بسبب رفضهم للالتحاق بالحزب الشيوعى ، الا انهم كانوا بلا شك جزءا من البناء الاجتماعى .

*** انهيار جمهورية المانيا الديمقراطية : مرحلة انهيار الشيوعية التشيكوسلوفاكية :**

لقد اتخذت الحكومة المجرية فى سقوط ١٩٨٩ خطوة غير مسبوقة عندما سمحت للسياح الألمان الشرقيين بالمرور عبر النمسا Austria وهم فى طريقهم لوطنهم ، ومن ثم نكث النظام المجرى بوعده ونقض معاهدته مع المانيا الشرقية بعدم السماح للمواطنين من جمهورية المانيا الديمقراطية بمغادرة المجرد لبلد غربى وبالتالى فتح الطريق لنزيف ديموجرافى سوف يحطم الاقتصاد الألمانى الشرقى ، ومع تواجد مائة الف سائح المانى شرقى على أرض المجر اعتبر قرار حكومة نيمث بازالة حواجز الاسلاك الشائكة فى نقطة العبور مع النمسا ضربة قاضية لسياسة النظام الألمانى الشرقى فى انكاره حق شعبه فى الهجرة .

لقد أصبح الموقف أكثر تعقيداً عندما تجمهر معظم السائحين من الشبان الألمان الشرقيين أمام سفارة المانيا الغربية فى براغ ، ولأن تشيكوسلوفاكيا كانت واحدة من البلدان القليلة التى يمكن للألمان الشرقيين عبور حدودها دون جواز سفر ، اصبحت براغ مدينة تستقطب الشباب الألمانى الشرقى الساخطين . وابدى نظام جاكس ـ على

عكس المجريين — تعاطفا مع الحكومة الالمانية الشرقية وهي تواجـه هذا المأزق ولكن لم يكن بيده عمل شيء لوقف هذه الموجة العاتية من الجماهير الألمان الشرقيين الذين اندفعوا أفواجا لسفارة المانيا الغربية في براغ ، ونظمت مواعيد خاصة للقطارات التي ستقل الألمان الشرقيين عبر المانيا الديمقراطية لألمانيا الفيدرالية التي واجهت فيضا غير متوقع من النازحين الجدد الذين يعدون — وفقا للدستور الالماني الغربي مواطنين ألمانا لهم حقوق وامتيازات المواطن الألماني الغربي ·

ولسخرية الأقدار، فان هذه الأزمة تزامنت مع الاستعدادات التي اتخذها نظام هونكر للاحتفال بالذكرى السنوية الرابعة عشرة لقيام جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، فكان واضحا أن النظام يمر بأزمة حقيقية وعميقة · ولقد قوضت النزاعات مع الاتحاد السوفيتي ومعارضة التورط في اصلاحات محدودة دعائم السلطة الشيوعية · ورأى هونكر ومعاونوه أن التعامل مع التغييرات التي تتم في موسكو كانت اكثر صعوبة من التعامل مع ما يجري من أحداث في بقية بلدان أوربا الشرقية بسبب اعتماد المانيا المباشر على الدعم السوفيتي العسكري والاقتصادي .

وقد واجه فريق هوكسا وجاكس في تشيكوسلوفاكيا مأزقا شبيها بمأزق هونكر ؛ لأنهم وصلوا للسلطة كنتيجة مباشرة للتدخل السوفيتي في هذا البلد في اغسطس ١٩٦٨ .

ومنذ أن تغيرت نظرة السوفيتيين لربيع براغ فان الشيوعيين التشيكوسلوفاكيين وجدوا انفسهم معزولين سياسيا ، ومحرومين من الدعم الداخلي والخارجي ، ومن ثم تمكن زعماء الحركة الاصلاحية الذين تم استبعادهم من العودة للمسرح السياسي ثانية كأبطال لاستراتيجية الاشتراكية ذات الوجه الانساني وكان الكسندر دوبتشيك واحدا من الذين قضوا سنوات النفي خارج البلاد ، ورفض الالتحاق بحركات الحقوق المدنية السرية ، وقد اكد في حديث له أجرته الصحيفة الايطالية الشيوعية اليومية ليونيتا L'Unita في يناير ١٩٨٨ على المبادىء الأساسية لحركة الاصلاح التي قمعها السوفيتيون وامتدح علانية سياسية الجلاسنوست التي يتبناها جورباتشوف كما أكد على وجود تشابه بين المصادر الأساسية للالهام في حركتي الاصلاح وقال :

« لو أن جورباتشوف كان في السلطة في عام ١٩٦٨ لما فكر في اللجوء للتدخل السوفيتي » (٣٣) .

وفي أبريل عام ١٩٨٩ وقع حدث عرضي اذ بث التليفزيون المجري الذي تسيطر عليه الحكومة على الهواء مباشرة حديثا لدوبتشيك الذي

لا يعتبر رسميا شخصية مهمـــة فى وطنه حيث ناقش مرة أخرى حقـائق أزمة ١٩٦٨ التى تكمن فى جمود برجينف ومعاونيه فى بلدان حلف وارسو الأخرى .

ان مغزى المقابلة التى أجريت مع دوبتشيك عبر شاشة تليفــزيون بودابست تكمن فى حقيقة أن المجـر قد مارست عمــلا عســكريا ضـــد حكومة تشيكوسلوفاكيا الشرعية فى أغسطس ١٩٦٨ وهى الآن بصدد اعادة النظر فيه .

وتحدى دوبتشيك الخط الرسمى لنظام هوساك وجانوس الذى ادعى أن التدخل الأجنبى كان لا بد منه بسبب تصاعد القوى المعادية للثورة تحت قيــادة دوبتشــنك :

« لم يكن هناك [illegible] مضادة للثورة بل لم يكن هناك أية قوى يمكن أن تمثل خطرا حقيقيا على الاشتراكية مهما كانت ، واذا وجــدت فاننا نعــــلم أن أســــوأها هى دوجمـــاتية برجنيف . انهـــا الخطــــر الوحيد على الاشتراكية والتى تضعف مواقف الحزب والحركة والدولية الشيوعية والديمقراطية الاجتماعية والأحزاب الاشتراكية اليسارية . ولماذا ؟ كى تخدم الخط الحزبى الذى لم يكن منسجمــا مـــع مصـــالح الديمقراطية والاشتراكية والشعب » (٣٤) .

ان رد فعــل الحكومة تجــاه اصلاحيى ربيع براغ اعتبره المستفيدون من الاحتلال العسكرى لتشيكوسلوفاكيا ١٩٦٨ فالا سيئا ، وقـــد كان كذلك كما سفهت وسائل الاعــلام التشيكوسلوفاكية الرســمية محــاولة عودة دوبتشيك للساحة السياسية ، حيث وصفته بأنه سياسى مبتز ومغامر ومرتد .

لقد هاجم الدوجماتيون فى براغ دوبتشيك هجــوما شــديدا بسبب الرعب الذى أصابهم ، لأنهم توقعوا أن يعيد الاتحــاد الســوفيتى النظــر فى قرار ١٩٦٨ الخاص باستخدام القوة العسكرية ضد حركات الاصلاح التى تشبه ـــ جوهريا ـــ ما قام به جورباتشوف نفسـه ؛ وقد اعتبرت رود برافو Rude Pravo صحيفة الحزب اليومية ظهور دوبتشيك عــلى المسرح السياسى وهما وجنون عظمة لســياسى فاشــل ولم ترد فيها أيـــة اشارة بأن الزمن يتغير وأن السوفيتيين انفسهم تخلوا عن الوهم الدولى الذى برروا به النهاية المروعة لربيع براغ :

وما زال دوبتشيك يعتقد بانه يســـتحق ان يوصف فى كتب تاريخ بلدنا كاصلاحى مستنير للاشتراكية وان طرده من الحزب كان خطا فادحا ويرى أن الوقت قد حان لتصحيح هذا الخطا . وعلى اية حال فان تزييف

التاريخ يعد شيئا محتمــلا ولكن تغييره شيء مستحيل · ان عهـده الذى يسجله التاريخ سيظل يوصف على انه نظام راسه رجل شجب المبادىء العامة للماركسية اللينينية وضرب بالمبادىء والاشتراكية عرض الحائط وخان مصالح شعبه . وسيظل والى الأبد مجرد رجل قاد حزبنا وامتنا لحافة الهاوية » (٣٥) ·

ورغم نبرة الصلف التى اتسمت بها هذه التحذيرات فان المحافظين فى براغ أدركوا أن زمنهم قد ولى ، وتبخر اجماع الراى فى حلف القمة التشيكوسلوفاكى نظر لتداخل وغموض الاشـــارات التى قـدمت من موسكو ، بل ان رئيس الوزراء السابق ليوبومير ستروجال Lubomir Strougal الذى كان واحـدا من واضـعى سـياسات ما قبـل ١٩٦٨ الخاصة بالحيادية طالب باجراء اصلاحات عاجلة ، واشـــار خـلبفته ليديسلاف اداملك Lydislav Adamec الى الحاجة لتجدبد قيادة الحــزب واستيعاب دروس الماضى والاستفادة من اخطائه .

وفى اكتوبر ١٩٨٩ كان اعتماد نظام المانيا الشرقية الوحيد عــلى الدعم التام الذى قدمه الزعيم الشيوعى نيكولا شاوشيسكو الذى شارك فى الاحتفالات التى نظمت فى برلين الشرقية لتمجيد انجازات نظام هونكر الا أن الزعماء التشيكوسلوفاكيين واجهـوا معارضــة علنيــة متزايدة · وفى بلغاريا حاول تيودور جيفكوف يائسا أن يبقى على السلطة ، بينمـا كان زملاؤه يدبرون بالفعل مؤامرة بيزنطية لازاحته بشكل مشين فى غضون شهر واحد ، أما جورباتشوف فقد ذهب الى برلين الشرقيــة ليخبر هؤلاء الذين يتلكأون فى تحقيــق الاصلاحات بأنهم سوف يدفعون ثمن محافظتهم غاليــا ·

وبدا واضــحا أن اللجنــة المركزية تواجه ـ رغـم المســيرات والمواكب المبالغ فيها تحديا من حركة الغضب والسخط المتزايدة التى استمدت قوتها من جماعات غير رسمية ، سلمية ، أيكلوجية ، ومدافعين عن حقوق الانسان كانت الحكومة قد اضطهدتهم الا أنهم احتموا بــدرع واق ممثــلا فى الكنيسة اللوثرية الألمانيــة الشرقيــة Lutheran Church وكان النظام ما زال قادرا على اســـتخدام القـوة ضـــد المسيرات التى تتزايد فى الشوارع ، وفى يونيو ١٩٨٩ كـــان اريك هونكــر ونيكولاى شوشيسكو همــا فقط الزعيمين الشرق أوربيين اللذين قـدما التهنئـــة للشيوعيين الصينيين لردعهم مظــاهرة الميــدان الســماوى Tienanmen Square ، وبما عــرف عن هونكر من عنت وصلف فقـد تم التحـذير من خطر اراقة الدماء فى جمهورية المانيا الديمقراطية . وفى برلين الشرقية

اصطدم المتظاهرون في مدينتي دبسك ودرسدن بقوات البوليس · واستخدم البوليس الهراوات لتفريق المتظاهرين وهددهم بخراطيم المياه · ورغم الرعب الذى حاول النظام بثه فى قلوب المتظاهرين ، فقد استمروا فى اعلان احتجاجهم ضد الديكتاتورية الشيوعية · وقد عمت الفوضى بين الجماهير لوجود جورباتشوف فى الاحتفالات الرسمية واختلطت شعاراتهم التى رددوها عن الحرية بندائهم « جوربى جوربى ! » ونظمت العديد من المظاهرات ووقف البوليس لدهشته مكتوف الأيدى ازاء تصاعد الغضب الشعبى . لقد تكون المنبر الجديد New Forum — الحركة التى رأسها منشقون سابقون — لتعبر عن المطالب الرئيسية للشعب ، ولأن الاتحاد السوفيتى لم يشجع استخدام العنف لردع الاضطراب فقد كان واضحا أن الحزب الحاكم لم يكن أمامه أى بديل سوى التضحية بالمتشددين وجزل الوعود باطلاق العنان لاصلاحات فورية .

واستمرت الحركة الشعبية المطالبة بحقوق الانسان والقضاء التام على النظام السياسى فى جمع زخمها ، وبلغت حقبة تاريخية بأكملها نهايتها وذلك فى ١٨ أكتوبر عندما عزلت اللجنة المركزية الستالينى أريك هونكر وانتخبت ايجون فرنز Egon Frenz الذى كان بيروقراطيا حزبيا لواحد وعشرين عاما متتالية ، وكان الساعد الأيمن السابق لهونكر ليحل محله · لقد كان اختيار اللجنة لفرنز اختيارا أحمق وغير مقنع ؛ لأن الجميع كانوا يعرفون أن فرنز كان مسئولا مسئولية مباشرة عن الحملات المضادة للانشقاق فى الأعوام السابقة كما قام أيضا بتزوير الانتخابات المحلية التى أجريت فى مايو ١٩٨٩ · وفى البدء حاول فرنز أن يسكن الغضب الشعبى بالقاء اللوم على الأزمات الجارية وعلى فشل القيادة السابقة فى القيام باصلاحات شافية . وفى أول خطاب جماهيرى له كسكرتير للجنة المركزية أعلن فرتز :

« لقد اتضح اننا لم نكن واقعيين عندما أسأنا تقدير التطورات الاجتماعية التى حدثت فى بلدنا فى الشهور الأخيرة ، ولم نتوصل للاستنتاجات الصحيحة وبسرعة كافية . اننا نعلم خطورة الموقف . ولكننا ايضا نشعر وندرك الفرصة الأساسية التى اعطيناها لأنفسنا لتحديد سياسات الحوار مع مواطنينا ، السياسات التى سوف تحملنا الى اعتاب مرحلة جديدة » (٣٦) .

ولكن كلمات فرنز المسكنة جاءت متأخرة وكان لها صدى هيبوقراطى وذلك لأن صحوة المجتمع أخذت فى التزايد على نحو أكثر سرعة وأكثر راديكالية من أى اصلاحات شيوعية يمكن توقعها .

ونظراً لما أصابهم من رعب وارتباك فان زعماء اللجنة المركزيـة لم يستطيعوا مواكبة راديكالية الجماهير المستنيرة ٠

ان ما حدث فى جمهورية المانيا الديمقراطية اثار دهشة حقيقيـة اذ بدت الأمة منذ شهور قليلة فقط وكأنها أصـيبت ـ سياسيـا ـ بالشلل ، مع قليل من المعارضة التى حاولت تحدى جهـاز البوليس الضخم ، ونشرت جريدة غربية فى اغسطس ١٩٨٩ مع بداية الهجـرة الجماعية التى أدت الى تأزم الموقف فى ألمانيا الديمقراطية هذه المقالة :

((نستطيع أن نقول ان وجود المانيا الغربية يساعـد فى تدعيم وتقوية الأنظمة البالية ٠ لقد كان من السهل دائما على الألمان الشرقيين ان يبعثوا بالمنشقين ومثيرى المشاكل الى الغرب للتخلص من معارضتهم لأنظمة بلادهم ، لذا لم توجد معارضة داخلية نشطة فى ألمانيا الشرقية ، **ان النقد الشعبى الوحيد للنظام ـ وان كان حذرا ـ قامت به الكنيسة البروتستانتية Protestant Church والتى قدمت المأوى لحفنة ضئيلة من الجماعات الصغيرة فى المدن الكبرى ، الا انها لم تكن تحلم بتحدى النظام)) (٣٧) ٠**

لقد بنى الوجود الفعـلى للبلد ، على أسـطورة أيديولوجية وأى محاولة لتغيير هذا الأساس سوف يدمر مستقبلها ٠ واذا كانت المجـر وبولندا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا اصلحوا من انفسهم لدرجة التخلى عن الاشتراكية ، الا ان ذلك لم يكن يعنى فنـاءهم التـام ٠ أما جمهورية المانيا الديمقراطية فقد رأت أن احتضان مثل هذه الاصلاحات سيفنى دولتها لانها استمدت كيانها من تقسيم العالم لكتلتين متناحرتين ٠

وعندما تحولت الحرب الباردة لعمل بال فقـدت جمهورية ألمانيا الديمقراطية كل مبرر لوجودها ٠ ان هذا الموقف الفريد لم يختصره أحد الأيديولوجيين الأفذاذ ، وهـو أوتا رينهولد Otta Reinhold لمجـرد مصطلحات سياسية ، ففى عام ١٩٨٩ اجرى أوتا حديثا مع احـدى محطـات ألمانيا الشرقية أوضح فيـه أن قضية الكيان الاشتراكى كانت قضية جوهرية بالنسبة للوجود الأول لجمهورية المانيا الديمقراطيـة كدولة منفصلة تقع فى قلب اوربا ، ورأى ـ مثل اللجنة المركزية ـ ان جمهورية المانيا الديمقراطية ((مجرد بديـل للجمهوريـة الفيدراليـة Federal Republic وهو البديل العادى للفاشية والاشتراكية)) (٣٨) ٠

وقد أبدت اللجنة المركزية معارضتها للوصايا السوفيتية الخاصة باتباع نهج اصلاحى حتى بدأت أزمة أكتـوبر ورفض هونـكر فى ديسمبر ١٩٨٨ كل الاقتراحات الخاصة ، بمحاكاة حزبه سياسية الجـلاسونست

السوفيتية ورأى انه لا يحتاج لأى بروسترويكا فى جمهورية المانيا الديمقراطية كما رفض مجدداً الدعوة **« للانحراف عن نهجنا ومسيرتنا الى الاستبدادية »** (٣٩) . وفى خطابه الى الجماهير ، نبذ الأيديولوجى الرئيسى **للجنة المركزية كيرت هاجر** Kurt Hager فكرة اتخاذ الاصلاحات السوفيتية كنموذج يحتذى **« لان تعليق جيرانك لورق حائط جديد لا يعنى انه يجب عليك تقليدهم »** (٤٠) . وفى أبريل ١٩٨٩ بذل هاجر الذى خدم النظام عقودا طويلة ككلب حراسة للأرثوذكسية اللينينية أقصى جهده لاقناع جمع من مؤرخى الحزب والعلماء الاجتماعيين بضرورة التأكيد على خصوصية نموذج الاشتراكية الذى تتبناه المانيا الشرقية وكانت كلمته التى انتقد فيها « التفكير الجديد » السوفيتى بصدد السياسة الخارجية التماسا عاطفيا مؤثرا للحفاظ على استقرار النظام الألمانى الشرقى فقال :

« ان تاريخ الاشتراكية فى جمهورية المانيا الديمقراطية يؤكد على ان النظام الاشتراكى الاجتماعى يتمتع بمزايا مهمة ، واذا تحدثنا عن « الاشتراكية فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية » فان هذا يعنى اننا نتبع طريقا فريداً خاصا بنا او يعنى تطبيقنا للماركسية اللينينية وفقا لظروفنا ، وان الاشتراكية فى المانيا الديمقراطية قد اكتسبت سمات متسقة مع عاداتنا ومقدماتنا وتجاربنا وامكاناتنا . واذا تحولنا لعصا فى يد اشتراكية تستخدم لتحقيق سياسة امبريالية واذا تحدينا الوضع الامبريالى لالمانيا ، فسنجد انفسنا نخوض صراعاً فريدا من نوعه » (٤١) .

وفى نفس الفترة ، فان مارجوت هونكر Margot Honecker زوجة السكرتير العام ووزيرة التعليم الشعبى لم تخف استياءها من نهج جورباتشوف الجديد الذى اعتبرته تهديدا مباشرا لمستقبل الاشتراكية . ورأى ائتلاف اللجنة المركزية ضرورة الابقاء على الاحساس بالخطر القومى القادم من الشرق والغرب حتى لا تتزعزع استقرار الوضع القائم . وعبرت مارجوت عن القلق المتزايد المتفشى بين شريحة عريضة من الأعضاء الحزبيين فى جمهورية المانيا الديمقراطية فى خطاب مشتعل (وتحذيرى) فى الكونجرس البيداجوجى فى المانيا الشرقية فى يونيو ١٩٨٩ :

« حقيقة أن كل القوى المعادية للاشتراكية قد برزت ثانية — وسوف يفعلون ذلك مرة تلو الأخرى لعرقلة مسيرة الاشتراكية بل ولتخطيها وهذا ما يجب أن يفهمه شبابنا . لا بد أن نبصرهم بذلك حتى يفهموا أن الوقت لم يحن لانهيار جيوشنا ، وان زمننا هو زمن ملىء

بالصراع وانه بحاجة لشباب يقاتلون فى سبيل الاشتراكية ويعملون من أجلها ويدافعون عنها بالقول والفعل واذا لزم الأمر بالسلاح » (٤٢) .

ولقد تورط كرنز نفسه فى كل الحملات السابقة المعادية للاصلاح وحاول أن يحول دون صعود الحركات الجماهيرية التى تطالب بالديمقراطية ولكنه يبدو الآن كاصلاحى جديد وعدو لدود للفساد ومحافظة القيادة السابقة ، كما وعد بتحرير ليبرالى فورى ولكنه أعلن مؤكداً أن الاشتراكية « لا تفاوض عليها » ولا مساومة .

وكان واضحا بالنسبة لكرنز وكل قيادة اللجنة المركزية أن التنازلات الجوهرية التى ستسمح باجراء مفاوضات حرة ستودى بالنظام وبجمهورية المانيا الديمقراطية . وعبر أحد الصحفيين من المانيا الغربية عن رأيه فى هذا الصدد قائلا :

« ان الاشتراكية البروسية Prusso هى فقط التى تستطيع دعم مطالبة برلين الشرقية بدولة منفصلة . دعها تمر ، ولن يكون هناك أى مبرر لبقاء المانيا الشرقية . اسمح باجراء انتخابات حرة اليوم لتحتفل بالوحدة مع المانيا الغربية غدا » (٤٣) .

وظلت كل القوى فى حركة دائبة تستلهمها من اصلاحات جورباتشوف والتغيرات التى تتم فى الاستراتيجية السوفيتية الدولية ومن التخلى عن عقيدة برجنيف ، مما وضع زعماء المانيا الديمقراطية أمام خيار وحيد لابد أن يتبعوه وهو تخفيف الضغط على الجماهير وادراك حق المجتمع فى المشاركة فى الحكومة ، وكلما استجابت الحكومة لمطالب المحتجين ، أصبحت المظاهرات أكثر جرأة وراديكالية .

وفى ٢٣ أكتوبر ١٩٨٩ خرج مئات الآلاف الى شوارع ليبتزج Leipzig مطالبين باجراء تغييرات ديمقراطية ، بما فى ذلك جعل الحركات المعارضة واتحادات العمال المستقلة جماعات رسمية ، ومطالبين كذلك بفصل السلطات بما فيها فصل الحزب الشيوعى عن سلطة الدولة . وفى نوفمبر خرج نصف مليون برلينى شرقى فى مظاهرة سلمية نظمها اتحاد الممثلين Union of Actors تطالب بحرية الرأى وبانتخابات حرة ، ووضع نهاية « للدور القيادى » للحزب الشيوعى والتخلى عن البوليس السرى البغيض Stasi حيث أطلق المتظاهرون الصفير والنكات الساخرة عندما حاول جونثر شابوفسكى Gunther Schebowski عضو المكتب السياسى ورئيس اللجنة المركزية فى برلين الغربية أن يلقى عليهم خطابا ، وما بدأ فى اكتوبر

كتمرد جماهيرى تلقائى ضد الطغيان والظلم تحول الى ثورة سياسية أعربت بوضوح عن رغبتها فى التخلص التام من النظام القائم .

ان انفجار الغضب واليأس بألمانيا الشرقية لم يكن فى الامكان احتواؤه فقدم المكتب السياسى فى ٧ نوفمبر استقلته ، وفى ٩ نوفمبر وقع حدث هائل عندما حطمت الجماهير سور برلين ، واحتفلت العامة بنهاية عهد الخوف والشك والرعب وغمرت الجماهير فرحة ونشوة عندما وجه المستشار هيلموت كول Helmut Kohl خطابه لجمع غفير من مواطنى برلين الشرقية وبرلين الغربية الذين تجمعوا خارج ساحة مدينة برلين الغربية حاملين أعظم المشاعر فقال لهم :

((اريد أن أصرح فى كل جمهورية المانيا الديمقراطية باننا نقف فى جانبكم لقد كنا وما زلنا أمة واحدة ، اننا ننتمى لبعضنا البعض)) (٤٤) .

وحاول كرنز بعد فتح الحدود وازالة الحرس القديم فى اللجنة المركزية تغيير جلده والتلون بما يناسب رياح التغير فأعلن عن عزمه اجراء اصلاحات جوهرية وأعلنت اللجنة المركزية فى احدى جلساتها الكاملة الأعضاء برنامج الحزب الجديد **الذى تضمن انتخابات حرة ديمقراطية وباقتراع سرى ، وتوجه الاقتصاد نحو آليات السوق ، وفصل الحزب عن الدولة ، ومراقبة برلمانية على أمن الدولة ، وحرية الاجتماع ، وقانون جديد للصحافة والاعلام** (٤٥) . وأخذت جمعيات وجماعات جديدة فى التشكل ودخلت الحياة السياسية فى المانيا الشرقية مرحلة جديدة من الاختمار الرائع وتخلصت الأحزاب الديمقراطية والديمقراطية الليبرالية التى لم تستقل بذاتها أبداً — من زعمائها المتعاونين مع العدو ، كما أكدت على استقلالها عن اللجنة المركزية . وفى نفس الوقت التف عدد قليل من الاصلاحيين داخل اللجنة المركزية حول زعيم حزب درسدن Dresden Party هانز مودرو Hans Modrow ودفعوا فى اتجاه تعديل كل من زعامتى الحزب والحكومة مرة أخرى .

وفى ١٣ نوفمبر أصبح مودرو رئيس الوزراء الجديد . وفى محاولة يائسة من اللجنة المركزية لاستعادة مصداقيتها أطلقت العنان لبرنامج اصلاحى شامل . الا أن المظاهرات استمرت هذه المرة ، اثر الكشف عن المستويات المعيشية العالية والبذخ التى تمتع بهما فريق هونكر واثر فضح فساد الطبقة السياسية التى طالما وعظت الجماهير بفضائل التقشف الاشتراكى ، وكشفت الصحافة الألمانية الشرقية الليبرالية فجأة طبيعة الحياة المترفة التى عاشها هونكر والزعماء السابقون ، وكان هذا الاكتشاف من أشد الصدمات التى تلقاها الألمان الشرقيون قسوة

لأنهم اعتقدوا بأن وسائل دعاية النظام السابق التى تخدم مصالحه قد التزمت — رغم كل شىء — بقيم التعاونية والتكافؤ الاجتماعى . ورغم علم الجماهير بعداء زعماء اللجنة المركزية للحرية والديمقراطية الا أنهم كانوا على جهل تام بالامتيازات الهائلة التى تراكمت لصالح الاعضاء الحزبيين فى اللجنة المركزية · وتم الكشف عن ما يسمى وندلتز Wandlitz وهى مجموعة تتكون من ٢٣ منزلا تحت الحراسة المكثفة يتمتع فيهـا الزعماء السابقون بحمامات السباحة ويستهلكون سلعا ليست متاحة لعامة الشعب وغيرها من وسائل الترفيه المغالى فيها ولم يكن فى مقدور رعاياهم الا أن يحلموا بها فقط . ونشرت معلومات عن كهف الصيد الذى يملكه رئيس النقابة السابق هارى تتشـه Harry Tisch وعن تورط عضو المكتب السياسى السابق جوثر ميتـاج Guther Mittag فى مخالفات مالية سرية وهو ما استنزف أرباح العملة الصعبة من شركات ألمانيا الشرقية وعن تصدير آثار قيمة للغرب (٤٦) .

لقد أميط اللثام عن الصورة الحقيقية للقيادة الشيوعية التى أرهبت الألمان الشرقيين لعقود طويلة ، واكتشفت الجماهير مدى استهتارها وهو ما أثار الكرب والرعب والاحتقار بينهم .

وفى ٣ ديسمبر وتحت وطأة هذه الفضائح المخزية قدم فرنز ومكتب اللجنة المركزية استقالة جماعية . وبعد أسبوعين تم فضح الكوارث الاخلاقية والسياسية للجنة المركزية فى المؤتمر الطارىء الذى انخـرط فيه المفاوضون بتجريم القيـادة التى فرضت عليهم · وفى هذه المناسـبة اتهم البروفسير ميخـائيل تشومان Michael Schumann المؤيد للاصلاح وعضو أكاديمية العلوم الزعماء السابقين بخيـانة ثقة الحزب قائلا :

« ان بيروقراطيى المكتب السياسى ادانوا ثورة الشعب على انهـا مضادة للثورة وارادوا أن يقمعوها بالعنف والحقيقة ان البيروقراطيين هم الذين كانوا معادين للثورة » (٤٧) .

ولأن المناخ العام فى جمهورية المانيا الديمقراطية عزز من شأن اعادة الوحدة بين الألمانيتين ، فان الشيوعيين وجـدوا أنفسـهم فى مأزق حرج ولم تكن لديهم أية نية رغم تبنيهم لأكثـر الاصلاحات دراماتيكية فى الاستمرار فى هذه الاستراتيجية . وبعد أن افتضح أمر القيادة السابقة وافشيت أسرار فسادها شوهت صورة الاشتراكية المثـالية حتى فى عيون هؤلاء الذين آمنوا بالماركسية اللينينية وناضلوا من أجـل الحفاظ على جمهورية المانيا الديمقراطية . وكان الحل الوحيد بالنسبة للحزب هو تغيير اسـمه والقيام بتطهير كامل لأجهزته · فاصـبح اسـم الحـزب

الجديد هو حــزب الوحدة الاشتراكية للحــزب الألمــانى الاشــتراكى الديمقراطى Socialist Unim Party of German-Party of Democratic Socialism وهو ما يشير بوضوح الى أن قيم الاشتراكيه ذات الوجه الانسانى هى ما سوف يتبناه الشيوعيون فى ألمانيا الشرقية فى نهاية الأمر. ان الاسم الجديد كان انتصارا أخيرا وحاسما للتعديلية داخل التشكيل السـياسى الذى كان يعارض أى شـكل من اشـكال الديمقراطية . وانتخب مؤتمر الحزب جريجور جياسى Gregor Gysi المحامى الذى يبلغ من العمر واحدا وأربعين عاما كرئيس جديد للحــزب ، وبدأ جياسى فى ممارسة مهام منصبه فى بداية شهر ديسمبر ، عندما اختير لرئاسـة لجنــة أقامها الاصلاحيون فى اللجنة المركزية السابقة ؛ لتقصى حقــائق الجـرائم التى ارتكبها الزعماء السابقون. لقد أهله تاريخه النزيه لموقع قيادىفى الاحزاب الديمقراطية الصاعدة فى هذا البلد اذ كان جياسى الابن الأكبر لأحــد المتمرسين الحزبيين والذى خدم فى الستينيات كوزير للثقافة وعــرفة جيدا بدعمه الصامد دائما للمعارضة ، كما شــارك ـ باخــلاص ـ فى هيئة الدفاع أثناء محاكمة المنشقين والمعارضين ذوى الضمائر الحيـة ومثل المنبر الجديد New Forum لجماعة المعارضة عندما كانت الجماعة تنشد اعترافا رسميا بها فى شهرى سبتمبر وأكتوبر بعد أن اعتبـرتها السلطة « عدوا للدولة » وأتى جياسى بكل مكانته وهيبته ، مطالبا بالتعددية وحقوق الانسان فتحمــل عبء تحسين صورة الحزب التى شــوهت . ولكن لماذا قبــل جياسى هذه المهمة الانتحــارية ككابتن لسـفينة الاشتراكية الألمانية الشرقية التى توشك على الغرق ؟ الا أن الاجابة ظلت لغــزا ، والتفسير الوحيد هو أن جيــاسى نفسه كان منتهى أمله كيســارى مخلص انقاذ ما يمكن انقاذه من الأخلاقيات التى تحولت لنفايات مع حكم الحزب الشيوعى .

وفى الشهر التــالى على تصدع سور برلين تقلصت عضوية اللجنة المركزية من ٢٣٠ر٠٠٠ الى ١٨٠ر٠٠٠ وظهــر اتجــاه عــام يرمى الى حلها . ورأى جياسى أن اللجنة المركزية لا بد لها حقيقة أن تتخلى تماما عن الارث الستالينى وتلزم نفسها بمبادىء التعددية والديمقراطية كما نادى باجراء تغيير حقيقى فى كيــان الحزب كى يصبح « البيت الطبيعى للاشتراكيين الديمقراطيين وليس حزب الطبقة أو حزب الجماهير » . أن هذه الفلسفة كانت النقيض تماما للمفهوم البلشفى عــن الحــزب الشيوعى، الحارس الأمين الذى يملى على الجماهير خياراته الأيديولوجية الخاصة دون أى اعتبار لحاجات الجمــاهير وعذاباتهم الحقيقية ، وقبــل جياسى أيضــا مبــدأ المنافســة مع الأحــزاب السـياسية الأخرى كأحــد

المكونات الطبيعية لمجتمع مفتوح . وكنتيجة لهذه التنازلات الجوهرية حدا الأمل بالحزب الاشتراكى كى يحسن صورته ، ويبقى قوة سياسية مؤثرة حتى فى الفترة التى تلت الانتخابات الحرة .

ان السخط الجماهيرى ، على أية حال ، كان فعالا فتحولت الدعوة لاعادة الوحدة بين الألمانيتين فى غضون أشهر لدعوة قومية ، وطالبت أحزاب المعارضة بالاسراع نحو التغيير • واجرى هانز مودرو رئيس الوزراء الشيوعى الذى افتقر لأية رؤية سياسية اصلاحات فى النظام ولكن دون حماس ، ومن ثم فشل فى اقناع الألمان الشرقيين بأن الدولة الألمانية الاشتراكية المنفصلة ما زالت لديها المبررات الكافية لتبقى على ما هى عليه بل ان المجموعات البديلة مثل المنبر الجديد والتى فضلت التقارب التدريجى بين الألمانيتين عن وحدة سريعة فقدوا ثقة الجماهير الألمانية بهم• ان غضب الجماهير نما فى شكل يتناسب مباشرة مع التسويف والماطلة التى قامت بها حكومة مودرو بصدد التخلص من البوليس السياسى السرى . لقد أدى تفجير الغضب الشعبى الى العصف برؤساء البوليس السرى Stasi . وانهارت الشيوعية فى ألمانيا الشرقية غير مأسوف عليها ، وحددت اقامة هونكر ومعاونيه انتظارا لمحاكمتهم بتهمة التورط فى جرائم سياسية واقتصادية .

ثورة تشيكوسلوفاكيا البيضاء التى فاقت بنجاحاتها كل التوقعات :

لقد ابتهجت الجماعات والحركات غير الرسمية فى تشيكوسلوفاكيا لسقوط الدولة البوليسية فى ألمانيا الشرقية ، واصطبغت المعارضة بالصبغة الراديكالية حتى يناير ١٩٨٩ عندما نظمت مظاهرات للاحتفال بذكرى زعيم الطلاب جان بالاخ Jan Palach الذى ضحى بنفسه منذ عشرين عاما سابقة وبذكرى اعتقال فيتسلاف هافيل وعشرات المدافعين عن حقوق الانسان فى محاولة من النظام لسحق الانشقاق الصاعد . وفى يونيو ١٩٨٩ نشر هافيل ورموز أخرى من المعارضة عريضة بعنوان « قليل من الكلمات » طالبوا فيها بالانتقال الفورى الى الديمقراطية . ونظراً لتزايد نفور الجماهير وعد نظام هوساك — وجاكس باصلاحات اقتصادية محدودة ولكنهم رفضوا الدخول فى حوار مع جماعات المعارضة التى تنتشر انتشار النار فى الهشيم . ان الموقف فى تشيكوسلوفاكيا كان فريداً من نوعه ، ونظرا لخلو الطبقة الحاكمة من الاصلاحيين الذين يمكنهم الدخول فى مفاوضات فورية مع المعارضة ونظرا لتفتت سلطة الحزب ، فان التوقعات باندلاع الاضطرابات كانت كبيرة • وفى نوفمبر

استخدمت الحكومة العنف لردع مظاهرة الطلاب وتحول رد السلطة العنيف على شكل من اشكال الاحتجاج المدنى السلمى لشرارة اشعلت الغضب الشعبى • وعمت الاضطرابات والاحتجاجات ارجاء الوطن •

ونظرا لغياب دعم الاتحاد السوفيتى ـ بل انه لم يبد حتى مجرد التعاطف تراجع الزعماء الشيوعيون فى تشيكوسلوفاكيا وتخلوا عن خيارهم الوحيد ـ اى الشروع فى اصدار اوامر عسكرية عليا بالتدخل والقمع للابقاء على السلطة وذلك لما عرف عنهم من قصر نظر وعجرفة الا أن البيروقراطيين أدركوا أن استخدام القمع سيسفر عن اراقة بحور من الدماء قد تثير السخط على الصعيد الدولى ، ولم يحذ زعماء تشيكسلوفاكيا حذو شوشيسكو فى رومانيا عندما استخدم منذ شهر مضى الجيش والبوليس لقمع المتظاهرين المجردين من السلاح فى تميشوارا وبوخارست Timisoara and Bucharest ولم يلجا زعماء تشيكوسلوفاكيا الى العنف لأنهم يدينونه ، ولكن لأنهم أدركوا أنه يتناقض مع الرؤية السوفيتية الجديدة •

لقد خسر فريق هوساك وجاكس ومعاونوهم السلطة التى وصلوا اليها باسم العقيدة البرجنيفية وانتهوا باعتبارهم اثرا من آثار « عقيدة سيناترا » ، وقرر الاتحاد السوفيتى السماح لكل دولة فى أوربا الشرقية أن تتبع طريقها الخاص فى الاصلاح . ونظراً لما واجهوه من تحقير قدمت القيادة الشيوعية استقالتها علانية فى ٢٥ ديسمبر ، واستبدل المتشدد ميلوس جاكس بكارل أربانيك Karel Urbanek رئيس الحزب السابق فى بوهيميا Bohemia الذى يبلغ من العمر ٤٨ عاما • وفى الحال أعرب رئيس الوزراء لاديسلاف أدامز ، الذى شارك فى المفاوضات مع زعماء المعارضة عن نيته لتقديم استقالته • ولأن التغييرات التى اجراها حلف وارسو لم تقنع أحدا لأنها كانت مجرد تجميل ، تجمع مئات الآلاف مرة أخرى فى ميدان ونسسلاس Wenceslas Square ليسمعوا خطاب هافيل ودسك حيث شجبا محاولات الستالنيين الجدد للحفاظ على السلطة « ان القيادة الجديدة كانت حيلة لاحداث الارتباك » (٤٩) • وكتعبير آخر عن نضج فى المجتمع المدنى رغم القمع الفظ الذى واجهته مظاهرات الطلاب قامت المعارضة بتكوين ائتلافين هما : المنبر المدنى Sivic Forum فى براغ والشعب السلوفاكى ضد العنف Slovakian Public Against Violence فى براتسلافا Bratislava . لقد قام زعماء ميثاق ٧٧ المحتفى بهم أمثال فيتسلاف هافيل وجبرى دينستبير Jiri Dienstbier وكذلك المفكرون الذين ينتمون للثقافة الرسمية بدور بارز فى انشاء المنبر المدنى ، واعلنوا فى وثيقة برنامجهم الذى صدر فى ٢٦ نوفمبر عن رغبة المنبر المدنى فى

اعادة بناء النظام السياسى والاقتصادى التشيكوسلوفاكى ، وفى فصل السلطات وتطوير اقتصاد السوق وتحريره من التدخل البيروقراطى ، وحماية البيئة ، وتعديل السياسة الخارجية مما يسمح لتشيكوسلوفاكيا باستعادة موقعها المهيب داخل أوربا والعالم :

« اننا نطالب بتغيرات جوهرية ودائمة فى النظام السياسى فى مجتمعنا · لابد لنا ان نعيد تقييم ، أو تجديد المؤسسات ونستخدم آليات ديمقراطية تسمح بمشاركة حقيقية للمواطنين فى الشئون العامة وفى نفس الوقت تصبح روادع فعالة ، تمنع السلطة السياسية والاقتصادية من ارتكاب أية حماقة · ان كل الأحزاب السياسية القائمة والأحزاب الحديثة التاسيس واية جمعيات سياسية واجتماعية اخرى لابد ان يكون لها الحق فى المشاركة على قدم المساواة فى الانتخابات الحرة للحصول على مقاعد فى الحكومة وهذا يتطلب ، على اية حال ، تخلى الحزب الشيوعى عن دوره القيادى الذى يكفله الدستور داخل مجتمعنا وكذلك التخلى عن احتكاره وسيطرته على وسائل الاعلام · وغدا لن يكون هناك ما يمنع حدوث ذلك » (٥٠) ·

وفى ٢٧ نوفمبر وقع اضراب عام أصاب البلد بالشلل التام ولم يكن أمام الحكومة خيار آخر سوى قبول مطالب المعارضة · ولم يعد فى مقدور الزعماء المحاصرين تحمل الضغط الشعبى فى تشيكوسلوفاكيا · وكاشارة الى تفكك تلاحم المجموعة الحاكمة اعربت رود براغو Rude Pravo الصحيفة اليومية عن أسفها لما أصاب اللجنة المركزية من عجز كما رثت « المياوات السياسية » التى كانت تعوق انفتاح النظام السياسى ولفتت الجريدة الانتباه لملحوظة جورباتشوف وألحت على الحزب للأخذ بمبادىء التعددية والاستعداد لاجراء « انتخابات ديمقراطية حرة » ·

وفى ٢٩ نوفمبر الغت الجمعية الفيدرالية Federal Assembly النص الدستورى الذى يكفل الدور القيادى للحزب الشيوعى · اذن ، فقد انفتح الطريق أمام التخلى التام عن البنية الهشة للسلطة التى فرضتها الدبابات السوفيتية فى عام ١٩٦٨ — وأصبح فيتسلاف هافيل بما عرف عنه من فطنة سياسية واضحة بطلا قوميا ، لقد وجدت الأمة بغيتها فى كاتب مسرحى بعيد عن الأضواء وسجين سابق اتى به المد التاريخى الى مقدمة الاجتياح الثورى ، انه نفس الرجل الذى اعتقل لمطالبته باحترام حقوق الانسان ولدفاعه عن هؤلاء المضطهدين ظلما وعدوانا ، وأصبح الآن الشريك الرئيسى فى المفاوضات مع هؤلاء الذين

زجوا به فى السجون . وبعد اجراء تعديلين وزاريين تشكلت فى ١٠ ديسمبر حكومة ائتلافية غالبية أعضائها غير شيوعيين . وفى ٢٩ ديسمبر انتخب فيتسلاف هافيل مؤسس المنبر المدنى ومهندس « الثورة الناعمة» رئيسا لتشيكوسلوفاكيا .

وفى ذات الوقت عقدت قمة حلف وارسو فى ٤ ديسمبر بموسكو ، واعترف الكرملين وحلفاؤه رسميا بأن التدخل السوفيتى فى تشيكوسلوفاكيا فى أغسطس ١٩٦٨ كان عملا غير شرعى . وكانت الوثيقة الختامية للقمة تحمل معنى التخلى النهائى والجاد عن عقيدة برجنيف واعطاء الضوء الأخضر للقوى الثورية فى الأقطار التابعة السابقة ؛ لتنطلق فى طريق الاصلاحات وأصبحت قضية تشيكوسلوفاكيا والمجتمعات السوفيتية الأخرى هى التخلص من آثار النظام السياسى والاقتصادى الذى فرض على الفرد اتاوة كبيرة دفعها من حريته . وأكد هافيل فى خطابه الذى ألقاه بمناسبة العام الجديد على ضرورة اعادة بناء الديمقراطية ، على أسس اجتماعية تنبذ الفساد والجمود ، كما شجب الخطاب الفساد الاقتصادى وتحطيم مشاعر الثقة الانسانية والتضامن والحط من قدر البناء الأخلاقى للمجتمع واعتبرها عللا سببتها الشيوعية وتراثها المشئوم .

« لقد بتنا مرضى على المستوى الأخلاقى فقد اعتدنا على قول شىء والتفكير فى شىء آخر . ان مفاهيم مثل الحب ، والصداقة ، والعاطفة ، والتواضع والعفو قد فقدت كل معنى لها ، اذ اعتبرها كثيرون منا دون مستوى الطبائع السيكولوجية لأنها فقدت منذ زمن طويل ما كانت تلاقيه من استحسان وهو شىء يثير الضحك فى عصر المركبات الفضائية والكمبيوتر . ان اقلية ضئيلة منا هى التى استطاعت التمسك ولم تصرخ باكية عندما ترى من لا يستحق يصل الى السلطة وعندما ترى المزارع الخاصة التى تزرع محاصيل خالية من الأمراض من اجل الحكام فقط ولا ترسل بانتاجها للمدارس ، وملاجىء الأطفال والمستشفيات ، ولأن الحال كان كذلك ، فان مزارعنا لم تكن قادرة على مد افراد الشعب بمنتجاتها الجيدة . ان النظام السابق ــ المسلح بالأيديولوجيا المتعجرفة والمتشددة، اختزل الانسان الىطاقة تنتج، واختصر العالم الى فائض من الانتاج . كما اختزل الموهوبين الذين يتمتعون بالارادة الحرة التى تمكنهم من حكم بلدهم ، الى تروس فى آلة كبيرة صاخبة ذات رائحة بغيضة ، تهدف الى حرمان الجميع من التمتع باى نوع من الخصوصية ، وكانت هذه الآلة قادرة على أن تدور بسرعة فائقة بلا رحمة ودون بطء حتى يبليت تروسها » (٥١) .

وبسبب الارث النظرى والسياسى الذى خلفته التجربة فيما يتعلق بالديمقراطية ، فقد رأى هافيل ان بلده يمكن أن يكون مكانا مثاليا لتجريب ممارسات سياسية مختلفة . وأشار هافيل لأفكار توماس مزاريك عن الحياة السياسية المبنية على الاحترام المتبادل ، وعلى الحب لا على الصراعات التافهة والتشاحن الذى لا نهاية له :

« ان مزاريك بنى سياساته على الاخلاقيات . دعنا نحاول التأكيد على هذا النوع من الممارسات السياسية الجديدة فى هذه المنطقة المثالية . دعنا نعلم انفسنا ونعلم الآخرين أن السياسات لا بد أن تكون تعبيرا عن الأمل فى الاسهام فى خير الكميونة أكثر مما هى تعبير عن ضرورة خرق هذه الكميونة . دعنا نعلم انفسنا والآخرين أن السياسات يمكن أن تكون أكثر من مجرد فن الممكن ، خاصة اذا كان ذلك يعنى فن التوقعات والحسابات ، والخديعة والصفقات السرية ، والمنفعة . دعنا نعلم انفسنا والآخرين أن هذه السياسات يمكن أن تكون فنا لاصلاح انفسنا والعالم » (٥٢) .

ان هذه النصيحة التى تستنهض الهمم من فيلسوف ومؤلف للمسرحيات أصبح رئيسا للجمهورية برسم خريطة لمسار جديد يسمح بابتكار سياسات جديدة لأوربا الشرقية ، وتنصح الشعب باعادة بناء طبيعة انسانية متوافقة مع وصايا التضامن والثقة والأمل ، وتشير لضرورة تجاوز الأزمات الاقتصادية والأحلاف للنظام والثقة وتجاوز ارث الشك وعدم الثقة المتفشى فى الممارسات السياسية وأشار الى ضرورة زرع الساحة الاجتماعية بالمبادىء الأخلاقية .

ان الثورة ضد السوفياتيين قد استعر لهيبها باسم المفهوم العالمى لحقوق الانسان ومن ثم افترض هافيل أن السياسات الجديدة فى تشيكوسلوفاكيا ستختلف عن الممارسات السياسية التقليدية بما تتسم به من مكائد وتناحرات . ان آداب السياسة ذات معنى يحمل قليلا من المثالية ، ولكن من المهم أن نذكر ان الاجتياح الشرق اوربى قد بدأ باسم حقوق الانسان المقدسة والتى تتجاوز المستوى السياسى الا ان الأمل فى اذابة نهر الجليد الستالينى فى يوم واحد كان بعيد المنال ، وكتب تشيسلو ميلوتز متندئا :

« ان هذه البلدان تبدو وكأنها اهم جزء فى العالم كله وليس فى اوربا فقط . واذا ادعينا ان الايمان الجديد New Faith (الماركسية اللينينية) سوف ينتشر فى كل ارجاء الأرض فان هذه المناطق تعد من

أكثر التجارب اثارة خارج الاتحاد السوفيتي بل وتعد الأولى من نوعها . واذا افترضنا أن المركز سوف يخسر ، فان النماذج الاقتصادية والمدنية التى ستبزغ تباعا فى هذه البلدان ستكون بالتأكيد حديثة اذ ان هـذه التجربة وهـذا الانعطاف نحو الوضـع الحـالى ليس له مثيل فى التاريخ) (٥٣) .

حقيقة ، وكما سنناقش فى الفصل السابع ، فان الانفصام عن الشيوعية واستعادة القاعدة الشعبية الحرة لم يكن ناتجا عن مجرد الاحياء للعادات السابقة على الشيوعية بل ان الأشكال الجديدة كانت توليفة من التوق الى الماضى والتجارب الجريئة الجديدة التى تهدف لبناء المجتمع . ان المرء لا يستطيع أن يمحو — ببساطة — أربعة عقود من الهيمنة الشيوعية بما فى ذلك تلقين الجماهير وغرس مشاعر الخوف ، وعدم الأمان لدى الأفراد وقمع الاستقلالية الشخصية ، ومن الصعب — ولكنه ضرورى — أن تقام الدولة على أساس القانون بعد أن قضى معظم السكان حياتهم خاضعين تحت وطأة أنظمة غير شرعية . وليس معنى ذلك أن السياسات الجديدة ستكون تصفية لحسابات مستمرة وغير مجدية ولكنها ستعبد توليد قاعدة اجتماعية من خلال رد الاعتبار للطبائع الاخلاقية للمواطنين ، وهذا يمكن أن يتحقق داخل اتحادات وجماعات وأحزاب حديثة النشأة ، تضمن وضع قيود على سلطة الحكومة وتخلق بيئة جديدة ، تؤدى الى التأكيد على حقوق المواطنين . وعبر هافيل عن الحلم الكبير الخاص بالمعتق الأخلاقى والسياسى لأمم أوربا الشرقية التى ظلت لأمد طويل ضائعة حين قال :

« ربما تتساءل : ما هو نوع الجمهورية التى أحلم بها ؟ وأجيبك : اننى أحلم بجمهورية مستقلة ، حرة ، ديمقراطية ، ومنتعشة اقتصاديا، ومنظمة اجتماعيا ، باختصار ، أحلم بجمهورية انسانية تخدم الفرد وبالتالى اتوقع من الفرد أن يخدمها » .

ولاستنبات هذه الروح فى الضمير المدنى أعلن رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا جديا :

« ايها الشعب ان حكومتكم عادت اليكم » (٥٤) .

وبينما كان هافيل يتحدث فى يناير ١٩٨٩ عن عودة الحكومة الشرعية فى تشيكوسلوفاكيا ، كانت حكومة المجر تلقى القبض على ثلاثة من زعماء حركات الحقوق الانسانية الصاعدة ، فى الوقت الذى ادعى النظام — شفويا — تبنيه لاصلاحات كتلك التى تجرى فى الاتحاد

الســـوفيتى ، اســتغلت المعارضة ما أبداه النظـــام من دعــم رســمى للبروسترويكا ، لتكوين اتحاد يتفانى فى الاستعانة بالجلاسنوست الا ان القمع فى رومانيا قد بلغ أقصى مدى له وفاق أية دولة أخــرى فى حــلف وارسـو • وسواء أكان فى بلغاريا أم رومانيا أم خارج حلف وارســو فى البانيا ويوجوسـلافيا ، فان الجهود التى بذلها المتشـــددون لتوحيــد مقاومتهم لم يكن من المستطاع — على المدى البعيد — ان يكتب لهـــا النجاح . لقد كانوا جميعا يدافعون عن زمن سياسى عتيـــق ، انهم الدينوصورات الستالينية التى فشلت فى منع تقــدم التيارات الناقدة داخل مجتمعاتهم ، وكلما رفضوا ضرورة التغيير ، ازداد رد فعــــل الجمــاهير المقهورة قوة ، وتضاءلت قدرة الأحلاف الشيوعية على الاحتفاظ بأقل قدر من المصداقية فى لحظة الانفجار الثورى .

القناع البلغــارى : الضربة المعــادية لجيفكوف Zhivkov

لقــد ظل الزعيم البلغارى تيودور جيفكوف لعقــود طــويلة من اكثر الزعماء طاعة لأحلاف موسكو وموضع ثقتهم . وقد حــاول يائســا ان يتجنب انفتاح النظام السياسى ليحتفظ باحتكاره للسلطة . وفى مناسبات عــدة ، وخاصة بعـــد عام ١٩٨٦ ، تورط فى هجمات هوجــاء ضـــد الدوجماطيقية ، والمحافظة ووعد بأن يقتفى أثر البروسترويكا السوفيتية • والحقيقة أن جيفكوف استغل هذ المقــولات الجامدة ؛ ليبقى قابضـــا على أجهزة الحزب وللتخلص من المصلحين ذوى التأثر داخل القيادة .

وقدمت السلطة — أمام ضغط موسكو المتزايد من أجل الليبرالية — تنازلا مهما : فصدق المكتب الســياسى البلغارى فى أغسطس ١٩٨٧ على حل رموز الدولة الذى يتطلب من بين اشياء اخرى التخلص من صورة جيفكــوف وازالة تمثــاله من برافيتس Pravets مسقط رأســـه • وفى مارس ١٩٨٨ استعادت معظم المؤسسـات (مثل قصر الشــعب للثقافة ، ومسرح الشــباب ، ومؤسسة الدراســات البلقانية) التى ســميت على اسم آخر بنات جيفكوف ليودميلا Lyudmila وزيرة الثقــافة السابقة وعضو المكتب السياسى أسماءها الأصلية (٥٥) • وفى ديســمبر ١٩٨٨ وفى اشارة هيروقراطية اخرى كان الهدف من ورائها استرضاء الاتحاد السوفيتى وعرقلة جهود معارضيه فى الداخــل ، أعلن جيفكوف أمــام اللجنة المركزية بأن الوقت قد حان ، للقيام بثورة تنبع من القاعدة والقمة معا ولاجــراء اصلاحات سياسية شاملة •

وفى ١ فبراير ، ١٩٨٩ أجبر رئيس الوزراء الاصلاحى جورجى اتناسوف Georgi Atanasov على تقديم استقالته ، وخطط جيفكوف لسحق

المعارضة داخل الحزب · وفى نفس الوقت ، جابه نظام جيفكوف المتعدد عددا من المبادرات المدنية التى جاءت من القاعــدة وسميت بحلقــات المناقشة ، وكانت الجمعيات ضرورية لتحدى الســلطة تحديا سافرا وهو ما ميز نهاية السلبية السياسية فى بداية تنظيم المعارضة السياسيــة لنفسها ، ومن بين هؤلاء الذين تورطوا مباشرة فى الأنشطة المبكــرة للفعالية السياسية تزليو زيليف Zhelyu Zhelev الفيلسوف الذى طرد من الحزب الشيوعى فى الستينيات بسبب أفكاره التحررية ونقده العلنى للشمولية · وفى عام ١٩٨٨ أصبح زيليف عضــوا مؤسســا « لنــادى مناصرى الجلاسنوست والبيروستريكا » وهى جمعيــة غيــر رسمية ، كما كرس زيليف جهوده من أجــل الديمقراطية · ورغم جهــود المناضلين المدنيين ، فقد كان لدى الجمـــاهير فى بلغــاريا شــعور عام بأن نظــام جيفكوف ما زال لديه القوة ، على تجريد المعارضة من أسلحتها وكبح جماح أى جهود اصلاحية أصيلة فتفشى الفزع بين البلغاريين ، كما عم « شعور بأن أيا من التغيرات التى تجتاح أرجاء الكتلة الشرقية لن تطولهم فى القريب » (٥٦) .

ان الاحساس بجمود النظام البلغارى لم يكن ــ على أية حــال ــ محددا ، اذ كان من الواضح أن هناك تحت السطح الخارجى لقيادة الحزب الذى يبدو متماسكا تكمن توترات شديدة . وبحلول شهـــر نوفمبر خرج خمســـة آلاف فى مســـيرة الى مبنى مجــلس النــواب National Assembly فى صــوفيا Sofia للاحتجـــاج عــلى التــلوث البيئى . الا أن التعطش من أجل التظاهر كان سياسيا فأعلنوا استياءهم من عجز الحكومة عن ادارة اقتصاد البلد . وفجأة ، وفى نفس الشهر ، قام تحالف بين الحزبيين ذوى العقول الاصلاحية بقيادة بيتر ميلادينوف Peter Mladenov وجنرالات الجيش برئاسة عضــو المكتب السياسى المتمــرس ووزير الدفــاع دوبرى دزروف Dobri Dzhurov ، وأجبـــروا تيودور جيفكوف الرجــل الذى ساس الحــزب الشــيوعى البلغــارى من أبريل ١٩٥٤ على الاستقالة . وما حدث فى بلغاريا كان مختلفا عــن التغيرات الثورية فى المجــر وبولنــدا والمانيا الشرقية ، حيث كان لا بد للأحلاف الشيوعية من أن ترخى قبضتها على السلطة بعد مجابهات مــع المعارضة تراوحت من حيث الشدة من بلد الى آخر . وحاول الشيوعيون البلغاريون أن يكسبوا شفعة الشعب بادانتهم لجيفكوف والتخلص منه ، كما حاول كسب رصيد جماهيرى باطلاق العنــان لاصلاحات راديكالية · ونظرا لما كان يربط الجنرال دزروف من عــلاقات بموسكو ، فاننا نفترض

أن دوره المهم فى المؤامرة كان له أثر كبير على الاستياء الذى ابداه الكرملين نحو بلاده وخمنق جيفكوف ·

وخلف جيفكوف فى زعامة الحزب بيتر ميلادينوف البالغ من العمر ثلاثة وخمسين عاما ، والذى خدم خلال الثمانية عشر عاما الأخيرة كوزير للخارجية . ولان ميلادينوف لم يصل للسلطة بفضل الصفوة العليا من البيروقراطيين الحزبيين ، فقد بدا أن نموذج الخلافة التقليدى قد كسر . واعلن ميلادينوف أن الاصلاحات الجريئة لن تعاق بعد الآن وتعهد بأن تصبح بلغاريا تحت القيادة الجديدة ((بلداً حديثاً ، ديمقراطيا، وقانونيا)) (٥٧) وألغت الحكومة القانون الذى يدين الأنشطة السياسية اللاسلطوية وخفضت الرقابة على وسائل الاعلام · أما جيفكوف فقد خضع لقرار المكتب السياسى وأملا فى انقاذ ماء وجهه (أو على الأقل لانقاذ جزء من امتيازاته) اعترف رسميا بمسئوليته عن الفشل فى اعادة الحيوية للنظام .

وتبع التخلص من جيفكوف اندلاع مظاهرات كبيرة فى شوارع صوفيا والمدن البلغارية الأخرى ، ونظمت اللجان الأهلية للاحتجاج التى رفضت الاحتفاظ بديكتاتورية الشيوعيين وطالبت بانشاء فورى لنظام متعدد الاحزاب . وفى ١٣ ديسمبر قررت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى أن تجرد جيفكوف من رتبته · ورأى أندريه لكانوف Andrei Lukanov ، عضو المكتب السياسى الذى رأس لجنة التحقيق فى جرائم السلطة ، التى ارتكبها جيفكوف ورفاقه أن طرد جيفكوف من الحزب يعنى انفصالا مطلقا عن الممارسات الفاسدة التى ارتكبت فى الماضى · ((اننا لا نقول وداعا لشخص اننا نقول وداعا لسياسته)) · هكذا أعلن لوكانوف . وكما حدث فى جمهورية المانيا الديمقراطية فقد أدى الكشف عن الحياة المترفة التى عاشها جيفكوف الى اندلاع غضب الجماهير المكبوت وطالبت الجماهير على نحو متزايد بالقاء القبض عليه ، لانتهاكاته السافرة للشرائع والقوانين ولحماقاته فى ادارة السلطة (٥٨) .

وفى نفس الاجتماع ، استسلمت اللجنة المركزية لضغط الجماهير وأيدت دعوة ميلادينوف التى وجهها للحزب الشيوعى ، كى يتخلى عن احتكاره للسلطة السياسية المكفولة له دستوريا . وفى أوائل شهر ديسمبر اجتمعت المعارضة تحت مظلة واحدة سميت اتحاد القوى الديمقراطية Union (UDF) of Democratic Forces . وانتخب زليو

زيليف رئيسا للجنة الائتلافية . وفى ٢٩ ديسمبر ١٩٨٩ وبعد المظاهرات الجماهيرية التى قام بها الاتراك Turks العرقيون تعهدت الحكومة الجديدة واللجنة المركزية للحزب الشيوعى البلغارى بشجب الممارسات السياسية المشابهة لممارسات جيفكوف ، الا أن بذور القومية كانت قد اقتلعت تماما على مر عقود سابقة، وبعد مظاهرات الاتراك خرج الآلاف من البلغاريين العرقيين لشوارع المدينة الشمالية كردجالى Kurdjali مطالبين باستفتاء شعبى حول القضايا الشائكة المطروحة . وبعد اقرار مجموعة من القوانين التشريعية التى تسمح لأعضاء الأقلية التركية باستعادة أسمائهم الأصلية وإعادة فتح المساجد ، شكل القوميون البلغاريون « لجنة الدفاع عن المصالح القومية » Committee For Defence of National Interests عززت التمثيل التركى المعارض فى البرلمان .

وتبع طرد جيفكوف وتجريده من رتبه أن سيطر على الحزب الشيوعى ثالوث مكون من بيتر ميلانوف السكرتير العام واندريه لوكانوف ، والكسندر ليلوف Alexander Lilov الأعضاء فى المكتب السياسى . وفى يناير ١٩٩٠ حددت اقامة جيفكوف بتهمة « اثارة عداوات عرقية بين البلغاريين والأقلية التركية وبتهمة سوء استخدام الممتلكات والأموال العامة » (٥٩) .

وعقد الحزب الشيوعى مؤتمرا طارئا عاصفا استمر من ٣٠ نوفمبر وحتى ٢ فبراير ١٩٩٠ ، وفى هذه المناسبة خلف الكسندر ليلوف بيتر ميلانوف كزعيم للحزب . وكان انتخاب ليلوف على قمة الهرم الحزبى الشيوعى ، يعنى أن أعضاء الهرم الحزبى القديم لن يقبلوا الهزيمة ولن يقفوا مكتوفى الأيدى .

ورغم تهميشه من قبل جيفكوف بعد عام ١٩٨٣ ، فقد ظل ليلوف الأيديولوجى المخلص للحزب وتمتع بعلاقة وطيدة مع ابنة جيفكوف لبودميلا (٦٠) .

وفيما يتعلق بمصير جيفكوف ، فقد وجه فى يوليو خطابا للبرلمان رفض فيه مواجهة الهيئة التشريعية ، مجادلا بأنه لم يكن يرغب فى ان يستغل كأداة لتحقيق الطموحات السياسية لمجموعات وشخصيات بعينها ، ورفض التهم التى وجهت له لأنها لا تستند لأى أساس قانونى : « **اننى قد ارتكبت العديد من الأخطاء ولكنى لم أرتكب أية جرائم ضد الأمة . لذا ، فان مسئوليتى السياسية تقتصر على تلك الأخطاء** » (٦١) .

وحاول الشيوعيون بعد أن أصابهم الارتباك والفوضى ان يفصلوا أنفسهم عن تجاوزات نظام جيفكوف واعادة التأكيد على تقاليد الحزب

السابقة على الشيوعية . وفى عام ١٩٩٠ غير الحزب اسمه الى الحزب الاشتراكى البلغارى Bulgarian Socialist Party ، تجسيدا لانفصاله عن العقائد اللينينية ·

حصار القلعة الرومانية :

وفى رومانيا ، بلغ الموقف أقصى درجسات الدراماتيكية والغموض ، وذلك لان سياسة نيكولا شوشيسكو بلغت حداً كبيراً من الاحتكارية غير المقيدة للسلطة السياسية التى تجمعت فى يده · وعندما انتخب سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى الرومانى فى مارس ١٩٦٥ ، اجزل شوشيسكو وعودا بتبنى الليبرالية ، وبارخاء سيطرة الحزب على الحياة الثقافية واتباع السياسة الخارجية المستقلة التى بدأها سلفه جورج جورجيو دجى · وفى المرحلة الأولى من توليه الحكم فيما بين عامى ١٩٦٥ ، ١٩٧١ طالب شوشيسكو بقيادة جماعية وانتقد سنوات القمع الستالينى وعارض السياسة السوفيتية التى تسعى لتوحيد الكتلة داخل مجلس الاتحاد الاقتصادى المتبادل CMEA · وبدا انه يؤيد الخط القومى الذى بدأه تيتو فى يوجوسلافيا · وكعضو فى حلف وارسو ، ناوم شوشيسكو المطالب السوفيتية الخاصة بالانضمام لمناورات عسكرية وأصر على أن كل جيش قومى لا بد أن يخضع للقيادة الداخلية ، وتحدى التفسير السوفيتى للأمة الاشتراكية ورفض أن يقتفى أثر خطوات موسكو فيما يتعلق بأزمة ١٩٦٧ فى الشرق الأوسط ، اذ كانت رومانيا البلد الوحيد من حلف وارسو الذى أقام علاقات دبلوماسية مع دولة اسرائيل . وفى عامى ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ انتقد شوشيسكو على الملأ الحماقات التى ارتكبها البوليس السرى Securitate فى عهد ستالين وتعهد بأن مثل هذه الفظاعات لن تتكرر أبدا · وفى أبريل ١٩٦٨ قامت جلسة اللجنة المركزية الكاملة الأعضاء برد اعتبار لوكريتو بترسكانيو وزير العدل الأسبق وعضو المكتب السياسى والذى نفى بتهم ملفقة . وفى نفس الوقت ، استمرت رومانيا فى الابقاء على موقفها الحيادى فيما يتعلق بالصراع القائم بين الصين وموسكو .

وفى أغسطس ١٩٦٨ وصل شوشيسكو لذروة جماهيريته الداخلية عندما أدان علانية وبعنف التدخل السوفيتى فى تشيكوسلوفاكيا ، الا أنه قام بذلك ـ تحديدا ـ لأنه أراد أن يستغل الدعم الشعبى الذى يتلقاه من أجل اطلاق العنان لنهج مستقل ، بهدف الكسب الشخصى ومن أجل توسيع نطاق سلطته الشخصية ، وبناء حكم استبدادى لا يعلى عليه أى حكم آخر فى الكتلة .

ولم يكن الدافع وراء استياء شوشيسكو من سياسة برجنيف ، التى تهدف للتدخل فى الشئون الداخلية لأوربا الشرقية ، ميوله الاصلاحيه بل على العكس ، فان الزعيم الرومانى ادرك أن التسامح الداخلى ساهم فى صحوة محدودة : ولكن متزايدة ـ للتيارات النقديه العلنيه ، فقرر ان يضع حداً لهذه الفترة الليبرالية . وفى يونيو ١٩٧١ قام شوشيسكو بزيارة الصين وكوريا الشمالية North Korea وأخذ بما يمارس من شعائر لتأليه الحاكم والتى رآها تحيط بماوتسى تونج وكيم السونج Kim Il Sung . وأثناء تلك الرحلة صحبته زوجته الينا Elena التى كان تأثيرها على زوجها وعلى الحياة السياسيه فى رومانيا ، يتناسب تناسبا طرديا مع تدهور المناخ الاجتماعى ، وتزايد الافراط فى عبادة الفرد الشاذة . واصبحت الينا فى ١٩٧٤ عضوا كامل العضوية فى الجسد الحاكم للحزب الشيوعى وهى الأمانة السياسية التنفيذية .

واستمرت رومانيا فى السبعينيات فى اتباع سياسة خارجية مختلفة عن تلك التى تتبعها موسكو ، تلك السياسة التى جعلت شوشيسكو يبدو وكأنه معارض للامبريالية السوفيتية وهو ما استحسنته وسائل الاعلام والسفارات الغربية . وفى نفس الوقت ، استعاد شوشيسكو سلطة البوليس السرى ، وحول بيروقراطية الحزب الشيوعى لأداة لتنفيذ قراراته التى كانت تتزايد غرابة ، وخروجا عن المألوف ، كما قطع اتصاله بالمجموعة السياسية التى ساعدته فى دعم سلطته اثناء السنوات الأولى من توليه السلطة . وكان أى شكل من أشكال النقد داخل حلف القمة يعد عملا تحريضيا ، أما اذا جرؤ أحد على المساءلة عن حدود سلطة شوشيسكو فانه يتم التخلص منه فورا واستبعاده من القيادة الحاكمة . وأحد هؤلاء الذين عبروا عن تحفظاته فيما يتعلق باطلاق شوشيسكو العنان للستالينية الجديدة وذلك فى صيف ١٩٧١ عندما عاد من رحلته الآسيوية ، كان ايون اليشسكو Ion Iliescu الذى كان آنذاك سكرتيرا للجنة المركزية ، والمسئول الأول عن الأيديولوجية ، الذى اعتبر على نطاق واسع محميا من الرئيس وبل ووريثه الشرعى . وفى أثناء جلسة اللجنة المركزية تلقى اليشسكو اللوم من شوشيسكو بسبب الليبرالية والعقلانية المزعومتين . وبعد ذلك خدم اليشسكو كسكرتير مسئول عن الدعاية فى لجنة الحزب فى مقاطعة تمس Timis County party Committee ، وفى الثمانينيات أصبح رئيسا للجنة الدولة للاشغال العامة For water

State Party ، وفيما بعد وحتى ثورة ديسمبر ١٩٨٩ قام بادارة مؤسسة النشر التقنى Technical Publishing house فى بوخارست .

ومنذ السبعينيات تطور دور الينا ونما لحد غير معقول اذ أصبحت شرعيا الشخص الثانى فى الهرم الحزبى . وكرئيس لأمانة اللجنة المركزية المسئولة عن التعيينات وكنائب لرئيس الوزراء هيمنت الينا على الساحة السياسية الرومانية ، كما تحكمت فى اعداد كل مقابلات زوجها وكذلك ترتيب جدول مواعيده . لقد كانت هى التى شجعت غرور الرئيس المرضى واحاطته بحائط من الأخيلة والتاليه والأسطوريه . وليس معنى ذلك اننا نقول ان شوشيسكو بدون الينا كان يمكن أن يصبح ليبراليا . لقد نما شوشيسكو فى الدهاليز السرية للحزب الشيوعى الرومانى وبسبب تعقد مسألة الشرعية فى الحزب ، نما لدى شوشيسكو شعور بالاضطهاد يميز الفصائل الصغيرة المتآمرة . واضافة الى ذلك فقد تورط شوشيسكو مباشرة فى قمع الفلاحين والمفكرين فى الخمسينيات . ومع الينا التى تحتل المرتبة الثانية فى الحكم ومع الأعضاء الآخرين فى عصابة شوشيسكو بما فيهم نيكولا Nicu ابنه الاصغر وقائد أول اتحاد للشباب الشيوعى Communist Youth Union ورئيس لجنة الحزب فى مقاطعة سيبيو Sibiu County Party Committee ونائب فى اللجنة السياسية التنفيذية ، فان نجاح خطة توارث الحكم بدا مؤكدا .

ان شكل القيادة الفردية والتى تطورت فى رومانيا بعد عام ١٩٧١ جعل من المستحيل أن تضع حاشية الحاكم اى قيود مهما كانت قليلة على أعمال الحاكم وتصرفاته . ولم تكن هناك معارضة سواء داخل القيادات الحزبية أو خارجها ، اذ سحق المناخ القمعى على نحو غير منصف اقل مبادرة نقدية (٦٢) . ان سيكولوجية شوشيسكو لعبت دورا كبيرا فى الكارثة الضخمة . وكتب مراقب ثاقب الرؤية من الشيوعيين فى رومانيا قائلا :

((ان العامل الأعظم والوحيد فى الانهيار الداخلى المفاجىء لرومانيا كان مزاج شوشيسكو المتقلب . ولا يوجد زعيم أوربى فى النصف الثانى من القرن العشرين جسد الآثار والعوامل التى تسببت فى ضعف السلطة اكثر مما فعل هو . رجل ذكى ، دءوب فوق العادة ، وطنى . ليس قاسيا على المستوى الشخصى (مثلما كان ماتياس راكوسى فى المجر أو كما كان ستالين) ربما كان يقصد ذلك وربما ظل كذلك الا أن اسمه ظل مقترنا بالارهاب التاريخى)) (٦٣) .

وبعد أن أتى جوربانشوف للسلطة وجد شوشيسكو نفسه معزولا تماما . ومنذ أن تغير الاتحاد السوفيتى وفقد حلف وارسو ولمه بالعيان ، فان مبدأ المحلية الرومانية الذى امتدح كثيرا لم يعد يجد قبولا لدى الغرب . وفى نهاية الأمر اعتبرت معاداة شوشيسكو للستالينية ضربا من الستالينية نفسها أكثر مما هى نوع من الاصلاحية . وعلى عكس يوجوسلافيا تحت قيادة تيتو ، حيث صاحب الاستقلال الخارجى ليبرالية داخلية محدودة ، فان شوشيسكو استغل الادراك الدولى للمسار نصف المستقل فى السياسة الخارجية كى يفرض نظاما سلطويا دراكوليا يعتمد على افراط بين فى القومية واحتفاظ بالمؤسسات الستالينية الرئيسية بما فى ذلك البوليس السرى المرعب الذى سحق كل أشكال المعارضة . ففى صيف ١٩٧٧ أضرب عمال الفحم بوادى جيو Jiu Valley ، الا أن السلطة سحقته واعتقل زعماء الاضراب أو قل اختفوا . والمنشقون أمثال الكاتب بول جوما ، والمؤرخ فيلاد جورجيسكو Vlad Georgescu والشاعر دورسين نبودران ، أجبروا جميعا على ترك بلدهم بعد مضايقات لا حصر لها ونفس الشىء حدث للرياضى ميهاى بوتز الذى جرؤ على نقد النظام من منطلق قناعاته المتعلقة باحترام حقوق الانسان . وآخرون أمثال الشاعر ميرشيا دينيسكو Micrea Dinescu والناقد الأدبى دان بتريسكو Dan Petrescu والاستاذة الجامعية دوينا كورينا . خضعوا جميعا لمراقبة بوليسية محكمة . وكان الأمل ضعيفا فى أن أى شىء يمكن أن يأتى من الصفوة العليا للحزب الشيوعى ، حيث كانت هيمنة شوشيسكو مسألة لا تقبل النقاش .

وتحت وطأة الخوف من أى شكل من اشكال الضغط الخارجى القوى ، بذل شوشيسكو جهودا خارقة كى يسدد ديون بلده الخارجية التى كانت أكثر من ١٢ بليون دولار ، ونجم عن ذلك حظر شبه تام على استيراد السلع بما فى ذلك قطع الغيار ذات الأهمية الحيوية بالنسبة للصناعة الرومانية . وفى نفس الوقت فان الانتاج الزراعى استغل فى التصدير من أجل زيادة احتياطى البلد من النقد الأجنبى . أما الأعباء التى وقعت على كاهل الجماهير وخاصة بعد شتاء ١٩٨٤ فكانت تفوق التصور ، اذ كان على الناس أن يتجمدوا فى منازلهم بسبب قرار الحكومة بمنع امدادات الطاقة عن الاستهلاك المحلى ، واعتاد الرومانيون أن يتندروا على ذلك قائلين ان الفرق بين هتلر وشوشيسكو أن الأول كان يقتل الناس باشعال الجاز بينما الثانى يقتلهم بقطعه عنهم . ان رومانيا الموطن الأصلى ليوجين ايونيسكو Eugene Ionesco كاتب المسرحيات

الهزلية الذى يقيم فى فرنسا بدت أرضا تفضل فيها الوضاعة على الرقى ·

وكما لو كانت كل هذه الاجراءات غير كافية لاثارة الغضب والحنق بين الجماهير التى يزايد شعورها بالخزى يوما بعد يوم ، فان شوشيسكو امر بهدم المركز التاريخى لعاصمه الأمة فى بوخارست وفى مكانه شرع فى بناء مركز ادارى جديد يضم « مجلسا للشعب » House of Public يفوق قصر الفرساى Versailles Palace حجما · وكانت الاستبدادية الشيوعية فى حاجة لرموز كى تخلد نفسها فلم يتردد شوشيسكو فى انفاق قدر كبير من الأموال على بناء نصب تذكارية تمجد شخصه واجبر العمال على انشائها . ومنذ أن بدأ الحكم يلعب بورقة القومية فى دعايته نظر للأقليات العرقية على أنها وباء خطر حامل اقيم دخيلة · ومن بين الأقليات الرومانية كان هناك نحو ٢ مليون مجرى أصبحوا هاجسا يؤرق شوشيسكو ، فقد نظر اليهم على انهم أجانب خطرون وعلى انهم حصان طروادة Trojan horse الذى يهدد وحدة الأمة الرومانية · والقى الزعيم خطبا رنانة ضد هؤلاء الذين لا يقدرون أهمية بناء أمة منسجمة العناصر · وفى آخر الأمر قرر الآلاف من المجريين أن يتركوا بيوتهم ويعبروا على نحو غير شرعى الحدود الى المجر . ولسخرية الاقدار فقد اصطحبهم العديد من الرومانيين أنفسهم الذين فضلوا مغادرة وطنهم الأم ، عن المعاناة من جراء استبدادية شوشيسكو · وبادر شوشيسكو أيضا بتوطين اجبارى لجماهير القرى فى المدن الحضرية كدليل على تقدم البلد السريع نحو الشيوعية وبعقليته الستالينية ، أراد الزعيم أن يزيل كل الفروق بين مناطق الحضر والريف باقتلاع ما يربو عن سبعة آلاف فلاح من جذورهم . وهذا العمل الذى حاولت الدعاية الرومانية أن تقدمه للجماهير على أنه خطوة نحو (التمدين) أثار غضبا قوميا كبيرا · وكان الرومانيون فى كل أرجاء البلد فى حالة غليان تام ·

وكان الصدع الأولى المرئى فى حصن رومانيا الستالينية الذى لا يقهر هو المظاهرات الشعبية فى براسوف Brasov المركز الصناعى فى رومانيا وذلك فى ١٥ نوفمبر عام ١٩٥٨ . ورغم أن النظام الحاكم حاول أن يحقر من شأن هذا السخط الشعبى ، فقد أذاعت محطات الراديو الغربية ما يحدث من قمع فى براسوف ، وأدرك الناس أن العمال من مصنع العلم الأحمر Red Flag المغلق بسبب الاضراب لم يتظاهروا من أجل أهداف اقتصادية فقط ، وانما رفعوا أيضا الشعارات المعادية

للديكتاتورية . أن تمرد براسوف حيث نقب المتمردون فى المقرات المحلية للحـزب ، واحرقوا صور نيكولا والينا شوشيسكو ـ كان اول عمـل للثورة الرومانية ولكن الطبقة الحاكمة الرومانية البليدة لم تفـم وحتى آخر لحظة بأى رد فعل لمنع القمع العنيف للحركة .

وكلما همت الحركات الاصلاحية فى استجماع زخمها فى البلدان الأخرى ، ازداد توتر شـوشيسكو فبـدأ فى توجيـه النقـد الحـدى لجورباتشوف لتخليه عن المبادىء الأساسية للماركسية اللينينيـة . وبما قامت به وسائل الاعلام تحت حكمه بالتوليف بين التزامه بالشيوعية المتشددة واصراره المتزايد بأن الجذور القومية (الرومانية) كانت فى خطر بسبب المؤامرات الخارجية والعملاء المتسللين الذين تم زرعهـم بين الأقليات العرقية ، لم يكن شوشيسكو الوحيد من نوعه ، ففى بلغاريا المجـاورة كان تيودور جيفكوف ، الضحية الأخـرى للبروسترويكا التى تتوسع وتنتشر ، يقوم بتكثيف حملاته ضد الأقليـة العـرقية التركيـة . وبمواجهة خطر حركة الاصلاح التى تشجعها قيادة موسكو التعديلية عادت القيادات الشيوعية الرومانية والبلغـارية لاسـتخدام الاسلوب القديم التقليدى وهو البحثعن كبش فداء . ان عداء الأجانب الذى ميز الزعماء الشيوعيين المعادين للاصلاح أخذ اشكالا علنية تارة وخفية تارة اخرى ، وكان ذلك يتوقف على درجة الاستقلال الذاتى الذى يتمتـع به النظام فى علاقاته مع موسكو . ان المحاولة اليائسة التى قامت بهـا الأحلاف الستالينية للابقاء على وجودهم بالسلطة من خلال التلاعـب بالمشاعر والاحباطات العرقية وصفت على انها « الشيوعية المصابة بمرض عداء الأجانب » . لقد كانت محاولة من أجل تجنب التحـديث والاصلاحات ، ولخلق احساس عام بالخطر القومى ، ولاستعادة الاصولية الوطنية اكثر من استعادة الماركسية التقليدية :

« ان الشيوعية المصابة بداء معاداة الأجانب ، تحـاصر الشـيوعية بحثا عن أحقر قاسم مشترك عام قومى ، والهدف وراء ذلك هو تعبئة المجتمـع وهو ما تنـاضل من اجل تحقيقه وذلك باثارة الغضب القومى . وبينما كانت هذه الدعوة جديدة بكل المعانى على الشيوعية ، فـان ما خـلق الشـيوعية المصـابة بداء معـاداة الأجـانب Sui generis حقيقة هو ان أعداءها الأيديولوجيين لا يمـكن تمييـزهم عن أعـدائها القوميين » (٦٤) .

حقيقة ، ان الشيوعيين المصابين بمرض عـداء الأجانب اعتبروا ان أى دعـوى للاصلاح هى محض خيـانة للمصـالح القومية . ان هلع شوشيسكو الهستيرى مما اسـماه التسلل الأجنبى الذى اوشـك على

الانفجار فى خطابه الأخير فى ٢ نوفمبر ١٩٨٩ يمثل ترجمة كاملة للتوليفة غير المتسقة بين القومية والستالينية ٠

ورغم الدعاوى المعادية للأجانب ، كان هناك حتى داخل رومانيا من يطالب بالتخلص من الأساليب الدكتاتورية للقيادة وبالتحول لسياسة الانفتاح : وفى بداية مارس ١٩٨٩ وجه ستة من رموز القيادة السابقة فى الحزب الشيوعى الرومانى خطابا مفتوحا للرئيس نيكولاى شوشيسكو ، حيث هاجموا ممارسات شوشيسكو التى جلبت الدمار هجوما شديدا . وطرحوا بديلا سياسيا لجعل رومانيا بلدا ديمقراطيا ولأنهم حذوا حذو سياسة الجلاسنوست ، فان الموقعين على هذه العريضة والذين كان من بينهم كثيرون ممن تقلدوا منصب السكرتير العام للحزب الشيوعى الرومانى ، قد هاجموا شوشيسكو لتسببه فى فقدان الصورة الاشتراكية لمصداقيتها ٠ ودون شجب مباشر لاحتكار السلطة من قبل عصابة الرئيس، فقد طالب الأعضاء الستة البارزون فى «الحرس القديم» Old Guard باقامة دولة القانون من خلال مراقبة محكمة على الدستور . وقد اعتبروا الح ... المنهجية » التى أمر بها شوشيسكو هى اهانة موجه لكل المواطنين الرومانيين ، كما شجبوا بعنف عزلة رومانيا عن الشرق والغرب والتى تنذر بالسوء . وقد أجمل أول سطور الخطاب جو الارهاب الذى يعم رومانيا تحت حكم شوشيسكو :

« لأن الاشتراكية الأصيلة التى حاربنا من اجلها قد فقدت مصداقيتها بممارساتك السياسية التى عزلت وطننا عن أوربا ، قررنا أن نتكلم ٠ اننا واعون تماما بأن القيام بذلك يجعلنا نخاطر بحريتنا بل وحتى بحياتنا ، ولكننا نشعر بواجب مطالبتك بقلب النظام الحالى قبل أن يفوت الأوان » (٦٥) ٠

وفور اذاعة محطة بى بى سى العالمية BBC World Service الخطاب ، حددت اقامة الشيوعيين الستة وخضعوا لاستجوابات البوليس السرى ، ولكن اعتقالهم لم يوقف الغضب المتاجج فى رومانيا ٠

وفى مارس ١٩٨٩ نشرت الصحيفة اليومية الفرنسية « الحرية Liberation » حوارا مع مرشيا دينيسكو ، الشاعر الذى يبلغ من العمر ٣٨ عاما والذى يعتبر على نطاق واسع واحداً من أكثر كتاب بلاده شهرة .

وبعد أن شبه الرومانيين بخنازير التجربة الشيوعية التى يقوم بها دكتاتور مصاب بالبرانويا ، حدد دينيسكو الآمال العظمى للرومانيين

والأوربيين الشرقيين وهو ما كان أثرا من آثار ممارسات جورباتشوف السياسية للجلاسونست والبروستربكا فقال :

« فى المقام الأول ، كانت رومانيا دائما تنظر الى الغرب بتوجس وخوف وهو ما يمكن تفسيره تاريخيا ، اذ أنها أمة وقعت على حافة امبراطورية . وفى المقام الثانى ان الستالينية لم تهبط علينا من هونولولو Honolulu ولكنها قذيفة أيديولوجية القاها علينا الكرملين ولأعوام طويلة ظل يهمس تارة وبعلانية تارة أخرى بأن الدب الشرقى Eastern Bear قد منع النظام من أن يصبح أكثر ليبرالية وصدق الشعب ذلك . « ان القوات السوفيتية تقوم بمناورات على الحدود الرومانية » هذه هى المقولة التى ترددها السلطات فى كل مرة يحاولون فيها أن يخاطبوا عقولنا . ولا أدرى اذا كان شعب الاتحاد السوفيتى ينظر لجورباتشوف على أنه قيصر صالح أم لا ، ولكن فى بولندا والمجر وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا فان الملايين الذين رزحوا تحت وطأة الذل لسنوات طويلة كان يرونه مبشرا « بالأخبار الحسنة » ويسوع الاشتراكية ذات الوجه الانسانى » .

وبمجابهة الضغط الخارجى والاضطراب الداخلى العارم ، فان الزعيم أصبح أكثر شراسة فى رفضه لأى شكل من اشكال الاصلاح . وقد ادعى أن رومانيا قد انتهجت منذ أمد سياسة اصلاحية وأن النظام السياسى فى بلده لا يحتاج لأى ضبط . وحقيقة ، فان شوشيسكو كان أكثر زعماء حلف وارسو تعبيرا عن رفضه التام لمبادرات جورباتشوف . وفى مناسبات عدة قال ان الجورباتشوفية تعود الى تزايد مد الجناح اليمينى داخل الدولية الشيوعية وظل على عهده بأن « بناء الاشتراكية لا يمكن ان يتم من خلال الاصلاحية » .

وفى هذا المجال لم يكن هناك اى اختلاف بين مواقف شوشيسكو ووجهات النظر الستالينية التى يعلنها رامز عليا زعيم البانيا المنبوذة والذى شجب المسار الاصلاحى فى الاتحاد السوفيتى والمجر وبولندا ، لفتحهم الطريق للملكية الخاصة والشرور الأخرى التى تتضافر مع الرأسمالية (٦٧) ، وفى أكتوبر ١٩٨٩ رفضت سينتيا Scinteia ، المجلة الرسمية للحزب الشيوعى الرومانى ، بوضوح الدعوات التى تطالب بالنظام المتعدد الأحزاب ، باعتبارها دعوات تقوض النظام الاشتراكى :

« ان الحزب الشيوعى الرومانى يعتبر ان هذه الاطروحات التى تتعلق بالعودة الى النظام المتعدد الأحزاب فى الاشتراكية هى الشر

بعينه اذ انها تمهد الطريق لعودة أشكال الاستبداد التى يمارسها النظام السياسى الرأسمالى . ان المؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعى البولندى أكد على أن وجود الحزب الواحد للطبقة العاملة وتقوية وحدة الشعب حول الحزب ، تحت الظروف التى وجدت بعد اختفاء الطبقات المتناحرة ، لهو مطلب تاريخى موضوعى » (٦٨) .

وفى السابع عشر من نوفمبر وقبل اسبوع من مؤتمر الحزب الشيوعى الرومانى الخامس عشر ، وقبل دخول دول أخرى من الكتلة السوفيتية فى آتون من الاضطرابات ، فان صحيفة سينتيا وجدت أنه من المناسب اعادة طبع المقابلة التى أجريت مع الشيوعى المتشدد يوجور ليجاتشيف legor Ligachev ، والتى عبر فيها عن وجهات نظر مشابهة لتلك التى عبر عنها شوسيسكو فيما يتعلق بالحاجة الى نظام احادى الحزب . وفى مؤتمر الحزب استعرض شوشيسكو مرة أخرى ترسانته المدججة ، لاقناع الجماهير الساخطة بأن رومانيا ستكون قادرة على مقاومة التغيير فأطلقت صيحات الفرح والتهليل من قبل المشاهدين الخاضعين لسيطرة الحزب وتدين له بالطاعة والولاء . وشجب شوشيسكو المكائد الدولية المرسومة ضد استقلال الدول الصغرة . وبالاشارة الى قمة مالطا Malta التى عقدت بين الرئيس بوش Bush والسكرتير العام جورباتشوف . ألمح شوشيسكو الى خوفه من أن ذلك يمكن أن يؤدى الى سيادة متكافئة للقوتين العظميين على العالم وكان شوشيسكو هو الوحيد الذى طالب بأن يظل حاملا لمسئوليته فى المستقبل المنظور كحارس لطهارة الماركسية اللينينية وللاشتراكية الأوتوقراطية :

« منذ نحو ستين عاما مضت انضممت لهذا الحزب ، وفى المستقبل سوف اكون دائما فى صفوف الحزب الشيوعى الرومانى » (٦٩) .

وأثناء مؤتمر الحزب كانت عزلة رومانيا قد أصبحت واضحة لغياب الوفود المفوضة للأحزاب « المتآخية » من المجر وايطاليا ، الا أن غياب الوفد الممثل لجمهورية المانيا الديمقراطية هو ما أثار فزع شوشيسكو ، اذ منذ اقل من شهرين كانت ألمانيا الديمقراطية هى المؤيد الوحيد لشوشيسكو فى رفضه العنيد لقبول الاصلاحات . وفى نفس الوقت كانت قيادة هونكر قد استبدلت نتيجة لتصاعد موجة الاحتجاج الشعبى . وفى المانيا الديمقراطية نجد المدافعين عن حقوق الانسان والجماعات السلمية التى طالما قمعتها السلطة قد تقدمت الثورة ، مؤكدة على طبيعتها السلمية .

وكان سقوط نظام هونكر يعد بالنسبة لشوشيسكو ضربة قاضية. ومع الهجوم الشرس الذى شن على جيفكوف داخل الحزب البلغارى ، ومع مئات الآلاف من هؤلاء الذين خرجوا للشوارع فى براغ وبراتسلافا . ومع استسلام الحكومة الالمانية الشرقية للضغط القادم من القاعدة ، وجد الزعيم الرومانى نفسه معزولا تماما داخل حلف وارسو . وهذه العزلة زادت حدتها أكثر بمقاطعة الضيوف الأجانب لمؤتمر الحزب الشيوعى الرومانى ، وكذلك عندما انهال النقد الحاد على شوشيسكو من وسائل الاعلام الأجنبية بما فيها تلك التى فى البلدان الحليفة . ان وكالة الاخبار الألمانية الشرقية ADN أذاعت قرار عدد من الأحزاب الشيوعية بمقاطعة مؤتمر الحزب الشيوعى الرومانى مشيرة الى « الانتهاكات المستمرة لحقوق الانسان وسياسة تأليه الفرد التى تحيط بنيكولاى شوشيسكو والانتهاكات الخطيرة للديمقراطية الاجتماعية» (٧٠) .

وفى مواجهة هذا الازدراء والعزلة ، خطط شوشيسكو لاستخدام آلة الدعاية الخاصة بنظامه ، فى خلق انطباع بأن الشيوعيين الرومانيين سيكون فى استطاعتهم تجنب مصير نظرائهم فى دول الكتلة السوفيتية الأخرى . وفى أقل من أسبوع قبل بداية التمرد المعادى لشوشيسكو فى تيميشوارا قالت وسائل الاعلام الغربية :

« على المدى القصير ، فان تعلق شوشيسكو بالسلطة يبدو مؤكدا ولكن لن يعاد انتخابه ثانية فى مؤتمر الحزب الشيوعى القريب ، لأنه يمثل الطاغية التى انكرت بتعنت امكانية الاصلاح . وبارسال تهديده الى المجر الاصلاحية يكون شوشيسكو بذلك قد احكم اغلاق الحدود مع جارته فى حلف وارسو . وفى اطار تمسكه بالحكم فان شوشيسكو كان سياسيا داهية وبعيد النظر . وربما كانت الأحداث فى أوروبا الشرقية قد فاجأت الغرب ، الا أن استقرار رومانيا الحالى يشير الى أن شوشيسكو كان مستعدا منذ وقت كاف » (٧١) .

والحقيقة هى أن شوشيسكو وأحلافه فى جبهة الرفض لم يتأهبوا تماما لمثل هذا الاجتياح . فقد كان رد فعلهم مرتبكا ، ولأن موسكو كفت عن لعب دور حامى حمى الكتلة السوفيتية والتى اعتادت لعبه فى الماضى ، فان الأنظمة الشيوعية بدت كالأيتام .

وفى بعض البلدان مثل المجر وبولندا ، فان الجماعات الاصلاحية داخل ائتلاف الحزب جنحت لاجراء مفاوضات قد تنقذ ما يمكن انقاذه على أمل الاحتفاظ بسلطتها . وفى رومانيا ، لم يكن هناك داخل السلطة الحاكمة

أى فصيل اصلاحى التوجه ، لدرجة تمكنه من عـزل شوشيسكو وعصبته والعمـل على طريق الليبرالية ـ فكانت الظـروف مواتية لانفجـار شعبى تلقـائى ٠

وبدأت الثورة الرومانية فى بيميشوارا والتى أشـعلتها شجاعة رجل واحد وهو لازلو توكسس Laszlo Toxes الـكاهن المبجـل وراعى الكنيسـة الاصلاحية (الكالفينية Colvinist) مع عدد من الاقليـات المجرية العرقية ٠ ورغم المضايقات المتكـررة من جـانب البـوليس السياسى ، فان توكسس كان بطلا مغوارا مدافعا عن الحقـوق الانسانية والدينية ٠ وفى ١٥ ديسمبر ١٩٨٩ عندما حاول عملاء البوليس السياسى طرد توكسس بالقـوة من بيتـه فى الأبراشية ، فان آلافا من ـ الرومانيين وكذلك المجريين ـ صنعوا سياجا بشريا لمنعهم ، وقاموا بمظـاهرات عارمة معادية لشوشيسكو ٠ وفى ليلة السادس عشر من ديسـمبر فان المدينة كانت قد عجت بالمحتجين المعـادين لشوشيسـكو وللشيوعية ٠ ان العمل الذى بدأ من منطلق دينى أطلق العنـان للسخط المدنى الثائر وأدى الى تمرد جماهيرى ناضج ضد واحد من أكثر الأنظمة فى العـالم سلطوية وسيطرة وتحكم ٠

وفى ١٧ ديسمبر وبتعليمـات من شوشـيسكو سـحقت قـوات الأمن مظاهرات تيميشوارا بالقوة وبلا هوادة ٠ وأصبح بينا أن الديكتاتور الرومانى لا يحذو حذو النمـوذج الالمـانى الشرقى فى ضـبط النفس وأنه سوف يستخدم أية وسيلة كى يحتفظ بسلطته ٠

وفى نفس اليوم ، وصلت أنباء ثورة تيميشوارا وقمع شوشيسـكو الدموى لها لبوخارست وبلجراد والعواصم الغربية ٠ وبثت محطـات الاذاعة الغربية القصة الى رومانيا مرة أخرى ، الا ان الديكتاتور لم يبـد أنه اسـتوعبها ، اذ أنه غـادر البـلاد فى ١٨ ديسمبر الى طهران، ومنـذ هـذه اللحظـة فصـاعدا كان مصـير نظـام شوشـيسكو قد قدر ٠ كيف أصاب شوشيسكو مثـل هـذا العمى حتى انه لم يـر الاشـارات العديدة التى تنبىء بقيام الجماهير برد فعل عنيف ضد الحكم الدراكولى ؟ لماذا تجاهل هـذا السخـط الذى تفشى حتى فيمـا بين البيروقراطيات الحزبية العسكرية والبوليس ؟ لقد جاء اجتياح تيميشوارا فى فترة كان حلفاء شوشيسكو المقربون فى حلف وارسـو هم تيودور جيفكوف واريك هونكر وميلوس جاك ـ قد القى بهم خـارج الحـكم ٠ وبحصاره فى خندق أوهامه واحتجازه رهنا لشخصه المؤله وحاشيته النفعية ، فضل شوشيسكو أن يتجاهل الحقيقة الواقعـة وظن أن الأوهام

التى دونت فى وثائق الحزب بما فيها شعاراته عن الاتحـــاد الوحدوى بين الأمة الرومانية وزعيمها أبدية ·

وبعـــودته لبوخارست ارتكب شـــوشيسكو خطأ فادحا : ففى ٢٠ ديسمبر خطب فى الأمة وبث الخطـاب فى الراديو والتليفزيون وشجب الأحداث التى جرت فى تيميشـــوارا وأسمى الثوار « قطـــاع الطرق » و « الفاشيون » و « المحرضون » و « عملاء الغرب » · ووفقا للبيانات المتاحة حتى الآن قال : « ان المرء يستطيع أن يقول باقتناع تام بأن هذه الممارسات ذات الطبيعـــة الارهابية قد نظمت وأطلقت من قبـــل الدوائر الرجعية والامبريالية والعرقية والشوفينية ومن قبل دوائر التجسس فى دول متعددة » (٧٢) ·

وامتدح الســـكرتير العـــام الجيش والبـــوليس السرى بســـبب « صمودهم الذى لم يتزعزع » فى مواجهة هذه الأعمال واذا جاز التعبير فقد تحمل مسئولية شخصية — كقائد أعلى للقوات المسلحة الرومانية — عن المذبحة البشـعة ، واعتبر تحذيره الحاد من المظاهرات التى قد تندلع فى أماكن أخرى نوعا من التأكيد على الأنباء المرعبة الخاصة بنهر الدم الذى يجرى فى تيميشوارا والتحدى المهين للجماهير الساخطة المحبطة · لقد كانت هذه هى اللحظة التاريخية التى قفزت لوعى العديد من الرومانيين الرغبة فى عبور عتبة الخوف الى الثـــورة ، والأخـــلاق ، والغضب ، والسخط ، وأصبحوا جميعا فجأة — أقوى من الخوف (٧٣) . وتولدت ثورة رومانيا من الاحباط المطلق · ورغم أن الشباب الذين خرجوا للشوارع أدركوا أن مصيرهم هو الموت ، ، الا أنهم رفضوا قبول أى استمرار للقمع ·

ومرة أخرى ارتكب شوشيسكو خطأ قاتلا وهو قراره الغـــريب بتنظيم مظاهرة شعبية ضخمة تأييدا لحكمه ، مشابهة لتلك التى جـــرت من شـــهر فائت · وبعـــد المهـــرجانات المزركشـــة التى أقامهـــا ابان مؤتمر الحزب الشيوعى الرومانى الخامس عشر ، حيث ساق البـــوليس السرى عشرات الآلاف من الناس كالماشية وتم حشد رؤساء الحـــزب ، داخل ميدان القصر Palace Sqtare ، شعرت الجمـــاهير فى صبيحة ٢١ ديسمبر بمنتهى السـخط ، وأصـــبح التمرد وشـــيكا · وفجـــأة بـــدأ التليفزيون الرومانى وبعـــده مبـــاشرة التليفـــزيون الـــدولى فضـــح شكوكية الطاغية وغضبه والتذمر عليهـــا واستـخدامها للسخرية منـــه ، وتحولت الشعارات الشعائرية مثـــل « شوشيسكـــو والشـــعب ! Seasescu si Poporul ! » الى « شوشيسكو الديكتاتور ! dictitoral ! » ·

أما تغيير أعضاء البـــوليس السرى لموقفهـــم من المـــديح الزائف لشوشيسكو الى الاحتقـــار الحقيقى والمزرى وما اذا كان هذا التعبير —

كما ادعى البعض بناء على تعليمات رؤسائهم الذين قرروا – سرا – التخلص من شوشيسكو فهذا شيء غير مؤكد . وعلى أية حال ، فقد شاهدنا ملايين المشاهدين عبر شاشة التليفزيون وهم يصرخون ضد الديكتاتور شارشيسكو . ان الصرح المنيع الذى ضرب حول السلطة قد سقط سقوطا مدويا وتحول الى انقاض تحت رزح هذا الانفجار التلقائى للسخط الجماهيرى .

لقد رأت الجماهير الزعيم وهو يلوح بذراعيه فى ذهول وعصبية ، وما زلنا نذكر صوت الينا شاوشيسكو وهى تحث زوجها كى يتماسك ويضبط أعصابه . وعندما تم اقتراح نقل اقامته لمكان آخر بدأ شوشيسكو فى جزل وعود ديماجوجيه فى محاولة أخيرة لتهدئة الجموع المشتعلة غضبا . الا أن السلطة كانت قد انزلقت بالفعل من شرفة مبنى اللجنة المركزية الى الشارع .

وفى أعقاب المظاهرات الطلابية التى وقعت بميدان الجامعة University Square فى ديسمبر ، ورغم القمع الدموى لها ، اندلعت مسيرات تلقائية معادية لشوشيسكو ملأت شوارع بوخارست وشارك فيها مئات الآلاف وانتابت محطة التليفزيون نوبة عارمة من الدعم للجماهير بمساعدة الجيش الذى غير موقفه فى صف الشعب . ولان المقرات الحزبية قد هوجمت من قبل المتظاهرين فان نيكولاى شرشيسكو وزوجته قد تسللا من المبنى مستخدمين طائرة مروحية الا أن الجيش سرعان ما أمسك بهما ووضعهما فى سجن انفرادى فى مكان سرى . وتكون فى نفس اليوم مجلس جبهة الخلاص القومى National Salvation Front Council ، والتى أعلنت التزامها بالتعددية السياسية والتخلص من مؤسسات النظام السابق . واختفى الحزب الشيوعى الرومانى كأن لم يكن . ولم تكن هناك أية مقاومة تذكر لمنع الاجتياح الا من جانب بعض وحدات البوليس السرى ، وذلك فى الفترة ما بين ٢٢ الى ٣٠ ديسمبر حتى شنق شوشيسكو وزوجته وهو ما أسدل الستار على الحمى الجماهير وعم الارتياح والحماس ، بل واجتاحت نسائم الأمل البلد بأسره ورغم العنف ، فان العيد النورى استمر على احسن ما يكون حتى الأيام الأولى من عام ١٩٩٠ ، عندما بدأت خيبة الأمل فى حكومة جبهة الخلاص القومى التى نصبت نفسها حاكمة ، تدب فى نفوس الجماهير .

وطرحت ثورة ديسمبر العديد من الأسئلة حول الظروف الغامضة التى أحاطت محاكمة وشنق نيكولاى والينا شوشيسكو وحقيقة جبهة الخلاص القومى NSF .

وقد تساءل أحد المراقبية الذى تم ابعاده عن الأحداث ، عن نوايا جبهة الخلاص القومى وطالب بكشف ظروف وملابسات المحاكمة غير المعلنة والتى استتبعها اعدام الثنائى نيكولاى والينا • ورغم أن المتحدث الرسمى عن جبهة الخلاص القومى قد وعد بمحاكمة علنية عندما ألقى القبض على شوشيسكو أثناء فراره فى صبيحة يوم ٢٢ ديسمبر أعلن بعد ثلاثة أيام أن هيئة عسكرية سرية قد حكمت على الثنائى شاوشيسكو بالموت وتم اعدامهما فى الحال • وتدافع جبهة الخلاص القومى عن المحاكمات العاجلة والحكم بالاعدام رميا بالرصاص على نيكولاى والينا قائلة بأنهما انقذت حياة الملايين بالقضاء على « الارهابيين » فى البوليس السرى الموالين لشوشيسكو ، الذين كانوا يدافعون عن قضية خاسرة وأجبرتهم على الاستسلام •

وبعد هذه الأحداث نستطيع أن نقول ان مثل هذه المقاومة كانت تجزيئا وأقل كثافة مما أبرزته وسائل الاذاعة والتليفزيون ، التى ركزت على حرق مكتبة الجامعة المركزية فى بوخارست والخسائر الفادحة التى وقعت فى متحف الفنون الذى يقع فى الطابق الثانى من القصر الملكى القديم •

وعندما لم يقدم « الارهابيون » للعدالة وبالتالى لم يسمع عنهم أحد ، بدأ الشعب فى الشك فى وجودهم • وبدأ للكثيرين فى رومانيا أن نواة الشيوعيين الصلدة لجبهة الخلاص القومى قد باسفت ، عندما قالت ان هناك تهديداً من الارهابيين لاحتواء الثورة المضادة للشيوعية التى اندلعت من القاعدة • ان الأنباء السعيدة عن موت الطاغية قد أحيطت بظروف ضبابية • وبدلا من الانتقام الثورى من الطاغية فقد شهد شعب رومانيا على ما يبدو انه جريمة قتل تتم فى محاكمة صورية زائفة دافع فيها محامون بدوا مثلهم مثل الادعاء ــ مهاجمين ومتهكمين ــ فى محاولة لاذلال الزعيم المخلوع وزوجته • ان تصفية شوشيسكو جسديا وبأسرع ما يمكن ، كان شيئا حتميا لضمان سكوته وضمان انتقال سهل من الأوتوقراطية الستالينية الى الرؤية الرومانية للشيوعية الاصلاحية • واهتم الزعيم الجديد اهتماما كبيرا بشجب الدكتاتور السابق وحاشيته لمسئوليتهم الرئيسية عن كل الكوارث التى اصابت البلد • وبدلا من محاكمة حقيقية للشيوعية الرومانية ، فقد قدمت الجبهة للجماهير صورة للعدل زائفة تهدف الى تصوير الزعيم كشيطان ، وفى نفس الوقت تبرىء ساحة الأجهزة الضخمة التى سهلت لحكم شوشيسكو ممارساته الفاسدة •

ان غموضا عميقا مثل الذى أحاط بمحاكمة شوشيسكو قد أحاط بأصول جبهة الخلاص القومى نفسها · واذا كان المنبر المدنى فى تشيكوسلوفاكيا قد ولد مع ميثاق ٧٧ الذى تم حظره وهوجم باستمرار، فان التشكيل الحاكم الجديد فى رومانيا لم تكن لديه أية حركة معارضة داخلية والتى يمكن أن تتحدد منها هويته فمن عين الأعضاء الأصليين للجبهة أو اختار أيون اليشيسكو السكرتير العام السابق للجنة المركزية كرئيس ، أو البروفسير الشاب فى المدرسة البوليتكتيكية بيتر رومان Peter Roman كرئيس للوزراء ؟ ما هى المعايير التى استخدمت لاختيار القيادات ؟ ومبدئيا ، فان مجلس جبهة الانقاذ القومى الذى ضم عددا من المنشقين اللاشيوعيين أعرب عن استعداده للتخلى عن برنامج الجبهة الأصلى واعدين بانتخابات حرة وبناءة ونظام ديمقراطى ، وتطوير المجتمع المدنى فى رومانيا ·

ان الفجوة بين ممارسات الجبهة المنمقة والممارسات اللينينية أصبحت بينة ، وقدم المنشقون مثل دوينا كورنيا المناضلة فى سبيل حقوق الانسان والشاعرة آنا بلانديانا Ana Blandiana استقالتهم · وبدأت رومانيا تدرك أن البناء الجديد للسلطة ما هو الا امتداد لكثير من أساليب السلطة السابقة · ومن هذه اللحظة فصاعدا ، فان الجماعات المدنية والجمعيات التى تنمو بسرعة وكذلك الأحزاب الديمقراطية الصاعدة قد تم قمعها من جانب الشيوعيين ، لتورطهم فى توجيه النقد لما سمى « بلا شيوعية » جبهة الخلاص القومى . وأصبح الصراع بين السلطة والمجتمع فى رومانيا حادا نوعا ما وذلك عندما أعلنت الجبهة نيتها لترشيح ممثلين لها فى معركة الانتخابات القادمة ، وبذلك تكون قد أعلنت نفسها الحكومة الانتقالية الوحيدة . وعندما احتجت المعارضة على البعث الجديد للأساليب السلطوية عبأت الجبهة العمال للدفاع عن استيلائها على الحكم بالاكراه · الا أن الاكراه لم يجد واستمرت المعارضة فى جمع زخمها · وشكلت الأحزاب الرومانية التقليدية ومنها حزب الفلاحين القومى — حزب الليبراليين القومى وحزب الديمقراطيين الاشتراكيين — بناهم الخاصة وشاركوا فى البرلمان الاقليمى · ونمت معارضة خارج البرلمان بين جماهير الطلاب الراديكاليين أولا ثم الانتلجنسيا فيما بعد ، وقامت الأقلية المجرية والتى خضعت طويلا للتمييز العنصرى السافر ، بتشكيل حزبها السياسى وسمى الاتحاد الديمقراطى المجرى Hungarian Democratic Union · وقام القوميون الرومانيون بتنظيم حركتهم السياسية التى تدعى الموقد الرومانى ، والتى تذكرنا بياناتها بأسوأ تطرف للجماعات الشوفينية

التى وجدت فى الفترة التى توسطت الحرب (٧٤) . ورغم أن جبهة الانقاذ الوطنى استخدمت آلة الدولة الهائلة للحد من عمل المعارضة والزامها بالحياد ، الا أنه كان هناك احساس عام بأن الزمن لا يمكن أن يتوقف أو يعود للوراء ، وأن رومانيا سوف تلحق بركب الدول الأوربية الأخرى فى انتقال صعب الى الديمقراطية ولكنه حتمى .

التمثيل الشعبى والاصلاحات فى يوجوسلافيا :

فى يوجوسلافيا ، وبعد موت تيتو ، ساهمت عملية التجزىء والتفتيت المستمرين فى تزايد نمو الصراعات بين أكبر جمهوريتين من حيث التواجد المدنى وهما سلوفينيا وكرواتيا Slovenia & Croatia وبين الثقافات المهيمنة عرقيا لكل من صربيا Serbia ومونتنجرو Montenegro والبوسنة Bosnia وهدد تصاعد نجم زعيم الحزب القوى سلوبودان ميلوسوفيتش Slobodan Milosevic القومى الثابت على المبدأ فى صربيا بأمكانية الاحتفاظ بوحدة البلد ، الا أن الكرواتيين والسلافينيين حقروا موقف ميلوسوفيتش الشعبى والمعادى للاصلاح . وفى نفس الوقت ، فان كثيرين من الصرب بما فيهم بعض المفكرين الذين عرف عنهم طويلا معارضتهم للقومية راهنوا على تحول ميلوسفتش الى بطل حقيقى ، وهو ما اعتقدوا أنه تهديد علنى لوجودهم ، الا أن كثيرين اعتقدوا بأن « سلوبو Slobo » — وقد نودى به زعيما شعبيا — قد أصلح العديد من الاخطاء التى كانت نكبة على أمته منذ تشكيل يوجوسلافيا مع اندلاع الحرب العالمية الأولى . وقد عبر البروفسير كوستا ميهايلوفيك Kosta Mihailovic الاقتصادى وعضو الاكاديمية الصربية للعلوم Serbian Academy of Science فى بلجراد عن المشاعر التى اسماها الكرامة القومية الصربية الجريحة :

« لقد فرضت الهيمنة على صربيا سياسيا واقتصاديا فى يوجوسلافيا . وتم اضطهاد الصرب منذ أمد طويل . اننا نتبوأ مكانة ذليلة فى يوجوسلافيا . وهذا قد تغير تماما بظهور سلوبودان مليوسفتش » (٧٥) .

وكان ارتقاء ميلوسفتش اشارة الى الخليط الصاعد من القومية والسلطوية والشعبية والمساواة والهجين الأيديولوجى ، الذى يبدو أنه يروق لشرائح اجتماعية عريضة تحمل ثقافات ما بعد الشيوعية وبميلاده فى عام ١٩٤١ ، فان النجم الصاعد فى الحياة السياسية الصربية كان شيوعيا نشطا فى جامعة بلجراد ، حيث حصل على درجة القانون فى عام ١٩٦٤ ، وبعد أن عمل فى البيروقراطية الاقتصادية التحق — بعضوية

الحزب الصربى فى عام ١٩٨٤ كرئيس لمنظمة بلجراد ، وبعد ثلاث سنوات انتخب رئيسا للمكتب السياسى الشيوعى الصربى وفى مايو ١٩٨٩ أصبح رئيسا لجمهورية صربيا . ان سر شهرته يكمن فى استخدامه الماهر للشعارات الشعبية والقومية . ووعد ميلوسفتش هؤلاء الذين عبروا عن تخوفهم من التحول لاقتصاديات السوق بالحفاظ على هيمنة الحكومة على الموارد الاقتصادية ، ووعد الصربيين الذين أصابهم صعود حركة القوميات فى الجمهوريات الأخرى بالارتباك بأنه سيدافع عن ما أسماه الكرامة الصربية . وباقتناعه بأنه لابد أن ينجز مهام مماثلة لجهود تيتو الرائدة من أجل اقامة فيدرالية ، دفع ميلوسفتش بعنف فى اتجاه استعادة مكتب رئاسة الجمهورية الدائم ، والذى سوف يستبدل بالنظام القائم نظاما ، يتناوب فيه زعماء الجمهوريات اليوجوسلافية الست رئاسة الجمهورية .

ان الصراع بين بلجراد والجمهوريتين الأكثر تقدما على المستوى الاقتصادى وهما كرواتيا وسلوفنيا ، قد تعمق بسبب جذوره التاريخية والثقافية . ان تحديد ميلوسفتش المؤثر للمصالح الصربية التى تتضافر مع مصالح يوجوسلافيا قد لاقى كل تحقير على يد الحركات المستقلة ، بل والانفصالية التى تتزايد فى الجمهوريات الأخرى . اضافة الى ذلك فقد كان هناك مزيد من التدهور فى الموقف فى منطقة كوسوفو Kosovo وهو ما أنذر بحدوث انفجار حيث عاد الصربيون لسيرتهم الأولى لسحق القوميين الألبان الراديكاليين الذين أخذوا فى التزايد - وأقيمت دولة يوجوسلافيا ولم يستطع ميراث محاولة تيتو سبر أغوار العداوات القومية وتوحيد البلد على أساس الأيديولوجية الشيوعية ، أن يقاوم صعود المشاعر العرقية . وكما رأينا ، فقد سقطت الأيديولوجية فى كل دول شرق أوربا الا أن سقوطها المدوى كان أكثر وضوحا فى يوجوسلافيا ؛ لأن الماركسية اللينينية بدلا من أن تزيل الصراعات العرقية قامت بقمعها فقط على نحو مؤقت . وبمجرد أن رفع عنها الضغط السياسى ولم تعد اسطورة تيتو تفرض نفسها بالقوة ، فان انهيار يوجوسلافيا بدا وشيكا أو على الأقل ممكنا . ان تكتل الشيوعيين فى يوجوسلافيا الذى ضم ستة أحزاب شعبية ، والذى كان متماسكا ذات يوم بفضل وجود تيتو أصبح مجرد مظلة لا فائدة ترجى من ورائها . وبحلول نهاية عام ١٩٨٩ بقى الجيش المؤسسة القومية الوحيدة وكان العنصر الصربى هو السائد فيه (بنسبة ٧٠٪) ، فجعله ميلوسفتش أداة فاعلة لانجاز خططه الخاصة بفرض هيمنته .

ان خطر اتخاذ اجراءات عسكرية صارمة ضد الجمهوريات المركزية ، اثارت غضبهم وعجلت بظهور التيارات الانفصالية ٠

رد حلف وارسو على جورباتشوف :

ان انفتاح النظام السياسى السوفيتى على يد جورباتشوف ساهم فى استقطاب وتفكك الكتلة السوفيتية ، وبدا أن هناك تيارين مختلفين فى موقفيهما من رياح التغيير التى تهب من موسكو ، فنجد البولنديين والمجريين اتبعوا ـ متأثرين بضغط جورباتشوف عليهم ـ طريق الاصلاحات ، بينما اختار زملاؤهم من أعضاء الكتلة أن يقاوموا الاصلاح ٠ وفى بولندا ورغم أن ياروزلسكى قد أشار فى اعلان القانون العسكرى فى ديسمبر ١٩٨١ ، فان الشيوعيين وجدوا ان اصلاحات جورباتشوف فرصة من أجل تحقيق هدوء داخلى وفرصة من أجل مزيد من التجريب فى مجال الاقتصاد ٠ وكان الشعار الذى استخدم من قبل ياروزلسكى وخليفته فى الحزب الشيوعى البولندى متزيسلو راكوسكى هو « التعددية الاشتراكية » ٠ وتورط الشيوعيون المجريون فى نفس الاتجاه تحت قيادة السكرتير العام المحنك جانوس كادار أولا ، ثم تحت قيادة حليف كادار السابق كارولى جروتز ٠ وفى كلا البلدين ، بزغت انشقاقات قوية داخل الائتلاف الحاكم ، مما ساهم فى تفتيت الأجساد الحاكمة التى كانت متماسكة ذات يوم ، واقتفاء لخطى التغيرات التى تجرى فى اتحاد الجمهوريات السوفيتية حيث أظهر جورباتشوف صبراً متزايدا نحو النقد الموجه له من القاعدة بل وشجعه ، فان المجتمعات المدنية فى بولندا والمجر ايضا جددت من انشطتها بمزيد من الشجاعة والابداع وأجريت الاتصالات بين المصلحين الراديكاليين فى المجر ومناصريهم فى المعارضة الديمقراطية ، وكمثال فان وزير الدولة Minister of State وعضو اللجنة المركزية امرى تونرجاى شارك فى الاجتماع الذى عقد مع ممثلى القوى الديمقراطية عام ١٩٨٧ . وخطط الاصلاحيون فى عام ١٩٨٨ لبلوغ جانوس قادر قمة الحزب الشيوعى المجرى . وأنت المنطقة كلها لحتفها فور أن فقد هذا الرجل سلطته .

ان الحظر الذى فرضه كادار على أية محاولة لاعادة قراءة التاريخ قد رفع ، كما انخرط المجتمع فى استكشاف عميق لماضيه . وبينما كانت بولندا والمجر تجنحان نحو الليبرالية التى انبثقت وتقدمت بسرعة مع مقاومة قليلة من البيروقراطيات الحاكمة ، فان الموجة الجديدة لمناهضة الستالينية واجهت مقاومة لا تنضب فى بلدان رومانيا وبلغاريا وجمهورية

المانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفاكيا . وعلى مستوى حلف وارسو فان التقدم السريع نحو الديمقراطية فى المجر وبولندا وكذلك سياسات جورباتشوف ــ الجلاسنوست والبروسترويكا ــ كانت بمثابة انذار للجماعات الستالينية فى الأقطار الأخرى .

وبالنسبة لشوشيسكو جيفكوف وهونكر ، فان الضغط السوفيتى للتورط فى اصلاحات شاملة بلغ درجة الدعوة لتقويض أواصر سلطتهم . وكل واحد من هؤلاء الحكام الشيوعيين قد ساس بلده بقبضة حديدية لأمد طويل ، وقد وصموا على نحو مشين الانشقاق السياسى والمعارضة بوصمة عار ، كما تخلصوا من كل منافسيهم الذين أعلوا من شأن الخط الاصلاحى .

ان درجة المقاومة للاصلاحات السوفيتية التى تلقى كل تشجيع من القاعدة اختلفت من بلد الى آخر . فنجد أنه كان يسيرا على شوشيسكو بتجربته من أجل الاستقلال عن موسكو أن يعبىء جهوده لكسب دعم الحزب من أجل خط سياسى متشدد ، وتأييد العناصر المعادية للسوفيت . وكان التحدى الواضح لموسكو اكثر المشاكل الصعبة التى تواجهها قيادة تشيكوسلوفاكيا برئاسة جوستاف هوساك والسكرتير العام ميلوس جاك ، ورأى الاثنان أن قطع الحبل السرى مع الاتحاد السوفيتى كان مستحيلا عمليا ، اذ كانت أوراق اعتمادهم لدخول حلبة السياسة والبقاء فى السلطة هى دعمهم النشط للقمع الذى تبع التدخل السوفيتى فى يوجوسلافيا فى أغسطس ١٩٦٨ . وفى بلغاريا ، كانت وظيفة جيفكوف السياسية كلها قد ارتكزت على الخضوع العبودى للأوامر التى تأتى من موسكو ، ولذلك فهو الآن لا يستطيع أن يتحدى المركز . وبالنسبة لزعماء المانيا الشرقية فقد كانوا يعلمون جيدا أن الاتحاد السوفيتى بجيشه ، الأحمر Red Army هو الذى سهل تواجدهم ووصولهم المبكر للسلطة وبمعارضتهم للاصلاحات الراديكالية كان يمكنهم فقط تأجيل العملية التاريخية الحقيقية التى سوف تؤدى الى وحدة الألمانيتين من جديد ، والتخلى عن ما اعتقد كثيرون أنه بناء هش لدولة تدعى جمهورية المانيا الديمقراطية ، هؤلاء الزعماء اللاليبراليون حاولوا أن يلعبوا بالوقت ، فيقدموا الدعم والعون لجورباتشوف بينما كانوا يأملون فى قرارة انفسهم فى أن تقوم الصقور فى المكتب السياسى السوفيتى بالتخلص عاجلا من السكرتير العام المشاغب ، واستعادة التفسير الأوحد للاشتراكية والنموذج البرجنفى المبنى على العسكرية ،

والتوســـعية والفساد واللامبـالاة الاجتمـاعية • وعـرف جـاك ربنـك Jacques Rupnik اتجاهات وآراء القيادات الشيوعية الشرق أوربية فى اصلاحات جورباتشوف بانهـا :

« وظيفة العـــلاقات التى يملكونها مع المجتمعات التى تســتحق الاحترام ، ودرجة القبول أو الفتور التى ترتبط مع الأولوية التى اعطوها سواء للسيطرة الاجتماعية أو للبحث التكتيكى عـــن اجمـــاع رأى فى المجتمع » (٧٦) •

هوامش الفصــل الســادس :

(١) Thomas W. Simons, Jr., *The End of the Cold War* ? (New York : St. Martin's Press, 1990), pp. 150-51.

(٢) *Sovetskaya Kultura*, April 9, 1988.

(٣) Zbigniew Brezezinski, *The Grand Failure : The Birth and Death of Communism in the Twentieth Century* (New York : Charles Scribner's Sons, 1989), p. 48.

(٤) Adam Michnik, "The Great Counter-Reformer," *Labour Focus on Eastern Europe*, 9, no. 2, (London, July--October 1987) : 23.

(٥) *Ibid.*

(٦) *Ibid.*

(٧) Brezezinski, *Grand Failure*, p. 64.

(٨) Seweryn Bialer, *The Soviet Paradox* н *External Expansion,* Internal Decline (New York : Knopf, 1986), p. zuo.

(٩) Baruch Hazan, *Gorachev's Gumble* : *The* 19th All-Union *Party Conference* (Boulder, Colo : Westview ,1989), p. 156.

(١٠) *"Gorbachev's View of Changing World," philadelphia* December, 11, 1988.

(١١) "Russia's Surly Empire", *The Economist (London) November* 26, 1988, p. 13.

(١٢) "The Soviet Perspective," *Problems of Communism*, May-August 1988, p. 62.

(١٣) *Ibid.*, p. 63.

(١٤) *Pravda*, July 7, 1989 .

(١٥) Henry Kamm, "Gorbachev Said to Reject *Soviet Right to* Right to Intervene", *New York Times*. April 2, 1989.

(١٦) Vladimir F. Kusin, "Mikhail Gorbachev's Evolving Attitude to Eastern Europe," *Radio Free Europe Research*, RAD Background Report 128 (Eastern Europe), July 20, 1989, p. 4.

(١٧) Nina Andreyeva, "I Cannot Waive Principles," *Sovetskaya* ...*Rossiya*, March 13, 1988, translated in FBIS — Soviet Union, ...March 16, 1988, p. 51.

(١٨) *New York Times*, October 24, 1989.

(١٩) Reuters, October 16, 1989.

(٢٠) Charles Gati, *The Block That Failed : Societ-East European Retalion in Transition* (Bloomington and Indianapolis : University Press, 1990), p. 167.

(٢١) Radio Free Erope, *Daily Report*, May 8, 1989.

(٢٢) Gati, *The Bloc That Failed*, p. 168.

(٢٣) Timothy Garton Ash, *The Uses of Adversity : Essays on the Fate of Central Europe* (New York : Random House, 1989), pp. 321-22.

(٢٤) Kharen Dawisha, *EasternEurope, Gardachev and Refor : The Great Challenge* (Cambridge and New York : Cambridge University, 1990), p. 296.

(٢٥) Mihaly Vajda, "The Collapse of Socialism : A Theoretital Explanation," *East European Reporter*, 4, no. 3 (Autumn-Winter 1990) : 51. ...

(٢٦) Ibid.

(٢٧) "The Social Contract : Prerequisites for Resolving the Political Crisis" special issue of samizdat journal *Beszelö*, June 10, 1987 (English translation), p. 2, *Beszelö* was run by an editorical staff that included some of the most famous names of the Hungarian Democratic Opposition : Miklos Haraszti, Janos Kis, Ferenc Koszeg, György Petri and Sandor Szilagyi.

(٢٨) *Ibid.*, pp. 7-8.

(٢٩) "Pozsgay Interviewed by Radio Free Europe 24 May", *Magyar Nemzet* (Budapest) May 29, 1989, translated in FBIS — Eastern Europe, June 7, 1989, p. 26.

(٣٠) Dawisha, Eastern Europe, Gorbachev and Reform, p. 179.

(٣١) "The Struggle for Political Pluralism : The First Congress of the Association of Young Democrats," East European Reporter, 3, no. 4 (Spring-Summer 1989) : 17-18.

(٣٢) "Democracy Within the Warsaw Pact : An Interview with Ferenc Koszeg," EER, 3 : 12-14.

(٣٣) Vladimir Tismaneanu, "From Prague Spring to Moscow's "Glasnost", *Philodelphia Inquirer, February* 17, 1988.

(٣٤) Interview with Alexander Dubcek, former General Secretary of the Czechoslovak Communist Party, broadcast by Hungarian television on April 26, 1989, in FBIS — Eastern Europe, April 28 1989, p. 23, and Vladimir V. Kusin, "Hungarian Television Interviews Alexander Dubcek," *Radio Free Europe Research*, Czechoslovak SR/10, May 5, 1989, pp. 9-15.

(٣٥) Karel Horak, "In the Role of the 'Savior' of Socialism : Annotations on Some of A. Dubcek's Statements to Foreign Information Media," *Rude pravo*, March 29, 1989, translated in FBIS Eastern Europe, March 31, 1989, p. 21.

(٣٦) Patricia Clough, ê'Unreal Country Where Reform Depends on moves Honecker and His Protègt Takes His Place", in Bernard Gwertzman and Michael T. Kaufman, eds., *The Collapse of Communism : By the Correspondents of the New York Times* (New York : Random House, 1990), p. 159.

(٣٧) Patricia Clough, "Unreal Country Where Reform Depenrs on the Grim Reaper," *The Independent* (London), August 22, 1989

(٣٨) Barbara Donovan, "Reform and the Existence of the GDR," *REER, RAD Background Reporty* 158 (GDR), August 25, 1989, p. 2.

(٣٩) Barbara Donovan, "The SED Becoming More Outspoken on Reform," REER. RAD Background Report/6 (GDR), January 12 ...1989.

(٤٠) Pamela Shemid, "East Germany and the Marxist Malaise," *U.S. News World Report*, November 14, 1988, pp. 40-41.

(٤١) "Hager Delivers Address at Historians Meetin," *Neues Deutschland* (East Berlin), April 8-9, 1989, translated in FBIS — Eastern Europe, April 11, 1989, pp. 30-32.

(٤٢) "Margot Honecker : 'Defend Socialism With Weapons'. Neues Deutschland, June 14, 1989, translated in FBIS — Eastern Europe, June 20, 1989, pp. 41-42.

(٤٣) Josef Joffe, "Who's Egon Krenz ? He's No Gorbachev", *New York Times*, October 19, 1989 (op-ed page).

(٤٤) Serge Schmemann, "*The Border Is Open — Joyous East* Germans Pour Through Wall — Party Pledges Freedoms and City Exults," in Gwertzman and Kaufman, *Collapse of Communism*, pp. 175-80.

(٤٥) Barbara Donovan, "The Tenth SED CC Pelnum : Moving ......Toward Reform," *REER*, RAD Background Report (GDR), November 20, 1989, pp. 6-9.

(٤٦) David Binder, "Reports of Corruption in East Berlin Shock Even the Party Rank and File", *New York Times, November* 25, 1989.

(٤٧) Craig R. Whitney, "East German Communists Confront Party's Collapse," *New York Times*, December 17, 1989.

(٤٨) Barbara Donovan, "The Extraordinary SED Congress : A New Bginning or the Begining of the End ?" REF, Report on *Eastern Europe, January* 19, 1990, pp. 5-8.

(٤٩) R. W. Apple, "Prague Opposition Mounts Huge Protest, Denouncing New Leaderdhip as 'a Trick,'" in Gwertzman and Kaufman, *Collapse of* Communism, p. 238.

(٥٠) "What We Want : The Programme Principles Issued by the Czechoslovak Civic Forum," *East European Reporter*, 4, no. 1 (Winter 1989-90) : 50-51.

(٥١) "Czechoslovak President Vaclav Havel' New Year's Day Address," *East European Reporter*, 4, no.. (Winter 1989-90) : 56.

(٥٢) Ibid.. p. 57.

(٥٣) Czesław Milosz, *The Captive Mind* (New York : Vintage, 1981), p. 45.

(٥٤) "Havel's New Year's Day Address," p. 58.

(٥٥) Stephen Ashley, "Can Todor Zhivkov Survive as Bulgaria's Leader " *RFER*, Bulgarian SR/6, July 14, 1988, p. 4.

Clyde Haberman, "Bulgarian Change Barley Plods Along," (٥٦)
New York Times, *October* 7, 1989.

Clyde Haberman, "Bulgarian Chief Quit After 35 Years of (٥٧)
Rigid Rule," *New York Times*, November 11, 1989.

Clyde Haberman, "Communists in Bulgarian Expel (٥٨)
Zhivkov," *New York Times*, December 14, 1989.

"Report on 'Deformations' of the Zhivkov Era," *Rabotnichesko Delo* (Sofia), January 16, 1990, translated in FBIS — Eastern Europe, January 1990, pp. 11-13. (٥٩)

For biographical sketches on Bulgaria's new (and not so new) political personalities, see Pavlina Poppisakova, "Who's Who in Bulgarian Politic." *East European Reporter* 4, no. 3 (Autumn — Winter 1990) : 32-33. (٦٠)

Chuck Sudetic, "Bulgaria's Ex-Dictator Refuses to Face (٦١)
Parliament," *New York Times*, July 31, 1990..

For an analysis of political decay in Romanian ruring the 1980s, see Vladimir Tismaneanu, "Personal Power and Political Crisis in Romania," *Government and Opposition* (London), 24, no. 2 (Spring 1989) : 179-98. (٦٢)

J. F. Brown, *Eastern Europe and Communist Rule* (Durham, N C. : Duke University Press, 1988), p. 276. (٦٣)

Michael Shafir, "Xenophobic Communism : The Case of Bulgaria and Romania". REER, RAD Background Report/112 (Eastern Europe), June 27, 1989, p. 3. (٦٤)

"Letter to President Nicolae Ceausescu" and Vladimir Tismaneanu, "The Rebellion of the Old Guaré", both in *East European Reporter*, 3, no. (Spring-Summer 1989) : 23-24. (٦٥)

Mircea Dinescu, "Where Policemen Outnumber the Pigeons." (٦٦)
Uncaptive Minds (New York), II, no. 3 (May-July 1989) : 34.

Michael Shafir, "Eastern Europe's 'Rejectionists'," *REER*, (٦٧)
RAD Background Report/121 (Eastern Europe), July 3, 1989, p. 2.

"Building a New Social System with the People and For the People, "*Scinteia*, October 18, 1989, translated in FBIS, Eastern Europe, October 27, 1989, p. 69. (٦٨)

Alan Riding, "In Romania, the Old Order Won't Budge," (٦٩)
New York Time , November 25, 1989.

Kevin Devilin, "Ceausescu's Isolated Internationalism", (٧٠)
REER, RAD Background Report/212 (Romania), December 1, 1, 1989.

Thomas P. Barnett, "Romania Domino Stays Upright," (٧١)
Christian Science Monitor, December 11, 1989.

"Speech by President Nicolae Ceausescu on Romanian Radio and Television Stations in Bucharest on 20 December," FBIS Daily Report : East Europe (FBIS - EEU), December 21, 1989, p. 66. (٧٢)

For a detailed analysis of the collapse of Romanian communism, see Matei Calinescu and Vladimir Tismaneanu, "The 1989 Revolution and Romania's Future," *Problems of Communism*, January-April 1991, pp. 42-59. (٧٣)

Trond Gilberg, "Romania : Will History Repeat Itself ?' *Current History* (Philadelphia), December 1990, p. 432. (٧٤)

Henry Kamm, "Yugoslavs Astir over Serbian Rise," *New York Times*, *August* 6, 1989, For Milosevic's career and ideological preferences, see Paul Yankovitch, "Slobodan Milosevic · l'homme fort de la Serbie," *Le Monde* (Paris), October 18, 1988. (٧٥)

Jacques Rupnik, "Perestroika and the Empire", *European Journal of International Affairs*. 1, no 1 (1988) : 117. (٧٦)

الفصـــل الســابع

مخاض الديمقراطية :

« اننا يمكن أن نتحـول الى حيـوانات واذا أردنا أن نظـل آدميين فهنـــاك اذن طـــريق واحـد ، طريق المجتمـــع المفتـــوح » ٠

كارل ر ٠ بوبر٠

Karl R. Popper

« اننى أدعو الله كى لا نتحـول من مساجين الى سجانين » ٠

آدم متشنك ٠

ان ثورات عام ١٩٨٩ وانهيار الأحزاب الشيوعية هو ما يكشف مدى ضعف المؤسســات الحــاكمة فى أوربا الشـــرقية ٠ وحقيقـــة ، فان انهيار هذه الأنظمة البيروقراطية المؤسساتية بدا بينا قبـل وقوع هذه الثورات بزمن . ان الاطالة فى عمر الانظمة الشيوعية يعتمد على استخدام القــوة وتوقع التهديد الأجنبى الذى سيقضى على أية محــاولة للتخلص من النظام القائم . ان ذكرى عام ١٩٥٩ ببودابســـت وعــام ١٩٦٨ ببراغ اســتخدمت كأداة فعالة فى يد هؤلاء الذين يرون أن الحاجة أصبحت ملحة لاجـراء الاصلاحات ٠ وفيما بعد ولأن الضغط السوفيتى قد خفف من وطأته ولأن الأحلاف المحلية وجدت نفسها محرومة من الدعم الأجنبى ، فان الموجة الجديدة من التجريب الثورى أمكنها أن تلم شـمل القوى المعارضة .

وفى عامى ١٩٨٨ ، ١٩٨٩ بدا أن المســتحيل يتحقــق ٠ وبسرعة مذهلة تم التخلص من كل المحاذير الســابقة ، وبدأت المعـــارضة ولأول مرة فى الاجتياز الراديكالى لبنية السلطة التى وجدت منذ وجود مبدأ التبعية فى أوربا الشرقية فى الفترة التى توسطت الحرب العالمية الثانية. ولم يبلغ أى حاجز درجة من الصلابة تمكنه من مقاومة الاضطـراب الثورى المصاعد ٠ وارتبك السلطويون وأصبحوا عاجزين عن اتخـــاذ الاجراءات فى مواجهة التحديات الجديدة . وقد انتاب الجميع من هونكر حتى شاوشيسكو ومن جيفكوف حتى جاك حـــالة من الذعـــر شديدة

وكانت الوسيلة الوحيدة التى يمكن ان يلجأوا اليها لقمع الاجتياح الشعبى والقبض على زعمائه هى العنف . الا أن ذاك التكتيك كان نقيضا لما أرادته موسكو · ان الوجه الباسم للاشتراكية التى حاول جورباتشوف وفريقه ان يظهروه فى العلاقات الدولية ، كان يعنى شجب أية طرق قمعية تقليدية · وأصبح شعار اليوم الاقناع وليس الاجبار ·

ومبدئيا ، فان المشاعر التى عمت أرجاء البلدان الشيوعية السابقة والتى كانت معادية للتوتاليتارية ــ وتهدف للتخلص من المؤسسات والبنى الشيوعية ــ حدثت بسرعة مذهلة لم تكن فى الحسبان · ان المناخ كان حمى من النشاط خاصة ؛ لأن التغيرات الثورية التى وقعت فى هذه البلدان ــ باستثناء رومانيا ــ كانت بيضاء بعيدة عن العنف · ولقد بلغت الآمال عنان السماء وبدا أن ميلاد المؤسسات الديمقراطية بما فى ذلك البرلمانات والاحزاب السياسية سوف يتم دون معوقات ، وغالبا بتلقائية الا أن ذلك كان وهما شجعه سرعة أحداث ١٩٨٩ ، وأحد الأخيلة الرئيسية التى شاعت هو أن الشيوعية سوف يتبعها بالضرورة أشكال ديمقراطية من الأنظمة السياسية والاجتماعية ·

وبسبب الوله المتفشى بالأيديولوجية اللينينية وممارساتها التى أخذ بها السياسيون فى المنطقة ، وكذلك العديد من المحللين الأجانب كمسلمة ، وبسبب ما تعرضت له هذه البلدان من مآس تحت النظام الديكتاتورى ، حاصرت هذه الأمم الاغراءات السلطوية الجديدة · ولكن ، وكما رأت كينث جوويت ، فان هذا الاعتقاد كان يكمن وراءه أمل كبير · وقد تركت اللينينية بصمتها على النفسية الجماعية ، تاركة وراءها شكلا من أشكال السلوكيات ستظل تؤثر على المناخ الشعبى · ان ما خلفه « النظام القديم » ، كان العقبة الوحيدة التى جابهتها المجتمعات التى جاءت بعد الحكم الشيوعى · ان الفصل بين المصالح العامة والخاصة ، وهو ما يميز الديمقراطية الاجرائية ، كان شيئا يفتقر اليه

« ان ارث اللينينية قد فهم على أنه تأثير التنظيمات الحزبية والممارسة أما روح الشعب فهى المعارضة التى تم حظرها . ومن مصلحة اللينينية ان تسود طريقة للحياة أقرب الى السلطوية منها للراسمالية الليبرالية، ومن مصلحتها ان تضع العقبات التى تعرقل التحول لاقتصاد السوق وتعرقل اجراء حملات انتخابية وتهدف لتحويل القوى الجماهيرية لقوى مؤسساتية » (١) .

ان الشيوعية لم تحكم تلك البلدان بطريقة منهجية معتدلة . ووضع البوليس السرى فى تلك البلدان جميعا الجماهير تحت رقابة

محكمة وكمم افواه المفكرين ، وتلقن الطلاب مبادىء الشيوعية واستغل العمال وجعلهم يعملون ساعات اضافية دون مقابل ٠ ان هذه المجتمعات جميعا قد رضخت للفساد والاحباط الثقافى ، والفساد السياسى والأهم من ذلك كله أنها افتقرت بشدة للاحساس بالتضامن الاجتماعى ٠ ان الشك والمنهج القسرى من أجل التكتل والدمج ، جعل الشيوعية تسرف فى تحطيم كل المؤسسات الوسيطة والجمعيات التى كانت يمكن أن تصبح دعائم للمجتمع المدنى ٠ وبذلك تكون رؤية تومثى كارتون شيئا يلفت الانتباه :

« بداية ، يجب أن ندرك ان ما خلفته الشيوعية هو الحطام والتجزىء وتضارب المصالح وتنافر الاتجاهات ووجهات النظر والأفكار والعادات » (٢) ٠

خذ مثال تشيكوسلوفاكيا ، حيث تم الكشف عن تورط عشرة من أعضاء البرلمان فى علاقات مع البوليس السرى وكان ذلك فى ديسمبر ١٩٥١ ، ولم تكن القضية هى جريمتهم الشخصية ولكن القضية هى غياب الاطار الاجرائى للتعامل مع تلك التهم بطريقة موضوعية . وفى كل تلك البلدان أدى التجريم وتصفية الحسابات الى التشويش على التحليل العميق للأسباب الحقيقية التى أدت الى الكارثة الشيوعية . ان الممارسات السياسية المجنونة غالبا ما تتصارع مع البحث المستمر عن اعادة البناء الديمقراطى ٠ ان الخاسر الأول فى انهيار ١٩٨٩ هم الشيوعيون الذين وجدوا متعتهم الخاصة فى تسميم المناخ العام والتورط فى ديماجوجية اجتماعية ٠

ان زوال الأنظمة الشيوعية لا يعنى انهيارا فوريا للثقافات السياسية الشيوعية — أى كل العادات وكل العقليات ، وكل الاتجاهات ، وكل الرموز ، وكل القيم وكل المبادىء التى هيمنت على الحياة الاجتماعية لعقود طويلة .

ان المشاكل الأساسية التى تواجه الأحلاف الجديدة فى أوربا الشرقية ، يمكن أن توضع فى شكل سلسلة لا تنتهى من الأسئلة التى تبدأ بكلمة « كيف » . كيف تقيم دولة ديمقراطية فى غياب ثقافة متسامحة تسودها التمايزات ؟ وكيف تستطيع توحيد الاتجاهات المتصارعة دون العودة الى الطرق السلطوية فى الهيمنة والاجبار ؟ كيف ترسخ شعورا عاما بالمسئولية وتتجاوز الأنانية دون اثارة التعصب نحو مصالح معينة تضر بالصالح العام ؟ كيف تستبدل احتكار الدولة الشامل للقدرة الشعبية بشكل مختلف من التنظيم والذى يمكن فيه

استبدال المنطق الشمولى للينينية ببحث عام عن التسوية ؟ كيف يمكن تحويل المبادىء المدنية التى طال سباتها ، بل والتى لم توجد أصلا الى طاقات اجتماعية قادرة على الاسهام فى الحد من الاستبدادية ولكن دون أن تصبح مصدراً دائما للقلاقل والهيمنة والاذلال ؟ وبمعنى آخر ، كيف تحمى حقوق الاقليات التى تهددها الاتجاهات العرقية السائدة داخل الأغلبية فى تلك البلدان ؟

ان المأساة الشرق أوربية فجرتها الآمال الخيالية الخاصة باتباع القيم الغربية . والاعتقاد بأن نهاية احتكار الأحزاب الشيوعية للسلطة ستؤدى حتما الى نهاية الشيوعية وميلاد الديمقراطية أسهم فى وجود هوة متزايدة وعلى نحو مستمر بين الآمال الصاعدة للجماهير وقيود النظام القائم · وفى الحقيقة ، أن ما حدث فى ذلك البلد أشار الى أن بناء الأنظمة الديمقراطية الحقيقية ، كان مستحيلا على المستوى الاجتماعى بعد هذه السنوات الطويلة من الدكتاتورية ، ولكنه يشير أكثر الى اعادة البناء التدريجى للساحة السياسية . وبعد عقود طويلة حيث كانت السياسات تعتبر نوعا من الديماجوجية والازدواجية ووكرا يشغله الانتهازيون ، تحولت النظرة فأصبحت تعد مجالا يمارس فيه ومن خلاله الفرد حقوقه المدنية ·

وصعدت حركات سياسية جديدة بالاضافة الى جماعات المعارضة السابقة التى تحدت فيما مضى الحكومات الشيوعية . وبعد سبات واحباط السنوات السابقة وعندما بدا ان التاريخ قد أتى لنهايته فى هذا الجزء من العالم ، عم احساس عارم من الجذل والفرحة والأمل . وفى الشهور الأولى من عام ١٩٩٠ كانت تسيطر على الجماهير الحماسة والأحلام الرومانسية بتضامن قومى · وصعدت السياسات الجديدة كمحاولة لاستعادة التقاليد التاريخية ، الا أن النظام السياسى الوليد كان لابد أن يكون تكاثرا للأنظمة السابقة على الشيوعية · وفى كل هذه البلدان كان الاتجاه العام هو الحمى التى أصابت الجميع لاتباع النماذج الغربية من أجل انتقال عاجل وسريع للديمقراطية .

وبالنسبة للعديد من الناس بدا أن الانتقال الفطرى للديمقراطية مع اقتصاد سوق ، سيكون دواء لكل داء ولكل علة سببها التخطيط المركزى · لقد كان هناك نوع من الوله لانتهاج سياسة السوق الحرة · ولأن الخصخصة انبثقت فان البطالة تفشت بين الملايين مما ينبىء بظهور الحركات الديماجوجية مرة أخرى تجزل وعودها ، بأن يحصل كل فرد على فرصة عمل بأمل كسب السلطة السياسية · ومن ثم فانه

لشيء ملح وضروري بالنسبة لهذه البلدان أن تحدد الضمانات الدستورية والثقافية التى ستزيل خطر السقوط فى مستنقع من السلطوية يختلف عن ذلك اللينينى ، وذلك لمجرد انه لا يتوحد مع الأسطورة الأيديولوجية الماركسية • وبمعنى آخر ، فان هذه الأمم يجب أن تبنى مجتمعاتها المدنية من أجل اجتناب أى انزلاق مفجع يسببه الانتقال من طغيان الفرد الى طغيان الجماعة . وفى كلمات رالف دارندوف يقول :

ان شعار « نحن الشعب » شعار جميل ولكنه كمبدأ دستورى يعد صورة تعكس بدقة الوضع الذى تم التخلص منه اخيرا • واذا استبدلت احتكار الحزب تماما بانتصار مطلق للجماهير ، فالجميع سوف يخسر قريبا ، اذ أن الجماهير ليس لديها بقية ولا استمرارية • والسؤال الأساسى هو كيف تملأ الهوة بين الدولة والشعب بالأنشطة التى تخلق – باستقلاليتها – مصادر اجتماعية للسلطة • وقبل أن يتم ذلك ، فان دستور الحرية وقوانين اقتصاد السوق والدستور الاجتماعى او ما شابه سوف تظل مجرد شعارات » (٣) •

ان بلدانا ليس لها تجارب ديمقراطية طويلة وعميقة ، يكثر فيها احتمال التلاعب بالجماهير السذج وبهؤلاء الذين اصابتهم الحيرة ؛ بسبب المغامرات الشائكة والانتهازيين الذين يستغلون لهفة الجماهير واحباطاتهم للاستيلاء على السلطة . ان الشيوعية تموت فى أوربا الشرقية ولكن ما خلفته من رغبة فى الحصول على المكافأة الفورية والتعويض جعل المناخ مواتيا لنمو حركات سياسية غامضة تستغل مشاعر الأمان ، ومثال على ذلك الأغلبية الساحقة التى فازت بها جبهة الخلاص الخلاص القومى برومانيا فى انتخابات مايو ١٩٩٠ • لقد فازت جبهة الخلاص بعد أن وعدت الجماهير بتجنب الصدمة المؤلمة التى سيسببها الانتقال لاقتصاد السوق ، وفازت لقدرة رجلها الأول أون اليشيسكو • ومثال آخر على ذلك هو النغمة التوفيقية الشعبية التى استخدمها سلوبودان ميلوسفتش فى يوجوسلافيا فى ممارسته السياسية والتى فاقت ممارسات احد أكثر معارضيه القوميين وهو فيوك دراسكوفيتش Vuk Draskovic زعيم حركة البعث الصربى Movement for Serbian Renewal الراديكالية • وقد استخدم دراسكوفيتش مثل هذه القوالب والعبارات التالية مشيراً الى الكروات :

« ان معظم الكرواتيين يكنون كرها لا معقولا للصربيين . ان الشعور الوحيد الذى يكنه الكروات هو الكره » (٤) •

ويمكن لمثل هذه الحركات أن تكسب غالبية مؤقتة فى البرلمانات الجديدة ويمكن أن تفرض وجهات نظرها المتعصبة على أقليات الدولة المتقوقعة • ولفهم طبيعة هذه الرؤى المتعصبة التى سببتها القفزة المفاجئة للتعددية دون وجود أساس دستورى من أجل عملية ديمقراطية منظمة ، فلابد للمرء أن يعود لتحليل الكسس دى توكفيل Alexis de Tocqueville عن استبداد الأغلبية وحق الفرد فى مقاومته :

« عندما أرفض أن أطيع قانونا غير عادل ، فاننى لا أعترض على حق الأغلبية فى القيادة ولكننى ببساطة لأحبذ أن تسبق سيادة الشعب، سيادة الانسانية » (٥) •

والخطورة فى أن التكوينات السياسية الجديدة التى قامت على أنقاض الشيوعية ، لن تكون قادرة على استخدام السلطة بطريقة معقولة وحكيمة كما لا يجب المغالاة أو التقليل من أهميتها • وعلى أية حال ، سيظل الخطر الحقيقى هو انه لكى تضمن النجاح الانتخابى فان العديد من الجماعات الجديدة بأدائها الأيديولوجى سوف ترضى الجماهير وتصبح جزءا من الفانتازيا الشعبية •

ان ذلك هو الشىء الوحيد الذى يضمن ازالة البيروقراطيات الشيوعية واقامة مجتمع يتوقف فيه الأفراد عن الشك فى بعضهم البعض • ان تجديد السياسات واكتشاف ساحة شعبية كمكان تناقش فيه القيم السياسية الجديدة وتنبت فيه جماعات مختلفة نشطة ، هما اشارتان على انفتاح الساحة الشعبية • ان الديمقراطية ـ على أية حال ـ بثقافتها اللا ذاتية الاجرائية كان من الطبيعى أن تقام على أساس مازال هشا تطاردها أشباح الماضى •

وكما كتب كارل ماركس فى كتابه الثامن عشر من برومير — لويس بونابرت :

« ان عادات الأجيال الفائته جميعها تزن وزن الكابوس على عقول الأحياء » (٦) •

ولأن الماضى كان قد أرجىء مؤقتا ، فانه الآن يعود بكل عقده وأفكاره المتضاربة التى خلقت دراما التاريخ الشرق أوربى ، التى استمرت لقرون قبل وصول الشيوعية •

ورغم الهرطقة الدائمة فى أوربا الشرقية والتى تضمنت الآن أسسا أيديولوجية ، فان الأحزاب الجديدة قامت على أساس العلاقات

الشخصية وشاركت فى التجربة . ان الأحلاف السياسية الجديدة تكونت من جماعات مختلفة ، شاركت فى أنشطة مشابهة وتربطهم داخليا علاقات شخصية قوية قديمة • انها مسائل ايديولوجية الا أنها ترتكن الى مشاعر شخصية • ان فهم الاتهامات والتجريم اللذين تما فى المجر وبولندا الحاليتين يتطلب أن يكون المرء ملما بتاريخ المعارضة الديمقراطية ولجنة الدفاع عن حقوق العمال • وان كثيرين من ممثلى الشعب والوزراء الحاليين كانوا متورطين يوما ما فى الأعمال السرية لحقبة الانشقاق البطولى . وآخرون كانوا شهوداً على ما يجرى ورغم أنهم لم يتخلوا عن السلطة الشيوعية الا انهم شاركوا بشكل غير مباشر فى الفعالية السياسية المضادة للشيوعية . وبالنظر الى الموقف السياسى المجرى والبولندى فقد سجل تيموثى كارتون مشاهداته قائلا :

« **فى السياسات القائمة توجد طبقة من الساسة تشكلت فى عام ٤٨ وأخرى ٥٦ ، وأخرى ٦٨ ، وطبقة عام ٨٠ وأخيرا عام ٨٩ (وهى أكبرها جميعا) وفيما بينها ، وبداخل كل واحدة منها يوجد تاريخ شخصى معقد من الصداقات والعداوات • ولا يمكن أن فهم الروابط والترتيبات الشخصية التى تحدث اليوم ، اذ لم تعرف ماذا فعل كل واحد منهم خلال الأربعين عاما الماضية • ان [ال] طريق الجدى الوحيد للفهم الحقيقى هو البحث عن سيرة ذاتية تاريخية مفصلة لكل هؤلاء الذين يحكمون** » .

ان طبيعة الانتقال الأيديولوجى لتلك العلاقات والروابط لهى شىء مذهل اذا اعتبرنا المحافظ الثقافى والسياسى مثل جاسبار ميكلوس تامس Gaspard Miklos Tamas أحد زعماء ائتلاف الديمقراطيين الأحرار فى المجر وهو تشكيل له مبادىء ليبرالية تماما .

وقد كان تامس ، على أية حال ، مصدر قوة للمعارضة العلنية وصديقا مقربا لدائرة بتزيلو Beszelö التى يرأسها الرئيس الحالى للديمقراطيين الأحرار وهو يانوس كس • وفى نفس الوقت فان جيورجى بنس György Bence الفيلسوف الذى وقف فى الماضى مع كسى وكان عضوا شابا فى مدرسة لوكاسس Lukaces للنقد الماركسى هو الآن مستشار غير رسمى ولكنه مقرب لاتحاد الديمقراطيين الشبان Fidesz • ويمكن أن نرى دورا مشابها للعلاقات الشخصية فى الحياة السياسية البولندية حيث أخذ حلف مفكرى وارسو وكراكاو Krakow جانب تاديوتس ميزوفيسكى ، ضد ليخ فاونسا خلال الانتخابات الرئاسية التى تمت فى ديسمبر ١٠٩٠ • واذا لم يلتفت المرء

الى « ما وراء » تلك العلاقات فلن يستطيع فهم ـ الا بصعوبة جمة ـ مرارا التهم ومدى عمق ما يبدو أحيانا على أنه يشبه صراعا ضاريا (٨) ٠

وفى معظم هذه البلدان كانت أهم القضايا التى تشغل الرأى العام هو مصير الأحزاب الشيوعية السابقة ٠ وفى رومانيا ــ على سبيل المثال ــ فان الحزب الشيوعى الذى ذكر بدا وكأنه تلاشى دون أن يترك أثرا بعد الصعود التلقائى المعادى للشيوعية فى ديسمبر ١٩٨٩ . ولكن هل كان ذلك تلاشيا أم تصحيحا لوجهات النظر ؟ هل يمكن للمرء أن يصدق حقا أن الحركة السياسية التى ضمت أربعة ملايين عضو قبل ثورة ديسمبر ١٩٨٩ ، قد تركت الساحة التاريخية كأن لم تكن ؟ وبالنسبة لكثيرين ، فان جهد الانقاذ الوطنى وهو التشكيل الذى وصل الى السلطنة بعد الفراغ الذى تركه فرار شوشيسكو الى بوخارست كان ببساطة مجرد اعادة تجميل لصورة الحزب الشيوعى القديم ٠ وفيما بعد وفى ديسمبر ١٩٩٠ أعلنت مجموعة من الزعماء السابقين للحزب الشيوعى الذى تلاشى ، عودة الحزب تحت اسم حزب العمال الاشتراكى Socialist Labor Party (٩) . وبمعنى آخر ، فان المعتقدات والأفكار التى حملها النظام الجديد لن تموت ــ حتى فى المؤسسات المجتمعية المعادية للشيوعية بين عشية وضحاها .

وفى خضم الشعارات المتضاربة القادمة من أوربا الشرقية يستطيع المرء أن يميز عددا من السمات الشائعة التى لها دلالة ، والتى تفسر التصاعد العجيب للأحداث الذى أتى على الأنظمة الشيوعية الفاسدة ومنها أن تعطش ثورة ١٩٨٩ كان مضادا للشيوعية ومضادا للسلطوية ومضادا للأيديولوجية ٠ لقد كان ذلك تحديدا بسبب تلك الثورات التى رفضت التسييس الشيوعى للمناخ الشعبى ، حيث ظل معظم الزعماء الجدد لديهم اتجاه ادعائى نحو تشكيل الأحزاب السياسية فى الفترة التى توسطت انتصارهم ٠ ان التوتر بين المفاوضين المؤسساتيين والفهم الأخلاقى يفسر التردد الذى انتاب ليس فيلاتسلاف هافيل والمنبر المدنى فقط ، ولكن أيضا المناضلين المجريين أيضا فيما يتعلق بتعزيز جهودهم الرامية لتشكيل أحزاب سياسية ٠

وحقيقة ، لقد استغرق الأمر سنوات كى يكون الأعضاء السابقون للمعارضة المجرية المنشورة شبكة من المبادرات الحرة Network of Free Initiatives ، ثم اتحاد الديمقراطيين الأحرار وهو الحزب السياسى الأصيل برموزه وتنظيماته ومنظماته بما فى ذلك التنظيم الشبابى . وفى

الماضى بررت المعارضة انشطتها على انها تستند للرؤية العالمية للحقوق الانسانية والمدنية . ولقد كان معظم زعمائها مفكرين بارزين قرروا ان يعيشوا الحقيقة غير مبالين بالثمن الذى كان لا بد أن يدفعوه من أجل هذا الشكل الشرق أوربى من العصيان المدنى .. ومنذ أن تجاوزت حقوق الانسان الحواجز القومية والاجتماعية ، اكتشف هؤلاء المناضلون أن تحت سطح البنيان التوتاليتارى المتجمد تكمن مشاعر قديمة (وقبيحة) وعداوات تتفاعل معا وأوشكت على الانفجار بمجرد أن يخف الضغط السياسى عليها . ان الشيوعية لم تحل أبدا أيا من مشاكل المنطقة التى تتعلق بالمظالم الاجتماعية والقومية ، بل على العكس فانها لم توليها الا كل تجاهل ، وازدادت سوءا بسبب التلاعب بها ، كما فى حالة التمثيل الشعبى الشوفينى الذى مارسه الزعماء الشيوعيون البلغاريون والصربيون والرومانيون .

ان الانفصام عن الماضى كان يتم باستخدام برامج ومقولات وشعارات الحركات الجديدة التى تؤكد على الحاجة الملحة لاستعادة أخلاقيات الحياة العامة ــ لقد كان من المهم أن يشار الى الخيال الأيديولوجى الذى استخدمه الشيوعيون لتبرير استخدام قبضتهم الحديدية على المجتمع ، كما كان ضروريا خلق بيئة اجتماعية يتخلص فيها الفرد من الاحساس بأنه مهدد ومذلول من جانب الأجهزة القمعية المتسلطة . ان مراقبة ومساءلة الموظفين لابد أن تتخلى عنها المؤسسات الجديدة التى سوف تضمن التدفق السريع للتغيرات . ان طبيعة وآليات الانتقال الى سياسات حقيقية قد كرسها نضج جماعات المعارضة المحلية وقدرتها على طرح استراتيجيات بديلة ، يمكن العمل بها من أجل شفاء اقتصادى واجتماعى . وفى كل تلك البلدان ، فان القضايا التى تتعلق بالعدل السياسى وارهاب الناس والتى تسببت فى كوارث الماضى ومحنه ، كانت لها الصدارة لتحقيق الشفاء القومى وتطهير الحياة العامة ، لقد وجب التخلص من أشباح الماضى كما وجب على السلطات الجديدة أن تستجيب للمطالب الشعبية الخاصة بالعدل السياسى ، دون استسلام للدعاوى التى تطالب بالانتقام الدموى والقصاص الذى قد يفجر الغضب الشعبى ، مما يؤدى الى نصب المشانق لهؤلاء الحزبيين وكوادر البوليس السياسى والمصلحين . ان المعاملة التى لاقاها الزعماء السابقون وأدواتهم التى ساعدت فى بقاء أكثر النظم اللانسانية ، كانت واحدة من أكثر المشكلات المعقدة التى تسببت فى احداث القلاقل للأنظمة الثورية . وكان من المستحيل تقريبا أن نجد معيارا لفصل هؤلاء الذين كانوا ذوى

مخالب ضعيفة عن هؤلاء الذين وجدوا متعة خاصة فى اضطهاد المفكرين النقاد والمناضلين المستقلين المنتمين لطبقة العمال .

ماذا يجب أن يحدث لهؤلاء القضاة الذين أصدروا أحكاما بالسجن ولمدد طويلة على أناس هم الآن أعضاء فى الحكومة . وأشار تيموثى كارتون الى أزمة سلطة ما بعد الشيوعية ، عندما وصف المصادر الجديدة للغضب فى أوربا قائلا :

« المراقبون السابقون ، وحراس الحدود السابقون وموظفو الحزب السابقون ، والبوليس السرى السابق : ما الذى تفعله معهم ؟ أو بالأحرى ما الذى نفعله معهم ـ Oni ـ كممثلين للسلطة الشيوعية الكبير منهم والصغير ، والمعروفون على المستوى العالمى . انه سؤال عن العدل . انه سؤال أتى ـ فى حده الأقصى ـ من مدينة نيرمبرج Nuremburg الغربية . أيجب أن يحاكم رجال السلطة السابقون لما قاموا به من أخطاء ، أو لما جرى وهم يحكمون ؟ اذا كان الأمر كذلك فبأية تهم وبأى قوانين ؟

ويصبح السؤال ـ فى الحد الأدنى ـ سؤالا عن العدل الاجتماعى . أمن العدل ، الناس تسأل ، ان هؤلاء الذين تمتعوا بوظائف مكتبية مريحة تحت حكم الشيوعيين يظلون فيها اليوم بينما الناس العاديون ما زالوا يشدون على بطونهم الحزام حتى الآن ؟ أمن العدل أن أعضاء تنظيم الحزب الشيوعى الذين يستغلون الوضع القانونى المبهم والخاص بالخصخصة لفرض سيطرتهم ـ باعتبارهم رأسماليين ـ على المشاريع التى كانوا يديرونها سابقا كشيوعيين ؟ » (١٠) .

ان السخط على بطء عملية التطهير القومى والمشاعر المتفشية ، التى شجعت البيروقراطيات على الاستمرار فى الحفاظ على مراكز التأثير ، خاصة فى الأجهزة الاقتصادية ، أثار مجددا الغضب الشعبى .

ان بناء المجتمع المدنى واستعادة روابط التضامن الداخلى أصبحا أطول العمليات وأكثرها صعوبة . لقد كان ثمة شىء وحيد يستحق النضال للتخلص منه ، وهو عدو يسهل تحديده والتصويب عليه ـ أى الشيوعية ـ يليه النضال من أجل ثقافة من الثقة والحوار والتسامح . وأصبحت الخطط المؤسساتية والدستورية هى أهم ما أثير من قضايا . وفى رومانيا وبلغاريا خلق الاستياء العام على الحل التدريجى للمؤسسات القديمة كوارث جديدة . ولذا ، كانت الفجوة تتزايد بين نموذج دول

قلب شرق أوربا فيما يتعلق بالتطوير السياسى والذى تضمن انفصاما واضحا ولا بديل عنه عن الماضى الشيوعى والالتزام المحكم من جانب للمثلين السياسيين الجدد لمراقبة قواعد التعددية ، وبين نموذج البلدان الشمالية الشرقية حيث أصبح ارث التوتاليتارية اكثر مقاومة وأكثر عنادا وأعاق الانفتاح السريع خاصة فى بلغاريا ورومانيا وصربيا ، حيث استطاعت الحركات القومية التى تضرب بجذورها فى الأساطير الشعبية والفوبيا أن تشعل النار فى المشاعر الجماعية ٠ ان العرقية وليست الديمقراطية تنذر بأن تكون هى مستقبل هذه المجتمعات ٠

ان الحركات الرومانية المتطرفة بدأت فى مهاجمة الأقليات المجرية من أجل الآمال «الجريئة» والمزدهرة التى تتعلق بترانسيلفانيا Transylvania ان المتواطئين السابقين مع نظام شوشيسكو والذين تملقوه فأصدروا مجلة بغيضة أطلقوا عليها اسم رومانيا ميـر Romania Mare أو رومانيا العظمى . ان الفضائح ، والقذف وغيرها من البذاءات كانت هى العناوين الرئيسية على صفحات هذه الجرائد التى كانت تزداد ابتذالا . وبذلت جهودا لرد اعتبار الديكتاتور العسكرية أون أنتونشيسكو الذى ساس رومانيا اثناء الحرب العالمية الثانية وابرازه كمدافع عن المصالح القومية . وانخرطت وسائل الاعلام الموالية للحكومة فى حملات شعواء ضد الملك ميخائيل King Michael الذى قبض على انتونشيسكو فى أغسطس عام ١٩٤٤ ، والذى طبق ديمقراطية قصيرة الأجل قبل أن يستولى الشيوعيون على الحكم ٠ وفى صربيا كما فى كرواتيا وبلغاريا أيضا ، فان شبح القومية لاح على نحو ينذر بالسوء ٠ ان بوادر العرقية لاحت أيضا فى سلوفاكيا Slovakia حيث بزغت الجماعات العرقية المسيحية . والتى حاولت رد اعتبار الحكومة القومية الموالية للنازية والتى رأسها اثناء الحرب العالمية الثانية مونسينور تسو ، وانشقاقا على التقاليد القومية السلطوية طالبت أقلية صغيرة ولكنها ذات صوت مسموع بدولة سلافية مستقلة . وفى بلغاريا كانت القومية المعادية للأتراك عنيفة .

وعبر بلدان أوربا الشرقية كان هناك مطلب عام بضرورة كشف النقاب على أعمال بوليس الدولة ، وأن يعلن على الملأ هويات المتواطئين السابقين مع البوليس السياسى ، وتحولت هذه الفضائح لأعمال مأساوية فى جمهورية المانيا الديمقراطية السابقة وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا . وأصدر الرئيس هافيل قرارا بعرض كل ما يهم الشعب على شاشات التليفزيون ٠ وقد إكتشف أن الشيوعيين وزعماء الإحزاب التى أعيد بناؤها والمعادية للشيوعية قد تعاونوا مع البوليس السياسى وان هذه الأحزاب

كانت فاسدة (١١) · وكان عقاب هؤلاء الذين كانوا أدوات فى يد التوتاليتارية جزءا مهما كى تتواصل هذه المجتمعات مع ماضيها · لقد كان جزء من الأحياء لثقافة سياسية على استعداد للاعتراف بجوانب فشلها ونجاحها ، وكان تعلم ممارسة الديمقراطية يجب أن يتزامن مع شجب طرق التفكير ونماذج السلوك التى كرست على مدى أكثر من أربعين عاما فى ظل الأنظمة اللينينية ·

كما لزم على الناس التخلص من استعدادهم لقبول كل القرارات التى تتخذها السلطة الخارجية وادراك أنه لا يوجد أى زعيم مغوار يمكن أن يسحرهم فينقلهم من الفقر واللا أمان · وكانت الحاجة الملحة للائتلاف الجديد التى تستطيع أن تحقق ثقافة تبنى على التنافس بمثابة حاجز يمنع الانزلاق نحو التجارب السلطوية الجديدة ·

ومن ثم ، فان المهمة الرئيسية ، فى كل تلك البلدان هى بناء ثقافة سياسية متينة لديها ثقة بنفسها للحد الذى يمكن معه تحدى أى صعود للحركات الأصولية الجديدة ، وكما قال كارول موتزلسكى المؤرخ المعروف والمناضل المعارض والذى أصبح سيناتور بعد عام ١٩٨٩ :

« ان الديكتاتوريين لا يصبحون دكتاتوريين من تلقاء أنفسهم ، ولا يسيطرون على البلدان لمجرد أن لديهم اتجاهات دكتاتورية · الناس هم الذين يصنعون الديكتاتور ــ الناس هم الذين ينصحونه والذين يأخذون منه الأوامر الخاصة وهم الذين يؤيدونه تأييدا مطلقا · وبمعنى آخر ، ان وجود ديكتاتور من عدمه يعتمد على الثقافة السياسية للبلد » (١٢) ·

ان تدعيم الاطار الدستورى الذى سيمنع صعود نجم الحركات التى تدعم « الرجال الأقوياء » الديماجوجيين لابد أن تصاحبه جهود مستمرة فى مجال الممارسة السياسية اليومية والصراع « التنويرى » مع الظلاميين والمؤمنين بالخرافات والتعصب والعصوبية والتى ورثتها تلك المجتمعات ليس فقط من جانب الشيوعية ، ولكن أيضا من جانب الثقافات اللاديمقراطية أو نصف الديمقراطية التى سادت فى الفترة التى توسطت الحرب · ومن بين الأشياء الأخرى التى تتضمن ادراك وحماية حقوق الأقليات هو اثارة هؤلاء الذين يودون أن يؤكدوا على أولوية وجود المجتمع « الحيوى » العرقى على الفرد ·

ولأن صدمة التحديث كانت حتمية فى كل تلك البلدان ، فان المخاطرة الحقيقية كانت فى ضمان وحدة « الحركات المتحررة من الوهم » الذى قد يمنعه الخوف والاحباط · ان الشيوعية قد انقرضت فى تلك البلدان ، ولكن

ليس بالضرورة أن تكون الديمقراطية وريثا لها · وهناك خطر الجمع الزائف بين نقيضين هما الحنين الى الاحتماء خلف دروع واقية من الدولة البوليسية ، والاستعداد لقبول وعود الدجماطقيين الاجتماعيين القادرين على التلاعب برموز الخلاص القومي· وفيهذا الاطار أكد رالف دارندورف بوعى على فخاخ المرحلة الأولى المؤلمة من الانتقال الى المجتمع المفتوح : ((**اننى أكره أن أفكر في توليفة الزعماء العسكريين والمخططين الاقتصاديين والأيديولوجيين الملقنين الذين يمكن أن يصلوا للسلطة عن طريق جماعات غير مستقرة ومتحررة من الوهم . احترس من البدايات ! ان الأصوليين ينتظرون في الجحور ، لاستجماع قوتهم وقوامها هؤلاء الذين فقدوا أعصابهم على طريق الحرية » (١٢) ·**

وحقيقة ان تخليق سياسات جديدة يتم رغم أنف التوقعات اللاوسطية واللامعقولة ، ومنها كثير · ولأن نشوة الانتصار الأولى أخذت تتلاشى فان الشعب أدرك أن المرحلة التالية سوف تميزها قيادة جديدة بشرط تحقيق الشفاء الاقتصادى . ان ذلك يتطلب من الحلف الجديد الشجاعة والخيال والالتزام التام بمبادىء التعددية السياسية للدفاع عن المؤسسات الديمقراطية ضد الهجمات السلطوية · ان البشائر التى ظهرت فى بلدان أسبانيا والبرتغال التى حكمها دكتاتوران لعقود طويلة ، تدل على أن مثل هذا الانتقال يمكن تحقيقه · وبالاشارة الى المخاطر العديدة بما فيها خطر الفاشية ، فنحن لا نتشكك — رغم ذلك — فى فرصة بناء الديمقراطية لنفسها فى أوربا الشرقية .

بين الصحوة والغضب :

وبعد السقوط المدوى للبنى الشيوعية المهيمنة على كل بلدان أوربا الشرقية ، انخرطت جميعا فى البحث عن صيغ سياسية جديدة تيسير اقامة مؤسسات ديمقراطية ، وتسهل الانتقال الى اقتصاد السوق · واجريت فى كل تلك البلدان انتخابات أكدت على الفشل التاريخى للأحزاب الشيوعية · ولم تظهر تشكيلات سياسية تطرح أطرا أصلية من أجل اعادة تخليق الحياة الاجتماعية والسياسية ·

نهاية الاشتراكية البروسية :

فى ألمانيا الديمقراطية تزامنت الدمقرطة السياسية مع الانهيار الدراماتيكى لبنية السلطة السابقة ، وتزايد الضغط من القاعدة من أجل اعادة فورية للوحدة مع الجمهورية الفيدرالية · وبعد سنوات عديدة

حيث كانت الوحدة تعد من المحظورات ، بدأت الأحـزاب التابعة وفى مقدمتها حـزب الديمقراطيين المسيحيين Christian Democrates تعلى من شأن الوحدة . أما الشيوعيون السابقون بقيـادة جريجـور جيسى المحامى الاصلاحى ، فقد حاولوا اظهـار حزبهم المتوعك ذا التوجه الغربى، كما حاولوا ايجـاد مخرج من هذا الوضع المعقد ، ونادى جيسى بتوحيد الدولتين الألمانيتين . ان الأحـزاب الألمانية الغربية تهيمن على الساحة السياسية الالمانية الشرقية وتؤثر تأثيرا مباشرا على الحملة الانتخابية فى ذلك البلد . ان أكثر الأحزاب تواجدا على الساحة فى جمهورية المانيا الديمقراطية ، بعد انتخابات مارس ١٩٩٠ ، همـا حـزبا الديمقراطيين المسيحيين والديمقراطيين الاجتماعيين وقد طالبا بوحدة مبكرة . وبعد الانتخابات شكل الديمقراطيون المسيحيون حـكومة ائتـلافية شملت ممثلى جماعات عديدة ذات توجه محافظ وكان من بينهم الصحوة الديمقراطية Democratic Awakening التى يرأسـها رينيـر ايلمـان وهـو الـكاهن البروتستانتى الذى كان أحـد الموقعين على « عريضـة برلين » السـلمية فى مارس ١٩٨٢ . وبعد سنوات عديدة من الاضطهاد بسبب موقفـه الصلب المعادى للعسكرية ودفاعه المضنى عن حقوق الانسان تم تعينة وزيرا للدفاع ونزع السـلاح Minister of Defence and Dısarmament فى الحكومة اللا شيوعية بألمانيا الشرقية ـ وكان لزاما عـلى رئيس الوزراء الجديد لوثر دو ميزير Lothar de Maızıere الديمقراطى المسيحى البارز ألا يواجه الكوارث فى بلده فقط ، حيث تصاعد الغضب الشـعبى ضـد الحكومة السـابقة وأدواتهـا القمعيـة ، وتحـدى الرفض السوفيتى لقبول الوحدة الالمانية . وهذا شىء كان يمكن فهمه اذا ما اخـذنا فى الحسبان اهمية المانيا الشرقية بالنسبـة للمصـالح الاستراتيجيـة والاقتصـادية لروسيا ، وكذلك لأن الوحدة ترمز الى خضـوع الاتحاد السوفيتى لما مارسه الغرب من ضغوط ليتخلى عن اهم انتصـارات الحرب العالمية الثانية . الا أن الكرملين لا يمكن أن يتجاهل مدى اصرار الغرب على اعادة الوحدة بين الألمانيتين .

وبحلول يناير ١٩٩٠ أدرك جورباتشوف حتمية اعادة الوحـدة الألمانية وحاول أن يبطىء من العملية بمطالبة المانيا الموحدة بتقويـة علاقاتها مع حلف شمال الاطلنطى NATO . وكان الخوض فى هذا الأمر معقدا تماما وبدأت المفاوضات الدوليـة الحساسة فى يوليـو ١٩٩٠ أثناء الاجتماع بين ميخائيل جورباتشوف والمستشار الالمانى الغـربى هيلموت كول . وفى تلك المناسبة قبل الزعيم السوفيتى أن يسمح لألمانيا

الموحدة أن تبقى فى الناتو ، أما عدد قواتها المسلحة فسوف يقل دفعة واحدة الى ٣٧٠٫٠٠٠ (كان جيش المانيا الغربية وحده يبلغ ٤٨٠٫٠٠٠) كما سوف تنتشر فى الجزء الشرقى من البلد فقط بعد أن غادره آخر جندى عسكري سوفيتى فى عام ١٩٩٤ . وحتى ذلك الحين ، سوف تغطى المانيا النفقات الخاصة بالكيان العسكرى السوفيتى وسوف يبلغ دعمها المالى (٨٫٨ بليون دولار) كتكاليف لاعادة القوات السوفيتية .

ولمزيد من الاسترضاء للسوفيت قدم كول ٣ بلايين دولار لمساعدة السوفيت فى دفع ديونهم لألمانيا . ولان بولندا قد اعربت عن قلقها المتعلق بالمخاطر التى يمكن ان تترتب على الوحدة السياسية والاقتصادية بين الألمانيتين فى قلب أوربا . واقيم اجتماع فى باريس بمشاركة ممثلى الدول الأربع العظمى Big Four والدولتين الألمانيتين . ووعد الألمان بأن يعقدوا كل الاتفاقيات الشرعية لتحديد تخومها مع بولندا فى منطقة الأودر — نيسى Oder-Neisse . وفى ١٢ ديسمبر بدأ وزراء الخارجية للدول الست مفاوضات دبلوماسية والتى وقع بناء عليها اتفاقية « اثنان زائد أربعة » Two-plus-four فى موسكو . وكان ذلك هو النهاية الحقيقية للحرب الباردة وبداية عهد جديد فى تاريخ أوربا . وعشية أن خرجت المانيا الديمقراطية رسميا من حلف وارسو وفى ٣ أكتوبر ١٩٩٠ أى بعد عام واحد من بداية الاجتياح المعادى للشيوعية فى برلين الشرقية ، فان « هدية » ستالين للأمة الألمانية لم يعد لها وجود .

ولأن الانتقال لاقتصاد السوق حدث فى جمهورية المانيا الديمقراطية السابقة داخل بيئة اقتصادية غنية ، ومع منح حكومية سخية من حكومة ألمانيا ، ومن البنوك الكبرى والشركات الضخمة ، فان الاضطرابات التى تزامنت مع تلك العملية ، كانت أقل وضوحا عنها فى البلدان الشيوعية السابقة الأخرى . وكان هناك ، على أية حال ، شبح حقيقى من البطالة نتيجة لاغلاق « الأفيال البيضاء » التى لم تحقق نتائجها المرجوة والتى اقيمت أثناء التصنيع الستالينى ، ونتيجة لاستنزاف العمالة المدربة من المنطقة الألمانية الشرقية السابقة بانتقالها للمنطقة الألمانية الغربية والتوتر الذى تفشى بين شباب المانيا الشرقية والتى يزداد سخطها . وعلى عكس الألمان الغربيين الذين لطخت سمعتهم لما ارتكبه النازيون من جرائم وحشية فى الحرب العالمية الثانية فقد كانت الحكومة الألمانية الشرقية تدعى دائما بانها لم تقترف أى شىء تندم عليه ، وذلك لأن جمهورية

ألمانيا الديمقراطية دولة اشتراكية ويمثل شعبها جزءا « تقدميا » من الأمة الألمانية .

والآن ، فان هذه الأسطورة قد تم دحضها ، والهوة بين الثقافتين السياسيتين للألمانيتين قد تم ردمها ، فالغرب بكل مؤسساته الديمقراطية رفض البكاء على اطلال « الماضى المهيض » (١٤) وعلى الشرق حيث حافظت دولة البوليس البيروقراطية السلطوية على مشاعر الطاعة والتوافق وكذلك الاحساس بالقيم العسكرية البروسية . وبمعنى آخر ، فان مشكلة الألمان الشرقيين كانت أنهم لم يمارسوا أبدا معارضة أصيلة لا للنازية ولا للستالينية . وبالتأكيد ، فان توحدهم فى نظام تعددى دستورى للجمهورية الفيدرالية قد قلل من مخاطر الانفجارات الجماهيرية المتعلقة بالتعصب والتطرف . ان ظهور نوعين من الأنشطة النازية الجديدة Neo-Nazi التى اثارت استجابة فورية من القوى الديمقراطية كان ، على أية حال ، بينا واختفت الموجة التى بدت على أنها قمع سياسى ليظهر بدلا منها مرض معاداة الأجانب ، والعصابات الشرهة التى بدات فى نشر معاداة السامية وافكارها العنصرية ، بل ونظمت اعتداءات على العمال الأجانب بدءا بالفيتناميين Vietnamese . وأثناء مظاهرات وقعت فى برلين الشرقية وليبتزج ومدن أخرى كبرى ، ترددت شعارات معادية للبولنديين ومعادية للسلافيين. بشكل عام ، وظهر فى ألمانيا الشرقية تياران من التطرف أولهما هو : تيار النازية الجديدة ، وقد اختلقها شباب مريض اتسمت أنشطته فى أغلب الأحيان بالعنف ومن اهدافهم التخلص من العناصر الغريبة التى تهدد « نقاء الجنس الألمانى » ومنها : اليهود والبولنديون والأسيويون (١٥) والتيار الثانى ظهر تحت ما يسمى بالحق الألمانى الغربى الأسمى . خاصة ذلك الذى يتبناه حزب الجمهوريين Republican Party برئاسة فرانز شونهوبر Franz Schonhuber ، وكان دعم الجماعات السياسية التى جنحت للاشادة بالارهاصات الخاصة بحق التطرف فى تزايد .

ولأن حزب الجمهوريين والتكوينات المتبنية للحق الأسمى قد ركزت حملاتها فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، فان الشيوعيين السابقين ، الذين تجمعوا تحت مظلة حزب الوحدة الاشتراكى — حزب الاشتراكية الديمقراطية — جعلت الصراع ضد الفاشية قضية بارزة فى دعايتها الانتخابية .

« اننا لا نحارب ضد الستالينيين لنفسح الطريق للفاشيين الجدد » . هكذا اعلن جريجور جيسى . الا ان الشيوعيين كانوا قد فقدوا كسل

مصداقية لهم وفشلت كل جهودهم التى بذلوها لحفظ ماء وجههم كحزب أوربى اشتراكى Euro-Socialistic فى الحصول على أى دعم شعبى . حقا يلتفون حول الحزب الاشتراكى الديمقراطى الذى تكون حديثا والذى حصل فى انتخابات مارس على ٨٨ مقعدا فى البرلمان الذى يبلغ أعضاؤه أربعمائة . وقام زعيم الديمقراطيين الاجتماعيين ابراهيم بوهم Ibrahim Bohme ، وكان هو نفسه شيوعيا سابقا ، بتحدى الشيوعيين ، عندما طالب باعادة وحدة الألمانيتين على وجه السرعة (١٦) . وبالنسبة للمنبر الجديد وهى الجماعة المعادية للسلطوية والتى كانت فى مقدمة المظاهرات التى وقعت فى أكتوبر ونوفمبر ١٩٨٩ ، فقد فقدت كل قبول لدى الجماهير بسبب اصرار زعمائها على تحويلها الى حزب سياسى حقيقى ، وبسبب ما أبدوه من رفض عنيف تجاه الوحدة الألمانية وبالنسبة لكثيرين فى المنبر الجديد ، فان اندفاع الألمان الشرقيين لتدعيم الوحدة بدا خيانة لمبادىء اجتياح أكتوبر . وكمثال على ذلك أعلن سابستيان فلوجبيل Sabastian Pflugbeil عالم النفس المنشق وواحد من زعماء المنبر الجديد :

« لقد أصبحنا ثوريين ، لأن الكيل قد فاض بنا من الدكتاتورية الحزبية ، ولم يكن لدينا فرص للتاثير فى مجريات الأمور ـ اننا كنا نريد دولة ديمقراطية حقة » (١٧) .

ان واحداً من الآثار المذهلة التى خلفتها العقود الأربعة من الحكم الشيوعى فى المانيا الشرقية كان تحديداً هو التوجه المحافظ بشكل عام نحو العملية الانتخابية وغياب التشكيلات السياسية التى تحظى بقبول جماهيرى حقيقى . وبمجرد أن توحدت الألمانيتان فان جمهورية المانيا الديمقراطية انخرطت فى نموذج مختلف عن ذلك الذى اتبعته الدول الأخرى بعد التخلص من الشيوعيين . اذ حاولت أن تتصرف حسبما تريد فى محاولة لاعادة تشكيل الاقتصاد واستعادة المناخ المدنى . ان باقى أوربا الشرقية لم يعد لديها « أخ اكبر » يقوم باستغلالها ، ولم تعد هناك أحزاب سياسية تستعرض براعتها السياسية ومن ثم فالطريق ممهد من أجل ثقافة الديمقراطية . أما بالنسبة للارث السياسى والمعنوى الذى خلفته عقود أربعة من الاشتراكية على الطراز السوفيتى فوق أرض المانية ، فيستطيع المرء أن يلخصها فى ثلاث كلمات : أكاذيب ، فساد ، ارهاب . وكما سجل احد المحررين فى مجلة المانية غربية مؤثرة قائلا :

« اننا نعرف الآن ان هناك الكثير فى جمهورية المانيا الشرقية الذى تحول الى اسوأ مما كان عليه تحت الحكم الديكتاتورى ، وقد احست

الجماهير بما لم يستشعره نقاد النظام أو تخيلوه • ان القيم المزعومة التي فرضت على المجتمع الشيوعي في جمهورية المانيا الديمقراطية قد تحللت الى لا شيء وتبدو الان كما لو كانت مجرد خيال ••• وما بقي من سياسات السلام وعدم التسلح بدا ملحا للغاية بالنسبة لادعاء هونكر الشرعية • ما الذي بقى الآن من التصريحات الشيوعية ضد استخدام القوة والارهاب والتي أماطت اللثام عن العلاقات التي اقيمت مع الارهابيين الألمان الغربيين ، والموت في معسكرات التعذيب ، والرقابة المتشددة التي فرضت على المواطنين ؟ ما الذي يمكن ان يبقى من هذا الارث لهؤلاء الذين تم تدريبهم على كيفية التغاضي عن الطرق الجبرية والديكتاتورية للحزب وعن هؤلاء الذين تجاهلوا حقائق الاشتراكية كما كانت تمارس وتعلقوا بفكرة الاشتراكية الأكثر نقـاء » (١٨) •

بلغاريا : التزاوج المستحيل :

وفى بلغاريا يبدو للوهلة الأولى أن الحزب الشيوعى السابق الذى اعاد تسمية نفسه بالحزب الاشتراكى سوف يستمر فى حكم البلد . فى محاولة للحفاظ على سيطرته ولاجتناب الانتقال الراديكالى لمجتمع مفتوح . ورغم المعارضة الداخلية استمر الحزب الاشتراكى فى السيطرة على هذا البلد معظم عام ١٩٩٠ ، بل ان الشيوعيين المصلحين كانوا مهددين بالانشقاقية لأن الحاجة كانت ملحة لكلا الاتجاهين اللبرالى والمحافظ • واتهم التيار الاصلاحى زعيم الحزب الكسندر ليلوف بأنه ما زال يعضد المعتقدات اللينينية ، بينما وجه له اللينينيون النقد لتخليه عن احتكار الحزب للسلطة ولما أظهره من توان مع القوى المعادية للاشتراكية . وبسبب ضغط الجماهير أجبر الحزب على غلق مقراته ، وبدا وكأنه علة مستوطنة وتقلصت عضوية الحزب الاشتراكى من حوالى مليون فى فبراير ١٩٩٠ الى ٢٥٠٫٠٠٠ فى منتصف مارس (١٩) • وفى يناير وفبراير نظمت محادثات المائدة المستديرة بين ممثلى الحزب الاشتراكى البلغارى BSP والمعارضة . واسفرت المفاوضات بين الطرفين عن توقيع عدة اتفاقيات مشتركة تتعلق بالانتقال الى النظام الديمقراطى وطبيعة ومستقبل هذا النظام • ان اتفاقيات الموائد المستديرة توجت بتوقيع اتفاقية فى مارس عن مشروع قانون خاص بالتغيرات الدستورية ، والنظام الانتخابى ، والأحزاب السياسية . وفى نفس الوقت تخلى الشيوعيون عن طريقهم لتحسين صورتهم واقنعوا الجماهير بأنهم قد انفصموا — وبلا رجعة — عن الماضى التوتاليتارى • وأرخى الحزب قبضته عن المنظمات المساعدة بما فى ذلك النقابات العمالية •

والتفت المعارضة حول اتحاد القوى الديمقراطية Union of Democratic Forces (UDF) وهو المظلة التى جمعت حركات وجمعيات أعلنت التزامها بالتعددية والديمقراطية · وبعد أن انتخب زعيمها جيليو جنيليف الفيلسوف والمناضل فى مجال حقوق الانسان كرئيس للبلاد فى أغسطس ، واستبدل بالزعيم بيتر بيرون Beter Beron الذى كان عليه تقديم استقالته بعد أن اكتشف انه كان فى الماضى متعاونا مع البوليس السرى . وظلت أحزاب المعارضة فى اتحاد القوى الديمقراطية التى ضمت حزب « المصلحين الزراعيين ــ نيكولا بيتكوف Nikola Petkov » خليفة الحزب الذى قام الشيوعيون بقمعه فى ١٩٤٧ والذى رفض الاندماج مع اتحاد الاصلاح الزراعى الأكبر ، ذيلا للنظام الشيوعى ، والحزب الاجتماعى Agrarian Union الديمقراطى البلغارى Bulgarian Social Democratic Party والحزب الديمقراطى الراديكالى Radical Democratic Party . ان اتحاد بودكريبا Pod Krepa المستقل والعضو المؤسس لاتحاد القوى الديمقراطية انفصل عن الائتلاف ؛ كى ما يؤكد على استقلالية الذاتية ولكنه احتفظ بوضعه كمراقب للأحداث · وفى نفس الوقت ، فان الأقلية التركية التى تعرضت فيما سبق للاضطهاد ــ والتى يبلغ تعدادها نحو ٥ر١ مليون وجدت فى حركة الحقوق والحريات Movement for Rights & Freedoms صوتا يعبر عن آلامها وأشجانها · وأعلن زعيم الحركة أحمد دوجان Ahmed Dogan عن نيته فى الدفاع عن حقوق الانسان بصرف النظر عن القومية · وفازت الحركة بثلاثة وعشرين مقعداً فى البرلمان الجديد لتصبح بالتالى ثالث قوة سياسية فى هذا البلد (٢٠) .

وأكثر الأحداث دلالة فى بلغاريا كانت الانتخابات التى أجريت فى يونيو ١٩٩٠ والتى استقطبت المنتخبين بشكل لم يسبق له مثيل · ورغم أن الحزب الاشتراكى البلغارى BSP حصل على الأغلبية المطلقة من المقاعد البرلمانية فقد فاز بأقل من ٥٠٪ من الأصوات وهزم على نحو مروع فى صوفيا وفى مدن كبرى أخرى . وما تبع ذلك كان انهيارا مستمرا للنظام السياسى حيث اتهمت المعارضة الحكومة التى يسيطر عليها الشيوعيون بعرقلة عملية الدمقرطة وأجبر الاشتراكيون فى منتهى الأمر على قبول اعادة التفاوض الخاص بتوزيع السلطة وفى يوليو ، أجبر بيتر ميلادينوف ــ الزعيم الشيوعى الذى خطط لازاحة جيفكوف فى نوفمبر ١٩٨٩ ــ على الاستقالة بعد اتهامه باستخدام وسائل تتسم بالعنف والدموية فى قمع احدى مظاهرات الاحتجاج ، وفى

١ أغسطس وبعد اقتراع بلغ عدده ست جولات اختار البرلمان جيليو جيليف كرئيس جديد • وفى تلك اللحظات كان الشيوعيون ما زالوا يتمسكون بالسلطة وأصبح أحد زعمائهم وهو أندريه لوكانوف Andrei Lukanov رئيسا للوزراء .

وفى ٢٦ أغسطس أضرمت النار فى مقرات الحزب الشيوعى البلغارى فى قلب مدينة صوفيا ، وقد ادانت احزاب المعارضة هذا العمل باعتباره شغبا وتحريضا دبرته القوى الشيوعية المخلوعه والتى تهدف الى زعزعة النظام الديمقراطى وتهديد استقراره . وبينما كان الزعيم الاشتراكى الكسندر ليلوف يدعى بأن المعارضة يجب أن تتحمل مسئولية الحادثة ، جاء رد اتحاد القوى الديمقراطية مؤكدا على ان جناح ليلوف يعد من أكثر أجنحة الحزب الاشتراكى رجعية وأن البوليس السياسى له مصلحة فى مراوغة المعارضة وفى عرقلة الانتقال الى الديمقراطية (٢١) . ولأن الموقف السياسى والاقتصادى كان ينتقل من السيىء الى الأسوأ ، فقد كان هناك العديد من الاحتجاجات الشعبية خاصة بسبب رفض الحزب الاشتراكى التخلى عن هيمنته • وبسبب عجز حكومة لوكانوف عن الحصول على تأييد البرلمان وازدياد الاضطراب الاجتماعى قوة وعبر عنه الاضراب الذى قام به طلاب منظمتين نقابيتين عماليتين ، مما أجبر لوكانوف الاشتراكى على الاستقالة• وأجبرت استقالته بدورها الاشتراكيين على فهم أنه لا أمل لهم فى الاستمرار فى حكومة يسيطر عليها حزب واحد ، وان دور الحزب الاشتراكى البلغارى الاستبدادى فى السياسات البلغارية قد بلغ نهايته • وفى ديسمبر تشكلت حكومة ائتلافية تحت قيادة ديميتار بوبوف Dimitar Popov المحلف المبجل والمعروف بنزاهته السياسية والحزبية • وانقسمت الوزارات الرئيسية بالتساوى بين الحزب الاشتراكى البلغارى واتحاد القوى الديمقراطية • وورثت الحكومة الجديدة موقفا اقتصاديا ينذر بوقوع الكارثة، مع نضوب فى الموارد غير مسبوق وانخفاض سريع فى الانتاج الصناعى ومن ثم كان التوجه نحو تبنى خصخصة سريعة شيء ملحا . ان التعاون بين الحكومة ومؤسسة الرئاسة وكذلك تعيين المناضلين المدنيين المحترمين فى مراكز حيوية ، تشير الى أن بلغاريا كانت لديها الفرصة لتتجاوز المأزق السياسى (٢٢) •

تشيكوسلوفاكيا ، اجماع رأى متلعثم :

وفى تشيكوسلوفاكيا كان وجود رمز مشهود له بالنزاهة ويتمتع بجماهيرية شاملة تقريبا ، مثل الرئيس فيلاتسلاف هافيل ، عاملا مساعدا

فى الاحتفاظ باجماع رأى قومى لا ينفصم واطلقت البلد العنان لبرنامج اصلاحى طموح والذى سيكون محصلة لانتقال الاقتصاد الى اقتصاد السوق . ولاحظ المراقبون ، على أية حال ، ان حمى النشاط التى انتابت الشعب تحولت فى الشهور الأخيرة لعام ١٩٨٩ وعلى نحو متصاعد الى شك وفتور . استشعر كثيرين بصيص امل لحل المشكلات العويصة التى تراكمت خلال عامى ١٩٩٠ ، ١٩٩١ ، مع انتقاد السلافيين للتشيكيين لنزعاتهم المتسلطة . وفى نفس الوقت فان ثمة محاولات كانت تجرى فى تشيكوسلوفاكيا ؛ لرد اعتبار المتواطئين السابقين مع النازية فى الدولة السلافية القومية فى الفتره التى توسطت الحرب والتى لم تدم طويلا وهذه الجهود ، هكذا يجب ان يقال ، لم تنبع بالضرورة من الحنين الى العودة للقيم الفاشية . انه لوضع محزن اذ أن الوقت الوحيد فى التاريخ الذى حصل فيه السلافيون على جمهورية قومية ، تزامن مع صعود الحكم النازى وعودته تحت قيادة منسينور جوزيف تيسو Minsignor Josef Teso .

وعلى الصعيد السياسى كانت الأحداث البارزة هى الانتخابات التى أجريت فى يونية عام ١٩٩٠ . وفاز كل من المنبر المدنى وجماعة الشعب ضد العنف Public Against Violence وهما المظلتان اللتان بزغتا كقوى قومية أثناء اجتياح عام ١٩٨٩ بأغلبية تبشر بالخير وهى ١٧٠ مقعدا فى المجلس الفيدرالى Fedral Assembly من أصل ٣٠٠ مقعد . ورغم ما عرف عنه من تعاون طويل مع المحتل السوفيتى ، فان الشيوعيين بقيادة البيروقراطى الشاب فاسيل موريتا Vasil Mohorita استطاع الفوز بسبعة وخمسين مقعدا وأصبح القوة الثانية على الساحة السياسية . وهناك أحزاب أخرى قد برزت أيضا وهى الديمقراطيون المسيحيون وهو ائتلاف يجمع الحركة الديمقراطية المسيحية السلافية Slovak Christian Democratic Movement وحزب الشعب والحزب الديقراطى المسيحى ، بالاضافة لجماعات تمثل المصالح العرقية والقومية ومصالح مناطق بعينها وقد حصلت جميعا على أربعين مقعدا .

وقد انتخب هافيل مرة أخرى كرئيس للدولة لدورة ثانية فى يوليو وظل مارين كالفا Marian Calfa والذى ترك الحزب الشيوعى فى يناير رئيسا للحكومة . ولقد كان التقدم للأمام أكثر يسرا ، مما هو عليه فى بلدان أخرى . ولكن حتى فى تشيكوسلوفاكيا رغم خبرتها الديمقراطية التى تتفوق على أى من البلدان الأخرى ، فان غياب الفهم الواضح لدور وآليات نظام الحزب كان واضحا فى الصراع الضارى الذى اثر على

كل من المنبر المدنى والشعب ضد العنف · لقد كانت هناك اتجاهات كثيرة معادية للتوتاليتارية والتى رفضت مجرد فكرة تحويل الحركات الاجتماعى الكبرى الى أحزاب سياسية حقيقية · وفى اكتوبر عقد المنبر المدنى مؤتمره وانتخب وزير المالية فيلاتسلاف كلاوس Vlaclav Klaus الاقتصادى الذى ينتمى لوجهات النظر المعادية للقومية التى نادى بها فون هايك Freedrich Von Hayek رئيسا للمؤتمر ونادى كلاوس بتحويل المنبر المدنى الى حزب ديناميكى محكم التنظيم · وبما أصابهم من احباط بسبب ما اعتبره غزوا يمينيا للمنبر ولتشكيل المجموعة البرلمانية للحقوق الديمقراطية Interparliamentary Group of Democratic Rights ، شكل الجناح اليسارى فى البرلمان عصبة تدعى الجمعية المدنية Civic Association وقد بدا أن التمايز بين الاتجاهات السياسية داخل المنبر المدنى كان البداية لاقرار دستور جديد ينظم الحياة السياسية القومية التى سوف تضم أحزابا تتجادل حول مهاترات أيديولوجية اكثر مما تلتزم بالدفاع عن مبادىء عليا · وفى فبراير ١٩٩١ وصل التوتر بين اليسار واليمين داخل المنبر المدنى الى ذرونه ، وانقسمت الحركة الى جناحين ، أحدهما هيمن عليه كلاوس وأيد فكرة تشكيل « حزب تكون نواته يمينية » ، كى يدخل المنافسة فى انتخابات ١٩٩٢ البرلمانية ، وقد بزغ ، مثل هذا الحزب فى الواقع فى ربيع ١٩٩١ أما الجناح الآخر ، وهو الأكثر منادة ، فقد تواجد على الساحة السياسية تحت اسم النادى الليبرالى Liberal Club وكان أفضل شخصياته المعروفة هو نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية والمشارك المتمرس فى ميثاق ٧٧ جيرى دينستبير Jiri Dienstbier · ورأى كلاوس أن التناحر بين الفصيلين سببه اختلاف فلسفاتهم السياسية والاقتصادية · وقد انتقد نادى الليبراليين لالتزامه بالمبادىء الديمقراطية الاجتماعية وللدور الذى لعبه الشيوعيون المنشقون السابقون داخل صفوفه ، ولتجنب النزاع حول من له الحق فى استخدام اسم « المنبر المدنى » شرعيا ، وافق الفريقان على تحويله الى لجنة ائتلافية يمثل فيها الفريقان على قدم المساواة (٢٤) ·

وفى نفس الوقت طالب وزير المالية كلاوس بأن تتم الموافقة على عدد من القوانين المتعلقة باعادة الممتلكات التى صودرت لأصحابها كما حث الدولة على تشجيع الأعمال الحرة ولكن فى نطاق ضيق · وفى نوفمبر ١٩٩٠ دعم البرلمان الخصخصة على نطاق واسع وأقر نظاما جديدا للضرائب والأسواق الرأسمالية يمنع أى تضخم وأى تشنجات اجتماعية ·

واثناء هذه الفترة الثورية التى تطورت فيها الأحزاب الشيوعية واقتصاد السوق ، استمرت دعوات القومية السلافية لاستجماع قواها الدافعة . وقام مجلس النواب بعمل له دلالة ، اذ قام فى ابريل بتغيير الاسم السابق للدولة وهو «جمهورية تشيكوسلوفاكيا الفيدرالية» The Czechoslovak Federal Republic الى الجمهورية التشيكية والسلافية الفيدرالية The Szech and Slovak Federal Republic . وخطت اللامركزية مع الحكومة الفيدرالية التى قصرت العديد من امتيازاتها على الجمهوريتين خطى واسعة . وكان البلد على شفا أزمة دستورية فى ديسمبر ١٩٩٠ عندما هدد النواب السلافيون البرلمانيون باعلان سيادة القوانين السلافية على القوانين الفيدرالية ، احتجاجا على المحاولات البرلمانية لتغيير مشروع قانون الاصلاح الدستورى . وفى هذه المناسبة عبر فيلاتسلاف هافيل عن أسفه لتزايد المشاعر القومية وطالب مجلس النواب بالموافقة فورا على قانون ، يقر اقامة محكمة دستورية وتوسيع السلطات الرئاسية فى حالة الطوارىء القومية . ولسخرية الأقدار اكتشف هافيل الذى عارض دائما اى تركيز للسلطة فى يد شخص واحد أن هناك أوقاتا تصل فيها الأخلاقيات والسياسات الى نقطة الصدام واكتشف أن العداوات العرقية ومشاعر العداوة ، بما فيها اضطهاد الأجانب ظلت تسمم المناخ العام . ان الاضطرابات العرقية التى طال تجاهلها كانت هى بداية المشكلات السياسية الجديدة . وبالتخلص من الارث التوتاليتارى ومن الخوف والقهر ، شب بناء سياسى جديد . وكان ذلك يعنى كما اشار هافيل فى حديثه فى الاحتفال بذكرى غزو حلف وارسو عام ١٩٦٨ ان احياء الروح المدنية هى التى جعلت اجتياح عام ١٩٨٩ العظيم ممكنا . اذ قال :

« لكى نغير موقفنا الى الأفضل يجب أن نتصرف بهمة ودون تباطؤ . يجب أن نستلهم على الأقل روح أيام نوفمبر الأخيرة لكى نعيد خلق مشاعر التضامن ووحدة الهدف والأمل فى التغير ، ان الدفع المدنى والخيال المدنى اثبتا الآن انهما أقوى من أية بنى توتاليتارية .. ويجب علينا ثانية أن نضع الصالح العام فوق المصالح الفردية والحزبية السياسية . ويجب علينا مرة أخرى أن نتصرف دون عنف وبتسامح ولكن بثقة وبسرعة وبنفس الطريقة التى تصرفنا بها فى نهاية العام الأخير، عندما خضع الحزب الشيوعى المهيمن على السلطة لرغبة الشعب وخلال أيام قليلة اضطر للتخلى عن « دوره القيادى » (٢٥) .

* المجر : التحرر من الوهم ، وتجرع الآلام :

فى ربيع عام ١٩٩٠ ، انتخب المجريون برلمانا جديداً وعانى الحزب الشيوعى السابق من هزيمة ساحقة . وفازت الجبهة الديمقراطية المجرية بنسبة ٩ر٤٢٪ من المقاعد ، يليها ائتلاف الديمقراطيين الأحرار بنسبة ٨٣ر٢٣٪ تليه تشكيلات أقل فاعلية . وعلى اية حال ، فاثناء الانتخابات المحلية التى وقعت فى سبتمبر وأكتوبر فان العديد من الموظفين الشيوعيين السابقين قد أعيد انتخابهم ، وعلى الرغم من أن الحزب قد خسر المعركة فما زال هناك احتمال فى بقائه مؤثرا على المستوى المحلى . وفى نفس الوقت فان حلف الديمقراطيين الأحرار خطط ليفوز فى عدد من المدن الكبرى بما فيها بودابست حيث أصبح المناضل المعارض جابور ديمسكى Gabor Demszky عمدة . وكان النجاح الانتخابى مثيرا للغاية أثناء انتخابات ائتلاف الديمقراطيين الشبان المحليين وهو حزب جمع الموظفين والطلاب معا ، وبدا أنه يرمز لالهامات العديد من المجريين الذين يتوقون لرؤية سياسية جديدة .

وعلى عكس تشيكوسلوفاكيا وبولندا ورومانيا حيث احكمت رئاسة الجمهورية قبضتها على السلطة السياسية ، فان النظام الجديد فى المجر سعى لاقرار دور حاسم للحكومة ورئيس الوزراء . لقد كان نظاما برلمانيا أكثر منه رئاسيا . وبعد الاتفاق الذى تم بين اكثر حزبين أهمية على الساحة تم انتخاب كاتب ديمقراطى حر وسجين سياسى سابق هو ارباد جونز Arpad Gönez رئيسا جديدا للجمهورية . وأسندت مهمة تشكيل الحكومة الجديدة لجوسيف انتال رئيس المنبر الديمقراطى المجرى الذى كون ائتلافا مع اثنين من الأحزاب الصغيرة وهم حزب الديمقراطيين المسيحيين وصغار القادة Small holders ونستطيع أن نستنتج بناء على ذلك أنه بعد انتخابات مارس وأبريل ١٩٩٠ **« أصبحت المجر البلد الديمقراطى الوحيد فى أوربا الشرقية الذى يحكمه نظام متعدد الأحزاب » (٢٦) .**

وفى نفس الوقت لم تظهر الحكومة اى اصرار لانجاز اصلاح اقتصادى جاد ، وتحويل اقتصاد البلد المتردى الى اقتصاد السوق ، وحتى بعد تطبيق الخصخصة ، فان ذلك أسفر عن انتقال مفاجىء للمدراء السابقين الى رأسماليين كبار . ولد هذا الانتقال سخطا بين الجماعات الاجتماعية والتى استاءت من النظام الطبقى الاجتماعى السابق وكانت تأمل فى نظام سياسى يسمح بأكثر من العدل الاجتماعى . وكان هناك ، كمثال ، الكثيرون ممن شاركوا فى وجهات النظر الناقمة التى عبر عنها لاسلو ميكلوس المهندس فى شركة منتجة للطعام حيث قال :

« حتى الآن مازال يحركنا الصديق بالى Ballay الذى يجلس فى مكتبه تحيط به تماثيل لينين وصور الرفيق قادر بينما تقدم سكرتيرته الزملية كولتسناى Kolosznay شراب الكورفوازير Courvoisier المعتاد للترحيب بالرفاق الذين أتوا لمقابلته . والآن يملك مستر بالى شركة كبيرة ويجلس فى مكتبه محاطا بصورة مستر بوش Bush يلوح له بيده . بينما سكرتيرته الآنسة كولتسناى تقدم الكورفوازير لعملاء المكتب . وظل الانتاج على ما هو عليه ، الاسماء فقط هى التى تغيرت » (٢٧) .

واستمرت البيروقراطية التكنوقراطية الجديدة فى ادارة المصانع المفلسة التى ورثتها من النظام الشيوعى ولسوء الحظ ، فان البيروقراطية التكنوقراطية استمرت فى العمل ، وأخذت الصراعات بين المنبر الديمقراطى وحلف الديمقراطيين الأحرار فى التعمق ، اذ أن الموقف الاجتماعى كان يتدهور ومناخ السخط أصبح معبأ تماما . وأحرز المنبر المدنى مكسبا كبيرا عندما أعلى من شأن المجريين فى المجر، بل ومن شأن ١٥ مليون مجرى بما فيهم الأقليات المجرية التى تعيش فى بلدان أخرى بدءا برومانيا وتشيكوسلوفاكيا . وفى نفس الوقت وأثناء الحملة الانتخابية فقد اتحد بعض المفكرين مع المنبر وقاموا بهجمات على الديمقراطيين الأحرار والتى كانت غالبا تذكرنا بالانفجارات المعادية للسامية التى تميزت بها الفترة التى توسطت الحرب . ورغم أن رئيس الوزراء جوزيف انتال ووزير الخارجية جيزا جتسينسكى Geza Jeszensky اهتما كثيرا بالتأكيد على التوجه الأوربى لحزبهم الا أنهما لم يتنصلا تماما من مثل هذه الشعارات الواضحة عن العرقية الريفية . ان الصراع التقليدى بين الريفيين والحضر سببه جنوح كل منهما لاظهار نفسه من خلال الرؤى الميثولوجية والمضادة للانتاج والتى اتبعوها قبل الحكم الشيوعى ؛ حيث مثالية المبادىء المسيحية والقوانين المجرية ونظامها من ناحية ومقت الأممية ، والتوجه نحو الغرب ، والتدهور ، والاطروحات الجامدة للانتلجنسيا الليبرالية من ناحية أخرى . الا أن هذه صورة مبالغ فيها اذ تؤكد على أكثر التغييرات راديكالية فى منهجهم. وسجل أحد المراقبين للمسرح السياسى المجرى فى عام ١٩٩٠ ملاحظته بأن الاستقطاب الأيديولوجى للأحزاب هو انحراف الى الأسوأ :

« ان المهاترات الفارغة عن تعليم الدين بالمدارس ، والاجهاض، والخصخصة ، ومعاداة السامية والسيطرة على وسائل الاعلام والتقييم المتضارب لنظام هورثى قبل الحرب ، قد مزقت أواصر اجماع الرأى المشترك للأحزاب حول الأولويات القومية » (٢٨) .

ومن ثم ، فان المناظرات الأيديولوجية فى الثلاثينيات لا يمكن أن يدفع ثمنها ثانية فى التسعينيات ، اذ يعد ذلك ضربا من الهرطقة . ان الصراع بين الديمقراطيين الأحرار والمنبر الديمقراطى يكمن وراءه الشك المتبادل بين بودابست والمناطق الريفية ، ومحاولة كل حزب أن يوسع من قاعدته الانتخابية على قدر المستطاع (٢٩) . ولأن المنبر الديمقراطى يبعث القيم الخاصة بالحقوق التى كانت موجودة قبل الحرب من قبورها ، فان حزب الديمقراطيين الأحرار بدا انه حزب التحديث حيث مجدوا فى ورقة عملهم الخصخصة السريعة وانتقدوا المنبر الديمقراطى لفشله فى مواجهة أكثر المشاكل الملحة للوطن . وفى أكتوبر ١٩٩٠ أصيبت بودابست بالشلل التام من جراء اضراب سائقى العربات الأجرة والجرارات . ورغم النتائج الايجابية الملموسة لهذه الحقبة الانتقالية ، فان الروح التى عمت هى روح التشاؤم . وجاء توضيح رئيس الوزراء مثيراً للسخط حيث قال :

« ان كل شخص يعتقد بأن نتائجنا لا تتناسب مع جهدنا مخطىء ، اذ انها فاقته . وسيظل المجرى دائما لا يرى الا أسوأ شىء ، ومنشأ ذلك طبيعة عقلية الفلاح الذى لا يتنبأ ابدا بمحصول جيد » (٣٠) .

ووعد انتال بعد أن عبر الشعب عن سخطه وغضبه ، بعزل الحكومة وتعيين قيادات أكثر كفاءة . ان الاقتصاد المتدهور ومشاعر السخط ، كانت تدل على أن الفريق الحاكم لم يكن على استعداد لتقديم أى علاج ناجع . وبينما بدت بودابست بالتدريج مثل عاصمة غربية مزدهرة ، فقد ظل الريف يعانى من الفقر المدقع . ولأن الاقتصاد تدهور واستمر التجزىء السياسى ، فان مستقبل المجر كان ينذر بتفاقم توترات ونزاعات جديدة . الا أن ذلك يمكن أن يحدث فى ظل نظام ديمقراطى . وبدا أن الأحزاب السياسية تجمع على أن العودة الى الديكتاتورية شىء غير مرغوب فيه .

نحو نظام جمهورى فى بولندا :

ان صراعا مريرا قد طفا على السطح فى بولندا فى صيف عام ١٩٩٠ عندما قرر ليخ فاونسا أن يتحدى الحكومة التى كان قد ساعدها فى الوصول الى السلطة من شهور عديدة فائتة . وبكلمات حادة ودأب ، أخذ فى ادانة الحكومة لما أبدته من تسويف تجاه توجيه ضربة قاصمة لأعضاء الحزب الشيوعى . ومنطق فاونسا الذى يكمن وراء انفجاره المعادى لمازويسكى أن زعيم الاتحاد لم يكن راغبا فى اقتسام

السلطة مع الشيوعيين وهو ما كان مبدأ دستوريا قامت على أساسه حكومة مازويسكي • وبالنسبة لفاونسا وأحلافه ، لم يعد هناك اى سبب يجعل بولندا تلهث وراء القيادات الشيوعية السابقة • ورأى فاونسا أن وجود الجنرال ياروزليسكي كرئيس للبلد ـ حتى ولو كان مجرد وظيفة شرفية شيء شاذ في وقت يطرد فيه المجريون والتشيكوسلوفاكيون بالفعل الشيوعيين من كل مواقع السلطة • وقد نظر فاونسا ومؤيدوه الى الاستراتيجية التى اقرتها الجلسه البرلمانية لتضامن برئاسة المؤرخ بروتسلو جيريمك على انها استراتيجية قاصرة ولا مبرر لها ، ولم يكن هناك سبب كي تحظى بالقبول في اتفاق المائدة المستديرة ، اذ أن كل المعادلات الداخلية والحسابات الدولية قد تغيرت جذريا .

ان الوقت كان مناسبا تماما لخوض قتال ضار ضد المتمسكين بالشيوعية • اما هؤلاء الذين لا يشاركون فاونسا وجهة نظره هذه فكانوا محلا للشك ، اذ أن ما أبدوه من تعاطف لا يحمله الا عضو سرى في حزب يسارى • وكثيرا ما يقوم فاونسا ـ كما لو كان محللا نفسانيا ـ بالاشارة الى أية زلة لسان تبدر من أى أحد على أنها بولندية « مشوهة » ـ وكثيرا ما استخدم هذه الطريقة الشاذة ليذكر المنتخبين بأن بعض أصدقاء مازوفسكي السياسيين كانوا يهودا أو منحدرين من أصل يهودى • ان التواترات بين زعيم تضامن المتمرد ورئيس الوزراء مازويسكي وعصبته ، لا يمكن فهمها الا في ضوء ظروفه الشخصية والنفسية • ولا نستطيع كذلك أن نتجاهل مشاعر فاونسا ازاء تهميش دوره على يد المفكرين النوابغ في مدينتي وارسو وكركوا .

ويبدو أن فاونسا لم يكن سعيداً بتحول احلافه السابقين لبيروقراطيين وكره ما أظهروه من تميع وليونة ، وكي يعجل بالانتقال الى الديمقراطية استخدم مجلسه الاستشارى ويدعى لجنة المواطنين Citizens' Committee وهو الكيان الذى تأسس عام ١٩٨٧ • وفي عام ١٩٨٩ اختارت اللجنة عددا من المرشحين عن منظمة تضامن للحصول على مقاعد في البرلمان ومجلس الشيوخ في كل دائرة انتخابية • وفي عام ١٩٩٠ أكد فاونسا سيطرته على هذا الكيان بتعيينه تزسلو ناجدير Zdlslaw Najder المؤرخ الأدبى والرئيس السابق للمحطة البولندية لاذاعة أوربا الحرة Radio Free Europe's Polish Service كرئيس جديد للجنة .

وعين عددا من الأعضاء وأعاد ـ بقرار معلن ـ هنريك فيجيك Henryk Wujeck زميله السابق المقرب كسكرتير للجنة ، كما حاول

اقصاء آدم متشنك من جـريدة جازيتـا ويبـورتسا Gazeta Wyborcza اليومية · وباصراره على التمسك بجذوره الشعبية باعتباره معـارضا لتغـــريب مفكرى وارسو عن الطبقـــة العاملة ـ ودعا فاونسـا رئيس الوزراء ماتزوفيسكى Matzowiecki لاجتماع يحضره العمال فى ساحـــة لينين Lenin Shipyard فى جدانسـك ·

ولما قام به من ضربات وحشية ومستمرة فان احلاف مقربة من رئيس الوزراء قد عبرت جهراً عن عدم موافقتها على ممارسات فاونسا السلطوية ، وتطور مناظرة حادة بين صحيفة جازيتا ويبورتسا اليومية والذى كان يحررها آدم متشنك المؤرخ التاريخى المعروف وجريـــدة تيجودنك سوليدرانسك Tygodnik Solidarnasc الجريدة التى يسيطر عليها مناصرو فاونسا · ولأن المجابهة ازدادت حدة بين الجـــريدتين وبالتالى العصبتين ، فان الاتهامات كنت قـد تصـاعدت فوصلت تضامن الى مفترق طرق فانقسمت على نفسهـا فى مايـو ١٩٩٠ وانشـــقت لجموعتين رئيسيتين حيث مثل حلف فاونسا حلف المركز Center Alliance وفى يوليو شكل المناضلون الموالون لماتزوفسكى فصيلهم الذى يدعى حركة المواطنين ــ العمل الديمقراطى Citizens' Movement-Demoocratic Action (أو الائتلاف البولندى : رودا (Polish Acronym : RODA (٣١) .

وفى بياناتهم الأولى وجه مناضلو حلف رودا اتهاماتهم لحلف المركز . مســتخدمين طرقا ثورية وقالوا ان شـعار « التعجيل » الذى يفضـله فاونسا ومؤيدوه يمكن أن يهز البلد هزا ويعادى الغـرب · وغالبا ما كان فاونسا يصور على انه ديماجوجى لا معقـول ، ومغامر يخـلو من أى حس بالتسويات السياسية . واختارت رود تاديوتس مازولســكى مرشحا لهـا لمنصب رئيس الجمهورية ، ومن بين اشهر مؤيدى رودا كان جيرتسى تورفيتس Jerzy Tourowicz المحرر الذى يكتب مقـالا ثابتـا فى احدى الجـرائد الأسـبوعية وهى تيجودنك بوتزشـنى Tygodnik Pogszechny وكذلك المناضلان المتمرسان واللذان اشتهرا فى مرحلة النضال السرى لمنظمة تضـامن وهما زبجنيو بوجاك وفيلاتســلاف فرانزنيــوك Wladyslag Fransyniuk واخيراً آدم متشنك .

واعتبر « حلف المركز » ما أبداه يازويسكى وفريقه من تردد سـببا فيما أصاب بولندا من عجز عن التقدم للأمام ، فى هذه المرحلة الانتقالية من الشـيوعية الى الديمقراطية · ورفض الحـلف ادعاءات « رودا » بأنها تجسد « روح التضامن » وأوضح أنها ترى فى نفسها وريثا لأفضل تقـاليد الاتحـاد المستقل · وكتب جـاك مازيارسـكى Jack Maziarski

محرر تجدونسك سوليدارتسك وأحد البارزين فى هذا الائتلاف عن برنامج وأنشطة هذا الحزب قائلا :

((.... وباتباع التقاليد الأساسية لتضامن ، والتى لا تماثل تقاليد اليسار البولندى (الذى يضع حدودا على الديمقراطيه الاجتماعية وتجند مناصريها من بين العلماء والصحفيين والكتاب الى آخره) ، ولا تقاليد اليمين البولندى ، فان حلف المركز يحاول أن يمنع التصادم العنيف بين التيارات اليسارية واليمينية باقرار أغلبية سياسية ثابتة تشغل المساحة بين الطرفين)) (٣٢) .

ورفض المتحدث الرسمى لرودا ، بدوره ، أن يضاف كلمة « اليسارى » لاسم حزبهم من قبل المتحدثين الرسميين الموالين لفاونسا . وادعت الطريق أنها تستلهم روحها من الحركات المدنية الديمقراطية الشرق أوربية ، التى تمت فى السبعينيات والثمانينيات وقد أضاف رودا لرصيده بمبادرته التى أتمت الشفاء ولكن بطريقة الصدمة وذلك بطرحه الاستراتيجية الاقتصادية التى لا تعتبر بأية حال من الأحوال يسارية . وفى مناسبات عدة أكد ممثلو رودا على أن حزبهم يتمتع بوحدة ، تضمن انضمام بولندا الى العائلة الديمقراطية للأمم الأوربية قائلا ان جماعتهم كانت « غرب المركز » وبسؤاله عن معنى هذا الشعار ، فان زبجنيو بوجيك الرمز الأسطورى الذى قاد تضامن فى المرحلة السرية الأولى بعد القانون العسكرى أجاب :

« اننا نعمل من أجل حكم القانون والبرلمان ، من أجل استقلال الهيئة القضائية ، وغيره ، ونحن ضد اية طريقة يمكن أن تهدد المنجزات الديمقراطية . ولا يستطيع المرء أن يفلت من قيود التوتاليتارية بتطبيق طرق غير ديمقراطية » (٣٣) .

ان الصراع بين التيارين له أصل أعمق وهو بالتحديد الاختلاف حول طبيعة الخطر الرئيسى الذى يهدد ديمقراطية بولندا الهشة . ويرى حلف المركز أن استعادة الشيوعية هى تهديد حقيقى ودفعوا فى اتجاه فورى ولا يقبل التسوية لابعاد النومنكلاتورا عن كل المكاتب الحكومية ، بينما أشار « رودا » الى التعددية العرقية والديماجوجية ، باعتبارها أكثر الكوارث خطورة . وآدم متشنك كمثال اعتبر فاونسا « خطرا على الأمة » وقال ان زعيم تضامن بكل مهاراته كمناضل شعبى ليس لديه ما يؤهله ليكون رئيسا لدولة ديمقراطية . ويرى متشنك ان ما يملكه فاونسا من « **مثالية هى وظيفة يمسك من خلالها بكل حبال السلطة** ... **يتحمل اية مسئولية » (٣٤) .**

ورد بوجاك على رؤى فاونسا عندما قال بان ((**التعددية الفارغة**)) لحلف المركز قد استقطبت مشاعر القوميين ، ((**وبسبب وجهة النظر القومية ان يكون فى مقدور [حلف المركز] أن يبنى حركة سياسية تربط بولندا بالغرب . ان حزب « رودا » هو الحـزب الذى سيأخذ بيد بولندا الى اوربا)) (٣٥)** .

وتورط رئيس الوزراء مازويسكي الرجل الذى كان بالتأكيد اكثر شعبية من وزرائه فى معركته مع فاونسا الدءوب والمشهور اثناء الانتخابات التى أجريت فى ديسمبر ١٩٩٠ حيث حصل فاونسا على ٤٠٪ فقط فى الجولة الأولى و ٧٠٪ فى الجولة الثانية . وبعد الجولة الأولى انسحب مازويسكى تاركا فاونســا يتحـــدى ستانسلو تيمنســـكى Stanislaw Tyminski رجل الأعمال غير المعروف والذى كان مهاجراً الى كنـــدا وبيرو والذى تعهد بتحسين الوضع الاقتصادى لبولندا فى خلال شهر ، وقد حصل تيمنسكى على أصوات تفـوق ما حصل عليــه هذا الذى يسعى منصب رئيس الوزراء ، وهو ما أثار رعب المراقبين البـولنديين وذعـر كل الأحزاب الديمقراطية ، اذ أن الوافد الجديد غير المؤهل ليصـــبح رئيسا للجمهـورية ، اســتطاع أن يفـوز بخمســة وعشرين فى المـائة من الأصوات فى الدورة الحاسمة فى الانتخابات . وقد كان واضحـــا أن الصراع بين فصيلى تضامن مع الاتهامات الكلامية التى تبادلوا رشقها ، قد ساهم فى ارتباك عام واحباط واسع النطاق بين المنتخبين . وبعد أيام قليلة من الجولة الأولى من الانتخابات الرئاسية فى بولندا كتب صحفى ايطالى تخصص فى الشئون الشرق أوربية يقول عن وارسو :

((**ان المناخ الآن فى وارسو أصبح مسمما بهستيريا من الرعب حتى ان الوافد الدخيل ربما ظن أن المدينـة كانت قد أعلنت مؤخـرا منطقـة كوارث طبيعية أو انها حقيقة مصحة عقلية واسعة حيث يتهم فيها كل نزيل جاره بأنه يحاول أن يظهر نفسه عاقلا . وبالمناسبة ان مصطلح (السيكوباتى) غالبا ما يتردد فى عبـــارات المفكرين والســـياسيين هنا)) (٣٦)** .

ان هذه اشارة تنذر بالســوء لحـزبى رودا حلف المركـز ، اللذين أدركا أن السخط الشعبى يكمن خلفه انفجـار مـدو ، وانه ان لـم يتـم تحسين الأداء الاقتصادى فى القريب العـاجل ، فستكون هناك على وجــه التأكيد انفجارات للاضطراب الاجتماعى ، ولانجاز مثل هذه التحسينات، عمل فاونسا على التقـدم بالحـوار والمصالحة القـومية واعـاد تعيين ليـزيك بالبروفتس Seszek Balcerowicz وزيرا للاقتصاد والمسئول عن

الشـــفاء بطـــريقة الصـــدمة فى الحـــكومة الجـــديدة التى يرأسها الآن كريتستوف بيلســكى Krisztof Bielecki البالغ من العمر ٣٩ عاما وعضو البرلمان فى جدانسك والاقتصادى الذى تحول الى رجل أعمال وسياسى .

ان تكوين الحكومة الجديدة وكذلك اعادة تثبيت موقف فاونســا أكـد على أن مناضل منظمة تضامن المتميز كان قـادرا حقـا عـلى فهـم القواعد والقوانين السياسية الواقعية . وفى أحد تشخيصاته الواعية لفاونسا فان بيوتر فيرزبسكى Potr Wierzbicki ، وهو واحد من أكثر الصحفيين المؤثرين فى بولندا ، حلل الأساطير العديدة التى ضربت حـول المرشح السابق لجدانسك وأوضح زيفهـا . واستنتج بيوتر فيرزبســكى الآتى :

« ربما يبدو فاونسا حرباء لأنه برجماتى متطرف . وبعيداً عن رفضه لمبدأ العنف فان مودته للكنيسة الكاثوليكية البولندية وعـــدم تشككه فى معاداة السامية ، وتجاهله لشــعارات تضـــامن (« روح الشعب » ، « الخضوع » وغيرها) فان فاونسا لم يتبن أى مـذهب من أى نوع . وعندما قال ان تضامن لا هى بجنــاح يمينى ولا يســارى ، فانه كان يتحدث عن نفسه أولا . انه لا يهتم بالصــياغات أو المفاهيم . انه يهتم بما يجب ان ياكله الناس وبما يقوله عن تضامن . انه يهتم بمزاج المجتمع اذ يعتبره مؤشرا لا يخطىء . انه يعلم انه اذا فشــل فى الابقاء على روابط تجمع بين اتجاهات ومشاعر الناس العادية ، فانه سيكون لا شيئا . وكلمـا وضع فى اعتباره أن تحديد أى طريق سلمى سوف يؤدى بأسرع ما يمكن الى بولنـدا حرة حقيقية ، فانه سيكون على الطـــريق الصـــحيح » (٣٧) .

ان انقسام تضامن وتشكيل حزبين رئيسيين جـديدين ساهم فى جعل التمايز السياسى تمايزا صحيحا . وفى المجتمعات الديمقراطية لا توجد حاجة لأية روح عصبوية بين هؤلاء الذين يشــكلون الطبقة السياسية . وطالما أن الأحزاب السياسية تقاسم الحكومة فى المثل العليا ، فان تنافسهم هو اشارة على الدينامية الاجتماعية ، ويساهم فى المزيد من التطـــور للثقافة المدنية التى يمكن أن تمنع الانتقال من رئاسة قوية الى تجربـــة ديكتاتورية .

* الخوف والاحباط فى رومانيا :

وفى برنامجها الأصلى ادعت جبهة الخلاص الوطنى برومانيا أنها تمثل روح ثورة ديسمبر المعادية للشيوعية . ولكن رومانيا استغرقت

اقل من شهر لتدرك أن الحكومة الجديدة كانت عازفة عن التورط فى حل شامل للمؤسسات القديمة ٠

وفى يناير ١٩٩٠ نظمت جبهة الخلاص الوطنى مظاهرة العمال الجماهيرية ضد أحزاب المعارضة واتهموها بخدمة مصالح اجنبية . والشعارات الجماهيريه التى رفعها مؤيدو الجبهة نادت بالسيسكو رئيس جبهة الخلاص الوطنى كرجل بعثته العناية الالهية ٠ وفى فبراير رفضت جبهة الخلاص القومى قبول وجودها الهامشى ، وأعلنت عن نواياها فى تقديم مرشحين من أجل الانتخابات القادمة ٠ ومنذ هذه اللحظة بدأت تفقد مصداقيتها بين الشباب والمفكرين — وتحديدا الجماعات التى كانت أكثر فاعلية فى الاجتياح المضاد للشيوعية . وكتب اوكنيفان بولر Octavian Poler فى أحد الأعمدة المؤثرة فى جريدة رومانيا ليبرا أو (رومانيا الحرة) Romania Libera وهى احدى أهم الصحف اليومية القومية المستقلة ان طموح جبهة الخلاص القومى هو أن تحتفظ بصورتها الثورية ، لجعل المعارضة معارضة محايدة ، ولتؤكد على انتصارها فى الانتخابات البرلمانية والرئاسية المزمع اجراؤها فى الربيع ٠

وقبل ربيع ١٩٩٠ وفى مستهل ثورة ١٩٨٩ الرومانية ، انتاب الكثير من الجماهير الشك فى أن الزعماء الجدد يعرفون بعضهم البعض قبل انهيار نظام شوشيسكو ، وأنهم قد تآمروا ليأخذوا السلطة فى اللحظة التى يزاح فيها الديكتاتور أمام المد الشعبى ٠ وبمعنى آخر ، فان جبهة الخلاص القومى وبعيدا عن كونها دفقا تلقائيا قادما من القاعدة كانت تعبيرا عن المؤامرة التى قام بها هؤلاء الذين كانوا فى القمة .

ولان الحركة المنشقة كانت ضعيفة فى رومانيا الشيوعية وتراثها السياسى كان محدودا ، فان الاجتياح الثورى فشل فى أن يسفر عن تشكيل حكومة ثورية . وما حدث بعد ذلك كان حقا اقصاء للثورة عن بؤرة الاهتمام على يد جماعة متلونة من الشيوعيين ، وقد نظمت جيدا فى قصر المؤامرات مستخدمة أساليب التنكر ٠ وكان يبدو أيضا أن أعمالهم نالت استحسان القيادة السوفيتية التى كان لديها كل الأسباب التى ترجح استبدال شوشيسكو « بأتوقراط مستنيرين » ، بدلا من تلك القوة المضادة للشيوعية والتى ظهرت بالفعل فى بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا .

وقد بدت جبهة الخلاص القومى مقتنعة تمام الاقتناع عندما عبرت عن رغبتها فى الانفصام عن الماضى ٠ الا ان هذه النية كانت مجرد كلام طنان!

صحيح أن البوليس السرى السياسى كان قد الغى رسميا ولكن فى مارس ٩٩٠ برز ثانية على السطح تحت اسم مصلحة رومانيا للمعلومات Romania Service For Information ولم يحاكم اى فرد من هؤلاء الذين خططوا للمذبحة البشعة فى بوخارست بعد فرار شوشيسكو فى ٢٢ ديسمبر ١٩٨٩ .

وأطلقت وسائل الاعلام الموالية للحكومة حملات شعواء لتحقير المعارضة وكل هؤلاء الذين جرؤوا على المساءلة عن مدى شرعية جبهة الخلاص القومى . وحقيقة ، فان السبب الرئيسى لعدم استقرار رومانيا فيما بعد الثورة كان محاولة الشيوعيين الاصلاحيين الاحتفاظ بالسلطة السياسية والاقتصادية فى أيدى طبقة النومنكلاتورا نفسها والتى حولت البلد بعد أكثر من أربعة عقود لحطام . وادركت الجماعات المدنية المستقلة ووسائل الاعلام الشرك الكبير الذى نصب لجبهة الخلاص القومى باعتبارها « دفقا » للثورة . فمن ناحية كانت هناك جبهة الخلاص القومى برئاسة أيون اليشيسكو الشخصية التى اشتهرت بقناعاتها الشيوعية على الصعيد العالمى ، ومن الأخرى كانت الأحزاب المعارضة التى يسيطر عليها ثلاثة « أحزاب قديمة جديدة » (الليبرالى القومى والفلاحون القومى والديمقراطيون الاجتماعيون) . وفى نفس الوقت برزت جبهة الخلاص القومى عددا كبيرا من الأحزاب الصغيرة التابعة التى كانت مستعدة أن تصدق على سياسات الجبهة بأمل المشاركة فى السلطة . وأثناء انتخابات مايو ١٩٩٠ قدم أكثر من ثمانين حزبا سياسيا مرشحيهم وكان منهم اربعون حزبا يبدون تعاطفهم مع جبهة الخلاص الوطنى . وكان لدى المعارضة قليل من الوقت لتنظيم نفسها وتحديد مسارها السياسى الذى يكسر الحواجز التى وضعتها حكومة الجبهة بينها وبين الجماهير .

ولم يكن هناك أى تقارير تثبت أن رئيس الوزراء بيتر رومان Peter Roman ابن أحد قمم الأيديولوجيين الشيوعيين والذى قضى سنوات الحرب فى موسكو كموظف تابع للكمنترن ، كان منشقا وذلك خلال نظام شاوشيسكو . وعين سكرتير الخلاص القومى دان مارتيان Dan Martian فى السبعينيات كسكرتير عام لاتحاد الشباب الشيوعى ووزير للشباب Minister For Youth Affairs .

اما التشيسكو فانه لم يتنكر لماضيه الشيوعى بما فى ذلك دوره كأيديولوجى رئيس وكان ذلك فى اواخر الستينيات ، ورغم ان جبهة الخلاص الوطنى لم تكن حزبا سياسيا حقيقيا ، فان بلشفيتها الجديدة

التى تم التنديد بها كانت استراتيجية حياة أو موت استخدمتها النومنكلاتورا المعاصرة كمحاولة لاحتواء مد الموجة المضادة للشيوعية القادمة من القاعدة . ولأنها كانت مظلة أكثر من كونها حزبا شيوعيا دستوريا أيديولوجيا ، تلاعبت جبهة الخلاص الوطنى بالمخاوف الثارة عن اللا استقرار والضياع . كان يجب على الجبهة أن تعترف بوضعها السياسى فى فبراير عندما دعت الأحزاب الأخرى للانضمام لبرلمان مصغر يسمى المجلس الاقليمى للوحدة الوطنية Provisional Council of National Unity . والتعاون مع ممثلى المعارضة داخل الجسد الهش ، فان جبهة الخلاص الوطنى هدفت لوضع حد للاضطراب العام .

الا أن السخط فى رومانيا قد ضرب بجذوره ولم يكن من السهل وقفه . ان انغماس جبهة الخلاص الوطنى فى أنصاف الحقائق والتحذيرات العدوانية أسفر عن مزيد من التوترات داخل القوى الثورية والمدنية . وربما كان اليتشيسكو واهما عندما ظن أن الرؤية الرومانية للبرسترويكا سوف ترضى الجماهير ، ولخيبة أمل زعيم جبهة الخلاص الوطنى فان الراديكالية بدلا من الحد من دفقها ، زاد مدها واستجمعت قواها .

ان الشعور المتفشى بأن جدول أعمال جبهة الخلاص الوطنى الخفى كان يهدف للاحتفاظ بالنظام السلطوى كان له أساس من الصحة. وكان الرومانيون يعلمون أن البوليس السرى المرعب ما زال موجوداً رغم انكار السلطة ذلك رسميا . وتم تقديم بعض أتباع شوشيسكو للمحاكمة بتهمة المشاركة فى مذبحة (١٦ — ٢٢) ديسمبر فقط وليس بسبب دورهم الذى قد لعبوه فى اقرار واحد من أكثر الأنظمة الاستبدادية البذيئة منذ رحيل ستالين . وبدلا من استبعاد الأجهزة الادارية التى خدمت النظام السابق ، عينتهم جبهة الخلاص الوطنى فى مواقع قيادية مهمة . ولم تستطع المعارضة فى كل البلدان الشيوعية السابقة الأخرى . أن تصل للسلطة أو أن تخطط للقيام بتحد حقيقى لمحاولة اعادة بناء الأحلاف اللينينية . ففى رومانيا اخترق الموالون السابقون الساتر الثورى وأطلقوا حملات عشوائية ضد الديمقراطيين ، وبدلا من اللجوء لطريقة التفاوض على أساس امكانية الحوار بين الشيوعيين الاصلاحيين والمعارضة فان « الأوضاع المتردية فى بوخارست Bucharest Syndrome » بلغت حد أن بيروقراطيى النظام السابق ومأجوريه السيكوباتيين حاصروا الثورة المضادة للشيوعية الأصيلة، كما بلغت حد التنكر المستمر لهؤلاء الذين التزموا حقيقة بالتغيير السياسى والاقتصادى (٣٨) . وتحدث اليتشيسكو والرومانيون عن

التعددية واقتصاد السوق ولكنهم لم يبادروا بأى اصلاح حقيقى يمكن من خلاله التخلص من السلطة البيروقراطية للدولة . واستمر كبت وقمع المبادرات الفردية من قبل قرارات حكومية لا تعد ولا تحصى ، ولم يلق الاستثمار الأجنبى أى تشجيع ، اذ رفعت الجبهة شعار « اننا لا نبيع بلدنا لتعددى الجنسيات الغربيين » . لقد ازداد التضخم ، ولم يستفد من اطلاق الأسعار وتحريرها سوى تجار السوق السوداء والبيروقراطيين .

وكما توقع اللينينيون غير آسفين ، فان استراتيجية جبهة الخلاص الوطنى قد نسفت من أساسها وحدث ذلك لأنها تجاهلت ديناميات التنظيم الذاتى للمجتمع وتدفق المشاعر الجماعية وتوق الجماهير للحرية والآثار التى أسفر عنها التقدم نحو الديمقراطية فى البلدان الشرق أوربية الأخرى . وفى مارس ١٩٩٠ تم تحدى جبهة الخلاص القومى «بميثاق تيميشوارا Timisoara Proclamation » البيان السياسى الذى كتبه العديد من المفكرين الشبان فى تيميشوارا وهى أول مدينة تفيق من سباتها وتتحدى حكم شوشيسكو أثناء عام ١٩٨٩ الثورى . وفى البند السابع من الميثاق استجوب الثوار المخلصون هؤلاء الذين قد ركبوا موجة الاجتياح :

« **وبدأت تيميشوارا الثورة ضد النظام الشيوعى كله وضد النومنكلاتورا بأكملها ولم يكن ذلك بالتأكيد لاعطاء الفرصة لجماعة من المنشقين المعادين لشوشيسكو داخل الحزب الشيوعى الرومانى RCP للصعود على انقاض السلطة السياسية ، ان وجودهم على راس السلطة السياسية يجعل تضحية أبطالنا بأنفسهم لا معنى لها » (٣٩) .**

وما كان له المغزى الأكبر فى الميثاق هو البند الثامن الذى نادى بتعديل قانون الانتخاب ، لمنع المناضلين الشيوعيين السابقين وموظفى البوليس السياسى من التشبث بالوظائف الحكومية والجرى وراء المقاعد البرلمانية ، كما عارضت الوثيقة بشكل مؤكد حق هؤلاء الذين خدموا النظام الشيوعى أن يرشحوا أنفسهم لمكتب رئيس الجمهورية . وحقق الاعلان بغيته فقد كان رد فعل النومنكلاتورا مشينا ، اذ استخدموا أسلحتهم التقليدية بما فى ذلك القذف والغمز واللمز والتخويف .

ولاقت أهداف الميثاق كل قبول من قبل مئات من الجماعات والجمعيات المستقلة ، بما فى ذلك جماعة الحوار الاجتماعى Group of Social Dialogue وهى كمدونة من المفكرين البارزين المعروفين

برفضهم السابق للتعاون مع نظام شوشيسكو . ومع حلول نهاية شهر أبريل تجمع العديد من الطلاب والعمال والمفكرين بميدان الجامعة في بوخارست ، حيث نظموا اعتصاما للاحتجاج على رفض الحكومة تلبية مطالب الميثاق . ورغم أن حكومة جبهة الخلاص الوطني ارسلت قوات البوليس لتفرقة المظاهرات التي عسكرت في الميدان ، فان المظاهرات تواصلت ليل نهار . وبهذا التحدي فقد اليتشيسكو عقله وأمر بمذبحة للمتظاهرين وقد كان ذلك خطأ كلفه الكثير ، اذ تذكرت الجماهير ممارسات شوشيسكو الاجرامية ضد « المشاغبين » في تيميشوارا أول أيام الثورة .

وفي مايو ١٩٩٠ فازت جبهة الخلاص الوطني بأغلبية المقاعد البرلمانية برومانيا ، وفاز اليتشيسكو مرشح جبهة الخلاص الوطني بمنصب رئيس الجمهورية بأكثر من ٨٥٪ من الأصوات . وبالمقارنة بالدول الشيوعية السابقة الأخرى ، كانت رومانيا استثناء . وكان سر الانتصار الساحق لجبهة الخلاص الوطني يكمن في الغموض الذي لف توجهاتها الحقيقية نحو الاشتراكية ، ويكمن أيضا في تفكك المعارضة وافتقارها للتنظيم الجيد . ورغم حنينها الى ذكرى أمجادها السابقة ، فان « الأحزاب التاريخية » فشلت في اثارة اى رد فعل ايجابي بين العديد من الرومانيين خاصة من هم في منتصف العمر . وهناك عنصر آخر يرجع اليه انتصار جبهة الخلاص الوطني الساحق هو ارهابها وممارساتها العنيفة والمستمرة للمعارضة ، ورأى الرومانيون أن التصويت من أجل جبهة الخلاص الوطني بدا هو البديل الوحيد للانزلاق في هوة الاستبدادية (٤٠) .

وبادراكهم لهزيمة ما بعد انتخابات مايو ، فان المنظمين لاعتصام ميدان الجامعة قرروا الانسحاب . وبحلول منتصف يونيو لم يطالب المحتجون . بما فيهم العديد من المضربين عن الطعام ، سوى بتأسيس واحدة من المحطات التليفزيونية المستقلة . وقد انتظر اليتشيسكو قليلا حتى يمكن للنار التي أضرمت في قلب بوخارست أن تخمد دون تدخل منه .

ولكن في ١٣ يونيو حاصر البوليس الميدان وفك خيام المضربين عن الطعام وحطموا المنصات التي اقامها المتظاهرون لالقاء خطبهم ، كما أصيب المتظاهرون بعد تفريقهم بالقوة ، وكان ذلك هو المرحلة الأولى من عملية القمع النهائي والحاسم للمعارضة .

وواصل البوليس السرى أعماله القمعية بعد سلسلة من الأعمال الاستفزازية بما فى ذلك الهجوم على مبانى وزارة الداخلية ومبانى التليفزيون المركزى . وكان هذا الانفجار هو ما يحتاجه اليتشيسكو تماما ؛ ليحصل على تأييد عمال المناجم فمنحهم مباركته ليطلق ليده العنان القيام بممارسات ارهابية فى بوخارست فى ١٤ ، ١٥ يونيو . واجتاح عمال المناجم مقرات الجمعيات المستقلة التى عرفت بنشاطها السياسى وهاجموا مقرات أحزاب المعارضة والمئات من الجامعات والمدارس العليا . لقد كان رد فعل عنيف ودموى على احتجاج الجماهير ، بل كان عربدة ستالينية فاشية من الكره والعنف (٤١) . وقد أثارت هذه الأعمال التى قام بها عمال المناجم حنقا دوليا شديداً وهو ما أجبر اليتشيسكو ومعاونيه للتخلى عن خطتهم المبدئية والتى استهدفت اذلال المجتمع المدنى الصاعد برومانيا اذلالا تاما ، وبالنسبة للمعارضة ، ورغم الأثر السيىء الذى خلفه انهيار يونيو واصلت تنظيم نفسها ، وفى سبتمبر شارك ممثلون عن أكثر الجماعات الديناميكية المستقلة فى اجتماع المقاومة الرومانية (٤٢) Romanian Resistance . وفى نوفمبر وكتعبير عن الحاجة الى جمع شمل التشكيلات المتفرقة من المعارضة داخل البرلمان تشكل التحالف المدنى Civic Alliance ، وتحت قيادة رموز ثقافية وسياسية معروفة ، أعلن التحالف التزامه باقامة ثقافة سياسية ديمقراطية فى رومانيا مستخدما الوسائل التربوية والحوار . ورغم انها لم تقدم نفسها على انها تشكيل سياسى ، وجد التحالف ، نفسه مصدرا لالهام المنبر المدنى التشيكوسلوفاكى . وفى يوليو ١٩٩١ أقام التحالف المدنى مؤتمره الوطنى ، وقررت نخبة من المناضلين البارزين تشكيل حزب التحالف المدنى كقناة تمدهم بالمرشحين فى الانتخابات القادمة . ومن بين هؤلاء الذين ظهروا كرموز مهمة فى الحزب السياسى الجديد ، كان هؤلاء المفكرون ذوو المكانة البارزة من أمثال الناقد الأدبى نيكولا مانولتشيكو Nicolae Manolescu وكاتب المقال السياسى ستالين تانيس Stelian Tanase المناضل المدنى بتيميشوارا وفاسيلى بوبفتشى Vasile Popovici وجورج نوفان George Novan زعيم النقابة العمالية فى كونستانتا Constanta .

ولعجزهم وعدم رغبتهم فى المبادرة بمزيد من الاصلاحات الداخلية فان نظام جبهة الخلاص الوطنى استعاد الحملات السوفيتية واستنفر مشاعر الرومانيين القومية ضد السيناريو الدولى المزعوم الذى يهدف الى زعزعة استقرار البلد . وفى تلك العملية عبأ النظام المناضلين الشيوعيين السابقين ، وموظفى البوليس السياسى ، والمفكرين

المعادين للأجانب واستخدموا كرأس حربة للدعاية الحكومية المتزايدة ضد المجريين . وتولت المنظمة المتطرفة فاترا رومانسيكا هذه الحملة الشعواء والتى فاقت جهود شوتسيسكو المعادية للأجانب . ولأن الموقف الاقتصادى فى رومانيا استمر فى التدهور ، فقد فقدت السلطة قاعدتها الجماهيرية فأصبحت الشوفينية فى أسوأ أشكالها هى آخر ملجأ ديماجوجى يلجأ اليه الحكام . وفشلت ثورة رومانيا فى اقامة دولة القانون أما الشيوعيون السابقون والذين خاطبوهم على أنهم ديمقراطيون ، فبعثوا من جديد وأقاموا نظاما سياسيا يمكن أن يوصف بأنه « ديمقراطية توتاليتارية » أو « ديكتاتورية ترتكز على تحمس شعبى » (٤٣) .

ولكن الجماهير عندما ندرك كم الأكاذيب الرسمية فان هذه الحماسة تذبل وتتوارى ، وبناء عليه فانه من المتوقع أن سلسلة من العنف ستجرى فى هذا البلد ، وستتحطم قبضة جبهة الانقاذ الوطنى على السلطة فى آخر الأمر ، وعندئذ ، يمكن أن يكون أحد بدائل هذا التشوش هو العودة الى الصيغة السياسية التى سبقت الشيوعية وتتمثل فى الاستبدادية الدستورية . وأحست جبهة الخلاص الوطنى بالفعل بهذا الخطر ، وفى ديسمبر ١٩٩٠ قامت بطرد ملك رومانيا السابق الملك ميخائيل King Michael الذى جاء من منفاه فى زيارة قصيرة لبلده ، وكان قد تنازل اجباريا عن العرش فى ديسمبر ١٩٤٧ (٤٤) . ومرة أخرى ، فان تجربة اسبانيا تستحق التأمل . ويستطيع المرء أن يرى سمات الاستبدادية الدستورية فى أنها تستعيد التقاليد التى انقطعت وتقدم تراثا سياسيا قادرا على قيادة المصالحة الوطنية ، وحقيقة وفى ديسمبر ١٩٩٠ فان التحالف المدنى نشر بيانا طالب فيه باجراء استفتاء شامل ، ليقرر الشعب اذا كان يجب على رومانيا أن تعود للاستبدادية الدستورية مرة أخرى . وبالنسبة لكثيرين فى رومانيا ، كان الملك هو رمزا للتجربة الديمقراطية القصيرة الأجل عقب الحرب العالمية الثانية . وكذلك يعتبر الملك الضمان الممكن والوحيد لعودة الوضع السوى الذى طال انكاره على الحياة العامة . ان الدستور الديقراطى الذى اتبع فى عام ١٩٢٣ اعتبر ــ بناء على ذلك ــ كأساس شرعى لبناء نظام تعددى فى ذلك البلد .

* يوجوسلافيا : نزاعات عرقية ، انفصالية ، تفكك :

أثناء عام ١٩٩٠ تخلت العصبة الشيوعية اليوجوسلافية League of Communists عن احتكارها السلطة وتفككت على نحو شبه تام . وأثناء عقد مؤتمره الرابع عشر اعترف الحزب بأنه لن يستجدى

امتيازاته الدستورية وأدرك انه لا يمكن لأى أحد فى المجتمع الديمقراطى أن يمتلك الحقيقة التاريخية المطلقة . ولم تكن هذه التنازلات كافية لتهدئة المصلحين الراديكاليين من سلوفينيا الذين طالبوا باعادة بناء تامة للحزب ، وعندما قوبلت مطالبهم بالرفض ، انسحبوا من المؤتمر ، ومن ثم تفتتت أوصال الأحزاب الفيدرالية المتماسكة . وفى مايو تم استئناف المؤتمر فى جو من التوتر العام . وانطلقت النداءات من أجل تحول الحزب الى منظمة يجتمع تحت مظلتها كل الفرق اليساريه فى تشيكوسلوفاكيا ، وعندما قوبلت مطالبهم بالرفض ، انسحبوا من المؤتمر ، وفى نفس الوقت كان الحزبان الكرواتى والسلافى الشيوعيان قد منيا بهزيمة منكرة فى الانتخابات التى شارك فيها كل الأحزاب ، لذا فان الشيوعيين فقدوا رصيدهم الجماهيرى فى ثانى أكثر جمهوريات يوجوسلافيا تقدما . وبعجزهم عن مواكبة التغيرات التى اجتاحت كل شىء ، حاول الشيوعيون أن ينظموا أنفسهم كحركة ملتزمة بالابقاء على يوجوسلافيا الفيدرالية . وفى جمهوريات أخرى توالت هزيمة الشيوعيين . ففى نوفمبر منيت عصبة الشيوعيين فى البوسنة Bosnia والهرسك Herzegovina بهزيمة مدوية من قبل الحزب الاسلامى للعمل الديمقراطى Moslem Party For Democratic Action ، وبعد شهر واحد فان شيوعيى مقدونيا Macedonia خسروا الجولة الثالثة من الانتخابات (٤٥) .

وحاول رئيس الوزراء الفيدرالى آنتى ماركوفيتش Ante Markovic أن يعارض الاتجاه نحو اصلاحات تدريجية ومركزية ، وأعلى من شأن الاصلاحات الجريئة والفورية . وقد أعلن فورا عن نية لتنظيم ائتلاف يشمل كل قوى الاصلاح فى يوجوسلافيا Alliance of Reformist Forces وتمتع بشعبية كبيرة بين العديد من المواطنين الذين صدقوا على فكرة الانفصال التام عن الفيدرالية (٤٦) . الا أن الصراع السياسى واللاتمازج بين جدولى الأعمال الاجتماعى والقومى فى الحكومات الجمهوريات ازداد عمقا . وكنتيجة لانتخابات سلوفينيا وكرواتيا فان الجمهوريتين قد ساسهما ائتلاف يمينى ، بينما خطط الشيوعيون فى انتخابات ديسمبر للبقاء فى السلطة فى صربيا ، أكبر جمهوريات يوجوسلافيا وأكثرها قوة . وباعتباره المؤسسة الأولى فى يوجوسلافيا استمر الجيش فى معارضة الاتجاهات الانفصالية ، الا أن كثيرين فى سلوفينيا وكرواتيا نظروا للجيش على أنه أداة لتحقيق رغبات رجل صربيا القوى وهو سلوبان ميلوسفيتش . وفى نفس الوقت وفى

سلوفينيا انتخب شيوعى سابق رئيسا للجمهورية ، الا أن الانتخابات البرلمانية فاز بها ائتلاف يمينى مكون من أكثر من خمسة أحزاب تسمى ديموس Demos . وفى ديسمبر ١٩٩١ صوت معظم السلافيين فى استفتاء عام لصالح استقلال بلدهم عن يوجوسلافيا ، ومن ثم دشن نموذج يعد فأل شؤم على مستقبل الفيدرالية . ولم يكن ذلك ـ بالضرورة ـ يعنى انفصالا أو انعزالا ، بل هو مشروع تدريجى سوف يسمح للجمهورية السلافية بأن نسيطر على الجيش والسياسات الخارجية والمالية والتى كانت حقا مقصورا على الحكومة الفيدرالية فى بلجراد . وطالب بعض الرسميين السلافيين بصيغة كونفدرالية مشابهة للمجموعة الأوربية European Community ، الا أن آخرين قد توقعوا احتمالية الانفصال الكامل . وكمثال ، فان المناضل المنشق السابق ديمترى روبل Dimitrij Rupel الذى أصبح بعد الانتخابات وزيراً للشئون الخارجية بسلوفينيا ، أعلن :

« ان هذا البلد يتفكك . ويعانى من عدم استقرار عظيم وخاصة من وجهة نظر النظام الشرعى اذا ، فاننا مجبرون على البحث عن صيغة جديدة للتعايش » (٤٧) .

وأصبح تودجمان أول رئيس جمهورية غير شيوعى فى تاريخ يوجوسلافيا . وقد حكم كمرشح للاتحاد الكرواتى الديمقراطى القومى Croatian Democratic Union ولم تكن مقولة ديمترى أقل اثارة من مقولة ميلوسفيتش الاستفزازية فيما يخص التساؤلات الموجهة لصربيا عن الحدود الموجودة بين الولايات ، وعما اذا كان اليوجوسلاف على وشك أن يصبحوا كونفيدرالية . ان المرارة والشك الموجودين مسبقا بين الصرب والكروات ، كانا قد تفاقما بسبب نضال ميلوسفيتش من أجل قومية صليبية . وحقيقة ، فان رئيس الجمهورية بدا للكثيرين فى هذا البلد وللمراقبين الأجانب مثل ممارس للسلطوية الشعبية .

« ان رد الفعل الشيوعى القومى الأخير الذى حاول أن يعيد عقارب الساعة للوراء لم يسفر سوى عن الاسراع ببلقنة Balkanization يوجوسلافيا المضادة للشيوعية » (٤٨) .

وفى يونيو ١٩٩١ طالب البرلمان السلافى والكرواتى باستقلال تلك الجمهوريات . ووجهت الحكومة المركزية فى بلجراد انذاراً الى الزعماء السلافيين المتمردين ، الا أنهم رفضوا بشمم أن يخضعوا له . وتدخل الجيش وهاجم المؤسسات العامة والوحدات الخاصة فى

سلوفينيا · وبدا الجيش لكثيرين كأداة تفرض الهيمنة الصربية · ووقعت يوجوسلافيا فريسة للاضطرابات والمعارك المكثفة من جراء تصدى القوات العسكرية لقوات الدفاع السلافية ، مما أسفر عن قتل وجرح كثيرين · لقد بدأت التسوية عندما قبل الصرب سياسيا كرواتيا كرئيس للجمهورية الا أن القضايا التى أثارت الأزمة ظلت موجودة · ودون اعادة النظر فى دستور البلد لجعله أكثر مرونة من أجل سيادة حقيقية ومشتركة للجمهوريات ، فان يوجوسلافيا لن يكتب لها البقاء · فى نفس الوقت ، فان تدخل الجيش فى الشئون السياسية — وهى ضربة غير معلنة حقا — كرس نموذجا غير محدد المعالم سيطبق فى أوربا الشرقية بعد أن تخلصت من الشيوعية ·

ان انهيار الشيوعية اليوجوسلافية ، واللامركزية السياسية الاقتصادية ونمو الحركات القومية ، بما فى ذلك الجماعات الشوفينية المتطرفة ، أدى الى موقف ينذر بالانفجار حيث أصبح تدخل الجيش أمرا محتملا ، واضطهد الصرب فى كوسوفو Kosovo الالبان وهددت الأصولية الكرواتية الصرب فى كرواتيا ، وانجذب السلافيون الى حكم الفيدرالية الاوربية المركزية Centeral European Federation ولأن المسلمين يبدون كرههم للمسيحيين ، والمسيحيون يهاجمون المسلمين ، وطبقة العمال يسودها الاضطرابات المزمنة ، ويواجه نحو ٢ مليون عامل شبح البطالة كنتيجة للاصلاحات الاقتصادية الكبيرة ، فان يوجوسلافيا التسعينيات أصبحت قنبلة موقوتة من المحتمل انفجارها فى أى وقت · وحتى ذلك الحين كيف يمكن لمثل هذا الحدث أن يمنع تردى البلاد لمزيد من الفوضوية بل كيف يمنع انزلاقها لحرب أهلية ؟ · لم يبق من يوتوبيا المارشال تيتو عن الجمهوريات المتسقة التى تجمعها الأيديولوجية والأمل وفى بناء اشتراكية مستقلة سوى الأطماع والسخط ·

البانيا : وداعا ستالين :

ولأن القوى المحركة للاقطار التابعة سابقا للسوفيت كانت تتساقط الواحدة تلو الأخرى فى سنة ١٩٩ الثورية ، بدت ألبانيا وكأنها حصن لا يمكن اقتحامه ، وتتمسك تماما برفضها لليبرالية ودفاعها العنيد عن الأرثوذكسية اللينينية · وقال زعيم الحزب الشيوعى رامز عاليا Ramiz Alia فى نوفمبر ١٩٩١ ، ان بلاده متمسكة برفضها للتغييرات التى بادر بها جورباتشوف ، وحذر من هؤلاء الذين ينشدون

تقليدها ، ولأنه بدا وكأنه يتسبب كثيرا أعداء الاصلاح المحافظين مثل نيكولاى شاوشيسكو وفيديل كاسترو قال عاليا :

« اننا نؤكد خاصة على ذلك عندما نذكر ما يحدث الآن فى البلدان فى الشرق ، هناك التحرق البرجوازيون والاقتهازيون بقوى اخرى ووحدت تكتيكاتها واستراتيجياتها لازالة الاشتراكية كنظام اجتماعى • ومع شعارات ديماجوجيه عن الحرية والحقوق الديمقراطية التى تقحمت الجماهير الكادحة لصالحة أفراد معادين الشعب والشرائح الاجتماعية وبحجة اصلاح الاخطاء التى ارتكبوها هم أنفسهم قاموا بالتأكيد مرة أخرى على قوانين المجتمع على الطراز الرأسمالى » (٤٩) •

ولمنع انتشار عدوى الأفكار « التعديلية » فقد اتخذت اجراءات أمن مشددة فى البانيا فى بداية التسعينيات ولكن دون جدوى فان آثار التغيرات فى البلدان الأخرى كان أكثر قوة من آلة الدعاية الشيوعية ، وفى يونيو ١٩٩٠ لجأ آلاف من الألبان الى السفارات الغربية فى تيرانا ، وفى يوليو ولأن الحكومة الشيوعية أدركت مدى ضعفها ، فقد سمحت لهم بترك البلد (٥٠) . وفى أكتوبر ١٩٩٠ عانى النظام من هزيمة أخرى فقد قال أكثر الكتاب البارزين فى البلد ورمز الشباب الالبانى اسماعيل قادر Ismail Kadare المفكر المحتفى به الذى كان فى الماضى مؤيداً لانفصام خرجة عن جورباتشوف ، والذى ساهم فى رسم صورة البطل القومى للزعيم جورباتشوف :

« حتى الآن كنت أحاول أن أجعل النظام ناعما الى الحد الذى يجعله مقبولا فى البانيا » وفى سياق مقابلاتى وتبادلى الخطابات مع الرئيس فى الربيع الفائت ، عبرت بوضوح عن أهمية تحقيق ديمقراطية سريعة وأصيلة وكاملة فى البلد • ولأنه ليس هناك أية امكانية لقيام معارضة شرعية فى البانيا فقد اخترت هذا المسار الذى لم آمل أبداً أن آخذه والذى لا أحبذه للآخرين » (٥١) •

وبعد عدة شهور وبعد أن لاحظ بداية تطبيق سياسة الانفتاح فى بلده ، قال قادر انه فى حالة التحول الديمقراطية فى البانيا ، فان سرعة التغير تكون مسألة حياة أو موت » (٥٢) •

وكما لو كان يقرأ الواقع البولندى ، فقد اندلعت موجة من المظاهرات الطلابية من أجل الديمقراطية أدت الى مرحلة سياسية دراماتيكية .

ولأن الاضطراب الجماهيرى تطور ، فقد بدا أنه تعلم من الدروس المستفادة من نهاية شاوشيسكو الوضيعة . ان نظام الحزب الواحد

قد ازيل ، وسمح للمعارضة ان تتكون ، وبدأ تاثير أرملة انور خوجة . نكسمجى كزعيمة لجبهة الشعب الديمقراطية People's Democratic Front يخفت ، ولأول مرة منذ عشرين عاما اعلنت البانيا نفسها دولة ملحدة ، فان الجماهير احتفلوا فى الكنائس الارثوذكسية اليونانية Greak Orthodox Churches أنها نهاية رمزية لمرحلة من التطرف والتعصب وكان ذلك فى ٢١ ديسمبر ١٩٩٠ والمناسبة هى العيد ١١١ لميلاد ستالين ، وبدلا من تناول الأنخاب الأرثوذكسية التقليدية ، فان شاحنة تحركت الى شارع ستالين بتيرانا Tirana's Stalin Boulevard فى منتصف الليل وحملت التمثال البرونزى الأسود للطاغية السوفيتى ، وعلق من رأسه على ظهر الشاحنة (٥٣) · وسرعان ما تشكلت الأحزاب السياسية وتسابقت الجماهير لدعم الديمقراطية . وسمحت الحكومة باجراء انتخابات متعددة الأحزاب تجرى فى شهر مارس ، ولكن بعض زعماء المعارضة كشفوا الحيلة التى سبق واستخدمتها جبهة الانقاذ الوطنى الرومانية فى اندفاعها لاستغلال نقص المعلومات والارتباك بين الجماهير ، وقال جبنسى بولو ، المتحدث الرسمى عن الحزب الديمقراطى المعارض :

« لقد كان هناك العديد من القلقين والرعب السياسيين ، ان الآثار التى خلفها ستالين كانت قوية جدا ، حتى اننا لا نعتقد ان الوقت كان كافيا قبل الانتخابات كى نطرح اطارا بديلا للطريقة التى يفكر بها أغلبية الناخبين ، ونحن لهذا السبب نتجنب الافراط فى التفاؤل بامكانية الفوز » (٥٤) .

وبعد كل هذه التحليلات والاستنتاجات المتميزة ، فانه من الواضح أن الحزب الحاكم أدرك أن الطرق القديمة للقمع الارهابى لا بد أن يتم التخلى عنها وانه يجب على زعماء ألبانيا أن يتحركوا بعيدا عن النموذج الستالينى الجامد والذى حرصوا عليه — فى الماضى — ووضعوه تحت حراستهم . وحقيقة ان المعارضة خططت فى انتخابات مارس لتفوز بأغلبية الأصوات فى المناطق الحضرية ، بينما نجح الشيوعيون فى الريف · وهذا يشير الى أن الانتقال الى التعددية سوف يتضمن مشروعا عريضا من أجل الصحوة المدنية ، خاصة فى المناطق التى تعانى من نقص المعلومات · ولوحظ عامل آخر أثناء انتخابات ألبانيا وهو أن محاولات الحكومة النظامية لارهاب المعارضة ، واستخدامها لوسائل الاعلام التابعة للنظام لتصفية المعارضة . وفى هذا الاطار ، كان هناك تشابه بين ألبانيا ورومانيا ·

(١) Kenneth Jowitt. "The Leninist Legacy", in Ivo Banac, ed., *Eastern Europe in the 1990's* (Ithaca, N.Y. : Cornell University Press, 1991).

(٢) Timothy Gaston Ash, "Eastern Europe : Après le Dèluge, Nous, "*New York Review of Books*, August 16, 1990, p. 52.

(٣) Ralf Dahrendorf, *Reflections on the Revolution in Europe* (New York : Random House, 1990), p. 105.

(٤) Celestine Bohlen, "Double-Headed Eagle Cries to Serbs for Revenge." *New York Times*, September 12, 1990.

(٥) Alexis de Tocqueville, *On Democracy, Revolution, and* Society, ed. John Stone and Stephen Mennell (Chicago and London University of Chicago Press, 1980), p. 98.

(٦) Robert C. Tucker, ed. The *Marx-Engels Reader* (New York : Norton, 1978), p. 595.

(٧) Ash, "Eastern Europe," pp. 53, 54.

(٨) See Stephen Engelberg, "Walesa's Victory Now Complicates Poland's Unease," *New York Times*, December 30, 1990.

(٩) Dan Ionescu, "The Communist Party Re-Emerhes Under a New Name", *Report on Eastern Europe*, 1, no. 51 (December 21, 1990) : 22-27.

(١٠) Ash, "Eastern Europe," p. 51.

(١١) See "Reorienting the Security Services," an interview with Peteruska Sustrova, Deputy Minister of Internal Affairs and a longtime opposition activist, in *Uncaptive Minds*, November-December 1990, pp. 38-40.

(١٢) Karol Modzelewski, "Who and What Makes a Leader," Uncaptive Minds, November-December 1990, p. 32.

(١٣) Ralf Dahrendorf, *Reflections on the Revolution in Europe*, pp. 115-16.

(١٤) See Charles S. Maier(The *Unmasterable Past : History, Holeocaust and the German National Identity* (Cambridge, Mass., and London : Harvard University Press, 1988).

(١٥) Christopher Husbands, 'Haunted by the Ghost of Nazism', *The Independent* (London), January 10, 1990.

(١٦) Henry Kamm, "East German Social Democrats Back a Candidate and a Unification Plan," *New York Times*, February 26, 1990.

(١٧) Serge Schmemann, "East Germany's Ballot : Voting Away a Nation," *New York Times*, March 18, 1990.

(١٨) *Frankfurter Allgemeine Zeitung,* June 27. 1990, quoted in Roland D. Asmus. "An Obituary Without Tears". *Report on Eastern Europe,* January 4, 1991, p. 18.

(١٩) Rada Nikolaev, "Between Hope and Hunger," *Report on Eastern* 2, no. 1 (January 4, 1991), : 5 - 10.

(٢٠) Zlatko Anguelov, "The Leader and His Movement". *East European Reporter,* 4, no. 3 (Autumn-Winter 1990) : 27-28.

(٢١) "Bulgaria' Reichstagsbrand ?" *EER,* 4, *no.* 3 : 29.

(٢٢) For a survey of the Bulgarian changes during 1990, see John D. Bell. " 'Post-Communist' Bulgaria", *Current History* (Philadelphia). December 1990, pp. 417-20, 427-29.

(٢٣) Jiri Pehe, "The Instability of Transition," *Report on Eastern Europe,* January 4, 1991, p. 12.

(٢٤) Henry Kamm. "Civic Forum, Prague's Leading Party. Splits in Two," *New York Timed,* February 12, 1991.

(٢٥) "President Havel's Speech on the Anniversary of the 1968 Invasion," *EER,* Autumn-Winter 1990. p. 93.

(٢٦) Ivan Volgyes, "For Want of Another Horse · Hungary in 1990," *Current History,* December 1990, p. 423.

(٢٧) Ibid., p. 424.

(٢٨) Rudolf L. Tökes, "Hungry's New Political Elites : Adaptation and Change, 1989-90." *Problems of Communism,* November-December 1990, p. 64.

(٢٩) See the interview with the Hungarian social philosopher Mihaly Vajda in *East European Reporter,* 4, no. 3 (Autumn-Winter 1990) : 43.

(٣٠) Celestine Bohlen, "Hungarians Are Thriving, Gloomily," *New York Times,* June 24, 1991.

(٣١) For an informative and dispassionate analysis of the spilt, see Jakub Karpinski, "The Difficult Return to Normality, *Uncaptive Minds* (New York), November-December 1990, pp. 24-26.

(٣٢) Jacek Maziarski, "The Goals of the Center Alliance," *East European Reporter,* Autumn-Winter 1990, p. 7.

(٣٣) Interview with Zbigniew Bujak, *East European Reporter.* Autumn-winter 1990, pp. 10-11.

(٣٤) Mary Battiata, "The Two Lech Walesas : Soldiarity Hero Accused of Demagoguery", *Washington Post,* November 22, 1990.

(٣٥) Victoria Pope, "Lech-Luster : Walea's Personal Transformation," *The New Republic,* December 3, 1990 p. 25.

(٣٦) Barbara Spinelli, "The Day After", *La Stampa* (Milan), November 30, 1990, English translation in *Uncaptive Minds,* November-December 1990, p. 35.

See Piotr Wierzbivki's masterful essay "Lech Walesa : The (٢٧)
Sphinx from Gdanski" *Uncaptive Minds*, November-December 1990, pp. 27-31.

Vladimir Tismaneanu, "Sindromul Bucuresti," *Romania* (٢٨)
Literara (Bucharest), August 9, 1990.

"Proclamatia de la Timisoara," *Romania Libera* (Bucharest) (٢٩)
March 20, 1990. English translation in *East European Reporter* Spring-Summer 1990, pp. 32-35.

For the difficulties of Ramania's transition to democracy, (٤٠)
see Vladimir Tismaneanu, "The Revival of Politics in Romania", in Nils H. Wessell, ed., The *New Europe* н *Revolution in East-West Relations* (New York : Proceedings of the Academy of Political Science, 1991), 85-99.

See Vladimir Tismaneanu, "Homage to Golania," *The* (٤١)
New Republic. July 30 -- August 6, 1990, pp. 16-18 ; William McPherson, "In Romania." *Granta, no.* 33, pp. 9-59 : Mihnea Berindei Ariadna Combes, and Anne Planche, *Roumanie, le livre blanc : La réalité d'un pouvoir néo-communist* (Paris : La Decouverte, 1990).

"Romanian Resistance". *East Reporter, Autumn-Winter* (٤٢)
1990, pp. 89-91.

J. L. Talmon, *The Origins of Totalitarian Democracy* (New (٤٣)
York : Praeger, 1960), p. 6.

David Binder, "Exiled Romanian King Has Hopes of (٤٤)
Return," *New-York Times*. February 17, 1991.

Milan Anrrejevich, "The End of an 7ra, New Beginnings ?" (٤٥)
Report on Eastern Europe, January 4, 1991, p. 39.

Robin Alison Remington, "The Federal Dilemma in Yugos- (٤٦)
lavia," *Current History*, December 1990, p. 408.

Brenda Fowler, "Slovenes Vote Decisively for Independence (٤٧)
from Yugoslavia", *New York Times*, December 24, 1990.

Sabrina P. Ramet "Serbia's slobodan Miloosevic : A Profile", (٤٨)
Orbis (Philadelphia) **Winter 1991, p. 105.**

"Alia Epeaks on Ideology, Changes in Bloc," FIBS — (٤٩)
Eastern Europe, November 29, 1989 p. 6.

See Simon Jones, "Albanians Cheer for Their New Free- (٥٠)
dom," *The Indepent* (London), July 14, 1990.

"Top Albania Writer Seeks Asylum in France a Blow to (٥١)
His President", *New York Times*, October 26, 1990.

David Binder, "Albanian Exile Writer Sees Reform", New (٥٢)
York Times, December 6 ,1990

"Albania Removes Statues of Stalin," *New York Times*, (٥٣)
December 22, 1990.

Paul Anastasi, "New Albania Barely Conceals a Stalinist (٥٤)
Bedrock," *New York Times*, January 20, 1991.

الخاتمـــة

مخاوف ، وفوبيا ، واحباطات .
أوربا الشرقية بين العرقية والديمقراطية

« ان تصبح هدفا للازدراء أو الترحيب من جيرانك ــ حسب هواهم ــ يعد واحدا من أكثر التجـــارب المؤسفة التى يمكن أن يمر بها الأفراد والمجتمعات ويعانون مـــن جرائهـــا . فتكون نتيجتها غالبا أن تتحول الخصـــال الحقيقيـــة أو الخيالية للفرد لنـــوع مرضى اذ تتحـــول نظـــرته للكـــرامة والسعادة لنظرة احتقـــار وعداوة » .

آســيا برلين *

Isaiah Berlin

من وارسو الى نيرانا ومن براتسلاف الى صـــوفيا تجاوزت أوربا الشرقية الماضى الشيوعى ودخلت مرحلة جديدة . أما الحاضر والمستقبل فهما الآن فى يد الممثلين الوطنيين ، وعليهم يتوقف بنـــاء الســـياسات الديمقراطية . وليس بمقدور أحد أن يحدد خطأ ارشاديـــا لعملـــية الانتقال . وليس هناك مخطط يضمن اليسر والسهولة لهذا الانتقـــال الكبير ، ومن ثم بدا واضحا أن الصراع فى تلك المجتمعـــات أخذ يستقر بين العصب الديمقراطية والســلطوية . وأسفر انتصار السلطويين عن مواجهات داخلية ودولية . ومن ناحية أخرى ، لا يســتطيع المـــرء أن يتجاهل تواجد مجموعات وأحزاب مؤثرة داخل كل هذه البلدان تدشن مبادىء التعددية ومستعدة للقتال من أجلها .

ويرى كثيرون من أبناء جيلى أن الشيوعية قد أوشكت على الفناء. لقد ترعرعنا فى أوربا الشرقية (التى تضم أيضا الاتحـــاد الســـوفيتى) معتقدين بأن نظام الأشياء كما أملته علينا هذه السلطة القائمة هو نظام أبدى لا يمكن التخلص منه . وبفضل الملحمة التى صنعت أحـــداث ١٩٨٩ فان هذه القناعة لم يعد لها أى تبرير اذ أزيح الستار الذى غشى على أعيننا . لقد كانت معجزة السقوط المفاجىء تجسد آمال العصر الأدنى الســـعيد للعتق . وعجزت الراديكالية المهترئة أن تجـد طـريقة تخفى بها ـــ أو تنكر ـــ سقوطها . وكان هذا الانهيار يعنى نهايـــة الحـــلم اليوتوبى عن الخلاص العالمى واعادة اكتشاف مبادىء الحرية الفردية

التى نظر اليها طويلا نظرة احتقار . وانهار المجتمع المغلق الذى مجده العديد من « المناضلين من أجل الروح الانسانية » ، تحت ضغط القوى التى بهرها المجتمع المفتوح باحترامه للتمايزات والأقليات بل وباحترامه لأقل الفروق الفردية .

وربما بدأت عملية الانهيار مع شجب جورباتشوف لشخص ستالين (الخطاب السرى) فى الجلسة التاريخية لمؤتمر الحزب الشيوعى السوفيتى العشرين . وفى هذه الليلة من فبراير ١٩٥٦ تلقت أسطورة الاتحاد الوحدوى للشيوعية العالمية ضربة قاتلة . وما تبع ذلك كانت فترات طويلة من التعنت ، والاهمال ، والتمايزات العرقيـة المؤثرة والمناظرات المشبوبة . وفى كل المجتمعات الشرق أوربية فان الأسطورة التى قدست الحزب كمؤسسة تعليمية جماعية لاقت كل ازدراء من جانب الحركات الاجتماعية الجديدة والتى لم تحدد توجهها سواء باليمين التقليدى أو اليسار . ونظر للشيوعية على أنها هييوقراطيات عتيقة ، وبأنها محاولات منظمة للسيطرة على العقل الانسانى والاحتياجات الانسانية باسم الأيديولوجية الميتة التى ابتكرها الفيلسوف الألمانى الشاب فى أواسط القرن العشرين . وبسرعة مذهلة أدرك الناس أنه كان فى مقدورهم التخلص من السترات الأيديولوجية الحديدية التى كبلتهم ، بل وتمزيقها وخلق روابط انسانية تجمع الشعوب . وفى هذا القرن ، ولأن المعلومات أصبحت هى أكثر الأسلحة العصرية فاعلية لكشف الحقائق والمصارحة والتواصل ، فقد تفجر ينبوع من الأكاذيب والخرافات التى تؤكد على استمرار الطغاة الشيوعيين .

ومنذ أربع سنوات اشتركت فى مؤتمر مدينة نيويورك وكان موضوعه « هل ستبعث الدول الشيوعية من جديد ؟ نظرة من الداخل » . وفى أكتوبر ١٩٨٧ خلقت اصلاحات جورباتشوف حالة من الهوس الذى تفشى . ان بزوغ نجم الزعيم التعديلى على قدس أقداس الأمبراطورية بدا محركا للآمال العليا من أجل التغير السريع . وبدا واضحا أن هامش التسامح — أو قل الحدود التى سمح بها الكرملين لتجريب الاصلاحات — قد اتسع على نحو دراماتيكى . وما كان بدعة تحت قيادة برجنيف دشن كخط حزبى جديد تحت قيادة جورباتشوف . وكمثال على ذلك فان شعار الاشتراكية ذات الوجه الانسانى قد تبناه السكرتير العام الشيوعى واعتبره واحدا من الأهداف الرئيسية للبروسترويكا ولكن كان هناك من يتشكك فى ذلك ، واذكر هنا أن الكاتب وعالم المنطق السوفيتى المنشق المعروف الكسندر زينوفيف Alexander Zinoviev كتب مقالا أسماه « التماسيح لا تطير » . وأرسل

ميكلوس هرانسى المفكر المنشق والمناضل فى سبيل حقوق الانسان ورقة بعنوان « عقيدة الاحدية » ، مشيرا الى ان تمثال ستالين فى بودابست ومؤكدا على أن الأحدية التوتاليتارية قد ذوت للحد الذى جعل الامل فى الليبرالية مجرد وهم . وقال ايفان سفيناك الفيلسوف التشيكى بأن اصلاحات جورباتشوف لم تكن سوى ذر للرماد فى العيون ، بل انها نوع آخر من الدعاية التى تمارس من أجل انقاذ النظام وليس ازالته . وقال المنشق الرومانى ميهاى بونسى بأن صعود الدولة الشيوعية القومية — كأكثر التطورات المحتملة — شىء يمكن أن نتوقعه تحت قيادة جورباتشوف .

ان التمرد العظيم لعام ١٩٨٩ اخترق العديد من المعتقدات الراسخة وأجبرنا على التساؤل عن الحكمة من قيام مثل هذه الأنظمة ومدى فاعليتها — وعندما نشير الى قضايا عام ١٩٨٩ الشائكة لا بد أن تذكر العوامل التالية : أولا : أن الاجتياح قد ارتبط بفقدان الأحلاف الحاكمة التام لشرعيتها الكاملة فى المنطقة . والحقيقة أن هذه الظاهرة قد بدأت فى أواسط الخمسينيات ولكنها بلغت ذروتها أثناء العهود المشئومة للبرجينيفية وما ساد فيها من احباطات ، وبدت الاشتراكية التى على الطراز السوفيتى والتى لا أمل فيها ولا رجاء هى آخر ما فى جراب السلطويين . وفقدت احزاب الشيوعية ثقتها بنفسها وعانت من الفساد السياسى الذى لا يمكن اصلاحه . وكل المحاولات التى بذلت لبعث العقائد البالية وكذلك المناورات التى دبرت للانخراط فى استراتيجية التحديث aggiornamento التى تبناها الكاثوليك كتب لها الفشل فى أوربا الشرقية ، وفقد هؤلاء الذين داعبهم الأمل فى الخلاص على يد السلطات القائمة ما تبقى من ايمان . وبمعنى آخر ، فان الأسطورة الماركسية قد استنفدت طاقتها المستقطبة ولم تعد هناك جماعات اجتماعية تعنى باستمرار الهيمنة التى تم توظيفها لعقود طويلة . ثانيا : ولأن حماقة ورعونة الاحلاف الشيوعية قد تبدت للعيان فان القوى الاجتماعية الجديدة تصدرت المقدمة وطرحت حلولا بديلة . وبمعنى أشمل ، فان هذه القوى كانت وقود المجتمعات المدنية الصاعدة بمعنى أنها بذلت الجهد الجماعى من أجل اقامة مؤسسات متوازية تناطح المؤسسات الحكومية ، وتحدث ادعاء الحكومة بالهيمنة على الحياة الانسانية . ثالثا : ان أفول الأسطورة الماركسية وصعود نجم المجتمع المدنى قد ارتبطا بالكوارث الشاملة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية التى بليت بها كل تلك البلدان . ان أكثر الأسباب التى أدت للانهيار المدوى كان افلاس الاشتراكية الاقتصادى

والوعى بأن اقتصاد السوق فقط هو الذى يمكن ان يضمن الشفاء الاقتصادى . لقد فشل الاقتصاد الموجه فى اثبات فاعليته التى يمكن أن تبرر التضحيات التى فرضت دون توقف على الجماهير .
رابعا : لا يجب أن نقلل من أهمية المؤثرات الخارجية ، فبدون التغيرات التى اجتاحت الكرملين وبدون ما قام به فريق جورباتشوف (ياكوفليف ـ وشيفرنادزة) من اعادة صياغة الاستراتجية الدولية السوفيتية بما فى ذلك عقيدة اللا ايديولوجية فى العلاقات الدولية ، فان التغيرات فى أوربا الشرقية كانت ستظل أكثر بطئاً وبالتأكيد أكثر تفتتا وعصبوية وعنفا . ولم يعد الاتحاد السوفيتى يلوح بالتدخل العسكرى خاصة بعد انسحاب القوات السوفيتية من أفغانستان . وبدا واضحا بالنسبة للمناضلين المدنبين فى أوربا الشرقية أن الاتحاد السوفيتى لن يقوم بمغامرة جديدة يمكن أن تسىء الى صورته الجديدة وعلاقاته الدولية التى أقامها جورباتشوف مع الغرب .

ان طبيعة هذه الثورة تحتاج لتحليل خاص ، لأنها تفسر أيضا الصعوبات التى واجهتها تلك البلدان أثناء فترة الانتقال . أولا لابد للمرء أن يلاحظ أن ثورات ١٩٨٩ قد تحدث المبدأ الزائف للسلطة والذى بنى على الأكاذيب الخاصة بالشرعية المزعومة .

لقد كانت التغيرات ، حقيقة ، تغيرات ثورية لأنها استبدلت شكلا من الحكم بآخر اذ أن كل هذه الأنظمة كانت ديكتاتوريات تم تحويلها لأساطير وكان سببها الوحيد للبقاء فى السلطة هو السبب الذى عرف ـ ايديولوجية ـ بالدور التاريخى لطبقة العمال وحزبها المحروس وبمجرد أن اعتبر هذا الوهم الأيديولوجى هو المعقول الوحيد والذى استغلته البيروقرطيات الفاسدة لاغتصاب السلطة ، لم يبقَ لديها الا التخويف والارهاب والجمود رصيدا تستخدمه لاستمرارها فى هذه السلطة .
ان هذه الفورة كنت مركبا مؤلفا من تيارين : الموجة المعادية للشيوعية من ناحية والبحث عن حلول مؤسساتية وأخلاقية بديلة من ناحية أخرى .

ان ما حدث فى أوربا الشرقية منذ عام ١٩٨٩ كان تدميرا ذاتيا تلقائيا للثقافة الشيوعية السياسية (بتقاليدها وعاداتها واتجاهاتها وعقائدها وقيمها وسلوكياتها) ، والجانب « الايجابى » فى ذلك هو ما تم من بعث للمجتمعات المدنية [التى اما تفتت أو دمرتها الشيوعية] وبناء صيغ سياسية أصيلة .

ان النظام الشيوعى كان متسقا مع طنطنة اليسار ، وكانت الأنظمة كلها مجرد دكتاتوريات سلطوية حاكمة أسلوبها هو المناورة والتلاعب سواء أكان بالقومية الدولية . ان قادر المجر كان – الى حد ما – متميزا بلا مبالاته الحمقاء بالرموز القومية التى لعبت دورها فى بناء المعارضة الصاعدة . وباستثناء ألبانيا ورومانيا ويوجوسلافيا ، فان باقى بلدان دول أوربا الشرقية التزموا بالسوفياتية ، ومن ثم كان منطقيا ان تتحول السلطات الحاكمة فى تلك البلدان لمعاداة التوتاليتارية (أو معاداة الشيوعية باللغة السياسية الشرق أوربية) . وحال أن حول السوفيت الأيديولوجية الى دين دولة وحال أن بدت الأيديولوجية اللينينية للشعب مرادفة للقمع فان الانتفاضات كانت معادية للأيديولوجية أيضا . ان معظم التمردات اندلعت نتيجة الاحباط النفسى الذى سببه الاستبداد السياسى للأحلاف الحاكمة وبالتالى اكتسبت هذه التمردات أبعادا معادية لتلك الممارسات . ان هذه الحالة من عدم الثقة التى تطل برأسها من وراء الكوالبس وهذه الاستعدادات الميكيافللية تفسر حماس الشعب لاكتساب فعالية سياسية . وقد نظر للانظمة السياسية على أنها ساحة يرتع فيها المتسلقون السياسيون والانتهازيون والدجالون بل والمحتالون . وفى كل تلك البلدان كان هناك احساس عام بأن الحكومات ترفض الحياة الخاصة بل وأى شكل من أشكال الخصوصية . وهذا يفسر ما اتسم به الاجتياح من معاداة للاستاتيكية وللنومنكلاتورا وكذلك يفسر الصعوبات المستمرة التى واجهتها محاولة صياغة مبادىء جدبدة للسلطة .

ورغم أن هذه المبادىء لم يتم – فى الغالب – تحديدها الا ان هناك افتتانا « فوضويا » جاريا فى أوربا الشرقية يسير متوازيا مع المحاولات التى تبذل للابقاء على النظام يمكن تسميته بالافتتان الأبوى .

وفى بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا فان الجماعات والحركات التى ظلت سرية لأمد طويل تسببت فى اندلاع انفجارات تلقائية من السخط والذى تسبب فى انهيار – ولكن بدون عنف – للأوتوقراطيات الشيوعية . ان مفاوضات المائدة المستديرة والانتقالات السلمية لأشكال التعددية الأصيلة فى تلك البلدان قد ضمنها ما وصلت اليه هذه المجتمعات المدنية من نضج وكذلك تحلل الأحلاف الشيوعية والذى يرمز له الانشقاق الحتمى بين « الصقور » أو (المحافظين الستالينيين) والليبراليين (الجورباتشوفيين) ذوى التوجه الاصلاحى .

وفى نفس الوقت كان هناك صراع بين الفهم الأخلاقى (أى وجهة النظر اللاسياسية) والالتزامات المؤسساتية التى تفسر التردد المحدود وتحفظات الجماعات المعارضة السابقة .

ولأن المجتمع المدنى كان ينمو أو يتفرخ فى رومانيا وبلغاريا ، ولأن الأحلاف الشيوعية كانت عاجزة عن تقديم أية بدائل لممارساتهم السياسية المتردية فان المرحلة الانتقالية كانت مختلفة فى تلك البلدان على نحو له دلالة .

ففى رومانيا نبع الرعب الذى أصاب الجماهير بسبب طبيعة المرحلة التى جاءت بعد حكم شوشيسكو ادراك مرير لطبيعة جبهة الخلاص الوطنى ، وبدلا من تحديد هويتها بتبنى المبادىء المعادية للتوتاليتارية ، قامت بانتحال هذه المبادىء على نحو برجماتى يخدم مصالحها . وفى خطابه فى مؤتمر تيمشورا عن « السلطة والمعارضة فى مجتمعات ما بعد نهاية الشيوعية » (أقيم فى ٢٥ ــ ٢٧ مارس ١٩٩١) قدم نيكولاى مانونتشيسكو ، أحد المفكرين الرومانيين البارزين ورئيس حزب الحلف المدنى The Civic Alliance Party وهو التشكيل السياسى المشابه للمنبر المدنى Civic Forum فى تشيكوسلوفاكيا تحليلا للموقف الجارى فى بلده وكذلك قدم فكره عن المسار الذى يمكن اتباعه .

« كانت لنا ثورة أطاحت بالدكتاتورية ، ولكنها فشلت فى تحطيم الشيوعية . لقد تم استعادة البنى القديمة بأسماء جديدة . وأحيانا بنفس الأشخاص الذين كنت تراهم هناك ... وعندما تعد المجتمعات الشرق أوربية نفسها للسير فى طريق الاصلاح ، فانهم لا بد أن يعرفوا انهم يطاردون وهما . ولا يمكن اصلاح الشيوعية ولكن الممكن الوحيد هو تدميرها . ولن يعم السلام فى مجتمعنا ولن تكون هناك أية فرصة للديمقراطية قبل أن تقضى على آخر جراثيم الشيوعية » (١) .

ويرى ستليان تناسى Stelian Tanase وهو المناضل المدنى الرومانى المؤثر ، والمحرر بصحيفة آكيوم Acum (الآن) الأسبوعية ، أن التناقض الأساسى فى رومانيا بعد شوشيسكو هو الصراع بين المجتمع المدنى الجنين (ومعظمه من المعارضة النيابية) والدولة بما ورثته من بنى شمولية (٢) . وفى بلغاريا عملت قوى المعارضة على تجاوز النزاع الدائر داخل صفوفها والتغلب عليه . وعلى أية حال ، فان المناضل المدنى والفيلسوف السياسى ديمترينا بتروفا Dimitrina Petrova عبر عن رأيه قائلا :

« ان الأمل فى تعــددية حزبية حقيقية قد ضرب بجــذوره فى وعى الجماهير : ان العملية كلها قد بدأت توا . والمعارضة الحقيقية لم تتبــد للعيان بعد ، وعلى المدى البعيد ستنظم علاقات الملكية وستحدد صيغ تنظم آليات السوق التى ستتبع فى المستقبل . والآن فاننا نعيش فى ظروف لم تستقر بعد ولا تنتمى لأى نظام سياسى بعد . اننا نمر بتجربة تحمل المسئولية ومحاولة الفهم بمشاركتنا فى خلق صيغ سياسية لغدنا ومستقبلنا » (٣) .

والآن فان المفكرين من كل البلدان قد انغمســوا ــ بعــد نهــاية التوتاليتارية ــ فى رحلة بحث عن الذات وتقصى طبيعة المجتمع الذى لم تتحدد معالمه بعد وتكشف الحقائق التاريخية .

ان الشيوعيين ــ رغم الهرطقــة الدولية ــ قــد شــجعوا دائمــا سياسة الاكتفــاء الذاتى وهــذا بالطبع مهــم على نحــو حيوى بالنسبة للمناضلين المدنيين والمفكرين النقاد فى كل الدول الشيوعية السابقة ، كما يجب عليهم فتح باب الحــوار ومناقشة قضــايا لم تطرق من قبــل . واذا كان حقيقيا أن جمهورية صربيا ورومانيا قد توارتا خلف التشــيك والسلافيين بلغة التطور التعددى ، أو كما يجادل البعض بأن الســلافيين تواروا خلف بوهيميا والصرب وخلف سلوفينيا ، فانه من الواضح تماما أن هذه المجتمعات جميعا قد مرت بتجربة عذابات متشابهة فى شكلها ومسبباتها اذ كانت جميعا ضحايا للغــائية العالمية التى تزعم أن اليوتوبيا اللاطبقية تستطيع بل ــ ولابد لها ــ أن تبنى دون أخذ ارادة الشعب فى الاعتبار ، أنهم جميعا يواجهون الآن تحديات لا حصر لهــا لخلق اطار شرعى يمكن أن يضمن تعبيرا اجرائيا عن أكثر دعائم الديمقراطية أهميــة وهى السيادة الشعبية . ان المقولة النيرة التى قالها أجنس هيلــر ردا على رأى تيموثى كارتون آش بأنه ليس هنــاك جــديد [لا فــكرة جديدة ، ولا مؤسسة جديدة أو ظاهرة جديدة] يمكن أن تنجم عــن الاجتياح المعــادى للتوتاليتارية فى أوربا الشرقية .

« أن الثورات السياسية وقعت أو قامت من أجل تغير السلطة ، ومن هــذا المنطلق ، فان الثــورة السياسية عام ١٩٨٩ وقعت فى كــل الدول التى كانت تتبع ــ فى الســابق ــ روســيا من أجــل اســتبدال سيادة الحزب بالسيادة الشعبية ــ أو على الأقل ــ سيادة العضو الحزبى ان لم يكن سيادة الشغيلة أيضا » (٤) .

كل هذه المجتمعات تفاوتت ـــ قليلا أو كثيرا ـــ فى حرمانها من الثقافة المدنية ، وفيها جميعا كان الفرد يقمع ، ويكبل ، وتتلاعب به يد السلطة كبيدق . وتمر هذه البلدان اليوم بتجربة بعث لسياسات حرة تتبنى الفردية الآدمية التى أخذت فرصة التعبير التلقائى عن نفسها . ونضيف هنا أن هذه البلدان جميعا أعادت اكتشاف قيم التجربة الثورية باعتبارها نتاجا طبيعيا وأخلاقيا ومصدرا أساسيا لممارسة السياسة . ونرد على هؤلاء الذين ادعوا بأن الأفكار الجديدة لم تكن نتاجا للفورات المعادية للتوتاليتارية فى أوربا الشرقية انه حدث تحديدا أثناء الفورات (الثورة ـــ التمرد ، الصحوة والانتفاضة ـــ وأفضل تعبير ما زال البحث عنه جاريا) أن أعيد صياغة مفاهيم مثل السيادة الشعبية ، والوعى الأوربى ، وحقوق الانسان ومفاهيم عديدة أخرى ، ومن ثم اكتسبت معانى جديدة . وأثناء هذه الأوقات العصيبة كانت لدى الناس فرصة ليكونوا جزءا من السلطة فى جمهورية عظمى Great Republic ولرد اعتبار « التقاليد الثورية وكنزها المفقود» وهو التعبير الذى استخدمته هانا أريندت .

لا يمكن أن نعتبر أن الشيوعية قد انتهت تماما ، ولكن يمكن القول بأن الشيوعية بمدلولها التقليدى كحركة تبشيرية وعسكرية وعنصرية انتهت بالمعنى التاريخى . وباستثناء هؤلاء السلطويين فلا يوجد هناك أحد يأخذ الأيديولوجية الشيوعية مأخذ الجد .

ومن ناحية أخرى فان الأحداث الأخيرة فى سلوفاكيا ويوجوسلافيا وكذلك تنامى الحركات السلطوية الشعبية فى معظم بلدان أوربا الشرقية ، أظهر أن الديمقراطية ليست الوريث الشرعى أو الحتمى للشيوعية . ومن بين الأوهام الشائعة أثناء حقبة الرعب التى تلت الشيوعية كانت تلك الشيزوفرينيا وتفشى الروح القبلية وروح الجماعة المزعومة ، والرومانسية الخيالية وهو ما سيظل ظاهرة هامشية على نحو صرف . ولأن الموقف الاقتصادى استمر فى التدهور فان الأحلاف الجديدة فشلت فى طرح نماذج مقنعة من أجل انتقال سريع ، وهذه الحركات قد اكتسبت قوة دافعة اذ دعمت أولا بين الجماعات الاجتماعية الحانقة والمتحررة من الأوهام ، ذلك باستثناء رد فعل هؤلاء العاجزين عن تجاوز الآثار المأسوية للانفصال المفاجىء عن الماضى . وفى البلدان التى توجد فيها أقليات قومية عريضة ، فان الحركات الديماجوجية قد استغلت وناورت بما تفشى من غضب وفوبيا عرقية .

وكان لا بد أن يصيبنا شعور بالارتباك بسبب العبثية التاريخية أى الخلط الهستيرى فيما يتعلق باندلاع التعصب والتطرف • وحقيقة ، فان الخط الفاصل يبدو الآن فاصلا فعلا بين الأحزاب الموالية لأوربا والتى تحمل مبادىء ليبرالية وبين منافسيها الذين ينشدون الهاما مبالغا فيه من الأسماء الكلية مثل الأخوة والأرض الأم وكرم المحتد او حتى الشيوعية الدموية • وكان الصراع ــ اذ جاز للمرء أن يسميه كذلك ــ أهدأ بين الشيوعيين واللاشيوعيين عنه بين الجماعية والليبرالية فالأخيرة موالية للغرب ، متسامحة وتهتم بالحوار ومؤيدة للانتقال السريع لاقتصاد السوق ، أما الأولى فهى رجعية ، مشينة ، عنصرية ، وعسكرية ومطلقة . ولم يكن رالف دارندور الوحيد الذى ذكر ما قد ينطوى عليه الخروج عن الخط السياسى لأشكال جديدة من الديكتاتورية بما فيها الفاشية من مخاطر . وكتب آدم متشنك يقول :

« ان القومية تولد من جديد تصحبها الصراعات القوميه ، والعنصرية وكابوس المعاداة للسامية • ان نظرية تآمر التاريخ قد وجدت طريقا للعودة • ان ذلك البلد ذو تقاليد ديمقراطية ضعيفة ، الا أنه وصل لمنتصف الطريق من أجل استعادة الكيان القومى مرة أخرى وكى يرد لتاريخه القومى كرامته وهيبته • لقد ردوا الاعتبار ــ لما تم التخلص منه ــ فى الفترة الشيوعية ، لكل الأشياء التى كان من المفروض شطبها من صفحات التاريخ القومى ومن ذاكرة الأمة . واليوم فان رد الاعتبار لكل شىء يستحق ما زال مستمرا فيما يعد تكفيرا عن أكثر الجرائم الانسانية بشاعة ، بما فى ذلك التعاون مع النازية ــ واذا وضعنا الصراع على مستقبل هذه الدول فى الاعتبار ، فان هذا الصراع والذى يستخدم فيه المرء نفس المصطلحات التى تعد مألوفة بالنسبة الينا اذ تتردد فى المناظرات التى تجرى فى الغرب ، هو فى الحقيقة مختلف تماما • ان جذوره لا تكمن فى الصراع بين اليمين واليسار حتى ولو كانت هناك قوى على الساحة السياسية تستخدم هذه المصطلحات كى تشير لتوجهاتهم • أنه ليس صراعا بين المحافظة والليبرالية ولم يعد صراعا بين الراديكالية والتحديث • ان الصراع القائم هو صراع على الشكل الجديد المطروح للأمة أى انه الصراع على ما اذا كانت الأمة ستقلد النماذج الأوربية أم ستتبع طريقها الخاص من خلال تطوير نوع راديكالى مختلف من النماذج » (٦) .

ان التطرف الذى تبناه الأصوليون الرومانيون ، غالبا ما ارتبط بالتشكيل الحاكم فى هذا البلد (جبهة الخلاص الوطنى) كما ارتبط بوجود

ظاهرة « حزب × » تحت قيادة ستانسلو تيمنسكى المهاجر الكندى — البيروفى الغريب الاطوار والمعروف فى بولندا . وكان التفسير الوحيد للأزمة التاريخية هو رفض نتائج التحديث والاحتفاء بقيم الحياة الزراعية الأصيلة السابقة على الحياة الصناعية . وكل هؤلاء الذين يطالبون بوحدة أوربا الديمقراطية كانوا هدفا لحملات القذف وصموا بأنهم عملاء للمؤامرة الماسونية الصهيونية البلوتوقراطية .

ولا يجب أن نتابع — على أية حال ، فان الصورة ليست قاتمة ، فصعوبات الارتقاء المستمر من التوتاليتارية الى نظام سياسى مختلف هى أمر طبيعى ومتوقع . وبالمقارنة بعام ١٩٧٦ ، نستطيع الآن أن نقول تحديداً بأن الدول الشيوعية — على الأقل فى بلدان الامبراطورية السوفيتية « الخارجية » السابقة لن تصمد أمام هذا التغير . وكان من المتعذر أن تسقط الأنظمة اللينينية ، الا أن ما خلفه النظام الستالينى من عوامل ثقافية وأخلاقية كان شيئا شديد التعقيد يصعب على الانسان التنبؤ بتوابعه . وكى يحدث الانتقال بنجاح ونعبر عن مدى الحاجة لفتح هذه المجتمعات المغلقة ، فان هناك بعض العوامل التى يجب أخذها فى الاعتبار :

أولا : الحاجة الملحة لمناخ سياسى تعددى بأحزاب سياسية أصلية .

ثانيا : اعادة صياغة العلاقة بين السلطة والمعارضة وذلك بالاقتناع بأن وجود معارضة فعالة وديناميكية هو شىء لازم من أجل ديمقراطية صحية وصحيحة .

ثالثا : تشكيل حلف (طبقة) سياسية يكون قادرا — رغم التمايزات الطبيعية المتباينة—على التواؤم مع القيم العليا التى تميز مجتمعا مفتوحا بما فى ذلك دور السوق وحماية الفرد والضمانات التى لا مفر منها للأقليات .

ان التوجه الديمقراطى للمسار السياسى الرئيسى كان — فى العديد من البلدان — شيئا لا يمكن التفكير فيه ، وهنا لابد أن نشير لما هو متفش فى تلك المجتمعات من مخاوف حتمية وفوبيا ، واحباطات ، وعصبوية وهو ما يفسر استعداد العديد من الأفراد للالتحاق بركب الحركة العرقية التى سبق التنبؤ بها . ولأن العالم يذكر بأسى من تجربة المانيا/وفيمار (٧) Weimar ان الديمقراطية ليست درعا للهجمات

التى تشنها مثل هذه الحركات . ومن ناحية أخرى فان السياسات الديمقراطية يمكن أن تدرأ الخطر عن نفسها اذا تخلصت من الأوهام وحددت دوافع اجتماعية وسيكولوجية لموجة التطرف العام . ان انكار مثل هذه العوامل والاكتفاء بهرطقة من الفخر الذاتى ليس طريقا لتدعيم أو تقويه الانتصارات التى تحققت فى العامين الأخيرين . ولأن تلك المجتمعات قد خرجت من مستنقع الشيوعية فان بدائلهم المطروحة قد تباينت من الديمقراطية الحقة الى العرقية الأصولية .

ان المعوقات التى يواجها التجديد الاقتصادى ترجع الى ما ورثته هذه المجتمعات عن الشيوعية من أزمات سياسية واجتماعية ثقافية . ولاجتناب انفجار هذه التوترات على يد الحركات التى يحركها الحنق والكره ، ولاجتناب الحاجة الملحة للتوليف بين اليمين المتطرف والراديكالية « الفقرة » اليسارية ، تحتاج المؤسسات الديمقراطية التى تكونت حديثا الى خلق توازن مضاد على مستوى السيكولوجية الاجتماعية .

ان السياسات الديمقراطية لا تقام على الأوهام والعواطف ولكن على البحث الدءوب عن الخطوات المجهولة التى تعزز ما أرادت الشيوعية أن تهدده ، منها محاسبة السلطة السياسية ، ووجود هيئة قضائية مستقلة مع مؤسسات أخرى تهدف الى حماية ــ وليس اذلال ــ الفرد . ان بناء هذه المنظمات ينبع من رغبة الحزب السياسى فى أن يحقق تكامل شخصية الفرد ، لأن الحرية السياسية تكمن فى الوعى بأن الانسان ولد حراً وان الحكومة ليس لها الحق فى تنصيب نفسها مراقبا عليه للحد من حريته .

(١) Nicolae Manolescu, "How We Have to Destroy CoMMunism".

(٢)
East European Reporter, 4, *no.* 4 (Spring-Summer 1991 : 79-80.
Stelian Tanase's speech "Romanian Civil Society and Violence" delivered at the Timisoara Conference, March 25-27, 1991.

(٣) Dimitrina Petrova, "Political Pluralism in Bulgaria," *East European Reporter*, 4, no. 4 (Spring-Summer 1991) : 35.

(٤) Agnes Heller, "Is There Anything New Under the Sun in East-Central Europe ?" paper presented at the Timisoara Conference ; French translation : Est-Quest (Paris), June 1991, pp. 8-11.

(٥) Hannah Arendt, *On Resolution* (Harmondsworth, Middlesex : Penguin Books 1985), pp. 215-81.

(٦) Adam Michnik, "The Presence of Liberal Values," *East European Reporter*, 4, *no.* 4 (Spring-Summer 1991) : 71, and Ralf Dahrendorf, *Reflections on the Revolution in Europe* (New York : Random Houde 1990).

(٧) ويمار : مدينة تقع فى الجنوب الغربى من جمهورية ألمانيا الشرقية ، وكان يطلق على جمهورية ألمانيا اسم جمهورية ويمار Wiemar Republic ، وذلك فى الفترة من ١٩١٩ الى ١٩٣٠ ـ (المترجمة) ٠

اقرأ فى هــذه الســلسلة

احلام الاعلام وقصص أخرى	برتراند رســل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
نقطــة مقــابل نقطــة	الدس هكســـلى
الجغرافيا فى مائة عــام	ت · و · فريمــان
الثقـــافة والمجتمـــع	رايموند وليــامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ جـ)	ر · ج · فوربس
الأرض الغـــامضة	ليســـترديل راى
الرواية الانجليـــزية	والتـــر ألــن
المرشـــد الى فن المسرح	لويس فارجـــاس
آلهـــة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشـاشة	د· قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	أولج فولــكف
الهوية القومية فى السينما العـربية	هاشــم النحـــاس
مجمـــوعات النقـــود	ديفيــد وليــام ماكدوال
الموسيقى ــ تعبير نغمى ــ ومنطق	عـــزيز الشـــوان
عصر الرواية ــ مقال فى النوع الأدبى	د· محسن جاسم الموســوى
ديـــلان توماس	اشراف س · بى · كوكس
الانســـان ذلك الكائن الفـــريد	جــون لويس
الرواية الحـــديثة	جـــول ويست
المسرح المصرى المعـــاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمـــود طـــه	أنــور المعـــداوى
القـــوة النفســـية للأهـــرام	بيــل شــول وادبنيت
فن الترجمـــة	د· صــفاء خلوصى
تولســـتوى	رالف ئى ماتلــو
ســـتندال	فيكتــور برومبير

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف ٠ ع أدنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
أحمد حسن الزيات	د٠ نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د٠ فاضل احمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د٠ روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا ٠ سبنسر
النحل والطب	د٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د٠ جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	د٠ غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د٠ رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د٠ محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل ٠ باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د٠ محيى الدين أحمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	ج٠ دادلى أنـدرو
مختارات من الأدب القصصى	جـوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد	د٠ جـوهان دورشـنر
حـــرب الفضـــاء	طائفة من العلـماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدوليـة	د٠ السـيد عليـوة
الميـكروكمبيـوتر	د٠ مصـطفى عنـانى
مختارات من الأدب اليابانى	صـبرى الفضـل
الفكر الأوربى الحديث ٣ ج	فرانكلين ل ٠ باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جـابريل بايـر
اعلام الفلسفة السياسية المعـاصرة	انطـونى دى كرسـبنى
كتـابة السـيناريو للسـينما	دوايت سـوين
الزمن وقياسـه	زافيلسـكى ف ٠ س
أجهـزة تكييف الهـواء	ابراهيم القرضـاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتـر ردای
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهمـوس
التجـربة اليـونانية	س ٠ م بـورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د٠ عاصم محمـد رزق
العـلم والطـلاب والمدارس	رونالد د٠ سمبسـون
الشارع المصرى والفـكر	د٠ أنور عبـد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمـان روسـتو
تبسـيط الكميـاء	فـريد س هيس
العـادات والتقاليد المصرية	جـون بوركهـارت
التـذوق السـينمائى	الآن كاسـبيار
التخطيط السـياحى	سـامى عبـد المعطى
البـذور الكونيـة	فـريد هـويل
	شـاندرا ويكـراما ماسينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيـروبين والايدز	روى روبرتسـون
نجيب محفـوظ على الشـاشة	هاشـم النحـاس
صـور افريقيـة	دوركاس ماكلينتـوك

المخـدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتـــر لـورى
وظائف الأعضاء من الألف الى اليـــاء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثيـــة	ويليـــام بينـــز
تربيـة أسـماك الزينـة	ديفيـــد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ جـ)	جمعها : جـون ر ٠ بورر وميلتون جـولد ينجـــر
الفكر التاريخى عنـد الاغريق	أرنولد توينبى
قضـايا وملامح الفن التشـكيلى	د٠ صـــالح رضـــا
التغذية فى البلدان النامية	م٠هـ٠ كنج وآخـــرون
بـداية بلا نهـــاية	جـورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د٠ السيد طه أبو سـديرة
حـــوار حـــول النظـــامين الرئيســيين للـــكون	جاليـــليو جاليليـــه
الارهـــاب	اريك موريس وآلان هـو
اخنـــاتون	ســـيريل الـــدريد
القبيـلة الثـالثة عشرة	آرثر كيســـتلر
التـــوافق النفسى	توماس ا ٠ هـــاريس
الدليـل الببليـــوجرافى	مجمـوعة من البـاحثين
لغـــة الصـــورة	روى أرمـــز
الثورة الاصـــلاحية فى اليابان	ناجـاى متشـــيو
العـــالم الثـالث غـــدا	بـــول هاريســـون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقـــود	فيكتـــور مورجـــان
التحليل والتوزيع الأوركســـترالى	اعداد محمد كمال اســماعيل
الحيـــاة الكريمة (٢ جـ)	بيـــرتون بورتر
الشـــاهنامة (٢ جـ)	الفـردوسى الطـــوسى
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد كوبريلى
عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميـــرى
ترانيم زرادشـــت	اختيار / د٠ فيليب عطيـة
الســـينما العـــربية	اعداد / مونى براخ وآخـــرون

دليـــل تنظيم المتـــاحف	نادين جورديمـر وآخرون
ســقوط المطر وقصص اخـرى	آدامز فيـليب
جماليـــات فن الاخـــراج	زيجمــونت هينـر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ جـ)	ســـتيفن أوزمنت
الحملة الصـــليبية الأولى	جـوناثان ريـلى ســميث
التمثيـل للســينما والتليفزيون	تـونى بـار
العثمـــانيون فى أوربا	بــول كولنــر
صـــناع الخـــلود	موريس بيـــر برايـر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ جـ)	الفــريد ج · بتـــلر
رحـــلات فارتيمـا	رودريجــو فارتيمـا
انهم يصـــنعون البشر (٢ جـ)	فانس بكـارد
فى النقد الســينمائى الفرنسى	اختيار/ د· رفيق الصــبان
الســينما الخيـــالية	بيتــر نيكولز
الســلطة والفــرد	برتراند راصـــل
الأزهـر فى ألف عـام	بينـــارد دودج
رواد الفلســفة الحـــديثة	ريتشــارد شــاخت
ســفر نامة	ناصر خسرو عـــلوى
مصر الرومانيــة	نفتـــالى لـــويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جـاك كرابس جونيـــور
الاتصال والهيمنة الثقـــافية	هــربرت شـــيلر
مختارات من الآداب الآســيوية	اختيار / صـــبرى الفضـــل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٥ جـ)	أحمـد محمـد الشـنوانى
الشموس المتفجرة	اســـحق عظيمـــوف
مدخـــل الى علم اللغـــة	لوريتـو تـود
حـديث النهــر	اعـداد/ سوريال عبـد الملك
من هم التتـــار	د· أبرار كريم الله
ماســـــتريخت	اعداد/ جابر محمـد الجـزار
معـــالم تاريخ الانسانية (٤ جـ)	هـ · ج · ولـــز
الحمـــلات الصـــليبية	ســتيفن رانســيمان
حضـــارة الاسلام	جوســتاف جرونيبـــاوم

رحلة بيرتون (٣ ج)	ريتشارد بيرتون
الحضارة الاسلامية	آدمز متز
الطفل (٢ ج)	ارنولد جزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	فيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سونداري
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج · برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج · كارفيل
فن المايم والبانتومايم	توماس ليبهارت
تحول السلطة ٢ ج	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد وبونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف · م · بوجز
خفايا نظام النجم الأمريكى	بول وارن
بين تولستوى ودستويفسكى (٢ ج)	جورج سايز
ما هى الجيولوجيا	ويليام هـ · ماثيوز
الحمر والبيض والسود	جارى ب · ناش
انواع الفيلم الاميركى	ستالين جين سولومون
رحلة الأمير ردولف ٢ ج	عبد الرحمن الشيخ
تاريخ العلم والحضارة فى الصين	جوزيف نيدهام
المرأة الفرعونية	كريستيان دديروش
نظرية التصوير	ليوناردو دافنشى
التربية عن طريق الفن	هربرت ريد
معجم التكنولوجيا الحيوية	وليم بينز
البرمجة بلغة السى	روبرت لافو

الكيمياء فى خدمة الانسان	رولاند جاكسون
مجمل تاريخ الأدب المعاصر	ايفور ايفانس
نظرية الأدب المعاصر	دبفيد بوشنيدر
مشكلات القرن الحادى والعشرين	يوسف شرارة
كنوز الفراعنة	ت.ج.هـ. جيمز
البرنامج النووى الاسرائيلى	د. ممدوح حامد عطية
بحثا عن عالم أفضل	كارل بوبر
العلم وآفاق المستقبل	أسحق عظيموف
كوننا المتمدد	ايفرى شاتزمان
الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا	نورمان كلارك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٦٦/٩٤٢٨

ISBN — 977 — 01 — 4943 — 8